

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى مسلم
جامعة الشارقة

المجلد السادس
الروم - غافر

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م



كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة



الإصدار رقم 

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي

هاتف: (٠٥٥٠٥٠٥٠-٦-٩٧١ +) ،فاكس: (٥٥٥٠٥٠٥٠-٦-٩٧١+)

E-mail: pb@sharjah.ac.ae

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)

Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ. د مصطفى مسلم	رئيساً
أ. د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ. د. أحمد البدوي	عضواً
أ. د. عبد الله الخطيب	عضواً
د. محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم أسعد	عضواً
د. عواد الخلف	عضواً



الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ.د. مصطفى مسلم محمد
أ.د. عيادة أيوب الكبيسي
أ.د. أحمد محمد الشرقاوي
أ.د. ناصر سليمان العمر
أ.د. أحمد عباس البدوي
أ.د. محمد أحمد عيد الكردي
أ.د. مساعد مسلم آل جعفر
أ.د. شحادة احميدي العمري
أ.د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
د. أبو بكر علي الصديق
د. أحمد شحروري
د. أحمد محمد نور إبراهيم
د. أحمد محمد مفلح القضاة
د. جمال أبو حسان
د. طه ياسين ناصر الخطيب
د. عبد الحق عبد الدائم القاضي
د. عبد الرحيم الزقة
د. عبد الله محمد سلقيني
د. عدنان عبد الرزاق الحموي
د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
د. عطية محمد عطية
د. عفاف عبد الغفور حميد
د. محمد السيد محمد يوسف
د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي
د. محمد عبد الرحمن الشايع
د. محمد عصام القضاة
د. محمد عيادة الكبيسي
د. نايل ممدوح أبو زيد
د. نشأت محمود الكوجك
د. هارون نوح علي سليمان
د. يوسف الشامسي




بسم الله الرحمن الرحيم


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

سورة الروم[1]

بين يدي السورة:

تسميتها: تسمى سورة «الروم» وسميت بهذا الاسم عند السلف والخلف، ويدل على هذه التسمية ما روي من حديث عن الأعز المزني من أصحاب رسول الله ﷺ، عن النبي ﷺ: «أنه صلى الصبح فقرأ سورة الروم والتبس عليه، فلما صلى قال: ما بال أقوام لا يحسنون الطهور فإنما يلبس علينا القرآن أولئك»[2] واتفقت المصاحف على كتابتها بهذا الاسم، وهكذا ورد في حديث ابن عباس: فيما نزل بمكة حيث سماها «سورة الروم» وذكر السخاوي اسما آخر هو: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ ﴾ [الروم: ١]، وهذا الاسم على ما يبدو من باب تسمية السورة بأول جملة منها[3].

عدد آياتها:

ستون آية[4].

مناسبتها لما قبلها:

تتشابه سورة الروم مع السورة التي قبلها (سورة العنكبوت) أن كلا منهما افتتح بـ﴿ الٓمٓ ﴾ الحروف المقطعة غير مقرون بذكر التنزيل والكتاب والقرآن، على خلاف القاعدة الخاصة في المفتتح بالحروف المقطعة، فإنها كلها قرنت بذلك، وقد ذكر في أول هذه السورة أخبار عن

---

(١) أسماء سور القرآن الكريم: عبدالله الهنائي: ٢٠٢.

(٢) سنن النسائي (المجتبى) أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ط، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٨٦: جـ٢: ص ١٥٦، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، ولم يسمه، أسماء السور القرآنية: ٤٢، ٢٠٢.

(٣) السخاوي: جمال القراء: ١/ ٢٠٠.

(٤) البقاعي: نظم الدرر: ١٥/ ١.

الغيب[1]، كما ذكر في السورة السابقة لتنبيه السامع والإقبال على الاستماع لما هو معجزة.

وسورة العنكبوت «اختتمت بـ (الجهاد) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[العنكبوت: ٦٩] وبدئت هذه السورة بوعد المجاهدين في سبيل الله بالنصر على الكافرين.

قال البقاعي: ختم سورة العنكبوت بمدح المجاهدين فيه، وأنه سبحانه لا يزال مع المحسنين، وكانت قد افتتحت بأمر المفتونين، فكان كأنه قيل: لنفتننكم ولنعمين المفتنين، ولنهدين المجاهدين، وكان أهل فارس قد انتصروا على الروم، ففرح المشركون وقالوا للمسلمين: قد انتصر إخواننا الأميون على إخوانكم أهل الكتاب، فلننصرن عليكم، فأخبر الله تعالى بأن الأمر يكون على خلاف ما زعموا، فصدق مصدق، وكذب مكذب، فكان في كل من ذلك من نصر أهل فارس، وإخبار الله تعالى بإدالة الروم فتنة، يعرف بها الثابت من المزلزل، وكان من له كتاب أحسن حالاً في الجملة ممن لا كتاب له، افتتحت هذه السورة بتفصيل ذلك تصريحاً بعد أن أشار إليه بالأحرف المقطعة تلويحاً غيبيا، وشهادة دلالة على وحدانيته وإبطال الشرك، فأثبت سبحانه أن له جميع الأمور، وأنه يسر المؤمنين بنصره من له دين صحيح الأصل وخذلان أهل العرافة في الباطل والجهل، وجعل ذلك على وجه يفيد نصر المؤمنين على المشركين». [2]

كما أن التوحيد في هذه السورة جاء مفصلا للمجمل في السورة السابقة مثل قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾[العنكبوت: ١٩] وقوله تعالى:﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ ﴾[العنكبوت: ٢٠]، وفي هذه السورة جاء التفصيل في قوله تعالى:﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ

(١) د. محمد وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ٤٢.

(٢) البقاعي: نظم الدرر: ١٥/ ٢.

خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾[الروم: ١٩- ٢٧].

محورها:

إن محور سورة الروم هو زرع القيم الإيمانية، وربط المسلمين بما يدور حولهم، في الكون كله، وليصل ما بين ماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها، ثم ينتقل بها إلى العالم الآخر، وتتحدث السورة عن أصول العقيدة الإسلامية في إطارها العام، وميدانها الفسيح، وهي التوحيد وصفات الله، والإيمان بالرسالة النبوية والقرآن والبعث والجزاء في الآخرة، وتربط السورة بين نصر المؤمنين والحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما، ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة، أنه دين الفطرة، الإيمان بالله وعدم الشرك والاستقامة على ذلك، وتزرع السورة القيم الإيمانية والأخلاق القرآنية كالصبر، وتعرض أهوال يوم القيامة للبشارة والإنذار. ويقول سيد قطب: «وجو السورة وسياقها معاً يتعاونان في تصوير موضوعها الرئيسي: وهو الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس وأحداث الحياة، وماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها وسنن الكون ونواميس الوجود، وفي ظلال هذه الارتباطات يبدد أن كل حركة وكل نامة، وكل حادث وكل حالة، وكل نشأة وكل عاقبة وكل نصر وكل هزيمة كلها مرتبطة برباط وثيق محكومة بقانون دقيق وأن مرد الأمر فيها كله لله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ ﴾[الروم: ٤]، وهذه الحقيقة بدونها لا يستقيم تصور ولا تقدير»[1].

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٥٦.

أسباب النزول:

نزلت الآيات الأولى من هذه السورة بمناسبة معينة، حين غلبت فارس الروم، وكان الروم دينهم النصرانية، والفرس مجوس يعبدون النار، ويسيطرون على الجزيرة العربية، ووجد المشركون من أهل مكة في هذا الحادث فرصة للاستعلاء على المؤمنين، وأنهم سينتصرون على المؤمنين، كما انتصر الفرس على الروم وهم أهل كتاب. فنزلت هذه الآيات تبشر بأن أهل الكتاب من الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين، وبهذه الغلبة يفرح المؤمنون، الذي يحبون انتصار ملة الإيمان من كل دين[١].

مقاطعها:

وقد قسمتُ السورة إلى عشرة مقاطع:

المقطع الأول: الإخبار عن غيب المستقبل

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾[الروم: ١-٧]

هذه الآيات الكريمة من المعجزات الغيبية التي تدل على أن القرآن الكريم من عند الله عز وجل، وتدل على صدق نبوة محمد ﷺ حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله العليم الخبير ووقع كما أخبر[٢]، وهزم الرومُ الفرسَ، وفرح المؤمنون بنصر الله لأهل الكتاب على المجوس لأن

---

(١) السابق: ٥/ ٢٧٥٤. البقاعي: نظم الدرر: ١٥/ ٢.

(٢) الحافظ بن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٠٤. النسفي عبدالله بن أحمد، تفسير النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٢/ ٦٩٠.

الروم أهل كتاب والفرس مجوس يعبدون النار، وليس لهم كتاب وصادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر، قال ابن عباس: كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان وعبدة النيران، ينصر من يشاء من عباده، وهو العزيز بانتقامه من أعدائه الرحيم بأوليائه وأحبائه، فوعده بالنصر حق وكلامه صدق ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فهم عمي عن أمر الآخرة، وعلمهم محصور في أمور الدنيا، وفي هذا يقول الرازي: «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا» أي أن علمهم منحصر في الدنيا كما هي، يعلمون ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها، وهي مضارها ومتاعبها، ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها، فهم عن الآخرة غافلون[1]، وفي هذا اشارة إلى أنهم عرفوا القشور ولم يعرفوا اللباب، فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم. أي أنهم غافلون عن البعث والنشور وسائر أوضاع الآخرة ولقاء الله تعالى[2].

دروس وعبر:

* في هذا المقطع من السورة إعلام بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى، لأنه أخبر عن مغيبات في المستقبل ستقع، ووقعت كما أخبر سبحانه وتعالى، وفي هذا دليل على صدق نبوة محمد ﷺ، فانتصر المؤمنون من الروم وهم أهل كتاب على الفرس المجوس وفرح المؤمنون.

* إن أكثر الناس يعملون للدنيا من اكتساب الأموال ومعرفة شؤون الحياة الدنيوية لكي يتمتعوا بزخاريف الحياة والتنعم بملاذها، وينسون أمور الآخرة الباقية فما الحياة الدنيا في الحقيقة الا طريق يتزود المرء منها إلى الآخرة بالطاعة والأعمال الصالحة.

* كل ما في العالم بإرادة الله وقدرته، فلا يتم شيء إلا بعلمه، وهو القوي العزيز في نقمته والرحيم لأهل طاعته.

---

(١) الرازي: مفاتيح الغيب: جـ٢٧/ ٨١ مجلد/ ٧.

(٢) المدرس الشيخ عبدالكريم: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦/ ٢٨٤.

المقطع الثاني: التفكير بمخلوقات الله يدل على وجوده وهو الذي يعيد خلق الإنسان يوم القيامة

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) ﴾[الروم: ٨-١٦]

وفي هذا المقطع خطاب للمشركين ليتفكروا بعقولهم ويعلموا أن الله سبحانه وتعالى ما خلق السماوات والأرض عبثا، فهم وإن ملكوا الدنيا فإنها فانية لا تبقى لهم.

قال الشيخ البرسوي: أجل معين، قدره الله تعالى لبقائها لابد من أن تنتهي إليه، وهو وقت قيام الساعة[1]، وان لكل مخلوق فيها أجل سينتهي إذا جاء أجله. ثم يحاسب على عمله فيثاب المحسن ويعاقب المسيء.

هؤلاء المشركون الجاحدون ألم ينظروا مصير من كان قبلهم من الأمم كيف أهلكهم الله سبحانه بتكذيبهم رسلهم، وتلك الأمم كانت أشد منهم قوة كما أشار سبحانه وتعالى في سورة الفجر: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ

(١) البرسوي: إسماعيل حقي البرسوي: تنوير الأذهان في تفسير روح البيان: ٣/ ١٧٨.

﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ٦-١٤] فأهلكهم الله بجرمهم ودمر بنيانهم وعمرانهم، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، ومصيرهم إلى نار جهنم وهي عاقبة المسيئين الذين استهزؤوا بآيات الله ورسله. وأنكروا البعث والنشور، فقل لهم: الله الذي خلق الخلق ثم يعيده يوم القيامة ويوم القيامة يفتضح أمرهم حيث يحشرون للحساب، ولا يتكلمون، وتنقطع حجتهم، قال الزجاج: «أعلم الله عز وجل أنهم في القيامة ينقطعون في الحجة انقطاع يئسين من رحمة الله، والمبلس الساكت المنقطع في حجته اليائس من أن يهتدي إليها»[١]، ولا تشفع لهم أصنامهم التي عبدوها، بل يتبرؤون منها وتتبرأ منهم. وكرر لفظ قيام الساعة، لأن قيامها أمر عظيم وبعد الحساب يتفرقون فريق المؤمنين في الجنة وفريق الكافرين في النار فالمؤمنون المتقون الذين صدقوا بالله ورسوله، وأدوا الفرائض والسنن يفرحون وينعمون ويسرون، وأما الذين كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن (ولقاء الله) يعني البعث بعد الموت فأولئك في عذاب جهنم مقيمون[٢].

دروس وعبر[٣]:

* الحث على التفكير والنظر في المخلوقات الدالة على وجوده سبحانه وتعالى، ووحدانيته بانفراده بخلقها، وخاصة المشركين تتضمن الآيات تهديداً لهم لانكارهم الإله واليوم الآخر، وهذا نقص كبير في التفكير، والعاقل من يعمل لما بعد الموت.
* النظر إلى الأمم الماضية المكذبة كيف كانت عاقبتها لأنها كذبت رسلها، وفي ذلك دروس وعبر، فمن عرف ذلك يجب أن يبادر إلى الإيمان بالله، والتصديق برسله وطاعته فلابد من أن يقرن الإيمان بالعمل الصالح.
* إن المال والقوة لا تنفعان صاحبها يوم القيامة وقد أقام الأدلة على قدرته بأن من بدأ الخلق قادر

(١) الزجاج أبي اسحق إبراهيم بن السري: معاني القرآن وإعرابه: ٤: ١٧٩.
(٢) أبو الليث السمرقندي: تفسير بحر العلوم: ٣/ ٧.
(٣) د. وهبة الزحيلي: ٢١/ ٥٦.

على إعادته يوم القيامة ويكون الناس فريقين، فريق في الجنة وفريق في النار، فالمؤمنون في جنات الخلد ينعمون ويكرمون ويقيمون، والكافرون في عذاب جهنم يقيمون ويهانون ويعذبون.

المقطع الثالث: تنزيه الله وحده، وأدلة وجوده وربوبيته سبحانه وتعالى

﴿فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾[الروم: ١٧ - ٢٧].

وفي هذا المقطع **أولاً**: أمر من الله تعالى بتنزيهه عما لا يليق به من صفات النقص في كل الأوقات، مساء وصباحا وعشيا وظهرا، وهو المحمود في السموات والأرض، يحمده أهل السموات والأرض ويصلون له.

فهو الله تعالى الذي يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والنبات من الحب والحب من النبات، والحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان، ويحيي الأرض بالنبات بعد أن تكون يابسة، وكذلك يحي الإنسان بعد موته، فكما يخرج النبات من الأرض، كذلك يخرجكم من قبوركم يوم القيامة للبعث والحساب، قال القرطبي: بين تعالى كمال قدرته، فكما يحي

الأرض بإخراج النبات بعد همودها كذلك يحييكم بالبعث[1].

وثانياً: ذكر الله بعض آياته الظاهرة التي تدل على ألوهيته وربوبيته وهي:

١ - خلق البشر من تراب، فهم مخلوقون من آدم وآدم مخلوق من تراب، وهذا دال على عظمته وكمال قدرته ثم تطور الخلق من نطفة إلى علقة إلى مضغة.

٢ - وخلق الزوجة من نفس الرجل لتسكن نفسه، وزرع بينهما المودة والرحمة والألفة والشفقة وفي ذلك عبر عظيمة لإدراك حكمة الله سبحانه، والتفكر في قدرته وعظمته.

٣ - ومن آياته خلق السماوات والأرض الدالة على كمال القدرة.

٤ - واختلاف ألسنتكم وألوانكم باختلاف لغاتكم من عربية وأعجمية، وألوانكم من أبيض وأسود وأحمر، ومنامكم بالليل راحة لأبدانكم، وسعيكم في طلب الرزق في النهار إن في ذلك دلالة على كمال قدرته.

٥ - ومن آياته العظيمة الدالة على قدرته ووحدانيته أنه يريكم البرق خوفا من الصواعق وطمعا في المطر الذي ينزل من السماء فينبت الأرض بعد أن كانت هامدة جامدة لا نبات فيها ولا زرع، كل ذلك عظات وعبر لقوم يتدبرون بعقولهم آلاء الله.

٦ - ومن آياته العظيمة أن تستمسك السماوات بأمره وقدرته بغير عمد، وأن تثبت الأرض بحكمته وتدبيره فلا تنكفئ ولا تنقلب بمن فيها، ثم إذا دعاكم الله إلى الخروج من قبوركم إذا أنتم فورا تخرجون للجزاء والحساب، ولا يتأخر أحد عن ذلك. فلله عز وجل كل من في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن خلقهم، ويتصرف بهم كما يشاء وكلهم له منقادون خاضعون لأمره تعالى. فهو سبحانه الذي أنشأ الخلق من العدم، ثم يعيدهم بعد موتهم للحساب والجزاء. والإعادة أهون عليه من البراءة وهي هينة، قال المفسرون: خاطب عباده بما يعقلون حسب منطقهم وأصولهم، ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي الوصف

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ١٤، المجلد ٧.

الذي ليس لغيره، وله العظمة والسلطان في السماوات والأرض ليس كمثله شيء وهو القاهر لكل شيء الحكيم في كل أفعاله على مقتضى الحكمة والمصلحة[1].

دروس وعبر:

* أمر الله سبحانه بتنزيهه عن كل سوء، وعن جميع صفات النقص، ووصفه بكل صفات الكمال، والتسبيح والتحميد على نعمه وآلائه: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[الروم: ١٧].
* أمر الله تعالى بإقامة الصلوات الخمس المفروضة، ووجوب أدائها بأوقاتها المفروضة، حتى ينال رضوان الله.

أدلة الربوبية والألوهية والوحدانية:

* فقد خلق أصل الإنسان من تراب والفرع كالأصل،﴿ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم:٢٠] إشارة إلى الحركة والقوة.
* وبقاء النوع الإنساني بالتوالد، واحاط رباط الزوجية بأن جعل بين الزوجين المودة والرحمة والشفقة.
* خلق السماوات والأرض، والأنفس، واختلاف الألوان والأصوات، وما يتعرض له الإنسان، من الحركة في النهار والنوم في الليل، وخلق البرق والرعد، وأنزل المطر من السحاب لإحياء الزرع، وإنبات النبات، وإمساك السماوات والأرض بقدرته وتدبيره وحكمته كل ذلك دليل على كمال القدرة الإلهية على الحشر: وأن ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما خلقا وملكا وعبيدا وتصرفات كل له طائعون منقادون لا إله إلا هو الحكيم في صنعه وتدبير خلقه ما أراده كان وما لم يرد لم يكن سبحانه وتعالى[2].

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢١٨، الرازي: التفسير الكبير، المجلد ٩/ ٩٦. والزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ٦٩.

(٢) أ. د. وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ٦٤.



المقطع الرابع: إثبات الوحدانية وبطلان الشرك والأمر باتباع الإسلام الدين الحق

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الروم: ٢٨-٣٢].

وفي هذا المقطع أثبت الله وحدانيته وأبطل عبادة المشركين للأوثان فضرب لهم مثلا واضحا واقعيا من أنفسهم فخاطبهم: هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده المملوك له شريكا له في ماله الذي يملكه؟ فإذا لم يرض لنفسه الشريك فكيف يرضاه لله الخالق؟.

ثم يقول: لستم وعبيدكم سواء في أموالكم، كما أنكم لا تخافون عبيدكم كما تخافون الأحرار أمثالكم، وهذا التوضيح للذين يستعملون عقولهم في تدبر هذا المثل والأمثال عموما، وليس هناك حجة ولا معذرة بعد هذا للمشركين لأن اشراكهم يكون باتباع أهوائهم، وتقليد أسلافهم ولا يستطيع أحد أن يهدي من أضل الله، وليس لهم منقذ من عذابه. ثم حثهم على اخلاص الدين لله، والإقبال على التمسك بالإسلام، الدين الحق، دين الفطرة التي فطر الناس عليها، فطرة التوحيد، كما قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه...»، وهذه الفطرة لا تتبدل ولا تتغير منه سبحانه، ولكن أكثر الناس لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقا معبودا خلقهم.

فأقيموا وجوهكم على الدين الحق، وارجعوا إلى ربكم بالتوبة، وراقبوه في أقوالكم وأفعالكم وأقيموا الصلاة كما أمركم، ولا تكونوا من المشركين بالله، الذين اختلفوا في دينهم

وغيروه وبدلوه فأصبحوا شيعا وأحزابا يتعصب كل لهواه الذي استحدثه، وفرح بباطله الذي ظنه حقا وفي هذا يقول ابن كثير: أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومذاهب باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء[1] أي هم الذين على الحق وغيرهم على الباطل.

دروس وعبر:

* الشركة بين المتفاوتين في الدرجة مرفوضة، كالشركة بين السيد والعبد، ولما كان الخلق كلهم عبيدا لله فلا يمكن أن يكون العبد شريكا لله في العبودية.
* الإسلام دين الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، وهي فطرة التوحيد، الإيمان بوجود إله واحد لا شريك له. فيجب على الإنسان اتباع هذا الدين وعدم تغييره.
* أمر الله بإخلاص العبودية له، والرجوع إليه بالتوبة من الذنوب، والإخلاص في العمل والطاعة له سبحانه، والخوف منه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه وطلبا لرضاه.

---

(١) ابن كثير: تفسير ابن كثير: ٦/ ٣٢٣.

المقطع الخامس: لجوء الناس إلى الله عند الشدائد وإعراضهم عند زوالها

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الروم: ٣٣-٣٧].

وفي هذا المقطع يشنع الله على المشركين، الذين يدعون الله في وقت الشدة فقط، ثم إذا أزال الله عنهم تلك الشدة عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك، أي أن المشركين إذا أصابهم الفقر أو المرض، أو أي نوع من أنواع البلايا فإنهم يلجأون إلى الله، ولا يلجأون إلى ما يعبدون من الأصنام لأنهم يعلمون أنه لا يكشف عنهم الضر إلا الله فيخضعون وينيبون إلى الله، فإذا كشف عنهم وأعطاهم الرخاء والصحة، وخلصهم من الضر والبلية، يعودون إلى عبادة الأصنام على خلاف المؤمنين فالمؤمن إذا أصابه الضر صبر، وإذا أصابه الخير شكر.

ثم يقول تعالى ليكفروا بنعم الله عليهم وليتمتعوا في هذه الدنيا، فسوف يعلمون عاقبة هذا النعيم الفاني يوم القيامة إن لم يطيعوا الله، قال القرطبي: وهذا تهديد ووعيد[1] لهم، فمتاع الدنيا ونعيمها زائل وقصير، وعذابه وعقابه في الآخرة شديد. قال النسفي: «فسوف تعلمون وبال تمتعكم»[2]. ثم أنكر الله سبحانه على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة الأوثان التي عبدوها بدون دليل، وإنما هي من ضلالاتهم وشركهم الظاهر.

ثم بين الله سبحانه أنه إذا أنعم على بعض الناس نعمة فرح بها وافتخر على غيره، وإذا أصابته شدة سخط ويئس من رحمة الله، ولم يعملوا أو يشاهدوا أن الله واسع ويوسع الرزق لمن يشاء من

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٦ المجلد ٧.

(٢) النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٢/ ٧٧.

عباده امتحاناً لهم، ويضيق الرزق على من يشاء ابتلاء، فهو المتصرف بحكمته وعدله، فالمؤمن يرضى بكل ما يصيبه فيها ولا ييأس، والكافر ييأس لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

دروس وعبر:

* إن المشركين يلجأون إلى الله في وقت الشدة فقط فإذا مسهم المرض أو الضر لجأوا إلى الله وإذا أزال عنهم عادوا إلى شركهم وكفرهم، فهؤلاء مصيرهم إلى النار.
* إن الكافرين لا حجة عندهم على كفرهم، فلم ينزل عليهم في شأن إقرار كفرهم كتاباً، ولا جاءهم رسولاً، فاتبعوا أهواءهم.
* الله سبحانه الذي يرزق العباد فيوسع الرزق على من يشاء من عباده المؤمن والكافر، على وفق الحكمة والعدل فالمؤمن يفوض الأمر لله إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، أما الكافر فيقنط من رحمة الله.

المقطع السادس: الحث على الإنفاق لذوي الأرحام والتحذير من المال الحرام

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٨-٤٠].

في هذا المقطع يخاطب الله نبيه ﷺ، والمراد هو وأمته[1]، فيأمر الله سبحانه بإعطاء القريب المحتاج من البر والصلة، والمسكين والمسافر الذي انقطع في سفره، أعطه من الصدقة والإحسان

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٧، المجلد/ ٧.

وذلك الإحسان خير لمن ابتغى وجه الله بعمله ونوال ثوابه وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية عند الله.

أما إذا أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى[1] لهم فلا ثواب له في هذه العطية عند الله، وإنما الذي يربو عند الله الزكاة التي يراد بها وجه الله، فهي التي يضاعفها الله لمعطيها ويثيبه عليها، قال ابن كثير: وإن كان لا ثواب فيه إلا انه مباح[2]، وقال ابن عباس: الربا ربوان ربا لا يصح، وهو ربا البيع وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل للرجل يريد فضلها وإضعافها ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٩].

ثم أكد الله تعالى في هذا المقطع أيضاً أنه هو الرازق الذي خلق الإنسان، ثم يميته، ثم يحييه يوم القيامة للحساب ليجازي كل إنسان على عمله، فهل يستطيع أحد من الأصنام التي تعبد من دون الله أن يفعل ذلك تعالى الله وتنزه وحده وتقدس عن الشبيه والمثيل والشريك.

دروس وعبر:

* من مظاهر البر والإحسان النفقة على المحارم والمحتاجين من المساكين وأبناء السبيل.
* إذا أعطى الإنسان عطاء لأجل الحصول على زيادة فهو جائز وإن كان لا ثواب فيه، وهو ربا حلال، أو هبة الثواب أما ربا البيع، وربا القرض فهو حرام، أما إذا كان العطاء من أجل ثناء الناس عليه، وليحمدوه على ذلك، فلا ثواب فيه في الدنيا، ولا أجر له في الآخرة.
* الله سبحانه هو القادر على إحياء الناس يوم القيامة وبعثهم من قبورهم، لا إله إلا هو الخالق الرازق المحيي المميت المنزه عن الشريك.

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٣٢٤.

(٢) السابق نفسه، الدر المنثور: ٥/ ١٥٦.

المقطع السابع: جزاء المفسدين والمؤمنين

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الروم: ٤١-٤٥].

وفي هذا المقطع يبين الله سبحانه أن ما أصاب الناس وما يصيبهم بسبب فسادهم وبما كسبت أيديهم من المعاصي والذنوب. قال ابن كثير: أي النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة[(١)]، فليذيقنهم الله وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم في الآخرة، لعلهم يتوبون ويتركون المعاصي والآثام.

وقل يا محمد لهؤلاء المشركين سيروا في البلاد، وانظروا إلى مساكن الذين ظلموا كيف خرب الله ديارهم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر من بعدهم، لأنهم كفروا بالله فأهلكم.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾[الروم: ٤٣] قال الزجاج، ونقل عنه القرطبي: أي قصد له، واجعل جهتك اتباع الدين القيم من قبل أن تأتي الساعة وتقوم القيامة، فلا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، فيومئذ يتفرقون فيصيرون فريق في الجنة وفريق في السعير[(٢)]، فمن كفر بالله فعليه أوزار كفره والخلود في النار ومن عمل صالحا وأطاع الله فلأنفسهم يقدمون الخير، ويلقون ما أعد الله لهم في دار النعيم، فيجازيهم الله من فضله الذي وعدهم به ويعاقب الكافرين بعدله.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٣٢٦.

(٢) الزجاج: معاني القرآن واعرابه: ٤/ ١٨٨، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣١.

دروس وعبر:

* الشرك أعظم الفساد، وهو الذي يؤدي إلى ارتكاب جميع المعاصي والذنوب والانحراف، ويسبب القحط، ويذهب البركة.
* ظهور الفساد في البلاد يؤدي إلى هلاك الحرث والنسل ويوجب العقاب في الدنيا والآخرة؛ في الدنيا كثرة الحروب، وقلة المطر، والغلاء.
* الاعتبار بالأمم السابقة التي كذبت رسلها كيف كان مصيرها.
* الناس مدعوون إلى اتباع تعاليم الإسلام والتمسك به والعمل بما فيه.
* ينقسم الناس في الآخرة إلى فريقين بحسب أعمالهم فالذي يعمل بأوامر الله ويجتنب نواهيه ففي الجنة، والذي يخالف تعاليم الله والرسل فإلى النار، فمقتضى العدل أن يجازى الكافرون ويعاقبوا على كفرهم، وأن يكافأ العاملون المؤمنون بالجنة[1].

---

(١) وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ٩٩.

المقطع الثامن: الرياح والأمطار دالة على قدرة الله، وتشبيه الكفار بالموتى

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الروم: ٤٦-٥٣].

وفي هذا المقطع يذكر الله سبحانه نعمه وفضله على خلقه بإرسال الرياح والأمطار الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، فيرسل الرياح مبشرة بالخير والبركة ونزول المطر الذي يحيي الأرض بعد يبسها، وينبت الزرع، ويخرج الثمر، وليذيق الناس من رحمته بالمطر الذي يحيي به البلاد والعباد وتسير السفن في البحر عند هبوب الرياح بإذنه وإرادته، وليتمكن الناس من التنقل في البلاد والأقطار طلبا للرزق بالتجارة في النقل البحري، وبشكر الله تعالى على هذه النعم الظاهرة والنعم الباطنة التي لا تعد ولا تحصى.

ثم ذكر سبحانه وتعالى تسلية للنبي ﷺ بأنه وان كذبه كثير من قومه فقد كذبت الرسل من قبله الذين أرسلهم الله تعالى مع ما جاءوا به من الدلائل الواضحات، وانتقم الله منهم أي من الذين كذبوا رسلهم، ونجى المؤمنين.

ثم أبان تعالى كيفية خلقه للسحاب الذي ينزل منه المطر فقال الله الذي يرسل الرياح أي يبعثها فتتحرك السحاب وتسوقه أمامها فينشره في أعالي الجو كيف يشاء خفيفا أو كثيفا فيجعل من القليل كثيراً: ثم يجعله قطعا متفرقة، وتارة يأتي مشبعاً بالرطوبة، فينزل المطر من وسط ذلك

السحاب، فإذا أصاب بعض البلاد والعباد فرحوا بنزوله عليهم ووصوله إليهم، وإن كانوا من قبل نزوله عليهم يائسين من نزوله، فكانت الفرحة كبيرة في نفوسهم لهذا الضيف الذي كادوا أن ييأسوا من نزوله.

فانظر يا محمد إلى آثار رحمة الله بهذا المطر كيف أحيا الأرض بعد موتها، قال ابن كثير: ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [الروم: ٥٠]، أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات[١] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] قال البرسوي: أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء التي من جملتها احياء الإنسان بعد موته في الحشر، ثم قال: واعلم أن الله سبحانه زين الأرض بآثار قدرته، وأنوار فعله وحكمته، فأنبت الخضرة، وأضاء الزهر[٢].

ثم بين حال الكافرين وتنكرهم للمعروف، وعدم ثباتهم على منهج واحد، فنراهم يفرحون بالخير، ثم ييأسون وينقطع رجاؤهم من الخير إن تعرضوا لسوء فقال تعالى: ولئن بعثنا عليهم ريحا ضارة أو سامة على نبات أو زرع أو ثمر، فرأوا ذلك الزرع قد اصفر، ومال إلى الفساد بعد خضرته[٣]، لظلوا يجحدون، أي فإذا جاءتهم مصيبة في زرعهم جحدوا نعمة الله عليهم.

ثم نبه سبحانه وتعالى إلى أن هؤلاء الكفار كالأموات لا ينفع معهم نصح ولا تذكير فقال: فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع من كان في أذنيه صم تلك المواعظ، وهذا مثل ضربه الله للكفار فشبههم بالموتى وبالصم والعمي، وما أنت يا محمد بهاد ومرشد من أعماه الله عن الهدي، وما تسمع إلا من يصدق بآياتنا فهم الذين ينتفعون وينقادون لطاعة الله.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٢٩.

(٢) البرسوي: تنوير الأذهان: ٣/ ١٩١.

(٣) د. وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ١٠٧.

دروس وعبر:

* أقام الله سبحانه الأدلة القاطعة على وحدانيته بإرسال الرياح والأمطار، فالرياح مبشرات بالمطر والخصوبة وعند هبوبها تسير السفر وتنتقل البضائع والركاب من مكان إلى آخر، وفي ذلك دليل على قدرته بإحياء الأرض بعد موتها، وكذلك دليل على البعث والنشور.

* النبوة والرسالة من نعم الله كذلك، فقد أرسل الله الرسل والأنبياء بالمعجزات والأدلة على نبوتهم فكذبوهم وسخروا منهم، وآذوهم فانتقم الله منهم ونصر المؤمنين، ونجاهم، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين في كل زمان ومكان أن الله معهم وسينجيهم وينصرهم على القوم الكافرين والعاقبة للمتقين.

المقطع التاسع: أطوار حياة الإنسان، وقسم المجربين في الآخرة

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الروم: ٥٤-٥٧].

وفي هذا المقطع يبين الله سبحانه وتعالى أنه هو الذي خلق الإنسان من أصل ضعيف وهو النطفة، ثم إنه هو تعالى الذي جعل الإنسان يمر في أطوار متفاوتة من الخلق حالا بعد حال، فجعل النطفة علقة، ثم مضغة، ثم كون عظاما، ثم كسا العظام لحما، ونفخ فيه من الروح، ثم أخرجه من بطن أمه ضعيفا واهن القوى، ثم يشب قليلا قليلا فيكون صغيرا ثم جعل من بعد هذا الضعف قوة الشباب وهو دور القوة، وبعد ذلك يأتي دور ضعف آخر وهو ضعف الهرم

والشيخوخة فتضعف القوة والحركة، وهذا كله دليل على قدرة الله الخالق يخلق ما يشاء، من ضعف وقوة وشباب وشيب، وهو العليم بخلق ما يشاء، من ضعف وقوة وشباب وشيب، وهو العليم بتدبير الخلق القدير على ما يشاء، قال الشيخ المدرس: وهو العليم بكيفية الخلق القدير على تنفيذ ما بعلمه، ويوم تقوم الساعة ويحشر الناس للحساب والميزان يقسم المجرمون أنهم ما لبثوا في الدنيا غير ساعة أي زمانا قليلا وذلك لقلة زمانهم في الحياة الدنيا بالنسبة إلى بقائهم في البرزخ أو موقفهم الطويل في الحشر[1]، ومثل ذلك العزوف عن تقدير الحقيقة والواقع في مدة اللبث، كانوا يعزُفون من الحق إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذب[2] فهم كاذبون في قسمهم وحلفهم أنهم ما لبثوا غير ساعة كما كانوا يكذبون في الدنيا.

ثم ذكر جواب المؤمنين لهم في موقف يوم القيامة، وهم المؤمنون بالآخرة، لقد لبثتم في علم الله وقضائه مدة طويلة من أيام الدنيا، ولكنكم كنتم منكرين للبعث، فهذا هو اليوم الذي كنتم تنكرونه، وفي ذلك اليوم لا ينفع الكافرين والظالمين اعتذارهم ولا يقال لهم ارضوا ربكم بتوبة أو بطاعة، فما تنفعهم التوبة لأن وقتها في الدنيا، وهي دار العمل، أما الآخرة فهي دار الجزاء لا عمل فيها.

دروس وعبر:

* إن أطوار خلق الإنسان الذي أشار إليه القرآن الكريم في هذه الآيات وهو الانتقال والتحول من حال إلى حال ومن مرحلة إلى أخرى دليل على قدرة الله الخالق سبحانه وتعالى الخالق المبدع، ولا يستطيع ذلك أحد غير الله سبحانه فهو وحده الخالق ما يشاء من قوة وضعف، وهو العليم بتدبيره، القدير على إرادته، المتصرف في مخلوقاته والفعال لما يريد كيف يشاء.

---

(١) الشيخ عبدالكريم المدرس: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦/ ٩٩.
(٢) وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ١١٧.

* إن الحياة الدنيا هي دار العمل، ويقبل الله توبة عبده فيها، فإذا قامت القيامة، أو جاء الموت لا تنفع التوبة وينال الإنسان جزاءه على ما قدم، فيثاب المحسن، ويعاقب المسيء وفي ذلك اليوم يقول المؤمنون للكافرين: هذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه واقعا مشاهدا.
* إن عمر الدنيا قصير جدا إذا ما قورن بالآخرة، والكفار يكذبون في الآخرة كما كانوا يكذبون في الدنيا، ويصرفون عن الحق فيقسمون أنهم ما لبثوا غير ساعة.

المقطع العاشر: ضرب الأمثال للعبرة والموعظة، وأمر النبي ﷺ بالصبر على الأذى والدعوة

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم: ٥٨-٦٠].

في هذا المقطع يبين الله سبحانه أنه بين للناس في هذا القرآن الدلالة على وحدانيته، وعلى صدق رسوله ﷺ، وعلى اليوم الآخر، بما يحتاجون إليه من الأمثال والمواعظ، والأخبار والعبر التي توضح الحق وتزيل اللبس، ولكن الكفار لو جئتهم يا محمد بكل المعجزات المادية المحسوسة، كفلق البحر والعصا التي جاء بها موسى عليه السلام لقومه، وإبراء الأكمه والأبرص التي جاء بها عيسى عليه السلام وغير ذلك من المعجزات التي يطلبونها كانشقاق القمر ونحوه، لقال الكفار: ما أنتم إلا قوم مبطلون، أي تتبعون الباطل والسحر، فهم معرضون عن الإيمان، وترتب على إعراضهم عن الإيمان عنادا واستكبارا أن ختم الله على قلوبهم، والله يختم على قلوب الجهلة الذين لا يتعلمون ولا يعلمون حقيقة الآيات البينات في القرآن الكريم لإصرارهم على الكفر واتباع الخرافات، وما وجدوا عليه آباءهم[1].

---

(١) وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ١٢٢.



ثم أمر رسوله ﷺ بالصبر على أذاهم وتكذيبهم ومخالفتهم، واستمر على ما أنت عليه في تبليغ رسالتك، فإن وعد الله الذي وعدك بالنصر عليهم لحق لا شك فيه، وإن النصر لك ولأتباعك من المؤمنين في الدنيا والآخرة، ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعا مما يقول الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فإنهم ضالون.

دروس وعبر:

* إن القرآن الكريم وأمثلته التوضيحية، وبيانه الواضح ينبه على التوحيد، وصدق نبوة محمد ﷺ فهو المعجزة الكبرى، والاستمرار على الدعوة إلى الله، والصبر على الأذى من قبل المعاندين.
* الثبات على الدين الحق دين الإسلام، وعدم التأثر بسفاهات الكفار والمشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.
* إن الذين كفروا قد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينتفعون بالدلائل القرآنية، والمعجزة القرآنية، والمعجزات الحسية، فهم عديمي الفائدة، بسبب عنادهم، وسوء استعدادهم.

الخاتمة:

القرآن الكريم المعجزة العقلية الكبرى الباقية، تحدى العرب قديماً على أن يأتوا بمثل سورة منه، وما زال هذا التحدي، وقد افتتحت هذه السورة بالحروف المقطعة للتنبيه على هذا الإعجاز، وهذا التحدي، وتنبيه السامع على الاستماع بقلبه لما يلقى بعدها، وما جاء بعدها إعجاز آخر من نوع آخر، إنه الإعجاز الغيبي، حيث أنبأت السورة عن انتصار الروم على الفرس في بضع سنين بعد أن انتصرت الفرس على الروم، قبل وقوعه، وقد وقع هذا الخبر كما أخبر القرآن فانتصرت الروم، وفرح المؤمنون من المسلمين بهذا الانتصار، لأن الروم كانوا من أهل الكتاب دينهم النصرانية، والفرس دينهم المجوسية، وهذا الإعجاز الغيبي يثبت نبوة محمد ﷺ، لأنه أمر خارق

للعادة أتى على لسان رجل أمي، لا علم له بالغيب إلا من علام الغيوب وبهذا الإعجاز الغيبي الذي يعزز صدق ما جاء به النبي ﷺ يجب على الناس جميعاً اتباع ما جاء به.

وتناولت السورة حقيقة المعركة بين المؤمنين والكافرين، فهي معركة قديمة مستمرة لا تهدأ ما دام هناك حق وباطل، وخير وشر، فالشيطان يحشد أنصاره لإطفاء نور الله، بغواية الناس وإضلالهم وإبعادهم عن الحق فمن تبعه كان شيطاناً، ومن عصاه كان من عباد الله المخلصين، وقد جاء في السورة شواهد ودلائل على انتصار الحق على الباطل في كل العصور وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ثم تنتقل السورة إلى العالم الآخر بعد عالم الأرض، إلى المشاهد الكونية، والدلائل الغيبية، الدالة على مقدرة الله سبحانه وتعالى، ووحدانيته وعظمته، ليرتبط قلب المسلم بتلك الآفاق والآماد، ويتكيف على ضوئها شعوره وتصوره للحياة والقيم، ويتطلع إلى السماء والآخرة ويتلفت حواليه على العجائب والأسرار... ويعرف قيمته هو، وقيمة عقيدته في حساب الناس وحساب الله، فيؤدي دوره على بصيرة، وينهض بتكاليفه في ثقة وطمأنينة واهتمام[1]. فلعظمة الله تخضع رقاب العباد، وتعنو له الوجوه.

وتحدثت السورة عن مصير أهل الكفر والضلال في يوم القيامة، ذلك اليوم الرهيب حيث يكون أهل الكفر في العذاب، وأهل الإيمان في النعيم وتلك نهاية المطاف لأهل الكفر وأهل الإيمان.

وختمت السورة بالحديث عن كفار قريش الذين لم تنفعهم الآيات والنذر ولم يعتبروا، وشببهم الله بالموتى الذين لا يسمعون ولا يبصرون، وكل ذلك تسلية للنبي ﷺ عما كان يلقاه من أذى المشركين للصبر على أذاهم حتى يأتي النصر المؤكد من الله تعالى.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٥٥.

سورة لقمان

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسمها:

تسمى: سورة لقمان. وهو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وكتب التفسير، وعرفت به من لدن الصحابة - رضي الله عنهم - ومن بعدهم.

فعن البراء بن عازب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي بنا الظهر، فنسمع منه الآية بعد الآيات من سورة لقمان، والذاريات [(١)].

وجه التسمية:

ذكر قصة لقمان ﷺ وحكمته، ووصاياه لابنه، حيث لم يرد له ذكر في غيرها من السور[(٢)].

ب - فضلها:

ما ورد من قراءة الرسول ﷺ لها في صلاته، كما في حديث البراء بن عازب المتقدم.

ج - السورة مكية:

فقد روى البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس ﷺ قال: أنزلت سورة لقمان في مكة [(٣)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها. باب الجهر بالآية أحياناً في صلاة الظهر والعصر. حديث رقم (٨٣٠)، (١/ ٢٧١). والنسائي في سننه: كتاب الافتتاح، باب القراءة في الظهر حديث رقم (٩٧٢)، ٢/ ١٦٣ وذكره الألباني في ضعيف ابن ماجه ص: ٦٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/ ١٣٧).

(٣) انظر: دلائل النبوة (٧/ ١٤٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٠٣) وزاد نسبته لابن مردويه.

د - عدد آياتها:

آياتها أربع وثلاثون آية في عد أهل الشام، والبصرة، والكوفة [1].

هـ - محور السورة:

بيان الآيات والنعم، والدعوة إلى الإيمان والشكر.

و - المناسبات:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

إن لقمان ﷺ جمع بين التمتع بنعمة الحكمة التي وهبها الله تعالى له، وشكر تلك النعمة بالدعوة إلى الله، وإخلاص النصح لعباد الله.

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

الاستمرار بالتذكير بالنعم، وتأكيد التحذير من الاغترار بلهو الحياة وزخرفها.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

في خاتمة سورة الروم حديث عن المجرمين المكذبين بالبعث، وبآيات الله، وفي فاتحة سورة لقمان حديث عن المحسنين بذكر أوصافهم وجزائهم فكان في ذلك تقابل أدى إلى التكامل في الكلام على أصناف البشر من مؤمن وكافر.

٤ - المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

مقاطع السورة الكريمة تدور كلها في فلك تعداد النعم بأنواعها الحسية والمعنوية والإيمانية، وما يوجبه ذلك من إيمان بالمنعم، وشكر للنعم.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/ ١٣٨) والبيان في عد آي القرآن للداني (٢٠٦).

٥ - المناسبة بين مضمون السورة، ومضمون ما قبلها:

تتلخص هذه المناسبة بالتكامل، والتقابل.

فالتقابل في حديث سورة الروم عن صراع ملوك الروم والفرس. وفي سورة لقمان عن حكمة الفرد المؤمن.

والتكامل في تنوع الآيات، وتفصيل المواقف والعظات في باقي السورتين [1].

ثانياً: التفسير:

المقطع الأول: (المحسنون: تعريف وجزاء)

﴿ الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ ﴾

التفسير الإجمالي:

أرشد الله عباده إلى أن كتابه الذي أنزله إليهم كتاباً حكيماً. يدعو لكل حق، وخير، وخلق كريم. وينهى عن كل شر وباطل وخلق لئيم.

وأن في الإيمان به هداية من الضلال، ونعمة ورحمة من الشقاء.

وقد عرف الله المحسنين من عباده بأعمالهم التي هي دلائل ظاهرة على صحة الإيمان وصدق الأقوال. وأنهم الذين يقيمون الصلاة على صفتها الشرعية، فتكون عوناً ودليلاً على صفاء النفس، واستقامة السلوك. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ

---

(١) انظر: البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفي (١٤٨-)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/ ١٣٩)، والأساس في التفسير، سعيد حوى (٨/ ٤٣٠٥).

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وهم من يؤتون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم، فتتحقق بها طهارة النفوس، وإلفة القلوب، وتراحم المجتمع.

وهم من يؤمن بالآخرة بيقين لا يشوبه شك، يؤمن بالآخرة وجوداً وجزاءً. وهو إيمان يوقظ القلب، ويجعله حياً ويحاسب صاحبه على ما يأتي ويذر من الأقوال والأفعال في هذه الحياة. ومن كانت هذه سريرته، وسيرته فهو محسن. والإحسان أعلى مراتب الإيمان فهو في دنياه على هدى، وفي آخرته في فلاح، وهذا غاية النجاح [١].

ويرتبط هذا المطلع والمقطع بمحور السورة من حيث أن من أجل النعم على الناس إنزال الكتاب عليهم، وإرسال الرسول إليهم. لما في ذلك من رحمة بهم وهدى لهم. وأن الذين عرفوا هذه النعمة وشكروها هم المحسنون المتصفون بتلك الصفات الكريمة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والإيمان الصادق بالآخرة.

من هدايات الآيات:

* أن الله أنزل هذا القرآن محْكماً لا اختلاف فيه ولا خلل. وأنه نعمة على الناس بما فيه من هدى ورحمة.
* أن الإيمان بالقرآن والعمل به فيه صلاح الدنيا، وفلاح الآخرة.
* عظم فضل الصلاة والزكاة، وأن فيهما صلاح النفس والمجتمع.
* اليقين بالآخرة يوقظ القلوب، فتصدق الأقوال، وتصلح الأعمال [٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٠)، وتفسير السعدي (٥٩٤).

(٢) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٥٠٥).

المقطع الثاني: (فريق اللهو من الناس)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد ذكر صنف الهداة السعداء من المحسنين.. ذكر الله في هذا المطلع صنف اللهاة المستكبرين. فهناك صنف من الناس يشتري بعزيز ماله، أو يبذل غالي حياته ووقته في (لهو الحديث) وهو كل ما يلهي القلوب، ويصد عن أجل مطلوب، وأكمل مرغوب مما فيه سعادة الدنيا والآخرة، سواء كان ذلك مزامير شيطان، أو محرم القول وباطل الكلام. وتكون غايته إضلال الناس عن الهدى والحق بعد أن ضل بنفسه عن سبيل الله وهداه. يفعل ذلك عن كبير جهل، وفقدان علم وإن تعاظم في نفسه، وبدا أنه غير ذلك. وهو مع جهله سيئ الأدب مع ربه يسخر بآياته، ورسله، والمؤمنين من عباده.

فيلبس بذلك على الناس.. بذم الحق، ومدح الباطل، وتزيين اللهو؛ فيضل الناس عن سبيل الله، فإضلاله ناتج عن ضلاله.

هذا الصنف من الناس متوعد بعذاب شديد؛ يلقى فيه ألم العذاب، ومهانة المكانة لاستهزائه بمنهج الله، وإضلاله عباد الله؛ فناسب جزاؤه عمله.

وتكمل الآيات وصف هذا الصنف من الناس بأنه حين تتلى عليه آيات الله ليسمعها ويتبعها مؤمنا بها، يتلقى هذه الدعوة بالاستكبار والإدبار كأنه لم يسمعها، بل كأن في أذنيه صمماً فلا تصله الأصوات، ولا تبلغه الآيات. فسماع الآيات وعدمه في حقه سواء! وهذا صنف لا حيلة في هدايته؛ فإعراضه عن كبر وإصرار على الغواية فحقه أن يبشر بما لا يسره من

عذاب يؤلم بدنه، ويحزن قلبه يكافئ استهزاءه وكبره [١].

وصلة هذا المقطع بمحور السورة أنه بيان لصنف من الناس كفر نعمة إنزال القرآن وإرسال الرسول بدل شكرها ومعرفة فضلها، والإيمان بها.

من هدايات الآيات:

* من الناس صنف ضال في نفسه، مضل لغيره، يزين اللهو وينشر الرذيلة.
* الجهل والكبر داء يمنع من سماع الحق وقبوله.
* الوعيد الشديد لدعاة الضلالة والفساد المسهزئين بالخلق، والمستكبرين على الحق [٢].

المقطع الثالث: (آية الحكمة والقدرة)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٖ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾

التفسير الإجمالي:

تستكمل الآيات الحديث عن جزاء الإيمان المقترن بالعمل الصالح؛ وفق شرع الله وأمره. فأعمال القلوب لا بد لها من شواهد أعمال الجوارح. ولذا يقترن الإيمان بالعمل، فيبشر هؤلاء بما أعد الله لهم في الآخرة من جنات متنوعة فيها نعيم البدن والروح، نعيم مقيم دائم لا ينقطع. وهذا وعد متحقق من الله لا يتخلف، ولا يتبدل، ولا يتغير؛ لأن الله لا يخلف الميعاد. فضل من

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٠)، وفي ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٧٨٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٧٨٥).

الله من ثمار عزته في ملكه، وحكمته في خلقه جل وعلا.

ومن آية الحكمة، ظاهرة القدرة لله جل وعلا، وكريم النعمة في خلق هذا الكون الكبير الهائل في دقة نظامه وتناسق أجزائه، وتكامل أنواعه:

سماوات عظيمة، رفعها الله وأمسكها كما ترونها بأبصاركم بغير عمد، فإذا أعاد الناظر بصره من السماء إلى الأرض وجد على ظهرها جبالاً عالية الارتفاع، ثابتة القرار، يحفظ الله بها توازن الأرض فلا تميد بأهلها، ولا تضطرب. فباستقرارها يطيب العيش لأهلها.

ومن دلائل الحكمة، وظواهر القدرة: ما خلق الله ونشر على ظهر الأرض من أنواع الدواب عجيبة الخلق، متنوعة النفع، مختلفة الشكل.

ولحاجة هذه المخلوقات للرزق: ذكّر الله عباده بنعمه عليهم في إنزال المطر، وإنبات أصناف الزرع والنبات في منظر جميل، وتزاوج كريم.

هذا الكون العظيم بأرضه وسماه، وما فيه من أصناف الحياة الذي ترونه وتمرون على آياته هو خلق الله وحده. فما الذي خلقته آلهتكم ؟ هاتوه، اذكروه !

إنه تحدٍ قاهر، يظهر عجز آلهتهم عن الخلق، وجهلهم حين عبدوها من غير بصيرة ولا علم. وهذا عين الظلم للنفس، والضلال في الاعتقاد حين يعبد الإنسان عاجزاً جاهلاً لا يقدر على الخلق، ولا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ويترك عبادة الخالق القادر [(١)].

وصلة المقطع بمحور السورة أنه لفت نظر لعظمة الخلق لهذا الكون، وحكمة الخالق وقدرته، وما يوجبه ذلك من الإيمان به، وشكر نعمته سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٢)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٧٨٥)، والأساس سعيد حوى (٨/ ٤٣١٢).



من هدايات الآيات:

* الإيمان والعمل الصالح عنصران متكاملان، فالإيمان مبعث العمل. والعمل شاهد الإيمان. فلا عمل صالح متقبل لمن لا إيمان له. ولا إيمان صادق لمن لا عمل له.
* وعد الله صادق متحقق فهو الحكيم في شرعه. والعزيز في حكمه.
* هذا الكون العظيم بأرضه وسماه وما بينهما وعليهما، آيات ظاهرة معجزة دالة في عظمتها ودقتها وبديع صنعها على وجود الخالق سبحانه، واستحقاقه وحده للعبادة دون شريك.

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فهذا الكون كما يستفاد منه، ويستمتع به يجب أن يستدل به على الله جل في علاه في عظيم قدرته، وكمال حكمته، ووحدانيته[1].

المقطع الرابع: (بيان نعمة الحكمة والدعوة إلى شكر النعمة)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ

(١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٠٨)، وتفسير السعدي (٥٩٦).

ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله جل وعلا عن ذاته بعض صفاته من العزة والحكمة:

﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾. ووصف كتابه وآياته بالحكمة ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾، ذكر سبحانه مثالاً لنعمته على عبده لقمان بالحكمة. وهي الإصابة بالقول، والإجادة في العمل، فهي العلم النافع والعمل الصالح. وأمر لقمان بشكره عليها. فالنعم تدوم وتزيد بالشكر. وتنقص وتزول بالكفر. وشكر الإنسان للنعم يعود نفعه لنفسه. فالله غني عن العالمين سواء كانوا شاكرين أو جاحدين. ومن شُكْر لقمان لنعمة ربه عليه بالحكمة: أن أوصى بها ابنه، ومن بعده. ووصية الأب خير محض لا مطمع فيها ولا غرض.

وقد بدأ لقمان وصيته ببيان أعظم الحقوق، وهو حق الله جل وعلا في وحدانيته وعدم الشرك به؛ لأن الشرك ظلم للنفس بصرف العبادة أو بعضها لمن لا حق له فيها، ووضعها في غير موضعها. وذلك هو الظلم بعينه بل أعظم الظلم وأبشعه وأشنعه.

وتمضي الآيات في عرض العلاقة الواجبة، والصورة الواضحة بين الوالدين والأولاد؛ بأسلوب رقيق رفيق، فهي وصية الله للإنسان - وما أعظمها من وصية - بأن يحسن إلى والديه، ويشكر فضلهما عليه.. فيذكّره ربه بضعفه، وأصل خلقه حين كان حملاً في بطن أمه وما لاقته من تعب شاق؛ لا يكاد يطاق في: حمله، ووضعه، وإرضاعه، وفطامه. وما لاقاه والده من كدٍّ في لقمة العيش، وتعب في التربية حيث قدم الوالدان له ذلك وغيره بلا تأفف ولا شكوى، بل بنشاط وفرح وسرور وحبور.

فوجب على الإنسان أن يذكر جميل والديه، ويشكر إحسانهما إليه، وإنعامهما عليه. فإن المصير في نهاية رحلة الحياة إلى الله، وهناك يجازى المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته.

فشكر الوالدين حق وواجب.. ولكنه مسبوق، وهو تابع.

فحق الله سابق، فشكر الله أولاً، فالحق الأول والأخير لله جل وعلا: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ وهذه الحقيقة مقدمة على كل علاقة وثيقة.

فإن اختلفت العقيدة، أو أخطأ الوالدان أو أحدهما المسيرة؛ سقط حق الطاعة لهما. فحق العقيدة مقدم على كل وشيجة وعلاقة وثيقة، ويبقى للوالدين حق الصحبة الكريمة، والمعاملة الحسنة، فاختلاف الدين لا يعني سوء المعاملة للآخرين.

ويقدم على الوالدين في الطاعة والمتابعة من تاب وأناب إلى الله واتبع سبيله، فإن المرد إلى الله. وحينئذ يعلم كل إنسان ما عمل من خير أو شر؛ فيلقى ثوابه وجزاءه.

ثم يمضي لقمان ينادي ابنه بوصف البنوة الشفيق الرقيق؛ يذكره بعظمة قدرة الله في خلقه وإحاطة علمه بكل شيء، فإذا كان مقدار حبة من خردل سابحة في الكون العلوي، أو مختفية في الكون الأرضي السفلي يأتي بها الله جل وعلا حيث أحاط بها علمه، وطالتها قدرته.

وما هذا إلا برهان على دقة الحساب، وعدالة الثواب والعقاب يوم القيامة؛ فلينتبه الإنسان لنفسه، وليحرص على عمله صغيره وكبيره.

وليحافظ على صلاته فيقيمها على الوجه الشرعي؛ تصله بربه، وتزكي نفسه، ولينطلق للآخرين يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر. يدعوهم إلى صلاح حالهم ومآلهم، وليصبر على ما يصيبه من الأذى منهم؛ تتطاول به الألسنة، أو تمتد به الأيدي، فإن الصبر على الأذى، والبلاء يحتاج إلى عزم؛ وهو مما أوجبه الله وحث عليه، ودعا الناس إليه.

ويستطرد القرآن الكريم في حكاية وصية لقمان العظيمة لابنه، ولغيره ممن يسمع القول فيتبع أحسنه، فيوصيه بجملة آداب عليه أن يتصف بها، وجملة أخلاق عليه أن يتعامل بها مع الناس، فيحذره من الكبر والإعراض عن الناس تعاظماً وتكبراً عند تكليمهم له، بل عليه أن يُقبل على الناس بوجهه هاشّاً باشّاً.

حتى المشي في الأرض له صفة مذمومة، فمشية الخيلاء والإعجاب بالنفس، وقلة المبالاة بالناس مشية تدل على مرض نفسي لا يحبها الله، ولا يحبها الناس.

وأما المشية الممدوحة فمشية القصد والاعتدال، مشية التواضع والسكينة. لا مشيَ الخيلاء، ولا مشيَ التهاوت.

وكما أن للمشي آدابه؛ فللصوت والحديث أدبه؛ المتمثل بخفض الصوت، وعدم رفعه حيث يكفي منه ما يسمع المخاطب ولا يؤذيه.

فليس لرفع الصوت مزية. وغايته أن يكون شبيهاً بصوت الحمار؛ الذي هو أ بشع الأصوات وأنكرها. وتلك صورة معبرة، ومنفرة لرفع الصوت في الحديث.

فالقصد والاعتدال في الحركة، والصوت أدب جميل دعت إليه الآيات، ونهت عن ضده.

فهذه الوصايا العظيمة التي وصى بها لقمان ابنه، وحكاها الله عنه وأقره عليها؛ جاءت متنوعة الموضوعات، جميلة العرض، متحدة الأسلوب.. ذكرها الله لبيان حكمة لقمان، وليكون للمؤمنين بها أسوة حسنة [1].

وهذا المقطع من السورة هو المحور الرئيس فيها بما فيه من بيان نعمة الحكمة على لقمان. وما تضمنته تلك الحكمة - من وصايا عظيمة نافعة لابنه، وكل من ألقى السمع وهو شهيد من بعده مع التوجيه بشكر النعمة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾، فكان بياناً صريحاً بنعمة الحكمة، وأمراً واضحاً بشكر تلك النعمة.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٥)، وفي ظلال القرآن سيد قطب (٥/ ٢٧٨٧)، وتفسير السعدي (٥٩٧).



من هدايات الآيات:

* تقرير التوحيد، وأنه أعظم الحقوق.
* التنديد بالشرك، والتحذير منه، وأنه أعظم الظلم وأشنعه.
* حق الله مقدم، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإن كان ملكاً أو والداً.
* تقرير حق الوالدين، ووجوب طاعتهما وشكر فضلهما.
* الدين المعاملة، فحسن التعامل مع الآخرين من تعاليم الدين، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.
* استشعار عظمة الله في إحاطة علمه بكل شيء، وقدرته على كل شيء، مهما قلّ عدده، أو صغر حجمه.
* وجوب الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر عن الأذى والبلاء.
* حرمة التكبر في القول والفعل، ولزوم القصد في حركة المشي والصوت [١].

المقطع الخامس: (إسباغ النعم)

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

في هذا المقطع تذكير بنعم الله الكاملة الظاهرة والباطنة: نعم الدين ونعم الدنيا. مما يظهر

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٧٨٧)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥١١، ٥١٣).

للناس وما يخفى عليهم. فإن نعم الله كثيرة: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ومن تلك النعم تسخير ما في السموات وما في الأرض لمصلحة الناس ومنافعهم. وحق النعم شكر المنعم ومحبته، وطاعته، وعدم استعمالها في معصيته. لكن من الناس من بدل نعمة الله كفراً، وجادل في الله فأنكر وجوده، وأنكر حقه وفضله، وجحد نعمه، وهو مع ذلك جاهل لا علم له، ضالّ لا هدى معه، لا يتبع في لجاجه وجداله كتاباً منزلاً ينير له الطريق. ولا يتابع نبياً مرسلاً يهديه السبيل.

والحجة العجيبة لهذا الصنف من الناس: تقليد الآباء، والتعصب لهم وما هم عليه من ضلال، واتباع للشيطان، والشيطان لا يدعوا أتباعه إلا إلى عذاب السعير وبئس المصير [1].

وهذا المقطع ظاهر الصلة بمحور السورة فهو صريح بفضل الله على عباده حين أسبغ عليهم نعمه ظاهرة يرونها، وباطنة يجهلونها أو يغفلون عنها. وهي من الكثرة والتنوع بحيث لا يحصرها عد، ولا يحدها حد، وكل واحدة منها تستوجب الشكر وعدم الكفر.

من هدايات الآيات:

* الدعوة إلى الاستدلال بالخلق على الخالق، وبالنعم على المنعم.
* أن النعم أنواع منها: الظاهر الواضح. ومنها: الباطن الخفي.
* وجوب ذكر النعم وشكرها، والاستعانة بها على الطاعة.
* أن الجدال بالجهل ودون العلم يؤدي إلى الضلال.
* تقليد الآباء والتعصب لهم يمنع من معرفة الحق وقبوله [2].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٦/ ٣٤٧)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٧٩٢).
(٢) أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥١٥).

المقطع السادس: (الإنسان بين الكفر والإيمان)

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

تستكمل الآيات هنا الصنف الآخر من البشر، وتقرر الحقيقة في هذا الشأن حيث ينقسم الناس إلى مسلم يعيش نعمة الإسلام، وكافر يتيه بنقمة الكفر.

فمن أسلم وجهه لله، وانقاد له بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأحسن في طاعته لربه فكانت عبادته وفق شرعه وأمره. وأحسن إلى عباد الله طاعة لله، فقد هدي إلى الحق، واستمسك بالعروة الوثقى التي لا تنقطع بصاحبها فلا يهلك، ولا يضل. فإن في دروب الحياة ضلالات وظلمات، وفي مسارب الحياة مزالق، ومهالك. فصار الإنسان محتاج إلى نور يهتدي به، وعرى يستمسك بها. فعروة الله هي الوثقى التي لا تهين ولا تلين. وشرع الله هو النور المبين.

والأمور محكومة بعواقبها وخواتيمها. والعبرة بفلاح النهايات لا بفرح البدايات.

والفريق الآخر من الناس من اختار لنفسه، أو اختار له الشيطان خيار الكفر ! فجحد بالله، وكفر بأنعمه، فلا يحزنك كفره، ولا يضرك ضلاله، فإن مرجعه ومصيره إلى الله العليم بما ينطوي عليه قلبه، ويخفيه صدره فيجازيه على عمله بعدله وبما هو أهله.

فهذا الكافر يستمتع بحياته قليلاً من الوقت ثم يصير ولا بد.. إلى عذاب شديد يستحقه بكفره وكبره.

ومن عجائب الأمور، وغرائب الأحوال: أن هؤلاء الكفار لو سئلوا عمن خلق السموات

التي يرونها بأبصارهم، والأرض التي يمشون عليها بأقدامهم ؟ لقالوا معترفين: إنه الله !

فالحمد لله الذي أنطقهم بما هو حجة عليهم؛ فإن المتفرد بالخلق هو المستحق للإفراد بالعبادة.

ولكن أكثرهم لا يعلمون ! بل يجهلون ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ! ولكن الحق أبلج. وحجة الله أبلغ. فإن الله خالق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، وهو المتصرف بكونه في خلقه وأمره سواء أقروا بذلك أو أنكروه، فإنه الغني عن غيره. المستحق وحده لكمال الحمد والشكر [١].

ويتصل هذا المقطع بمحور السورة بكشفه لأصناف الناس ومواقفهم من آيات الله في خلقه ونعمه على عباده فمن استدل بآيات الله في خلقه وشكر نعمه فهو المسلم، ومن أعرض عن آيات الله، وأغفل نعمه فهو الكافر، ولكل جزاؤه.

من هدايات الآيات:

* انقسام الناس إلى مسلم وكافر.
* الإحسان مرتبة أعلى في الإسلام.
* حاجة الإنسان إلى نور يهتدي به، وعرى يستمسك بها في هذه الحياة. وذلك هو دين الله.
* أن الكافر لا يضر بكفره غير نفسه، وأن الله محاسبه على عمله، ومجازيه عليه.
* أن المشركين من العرب موحدون في الربوبية، ومشركون في العبادة.
* أن الله غني عن خلقه محمود بذاته، مالك لكونه، متصرف فيه بشرعه وأمره [٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٤٧)، وفي ظلال القرآن سيد قطب (٥/ ٢٧٩٣)، وتفسير السعدي (٥٩٦).

(٢) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥١٧).

المقطع السابع: (كلمات الله التي لا تنفد)

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

عظمة متناهية في الخلق والقدرة لا تحد، وعلم محيط لا ينفد، يجسده ويجسمه هذا المقطع من السورة المباركة، فلو تحولت أغصان أشجار الأرض إلى أقلام، وصارت مياه البحر مداداً وأحباراً يمدها ويرفدها سبعة أبحر مثلها إلى أمثال ذلك من الشجر والبحر فإنها لا تحصي كلمات الله لخلقه. وعلمه بكونه في امتداد الزمان، واتساع المكان.

إن عظمة الصفات من عظمة الذات، فلله - جل في علاه - الكمال المطلق في ذاته وصفاته. وإنما هذا تقريب للبشر فيما يعرفون من أقلام ومداد يقرب لهم ما لا يحيطون به علماً من صفات الله وعظمته في كمال عزته في ملكه، وتمام حكمته في خلقه.

وتعبر الآية عن كمال القدرة في الخلق - بعد تقرير وتصوير تمام إحاطة العلم - بأن خلق الناس ابتداء، مع كثرتهم واختلاف أجناسهم وأحوالهم واختلاف أقطارهم وديارهم وأزمانهم. وبعثهم بعد موتهم وفنائهم ما هو إلا كخلق وبعث نفس واحدة؛ لأن الأمر مرتبط بمشيئة الخلق والبعث وإرادته من قبل الخالق جل وعلا. ولا تعلق له بالقلة والكثرة أو الجهد، فاستوى بذلك خلق الواحد وخلق البلايين ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس:٨٢].

ويتصل هذا المقطع بمحور السورة في أن إعلام الله لخلقه بكمال قدرته في الخلق، وتمام إحاطته في العلم نعمة تستوجب الشكر. وحكمة تدعو إلى الإيمان، والخضوع له جل وعلا.. فإنه سبحانه سميع لعباده، بصير بأحوالهم، مجازيهم على أعمالهم [١].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٤٨)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٧٩٥).



من هدايات الآيات:

* سعة علم الله، وأن كلماته لا تنفد بحال.
* ضرب الأمثال في التعليم، وتقريب الحقائق للناس.
* بيان أن قدرة الله لا تحد، وأن الله لا يعجزه شيء لتعلق ذلك بالأمر التكويني.
* دلالة الآيات على جملة من الصفات لله تعالى: كالعزة والحكمة، والسمع والبصر [(١)].

المقطع الثامن: (نعمة التسخير)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

التفسير الإجمالي:

يتوالى تذكير البشر بالنعم التي يسرها الله جل وعلا وسخرها لهم حيث يزخر هذا الكون بآيات القدرة، الموحية بعظمة الخلق، والدالة على وجود الخالق وعظيم قدرته، ووجوب شكره وطاعته، ولكن إلف الناس لهذه الآيات الكونية، وطول معايشتهم لها؛ أفقدهم عظيم دلالتها.. فكانت الآيات القرآنية منبهة لهذه الآيات الكونية.

فمن ذلك: إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وزيادة أحدهما ونقص الآخر عند اختلاف فصول السنة في دورة كونية دائبة دائمة، دقيقة منتظمة.

---

(١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥١٨).



ومن ذلك تسخير الشمس والقمر بعد وجودهما، كل منهما يجري في فلكه إلى أجل مسمى؛ بانتظام تام.

هذه الآيات العظيمة دالة على أن الله جل وعلا هو الحق، وجوداً، وخلقاً وقولاً، وأنه العلي على خلقه، الكبير في ملكه، وأن ما يدعى ويعبد من دونه هو الباطل؛ كل الباطل في ضعفه وعجزه، وعدم استحقاقه للعبادة والدعاء.

ثم تذكر الآيات بنعم الله الأخرى على الناس، فقد أنعم الله على الناس بالدواب على الأرض، تحمل أثقالهم.

وأنعم عليهم في البحر بالسفن، تطفو على الماء فلا تغرق. وتجري في البحر بأمان فلا تقف، تنقل ذواتهم وتجاراتهم فتربط بين أجزاء الأرض، فيتعارف الناس ويتبادلون المصالح.

كل ذلك بنعمة الله وفضله، فإذا ما أراهم الله بعض آياته المنذرة حين تهيج البحار وتعلوهم الأمواج، ويستشعرون ضعفهم وقلة حيلتهم، فيتذكرون ربهم ويدعونه بإخلاص أن ينجيهم مما يرونه وينتظرونه من هلاك؛ فإذا استجاب الله دعوتهم ورحم ضعفهم وأنجاهم من شدتهم فوصلوا إلى بر الأمان، ووطئت أقدامهم الأرض؛ نسوا ما كانوا فيه، وما عاهدوا الله عليه، فمنهم مقصر لم يقم بحق الشكر لنعم الله عليه حين هداه وأنجاه.

وآخرون كانوا أكثر غدراً وفجراً وكفراً، فغدر بعهده، ونكث وعده فكفر بنعمة ربه عليه؛ فنسيها وجحد شكرها. وهذه أخلاق كل كفّار بالنعم، غدّار بالوعد، لا يشكر نعمة، ولا يفي بعهد ووعد.

فسبحان الرحيم الحليم الذي يذكر آياته، ويذكر بها عباده ليعرفوا نعمه عليهم، وإحسانه إليهم فيشكروه ويعبدوه [(١)].

وصلة هذا المقطع بمحور السورة شديد الوضوح بما فيه من تعداد النعم التي يسرها الله وسخرها لهم فعظم انتفاعهم بها، فوجب عليهم شكرها وصرف العبادة لموجدها ومسخرها.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٠)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٧٩٦).



من هدايات الآيات:

* التذكير بما في هذا الكون من آيات القدرة على الخلق، والإحاطة بالعلم.
* تسخير الآيات الكونية لمصلحة الإنسان وراحته، وأن هذا التسخير من نعم الله المستوجبة للشكر.
* دلالة الآيات الكونية على أن الله هو الإله الحق، العلي على خلقه، الكبير في ملكه، فيكون هو المستحق وحده للعبادة والطاعة.
* أن عبادة غير الله ودعوته هي الباطل الذي لا حق معه.
* الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والشكر على النعمة؛ أوصاف متكاملة.
* التوحيد في الشدة، والشرك في الرخاء، من أعمال المشركين [١].

المقطع التاسع: (المغيبات وغرور الحياة)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله جل وعلا نعمه على عبده لقمان، وعلى الناس أجمعين؛ بما خلقه ويسّره وسخّره، وما يستوجبه ذلك من الشكر؛ دعاهم إلى تقواه بامتثال طاعته، واجتناب معصيته، وخوفهم يوم القيامة حين يجازى الناس فرادى كل بحسب عمله، فلا ينفع أحد أحداً؛ لا والد

---

(١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٢٠).

ولا ولد. وهم أقرب الناس إليك، وأعزهم عليك ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

إن يوماً هذه حاله لعظيم، وإنه وعد حق، وقول صدق.

فلا ينبغي لمؤمن أن يغتر بزخرف الحياة وزينتها، وما فيها من شهوات ومغريات. فما هي إلا متاع الغرور. أياماً معدودة، وسنين محدودة، تمضي سريعاً وتنقضي عاجلاً، فإذا الإنسان صائر إلى ما قدم من عمل، وهو تحت الأرض حبيساً بعد أن كان فوقها طليقاً.

وليحذر المؤمن من الشيطان حين يخادعه، ويغرر به، فيوظف حلم الله وإمهاله لعباده على أنه دليل السلامة فيزين لهم المعاصي ويهونها عليهم، ويجسّرهم عليها، ويحول بينهم وبين التوبة بالتسويف.

فإن غرور الشيطان، وشهوات الحياة المحرمة مصيدة للإنسان.

ثم يختم الله السورة التي ذكر فيها شواهد القدرة، وأنواع النعم، ودلائل الإحاطة بالعلم بما خصّ الله به ذاته من مفاتيح الغيب الخمسة؛ التي استأثر بعلمها مما يحسه الإنسان في حياته، ويراه أمام ناظريه، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، وما يدري أحد متى يجيء المطر »[(١)].

فعلم الساعة متى تقوم ؟ لا يعلمه أحد إلا الله، وعلم وقت نزول المطر، في أي ساعة من ليل أو نهار، وأحوال ما في الأرحام من المواليد.

وكذلك الإنسان في أخص أحواله، وأهم احتياجه حيث لا يعلم المرء ماذا يكسب في غده من غنى أو فقر، ومن خير أو شر، كما أنه لا يعلم أين ومتى يموت ؟

وهذه أمور جلية لا ينازع فيها الإنسان ويراها في ذاته وحياته. وبها يعرف الإنسان حدود

(١) صحيح البخاري كتاب الاستسقاء، باب ٢٩ (٢/ ٢٣).



علمه، ومقدار عجزه، وضعفه، وأن الأمر كله لله، فعليه أن يجيب داعي ربه، وينيب إلى خالقه ويوظف حياته بما فيه خير دينه ودنياه وسعادة دنياه وأخراه [1].

وصلة هذا المقطع الخاتم للسورة بمحورها أنه بيان لحال الشاكر للنعم، والكافر بها والذاكر للآيات المعتبر بها، والمعرض عنها، وذلك بتذكير الإنسان وحثه بالمسارعة بتقوى ربه وطاعته وشكر نعمته لينجو في آخرته.

وتحذيره من الإعراض عن آيات الله وكفر نعمه والاغترار بشهوات الحياة وزينتها فيخسر آخرته وذلك هو الخسران المبين.

من هدايات الآيات:

* وجوب تقوى الله.
* تقرير عقيدة البعث.
* أن يوم القيامة يوم عصيب لا ينفع فيه والد ولا ولد.
* التحذير من الاغترار بمتاع الحياة الدنيا وشهواتها.
* التحذير من الشيطان في تزيينه المعاصي للإنسان.
* اختصاص الله تعالى في معرفة مفاتيح الغيب الخمسة.
* أن معرفة نوع الجنين من كونه ذكراً أو أنثى بواسطة الأشعة ونحوها غير داخلة في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾؛ لأنها بمنزلة فتح البطن، ومع معرفة كون الجنين ذكراً أو أنثى فلا أحد يستطيع معرفة شكله الحقيقي ولا كونه شقياً أو سعيداً.
* ادعاء معرفة الغيب كذب وضلال [2].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥١)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٧٩٨)، والأساس في التفسير، سعيد حوى (٨/ ٤٣٤٠).

(٢) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٢٢)، وتفسير السعدي (٦٠١).



سورة السجدة

أولاً: بين يدي السورة:

أ - أسماء السورة:

١) **سورة السجدة**: وهو أشهر أسماء السورة، وأخصرها. وبه سميت في المصاحف وكتب التفسير، وترجم لها به الترمذي في جامعه [١].

سميت بذلك لشهرة سجدتها حيث كان النبي ﷺ كثيراً ما يقرؤها في صلاة فجر يوم الجمعة، ومضى المسلمون على ذلك إلى اليوم.

٢) **سورة ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾**:

سميت بذلك تسمية لها بمطلعها.. فعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ و﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ: كان يقرأ في الصبح يوم الجمعة بـ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ في الركعة الأولى، وفي الثانية: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾ [٣].

وقد جاءت تسميتها بـ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ في بعض الآثار عن ابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمر) [٤].

وعنون لها البخاري في صحيحه بسورة (تنزيل السجدة) [٥].

---

(١) سنن الترمذي، كتاب التفسير (٥/ ٣٦٦).
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه في كتاب فضائل القرآن ٥ / ١٦٥ .
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة (٢/ ٥٩٩) حديث رقم (٨٨٠).
(٤) انظر: أسماء السور، د. منيرة الدوسري (٣١٠).
(٥) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٦/ ٣١٩).

وجاءت تسميتها في بعض المصاحف المخطوطة بـ (سورة التنزيل) [1].

وكل ذلك تسمية لها بمفتتحها على سبيل الاختصار أو التفصيل.

٣) سورة المضاجع:

سميت بذلك أخذاً من قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ وجاءت تسميتها كذلك في بعض كتب التفسير كتفسير: ابن الجوزي، والرازي، والآلوسي.

٤) سورة سجدة لقمان:

سميت بذلك لوقوعها بعد سورة لقمان، وتمييزاً لها عن سورة (حم السجدة) حيث تسمى هناك: سورة سجدة (المؤمن) لوقوعها بعد سورة (المؤمن) [2].

٥) سورة المنجية:

وردت هذه التسمية في خبر مرسل عن خالد بن معدان أنه قال: (اقرؤوا المنجية وهي: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾.

ب - فضائلها:

ورد في فضلها أحاديث متنوعة مختلفة الدرجة، منها:

١) عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ و﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [3].

---

(١) مخطوطات جامعة الإمام بالرياض رقم (٨٠٥٨). وانظر: أسماء السور، د. منيرة الدوسري (٣١١).

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/ ٢٠٣).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، وأحمد في المسند، وأبو عبيد في فضائل القرآن، والدارمي والترمذي، والبغوي في شرح السنة، والبغوي في شعب الإيمان، والطبراني في المعجم الصغير والأوسط، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي. وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ١٢٩ رقم ٥٨٥. وقال: حديث صحيح. وانظر: الأحاديث الواردة في فضائل القرآن دراسة نقدية، د. إبراهيم علي السيد علي عيسى ص٢٨٤.

٢) وعن أبي هريرة – ﷺ – يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر:﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ ﴾[١].

٣) ومن فضائلها أنها تسمى المنجية. فعن خالد بن معدان، قال: (اقرؤوا المنجية، وهي ألم * تنزيل فإنه بلغني أن رجلاً كان يقرؤها ما يقرأ شيئاً غيرها، وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه، وقالت: رب اغفر له فإنه كان يكثر قراءتي، فشفعها الرب فيه، وقال: اكتبوا له بكل خطيئة حسنة، وارفعوا له درجة)[٢].

وعن المسيب بن رافع قال: قال رسول الله ﷺ: (تجيء﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ السجدة يوم القيامة لها جناحان تظل صاحبها، تقول: لا سبيل عليك، لا سبيل عليك)[٣].

ج - السورة مكية[٤].

د - عدد آياتها ثلاثون آية[٥].

هـ - محور السورة:

بيان عظمة الله تعالى في صفاته، وكمال قدرته في الخلق والأمر، والبعث والجزاء.

و – المناسبات:

١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

أن السجود دليل الإيمان بعظمة الله، وعنوان الخضوع لقدرته، والطمع في ثوابه وحسن جزائه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة. رقم (٨٩١)، ومسلم: كتاب الجمعة رقم (٨٨٠).
(٢) أخرجه الدارمي (٢/ ٥٤٦) رقم (٣٤٠٨) وفيه انقطاع ويتقوى بما بعده.
(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص(٢٥١)، وابن الضريس ص(١٠٠) وهو مرسل إسناده حسن.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٨)، والمكي والمدني في القرآن الكريم د. محمد الشايع (٧١).
(٥) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/ ٢٠٤)، والبيان في عدة آي القرآن لأبي عمرو الداني (٢١٧).

٢) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

تقرير الحق في شأن القرآن بأنه تنزيل رب العالمين في افتتاح السورة، وتقرير الحق في شأن البعث بأنه واقع وأنه ممكن في خاتمة السورة من خلال المثال في إحياء الأرض بعد موتها.

٣) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

قال السيوطي في وجه اتصالها بخاتمة السورة التي قبلها.. سورة لقمان:

(إنها شرحت مفاتيح الغيب الخمسة التي ذكرت في خاتمة لقمان. فقوله هنا: ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [٥] شرح لقوله هناك:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾.

ولذلك عقب هنا بقوله: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [٦].

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ [٢٧] شرح لقوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ [٣٤].

وقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [٧] شرح لقوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾.

وقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ و﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [١٣] شرح لقوله: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ [٣٤].

وقوله: ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [١١] شرح لقوله: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ [٣٢]. فلله الحمد على ما ألهم) [1].

وجعل الآلوسي المناسبة بين السورتين: (اشتمال الكل على دلائل التوحيد) [2].

٥) المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

مقاطع السورة كلها تأكيد على عظمة الله تعالى في كمال صفاته، وكمال قدرته في خلقه

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي. تحقيق عبد القادر عطا ص (١١١).

(٢) تفسير الألوسي (٢٢ / ١١٥).



وكونه ابتداء، وانتهاء.. إماتة وبعثاً، أمراً وشرعاً. وكمال عدله بين خلقه، وكمال الصفات والقدرة هو محور السورة[1].

ثانياً: التفسير:

المقطع الأول: (القرآن حق منزل)

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

التفسير الإجمالي:

بينت الآيات الكريمات مصدر القرآن الكريم، ووصفه، وغرضه، فهو كلام الله المنزل دون شك أو ارتياب، فالله مصدره، والحق صفته، وهداية الناس غرضه وغايته. لم يأت به محمد ﷺ من عند نفسه، ولا يستطيع، ولو استطاع لاستطعتم مثله. وإنما أنزله الله على محمد ﷺ لينذر به قومه والناس من بعدهم حيث لم يأتهم نذير قبله، فمن آمن به كان له حسن الحال والمآل. ومن أعرض عنه وكفر به كانت له النار. وقامت على الخلق الحجة، بإنزال الكتب، وإرسال الرسل وليس بعد الإنذار إلا الإعذار[2].

وافتتاحية السورة بهذا المطلع والمقطع شديد الارتباط بمحور السورة من حيث إنه بيان لمصدر الخبر عن الله تعالى في عظيم صفاته وكمال قدرته في خلقه ووجوب طاعته في شرعه وأمره وأن مصدر ذلك وحي إلهي لا افتراء بشري.

---

(١) انظر: البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفي (١٥٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٨)، وتيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (٦٠١).

من هدايات الآيات:

* بيان مصدر القرآن، وأنه كلام إلهي، لا افتراء بشري.
* أنه كله حق، وكلام صدق.
* أن غرض القرآن الكريم هداية الخلق للحق.

المقطع الثاني: (الخلق مدة وحُسنا)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

تعرض الآيات الكريمة لصفات القدرة والعظمة لرب العالمين؛ الذي أنزل القرآن الكريم. فهو الله الذي لا رب سواه؛ الذي خلق هذا الكون العظيم بأرضه وسماه وما بينهما، وفيهما من خلائق منوعة متعددة الأنواع والأجناس والأحجام والأشكال والألوان، والخواص والأغراض.

خلق تعالى ذلك كله في مدة محددة تبلغ ستة أيام من أيام الله ثم استوى على عرشه استواء يليق بكماله وعظمته يدبر كونه ويحكم أمره. فالكون ملكه، والناس خلقه، ليس من شيء أو أحد خارج عن ذلك، فلا نصير لأحد من دونه ولا شفيع إلا من بعد إذنه. فوجب على الناس التفكر في ذلك والتذكر، ومن ثم الإجابة والإنابة لله الخالق المدبر.

فالله في سماه وعلاه يدبر أمر خلقه وكونه، ويتصرف فيه كما يشاء وجوداً وفناءاً، وأمراً ونهياً. ثم يوم القيامة في يوم كان مقداره من أيام الناس في الدنيا ألف سنة في ذلك اليوم يصعد

إليه الأمر، ويصير له - جل وعلا - ا لحكم.

ذلكم المدبر لهذه الأمور والمصرف لها هو العالم بكل شيء مما غاب أو حضر، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. العزيز في رحمته فلا ذلّ. والرحيم في عزته فلا ضعف الذي أبدع خلقه وأحكمه، فأحسن كل شيء خلقه، فأتمه وأكمله، فلا نقص ولا عيب، فجاء كل شيء على ما أراده واقتضته حكمته.

وممن خلقه تعالى.. هذا الإنسان الذي بدأ خلقه بخلق أبيه آدم من طين، وجعل ذريته تتوالد من بعده، مخلوقة من ماء وهو منيّ الرجل حين يقذفه في رحم المرأة فيتخلق هناك بأعضائه وحواسه من سمع وبصر وعقل. وينفخ الله فيه الروح فتدب فيه الحياة، خلق عظيم يستوجب الذكر والشكر، ولكن كثيراً من الناس قليل الذكر للنعم، قيل الشكر للمنعِم [١].

وتظهر صلة هذا المقطع بمحور السورة بكونه تفصيل، وتأكيد لبعض صفات الخالق جل وعلا، وتعريف للإنسان بضعفه ببيان أصل خلقه وأنه من طين ثم من ماء مهين، وكيف صار إنساناً سوياً في أكمل خلق وأحسن تقويم.

وأن ذلك دليل على قدرة الخالق توجب كمال الشكر لله رب العالمين.

من هدايات الآيات:

* بيان قدرة الخالق، ومدة الخلق.
* إثبات صفة الاستواء على العرش لله تعالى؛ على الوجه اللائق بكماله وجلاله.
* أن الخلق والأمر كله لله، في الكون كله: علويه وسفليه.
* بيان مادة خلق الإنسان وكيفيته.
* وجوب ذكر النعم، وشكر المنعم [٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٩)، وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٢٨٠٦).

(٢) انظر: أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري (٣/ ٥٢٦).



المقطع الثالث: (إثبات البعث)

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة بداية خلق الإنسان وسلالته، ذكر هنا نهايته حيث يموت الإنسان ويعود للأرض التي بدأ منها خلقه، فيفنى ويصير تراباً.

وهذه النهاية المشاهدة والمحسوسة جعلت المشركين ينكرون البعث وعودة الحياة من جديد مرة أخرى.

وهذا الإنكار عنوان الكفر بالله، والجهل وضعف العقل.

فإن بداية الخلق دليل على نهايته، فالذي أوجد الإنسان وأحياه ابتداء، وأماته قادر على بعثه بعد موته، وهذا نص الخبر، وحجة العقل. ولكن الكفر يعمي ويطغى. فإنكار الكافر للبعث وما بعده، لا يلغي ثبوته وأنه لابد من الموت، والبعث، والرجوع إلى الله، فليس الإنكار حجة.

وصلة هذا المقطع بمحور السورة ظاهر من حيث إثبات القدرة على البعث والرجوع إلى الله للثواب والعقاب.

من هدايات الآيات:

* إثبات البعث والجزاء بعد الموت.
* إنكار البعث كفر وجهل.
* بيان أن للموت ملَكاً موكّلاً بكل نفس [1].

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٦٠٢)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٢٧).

المقطع الرابع: (ذل المجرمين يوم الدين)

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

التفسير الإجمالي:

حينما قررت الآيات السابقة حقيقة البعث والمصير إلى الله، صورت هذه الآيات مشهد وقوف المجرمين أمام رب العالمين؛ بأنهم يقفون ذليلين أمام ربهم، قد خفضوا رؤوسهم ذلاً مقرين بالسمع والطاعة بعد أن أبصروا وشاهدوا الحقيقة؛ طالبين الرجعى إلى الدنيا لإعلان الإيمان واليقين، والقيام بالعمل الصالح.

ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً فهم خلقه، وفي ملكه وأمرهم جميعاً بيده، لكن حكمته جل وعلا في الكون، وحكمه في الخلق أن يمتحنهم في الدنيا، بإرسال الرسل وإنزال الكتب فمن آمن فله الجنة، ومن كفر فله النار، وأن كلاً من الجنة والنار ستملأ بأهلها.

هذا جزاء الله بمن كفر به، ونسي لقاءه؛ بأنه سوف يعذب جزاء كفره وسوء عمله.

يتصل هذا المقطع بمحور السورة من حيث التأكيد على البعث والجزاء وما يدل عليه وأن ذلك من كمال القدرة لله تعالى، وكمال الملك والتصرف له سبحانه في خلقه وأمره.

من هدايات الآيات:

* ذل المجرمين الكافرين يوم القيامة.
* أن الإيمان بالغيب لا يكون بعد المعاينة له.
* حكم الله بامتلاء جهنم من مجرمي الإنس والجن.
* أن الأعمال سبب في الجزاء: إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشرّاً[1].

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٦٠٢-٦٠٧)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٨٢٥).

المقطع الخامس: (علامات الإيمان)

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

لما ذكر الله تعالى جزاء المجرمين، وهم المكذبون بآيات الله.. ذكر هنا المؤمنين بصفاتهم وجزائهم، فتكامل بذلك الحديث عن أصناف الناس.

فبينت الآيات هنا علامات الإيمان، وصفات المؤمنين بأنهم إذا تليت عليهم آيات القرآن سارعوا للإنابة والإجابة. فإن أمروا فيها بالسجود تهاووا إلى الأرض ساجدين غير متكبرين يسبحون بحمد ربهم وينزهونه عن النقائص والعيوب. ومن صفاتهم في سائر حياتهم مقاومتهم لإغراء الراحة والنوم حين ينزعون أجسادهم من وثير الفراش. لينصبوا أقدامهم في صلاة الليل يدعون ربهم، طمعاً في ثوابه، وخوفاً من عقابه. وكما سارعوا إلى نوافل الصلوات، هم كذلك يسارعون إلى الصدقات بعد الزكاة، فينفقون من فضول أموالهم ما يقربهم إلى الله زلفى.

وهنا تجمل الآية الكريمة بإيجاز وإعجاز: أصناف النعيم والتكريم؛ الذي أعده الله لهم جزاء إنابتهم وطاعتهم بقوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ نعيم لا يبلغه وصف، ولا يحيط به بشر. فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر). قال أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

وتظهر صلة هذا المقطع بمحور السورة أن ما قررته الآيات السابقة من كمال قدرة الله تعالى

---

(١) صحيح البخاري رقم (٤٧٧٩). ومسلم برقم (٢٨٢٤).



في خلقه وعظيم صفاته في ذاته دعت فئة من الناس إلى المسارعة إلى الإيمان بالله، والمبادرة في طاعته خضوعاً له سبحانه ورجاء ثوابه وخوف عقابه، فذكر سبحانه هنا صفاتهم وجزاءهم.

من هدايات الآيات:

* فضيلة التسبيح في الصلاة وغيرها.
* ذم الاستكبار وأهله، ومدح التواضع لله وأهله.
* فضيلة نوافل الطاعات من صلاة ليل، وزكاة مال، وغير ذلك.
* بشارة المؤمنين بعظيم النعيم والتكريم [(١)].

المقطع السادس: الجزاء العادل
واختلاف الجزاء باختلاف العمل

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد عرض أوصاف المؤمنين والمجرمين في الآيات السابقة؛ تقرر الآيات الكريمة هنا مبدأ الجزاء العادل، واختلاف الجزاء باختلاف العمل، وأنه لا يستوي مؤمن وكافر، مطيع

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٦٣)، في ظلال القرآن سيد قطب (٥/ ٢٨١٢)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٣٠).



وعاص.

فالذين آمنوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وعملوا بما أمروا به من الصالحات، وسائر الطاعات، واجتنبوا المحرمات؛ فلهم الجنة.. إليها يأوون، وبها ينزلون. فهي دارهم ومستقرهم.

وأما الذين فسقوا، فخرجوا عن طاعة الله، فلم يؤمنوا بالله رباً، ولا بالإسلام ديناً، ولا بمحمد ﷺ رسولاً ! فعاشوا في العقيدة مشركين، وفي العمل عاصين؛ فمأواهم ومثواهم النار، يعذبون بها جزاء سوء عملهم.

وإذا ما حاولوا الخلاص من هذا العذاب، والخروج من النار؛ أعيدوا فيها، ودفعتهم زبانية العذاب إليها. وقيل لهم إذلالاً وإهانةً: ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾.

ولأن من الناس من لا يستقيم إلا بالتأديب والتعذيب؛ توعدهم الله - جل وعلا - بصنوف من العذاب والأذى والابتلاء الدنيوي؛ لعلهم يرجعون إلى ربهم فيردهم العذاب إلى الصواب، فيؤمنوا بربهم. وبذلك تكون نجاتهم من العذاب الأكبر عذاب يوم القيامة.

وهذه مواعظ الله تترى، وآياته تتلى، وليس هناك أحد أظلم لنفسه ممن أعرض عن هذه العظات والآيات. ومن فعل فهو مجرم يستحق العذاب والانتقام.

وهذا المقطع شديد الصلة بمحور السورة لأنه تفصيل للجزاء على الأعمال الذي يكون بعد البعث وإحياء الموتى يوم القيامة، هذا البعث الذي أكدته السورة كأحد دلائل القدرة وأمور الغيب الذي جاء به الخبر، ونصب عليه الدليل. وأن الجزاء في ذلك اليوم يكون من جنس العمل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وذلك الجزاء العدل.

من هدايات الآيات:

* اختلاف الجزاء باختلاف العمل.
* بيان خطأ من يسوي بين المؤمن والكافر، والبارّ والفاجر، والمطيع والعاصي.
* بيان جزاء كل من المؤمنين والفاسقين.
* أن التأديب قد يكون بنوع من التعذيب.
* الإعراض عن آيات الله القرآنية والكونية ظلم للنفس البشرية [1].

المقطع السابع: (الإمامة في الدين)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

لما بين الله تعالى في المقطع السابق عدله بين الناس مؤمنهم وفاسقهم وأنهم لا يستوون، أكد هذا المعنى في بني إسرائيل وأن منهم هداة دعاة كانوا مؤمنين موقنين، وأنه سبحانه سوف يفصل بين المختلفين منهم ومن غيرهم بالعدل يوم القيامة، فالعدل مع كل أحد، وفي كل زمن، وفي كل شيء.

ولقد أعطى الله نبيه موسى بن عمران ﷺ التوراة، كما أعطى رسوله محمداً ﷺ القرآن. فهذه سنته تعالى في إرسال رسله، وإنزال كتبه.

فلا تكن يا محمد في شكّ من لقائك بموسى ليلة الإسراء والمعراج، أو من لقاء موسى

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٦٩)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٨١٣)، وأيسر التفاسير (٣/ ٥٣٢).



الكتاب [1] وتلقيه له.

ولقد كان كتاب موسى التوراة؛ هادياً لبني إسرائيل إلى الصراط المستقيم والدين القويم. ولذا جعل الله من المؤمنين من بني إسرائيل قادة وهداة ودعاة؛ يدعون الناس في زمنهم إلى ربهم متصفين بالصبر واليقين، وبهما تنال الإمامة في الدين. وما يقع من خلاف بين الناس في الأعمال والاعتقادات فإن الفصل فيه يوم القيامة لله رب العالمين.

وصلة هذا المقطع بمحور السورة تظهر من خلال كمال عدل الله جل وعلا في السابقين كما في اللاحقين، وبيان نعمه على الناس أجمعين بإنزال كتبه وإرسال رسله.

من هدايات الآيات:

* من نعم الله على الناس إنزال الكتب، وإرسال الرسل.
* بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.
* كل خلاف في هذه الحياة سينتهي بحكم الله فيه يوم القيامة [2].

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٧/ ٨٠)، والأساس في التفسير، سعيد حوى (٨/ ٤٣٦٧).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧١، ٣٧٢)، تفسير السعدي (٦٠٤)، أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري (٣/ ٥٣٥).

المقطع الثامن: (آيات وعظات)

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

ذكر الله تعالى في المقطع السابق من الأمم السابقة بني إسرائيل على وجه الخصوص، ثم عمم هنا للتذكير بمصير المكذبين من عموم السابقين وما فيه من عظة للآخرين.

من سنن الله في خلقه إهلاك المكذبين، وقد مضت أمم وأجيال. وقرى وأقوام من عاد وثمود قوم صالح، وقوم لوط، وغيرهم. أهلكهم الله لما كذبوا الرسل. فهلاكهم وآثارهم التي تمشي فيها الأجيال اللاحقة، يجب أن تكون مواضع عبرة وعظة، تهز القلوب، وتدمع العيون وتجيش بها النفوس.

فينيبوا إلى ربهم ويسلموا له. ويسارعوا إلى ذلك حتى لا يكون مصيرهم كسابقيهم الذين يرون آثارهم وديارهم رأي العين، وكيف أهلكهم الله، فإنهم ليسوا بخير منهم. ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القمر: ١٦]، فليسوا بخير وليست لهم براءة.

إنها آيات مؤثرة معبرة؛ لمن ألقى السمع وهو شهيد.

ثم تعرض الآيات نوعاً من الأدلة المحسوسة على البعث، فهذا الماء النازل من السماء حين يسوقه الله إلى أرض جرداء يابسة لا نبات فيها، فتتغير صورتها. فإذا هي خضراء ممرعة تموج بالزرع مما يأكله الناس والأنعام.

وهذا المشهد ملء البصر، ومثال حيّ على الحياة بعد الموت.. فالذي أحيا الأرض وهي

ميتة؛ قادر على إحياء الإنسان وبعثه بعد موته. ولكن الكافرين شديدي العناد، لا يلتفتون إلى الآيات. ولا يتأثرون بالعبر والعظات، فيستعجلون يوم الحكم والفصل حين تتبين الحقائق. وتنكشف الدقائق وحينئذ لا ينفع الكافرين الإيمان والتصديق عند رؤية العذاب وحصول الحساب. ثم تُختم السورة بتوجيه الرسول ﷺ بالإعراض عن هؤلاء المكذبين المعاندين بعد أن لم تنفع معهم الآيات والعظات. وأن ينتظر تحقق وعيد الله فيهم في الدنيا والآخرة، كما أنهم ينتظرون موته أو قتله.

وتظهر صلة هذا المقطع بمحور السورة بالتذكير والتأكيد على البعث الذي أنكره المشركون واستبعدوا وقوعه، ولكن السورة الكريمة أكدته خبراً ومثالاً، حين مثلت ذلك بالأرض الميتة التي تحيا بنزول المطر ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩] فكان استدلالاً بالمثال بعد الاستدلال بالمقال ولكن الأمر كما قال جل وعلا: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

من هدايات الآيات:

* من سنن الله إهلاك المتكبرين، وفي ذلك عظة للآخرين.
* تقرير عقيدة البعث، وتقريبها بالمثال.
* استعجال الكافرين للعذاب دليل جهل وكبر.
* بيان أن التوبة لا تقبل عند معاينة العذاب [1].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧٢)، في ظلال القرآن سيد قطب (٥/ ٢٨١٤)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٣٥).

سورة الأحزاب

بين يدي السورة:

١- اسم السورة:

اسمها التوقيفي هو سورة الأحزاب ولا يعرف لها اسم آخر غير هذا، وقد ورد هذا الاسم في حديث أبي بن كعب، فعن زرّ قال: قال لي أبيّ بن كعب ﷺ كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلت: ثلاثاً وسبعين آية، قال: فوالذي يحلف به أبيّ بن كعب إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول، ولقد قرأنا منها آية الرجم: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم). [(١)] **وجه تسميتها بذلك**: هو ما ذكر فيها عن أحزاب المشركين من قريش غطفان وبعض العرب ويهود بني قريظة الذين اجتمعوا وتحزبوا لغزو المسلمين في المدينة فرد الله تعالى كيدهم وكفى الله المؤمنين القتال، [(٢)] قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ الأحزاب: ٢٢ وقال المهيامي: «سميت بها لأن قصتها معجزة لرسول الله ﷺ متضمنة لنصره بالريح والملائكة بحيث كفى الله المؤمنين المنافقين وهذا من أعظم مقاصد القرآن». [(٣)]

---

(١) **قال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه**، المستدرك للحاكم النيسابوري، ج: ٤، ٤٠٠، وصحيح ابن حبان، ج:١٠، ص: ٢٧٤، وقال السيوطي في الدر المنثور: أخرجه عبد الرزاق في المصنف والطيالسي وسعيد بن منصور وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن منيع والنسائي وابن المنذر وابن الانباري في المصاحف والدار قطني في الأفراد والحاكم وصححه وابن مردويه والضياء في المختارة عن زر، والسيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٥٥٨.

(٢) منيرة محمد ناصر الدوسري، أسماء سور القرآن وفضائلها، (الرياض: دار ابن الجوزي، ١٤٢٦)، ط١، ص: ٣١٧-٣١٨.

(٣) تفسير المهايمي، ٢/ ١٥٢. عن المرجع السابق ص: ٣١٨ الحاشية رقم ١.

٢- عدد آياتها:

هي ثلاث وسبعون آية كما وردت في المصاحف وفي حديث أبي بن كعب السابق.

٣- مرحلة النزول:

هي مدنية بإجماع العلماء، [١] وتتناول هذه السورة قطاعا حقيقيا من حياة الجماعة المسلمة في فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى، إلى ما قبل صلح الحديبية، وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين في المدينة تصويرا واقعيا مباشرا، [٢] وقد نزلت بعد سورة الأنفال. [٣]

٤-محور السورة:

هذه السورة لها ثلاثة محاور رئيسة:

أ- **المحور الأول**: يدور حول: «ربط الأحداث والتنظيمات بالأصل الكبير **وهو أصل العقيدة في الله والاستسلام لقدره**، ذلك كافتتاح السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ ﴾، وكالتعقيب على بعض التنظيمات الاجتماعية في أول السورة: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾، **والتعقيب** على موقف المرجفين «يوم الأحزاب» التي سميت السورة باسمها: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم

---

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج٢٥/ ص١٦٥.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج:٢١، ص: ٢٨١٧.

(٣) برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م)، ط ١، ج:٦، ص:٧٥.

مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾، ومثل قوله في صدد أحد التنظيمات الاجتماعية الجديدة، المخالفة لمألوف النفوس في الجاهلية: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾، وأخيرا ذلك الإيقاع الهائل العميق: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾.[١] **هذا هو المحور الأساس الذي تدور حوله السورة، ومن هنا فإن البقاعي** يؤكد المقصد الرئيس السابق للسورة بقوله: «الحث على الصدق في الإخلاص في التوجه إلى الخالق من غير مراعاة بوجه ما للخلائق لأنه عليم بما يصلحهم، حكيم فيما يفعله فهو يعلي من يشاء وإن كان ضعيفا، ويردي من يريد وإن كان قويا، فلا يهتمن الماضي لأمره برجاء لأحد منهم في بره ولا خوف منه في عظيم شره وخفي مكره»[٢].

ب- **المحور الثاني**: الرئيس الذي تدورحوله السورة هو **النبي ﷺ وتشريفه وتنزيهه مع** آل بيته والمؤمنين معه، قال ابن عاشور: «افتتاح السورة بخطاب النبي ﷺ مؤذن بأن الأهم من سوق هذه السورة يتعلق بأحوال النبي ﷺ»[٣]، وقال الطبرسي: «لمّا صوّر سبحانه هذه السورة بذكر النبي ﷺ وقرر في أثناء السورة ذكر بعظيمه، ختم ذلك بالتعظيم الذي ليس يقاربه تعظيم ولا يدانيه»[٤].

ج- **المحور الثالث**: الحديث عن غزوة الأحزاب التي سميت السورة بها، والحديث عن نعمة الله على النبي ﷺ وأصحابه الكرام بالنصر المؤزر على قوى الباطل في هذه الغزوة.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج:٢١، ص: ٢٨١٨.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج:٦، ص:٦٧.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧)، ط١، ج: ٢١، ص: ٢٤٩.

(٤) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج: ٢٢، ص١٦٥.

٥- المناسبات في السورة:

أ- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

لما كان محور السورة يدور حول الاعتقاد بالله تعالى والاستسلام له، ناسب أن يطلق اسم الأحزاب على هذه السورة لأن حادثة الأحزاب كانت تعبيرا واضحا لاستسلام النبي وأصحابه الكرام لإرادة الله ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾، وزادهم إيمانا وتثبيتا بالله تعالى، وذلك على عكس طائفة المنافقين الذين أشاعوا الخوف بين صفوف المؤمنين وشككوا بوعد الله تعالى ووعد الرسول بقولهم: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾، وبينت السورة نتيجة التسليم لله تعالى والتوكل عليه بقوله تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ ﴾.

وبما أن من محاور السورة أيضا تشريف النبي ﷺ وبيان قدره فقصة الأحزاب فيها أبلغ تشريف وتأييد لهذا النبي الكريم حيث نصره الله تعالى بجنوده من الملائكة الكرام وبالريح وبالخندق، نصره الله وأيده على الأحزاب من قريش وغطفان واليهود الذين أتوا مع الأحزاب والذين نقضوا العهد في المدينة وعلى الأعداء الداخليين من المنافقين، فوضعت حدا لكل هؤلاء ولذلك كانت غزوة الأحزاب حدا فاصلا لمرحلة جديدة، فأعلن النبي ﷺ أنه لن يأتي أحد بعد هذه الغزوة ليغزو المسلمين بل هم سيقومون بغزو أعدائهم.

ب- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

كما افتتحت السورة بنداء خير الخلق محمد ﷺ وأمره بالتقوى التي هي الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، **ختمت السورة** بأمر المؤمنين بتقوى الله تعالى وبالحث على الالتزام بالأمانة **وبيان عقوبة من خانها وجزاء من التزم بأدائها**. وكما اختتمت **الآية الأولى من السورة باسمي الحكيم والعليم اختتمت السورة باسمي الغفور والرحيم ليستدل بذلك على حكمة الله وعلمه فيما أمر ونهى وقضاه وقدره مما**

ذكر في هذه السورة، وكيف وفق الله المؤمنين وخذل الكافرين والمنافقين الذين خرجوا عن سنة الله تعالى في الكون، ثم ختمت السورة بالمغفرة والرحمة لأن الله تعالى يعلم تقصير عباده في أداء الأمانة فبذلك يطمعون في عفوه وغفرانه ويرجون رحمته وجنته.

ج- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة السورة التي قبلها:

يقول أبو حيان: «ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة وهو أنه حكى أنهم يستعجلون الفتح وهو الفصل بينهم، وأخبر تعالى أنه يوم الفتح لا ينفعهم إيمانهم، فأمره في أول هذه السورة بتقوى الله ونهاه عن طاعة الكفار والمنافقين فيما أرادوا به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ عليماً بالصواب من الخطأ والمصلحة من المفسدة، حكيماً لا يضع الأشياء إلا مواضعها منوطة بالحكمة». [(١)]

ووجه اتصالها بما قبلها على ما قاله الجلال السيوطي هو تشابه مطلع هذه ومقطع تلك «فإن تلك ختمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين وانتظار عذابهم، وهذه بدئت بأمره عليه الصلاة والسلام بالتقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، واتباع ما أوحى إليه والتوكل عليه عز وجل». [(٢)]

(١) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط،، ج: ٧، ص:٢٠٦.
(٢) الألوسي، روح المعاني، ج:٢١، ص: ١٤٣، والبقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ٦٧.



المقطع الأول

افتتاحية سورة الأحزاب

أمر النبي ﷺ بتقوى الله تعالى واتباع الوحي والتوكل على الله ومخالفة الكفار والمنافقين

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

أولاً: سبب النزول:

روي في أسباب نزول الآيات السابقة روايات عديدة منها: ما أخرجه «ابن جرير من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ إلى أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم، وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾»[1] وروي «أنّ النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان يحب إسلام اليهود قريظة والنضير وبني قينقاع وقد بايعه أناس منهم على النفاق فكان يلين لهم جانبه ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه وكان يسمع منهم فنزلت». [2]

ثانياً: المعنى الإجمالي للافتتاحية:

ينادي الله تعالى نبيه ﷺ بأجمل نداء وألطفه آمرا له أن يتقي الله تعالى بالالتزام بطاعته وأداء فرائضه والانتهاء عن محارمه والابتعاد عن حدوده، ونهاه أن يطيع الكافرين عامة وخصوصا أولئك الذين يطلبون من النبي ﷺ أن يطرد من معه من المؤمنين الضعفاء، ونهاه أن يطيع المنافقين الذين يظهرون الإيمان بالله والنصيحة للرسول وهم يقصدون إيذاء المؤمنين

---

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٥٦٠.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص:٥٢٧.

والإضرار بهم فنهاه الله أن يقبل رأيهم ومشورتهم لأنه سبحانه العليم الحكيم فهو يعلم بأنهم أعداء ألداء ويعلم ما تضمره نفوسهم وما تنطوي عليه من الشر، وهو حكيم في تدبير أمرك وأمر أصحابك ودينك وغير ذلك من تدبير جميع خلقه. ثم يأمر الله رسوله بأن يعمل بما أنزل الله عليه من وحي فهو سبحانه خبير بما تعمل به أنت وأصحابك من هذا القرآن وغير ذلك من أمور، وهو سبحانه خبير لا يخفى عليه من ذلك شيء وهو مجازيكم على ذلك بما وعدكم من الجزاء، ولهذا فوض يا محمد إلى الله أمرك وثق به وكفى بالله وكيلا أي وحسبك بالله فيما يأمرك وكيلا وحفيظا بك. [(١)]

ثالثاً: أسلوب القرآن الكريم في مخاطبة النبي ﷺ

يخاطب الله تعالى سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بأجمل خطاب فيناديه ويشرفه ويعلي من شأنه بخطابه بوصف النبوة، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم إذا أرد أن يخاطب النبي يشرفه بذكر النبوة أو الرسالة دون ذكر اسمه تنويها بفضله، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وبما أن أحد أهم محاور السورة هو تشريف النبي ﷺ فقد ذكرت السورة أوصافه بالنبي خمس عشرة مرة وبالرسول ثلاث عشرة مرة، وبخاتم النبيين وشاهد ومبشر ونذير وداع إلى الله وسراج منير مرة واحدة[(٢)]، وكذلك ذكرت أمور عديدة في هذه السورة الكريمة تدل على مكانته العظيمة عند الله تعالى كجعل ولايته عامة على كل المؤمنين، وأنه أولى بهم من أنفسهم، وإعلامنا بصلاة الله تعالى عليه وملائكته، وأمرنا بالصلاة والسلام عليه، وغير ذلك من أمور نوضحها لاحقاً.

ولم يناد الله تعالى النبي باسمه كما نادى الآخرين بيا آدم ويا موسى ويا عيسى ويا داود تعظيما له، وأما عندما ذكر اسمه فإنما ذكره في معرض الإخبار كما في قوله تعالى: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج:٢١، ص: ١١٧، وقارن بالسعدي، تفسير السعدي، ج: ١، ص: ٦٥٨.

(٢) عبد الحميد طهماز، من موضوعات سور القرآن الكريم: في سورة السجدة وسورة الأحزاب وسورة سبأ وسورة فاطر، (دمشق: دار القلم، ١٤١٧/ ١٩٩٦)، ط١، ص: ٣٥-٣٦.



اللَّهِ) [الفتح: ٢٩] ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وذلك لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به فلا تفاوت بين النداء والإخبار. [١] ومما يدل على أهمية المنادى كما يقول الفخر الرازي هو أسلوب النداء بـ(يا أي) دون يا، فقولك: يا رجل، غير قولك: يا أيها الرجل، إذ الثاني ينبئ عن خطر خطب المنادى له. [٢]

رابعاً: دلالة أمر النبي ﷺ بالتقوى:

إن النبي ﷺ هو أتقى الناس وأخشاهم لله تعالى، فهو قد طبق هذه الآية تطبيقا قوليا وفعليا من خلال حياته مع زوجاته ومع المجتمع الذي يعيش فيه، وسيرته خير شاهد على ذلك. فعن عائشة قالت: دخلت امرأة عثمان بن مظعون واسمها خولة بنت حكيم عليّ وهي باذة الهيئة، فسألتها ما شأنك؟ فقالت: زوجي يقوم الليل ويصوم النهار، فدخل النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فلقي النبي ﷺ فقال: (يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا أما لك فيّ أسوة فوالله إن أخشاكم لله وأحفظكم لحدوده لأنا)، [٣] وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها: (أَنَّ رَجُلاً جاء إلى النبي ﷺ يَسْتَفْتِيهِ وَهِيَ تَسْمَعُ من وَرَاءِ الْبَابِ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وأنا جُنُبٌ أَفَأَصُومُ؟ فقال رسول اللَّهِ ﷺ وأنا تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وأنا جُنُبٌ فَأَصُومُ فقال لَسْتَ مِثْلَنَا يا رَسُولَ اللَّهِ قد غَفَرَ الله لك ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، فقال: والله إني لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي). [٤] ولهذا قال المفسرون إن أمر النبي بالتقوى وهو متق لله فعلا إنما هو أمر له بالثبات والدوام عليه وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره، [٥] وكذلك هو تنبيه لأتباعه من المؤمنين بأنه إذا كان النبي مأمورا بالتقوى فهم مأمورون به من باب أولى، [٦] لأن «تقوى الله والشعور برقابته واستشعار

(١) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص٥٢٧.
(٢) الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٦٤.
(٣) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٣، ص: ١٤٥.
(٤) مسلم، صحيح مسلم، ج: ٢، ص: ٧٨١، رقم الحديث: ١١٠٨.
(٥) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص٥٢٧.
(٦) ذكر الرازي دلالات أخرى لأمر الله تعالى نبيه بالتقوى، فانظر الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٦٥.

جلاله هي القاعدة الأولى، وهي الحارس القائم في أعماق الضمير على التشريع والتنفيذ»، [١] وهي التي يناط بها كل تكليف في الإسلام وكل توجيه، ومما يدل على ذلك هو قوله تعالى مخاطبا أمة النبي ﷺ في ختام الآية الثانية:﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾. [٢]

ومن أهم ثمار التقوى الالتزام بأوامر الله تعالى واجتناب الطاغوت المتمثل بطاعة الكافرين والمنافقين الذين لا يحبون الخير والرقي للمسلمين، فهم كما قال الله تعالى: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقد أثبت الزمان الذي نعيش فيه صدق هذا فالكفار والمنافقون فينا هم ما بين مستعمر لبلادنا، أو ناهب لخيراتنا، أو مستهزئ بديننا وقليل منهم المنصف فكيف نطيعهم في أمور تتعلق بمصيرنا وثقافتنا وعقيدتنا؟ ويلاحظ أن الله تعالى وصف المعارضين بالكفار هنا للدلالة على أنهم منكرون لحقوق الله تعالى ولحقوق العباد فكيف بمن هذا شأنه أن يطاع؟

وقد ختمت الآية الكريمة بفاصلة دالة على اسمين من أسماء الله الحسنى وهما: العليم والحكيم، وذلك إشارة إلى أن التقوى يجب أن تكون في أعلى مراتبها لأن الله تعالى عليم بذات الصدور[٣] ويعلم السر وأخفى، ويعلم المتقي من غير المتقي حيث إن مصدر التقوى قلبي قبل أن يكون ظاهريا، فعن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: (لَا تَحَاسَدُوا ولا تَنَاجَشُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَدَابَرُوا ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ، **التَّقْوَى ها هنا وَيُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**، بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ). [٤] وفي اختتام هذه الآية

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج:٢١، ص:٢٨٢٢.

(٢) عبد الحميد طهماز، من موضوعات سور القرآن الكريم: في سورة السجدة وسورة الأحزاب وسورة سبأ وسورة فاطر، ص: ٤٤.

(٣) فانظر الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٦٥.

(٤) مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث: ٢٥٦٤.

بفاصلة: ﴿ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾إشارة إلى أن الأمر بترك طاعة الكافرين والمنافقين فيه حكمة عظيمة لا يعلمها إلا العليم الحكيم لأن المطيع لهم لا يعلم الغيب ولا يعلم النتائج المترتبة على طاعتهم، فكان هذا الأمر تحذيرا مسبقا للمؤمنين من طاعتهم حتى لا يفشلوا ويندموا بعد فوات الأوان.

خامساً: المناسبة بين المقطع الأول ومحور السورة:

وهذه الآيات تتناسب مع محور السورة العام حيث إنها تحث النبي ﷺ على التعلق بالله تعالى وحده دون غيره تقوى واعتمادا وتوكلا، وأما تناسب الآيات مع بعضها فنرى بأن الافتتاح بالأمر بالتقوى فيه دلالة على أمر عظيم يأتي بعده هو الابتعاد عن طاعة الكافرين والمنافقين واتباع أوامر الوحي والتوكل على الله حق التوكل، وفيه تهيئة أن «تشريعا عظيما سيلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه وعلى بعض أمته، وأنه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين. وفائدة هذا الأمر والنهي التشهير لهم بأن النبي ﷺ لا يقبل أقوالهم لييأسوا من ذلك لأنهم كانوا يدبرون مع المشركين المكايد ويظهرون أنهم ينصحون النبي ﷺ ويلحون عليه بالطلبات نصحا تظاهرا بالإسلام». [(١)]

سادساً: من الفوائد المستنبطة من المقطع الأول:

* تعظيم النبي ﷺ عند ذكره بوصف النبوة والصلاة والسلام عليه.
* أهمية التقوى في حياة المسلم لأن عليها ينبني كل شيء في تصرفات الإنسان وسلوكه.
* النهي عن طاعة المعادين للإسلام من الكفار والمنافقين الذين لا يحبون الخير للمسلمين.
* ضرورة اتباع الوحي الرباني فيما يأمر وينهى.
* لزوم الاعتماد على الله تعالى والثقة به والتوكل عليه حق التوكل في كل الأمور، ومن اعتمد عليه أفلح.

---

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج: ٢١، ص: ٢٥٠-٢٥١.

المقطع الثاني

تصحيح مفاهيم اجتماعية وأسرية خاطئة

قال الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ ثلاثة أقوال:

١- أخرج ابن أبي حاتم من طريق ضعيف عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة قالوا: كان رجل يدعى ذا القلبين فنزلت، وأخرج ابن جرير من طريق قتادة عن الحسن مثله وزاد وكان يقول: لي نفس تأمرني ونفس تنهاني. وأخرج من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: نزلت في رجل من بني فهم قال: إن في جوفي لقلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي: أنها نزلت في رجل من قريش من بني جمح يقال له جميل بن معمر.

٢- أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال: قام النبي ﷺ يوما يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين قلبا معكم وقلبا معه، فأنزل الله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ ﴾.[1]

٣- أنه عنى بذلك زيد بن حارثة من أجل أن رسول الله ﷺ كان تبناه فضرب الله بذلك مثلا كأنه يقول: كما أنه ليس لرجل قلبان، فكذلك ليس ابن رجل آخر ابنك. وقد رجح الطبري

(١) السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، ج:١، ص:١٧١.



السبب الذي يقول إنها نزلت في الرجل الذي ادعى أن له قلبين، ولم يمنع الطبري جواز السبب الثاني إلا أن المقصود العام هو أن الله نفى عن خلقه من الرجال أن يكونوا بتلك الصفة. (١)

ثانيا: المناسبة بين المقطع الثاني والمقطع الأول:

لما كان موضوع المقطع الأول الحث على التقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين بدأ هنا يبطل بعض معتقدات الكافرين وعاداتهم كالاعتقاد الباطل بوجود قلبين لدى الأذكياء من البشر، ويبين أن تشبيه الرجل لزوجه في الحرمة كظهر الأم غير صحيح ومحرم، ويمهد بذلك لتحريم التبني بنفي كون الولد المتبى ابنا حقيقيا، وكان لهذا علاقة بزيد بن حارثة الذي كان للمنافقين فيه نصيب، وما كل تلك العادات والتقاليد الجاهلية إلا دعاوى لا أساس لها من الصحة بحيث لا تتجاوز الأفواه.

ثالثا: المعنى الإجمالي للمقطع:

افتتحت الآية بنفي أن يكون لرجل قلبان في جوفه وبيان الحقيقة في ذلك تصحيحا لما كان بعض الناس في الجاهلية يعتقدونه، وذلك تمهيدا لبيان حقيقة الظهار وهو بأن يحرم الرجل زوجته على نفسه بأن يقول: أنت علي كظهر أمي، فهذا القول محرم ومنكر ولا يجعل الزوجة أما، وتمهيدا لتحريم التبني واعتباره لا حقيقة له من حيث ثبوت النسب، فكل هذه الأمور ادعاءات لا أساس لها من الصحة فهي أقوال بالفم لا تغير شيئا من حقيقة الواقع. والقرآن يختم هذه الآية بفاصلة رائعة تناسب السياق بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ فما قاله الله تعالى في نفي أن يكون لرجل أو امرأة قلبان، وفي نفي أن تجعل الزوجة كالأم في الحرمة بمجرد التلفظ بكلمة، وفي نفي أن يجعل تبني شخص غريب ابنا حقيقيا، فهذا القول هو الحق لاغير لأن قائله هو الحق تعالى ولا يصدر عنه إلا الحق، وهو سبحانه يهدينا الطريق المستقيم

(١) الطبري، جامع البيان، ج:٢١، ص: ١١٩.



والصائب في كل الأمور لأنه سبحانه يعلم السر وأخفى وهو خلق الإنسان وهو يعلم أعضاءه ويعلم كل شيء ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾. فالطريق الصحيح والعدل عند الله تعالى هو أن ننسب هؤلاء المتبنين لآبائهم الحقيقيين، وأن نحافظ على الأنساب، ومن هنا كان الذي يسلك غير هذا السبيل ضالا، فعن أبي ذَرٍّ أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: (ليس من رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أبيه وهو يَعْلَمُهُ إلا كَفَرَ، وَمَنْ ادَّعَى ما ليس له فَلَيْسَ مِنَّا وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّارِ، وَمَنْ دَعَا رَجُلاً بِالْكُفْرِ أو قال عَدُوَّ اللَّهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إلا حَارَ عليه). [١] وإذا لم يعرف للمتبنى أب فيقال له: يا أخي ويا مولاي، وليس يا ابني ولهذا لما نزلت هذه الآية لم يعد الصحابة يدعون زيد بن حارثة بزيد ابن محمد بل نسبوه لأبيه الحقيقي، وإن لم يعرفوا آباءهم فهم إخوانهم في الدين ومواليهم أي عوضا عما فاتهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء وتبعتهم ابنة حمزة رضي الله عنها تنادي ياعم ياعم فأخذها علي ﷺ وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك فاحتملتها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنهم في أيهم يكفلها فكل أدلى بحجة فقال علي ﷺ: أنا أحق بها وهي ابنة عمي، وقال زيد: ابنة أخي، وقال جعفر بن أبي طالب ابنة عمي وخالتها تحتي، يعني أسماء بنت عميس فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم وقال لعلي ﷺ: أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر ﷺ: أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد ﷺ: أنت أخونا ومولانا). [٢] وقد رفع الله الحرج والإثم عمن دعا إنسانا لغير أبيه خطأ لأن الله غفور رحيم، أما من تعمد الخطأ فعليه إثم، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)، [٣] ولهذا ناسب أن تختتم الآية بالفاصلة: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ مراعاة للسياق قبلها.

---

(١) مسلم، صحيح مسلم، ج: ١، ص: ٦٩، رقم الحديث: ٦١. وأخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج:٣، ص: ١٢٩٢، رقم الحديث: ٣٣١٧.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٤٦٧.

(٣) الطبراني، المستدرك على الصحيحين، ج:٢، ص: ٢١٦، رقم الحديث: ٢٨٠١، وابن حبان، صحيح ابن حبان، ج:١٦، ص:٢٠٢، رقم الحديث: ٧٢١٩.

رابعا: المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة:

بما أن من محاور السورة الرئيسة الحث على الإخلاص لله تعالى، لذا فقد ضرب الله المثل لمن ينزع إلى جهتين متناقضتين بأن يدعي أن ظهر زوجته كظهر أمه، وأن من ليس ابنه ابنا له كالذي يدعي باطلا بأنه يتصرف بقلبين في جوفه، وذلك ليؤكد الله تعالى ضرورة الإخلاص له والالتزام بالواقع والحقيقة. وإذا كان للإنسان قلب واحد، «فلا بد له من منهج واحد يسير عليه. ولا بد له من تصور كلي واحد للحياة وللوجود يستمد منه»، [1] **وهذا المنهج هو الإسلام.**

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثاني:

* إطلاق المسميات الحقيقية على الأشياء من غير تبديل أو تغيير يؤدي لقلب الحقائق، فعندما يطلق الرجل على شخص أنه ابن لفلان وهو ليس كذلك فهذا تغيير للحقيقة.
* القرآن الكريم هو مصدر الحق لأنه من الله الحق سبحانه وتعالى، وقد تأكد علميا أنه لا يمكن للإنسان أن يعيش بقلبين.
* لا عبرة للتقاليد والعادات المنتشرة بين الناس والجارية على أفواههم إذا ما خالفت الحقيقة أو الشريعة.
* ضرورة أن يوحد المسلم هدفه تجاه خالقه وهو الله تعالى، فيطيعه في كل ما أمر، وينتهي عن كل ما نهى عنه، فلا يجوز للمسلم أن يأخذ من مصدر يخالف القرآن أو السنة، سواء كان المصدر من الشرق أو من الغرب، فالله تعالى جعل منهجا واحدا للإنسان كي يتبعه ولا يمكن أن يتبع منهجين متناقضين في آن واحد إذ لم يجعل الله لرجل من قلبين في جوفه.
* رفع الإسلام الظلم عن المرأة بتحريم الظهار على صورته في الجاهلية، ورتب عليه أحكاما قاسية في الإسلام كي يبتعد عنه المسلم لأن فيه ظلما للمرأة وبذلك يكون الإسلام أول من دافع عن حقوق المرأة.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج:٢١، ص:٢٨٢٨.

* حرم الإسلام التبني لأنه يخلط بين الأنساب وفيه قلب للحقائق، وهو يؤدي لمفاسد كثيرة أخرى، فهذه السورة أساس في أمور تنظيم الأسرة.
* بما أنه من صفات الله تعالى المغفرة والرحمة، فالله تعالى لا يؤاخذ الإنسان على الخطأ ولكن يؤاخذه على تعمد الخطأ.

المقطع الثالث

الولاية العامة للنبي ﷺ على المؤمنين وأخذ الله الميثاق من النبي ﷺ ومن النبيين عليهم السلام لتبليغ الدعوة

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٨﴾ ﴾

أولا: العلاقة بين المقطع الثالث والثاني:

بعد أن منع الإسلام التبني وأوضح أن العلاقة الحقيقية تكون بالنسب فقط، **ناسب** أن يبين القرآن أن قرابة الأخوة الإيمانية بين المؤمنين التي كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بناء عليها، والتي اقتضها مرحلة صعبة تأسيسية في حياة المسلمين، **ناسب** أن ينسخ هذا الحكم لتعود الأمور إلى أصلها وهو التوارث بناء على صلة النسب مع بقاء الأخوة الإيمانية. وكذلك **لما** منع الإسلام التبني **ناسب** أن يبين ماهية ولاية النبي ﷺ بالنسبة لزيد بن حارثة خاصة والمؤمنين عامة، فبين القرآن أن هذه الولاية هي ولاية عامة على كل المؤمنين وأنه ﷺ أولى بهم من أنفسهم وعليهم أن يقدموه على أنفسهم لأنه السبب في إخراجهم من الظلمات إلى النور، فعلاقته ﷺ بالمؤمنين أعظم من أي علاقة فهو أب لهم ورحيم ورؤوف بهم، وكذلك قررت الآية الأمومة الروحية لزوجات النبي ﷺ وذلك حرمة له ﷺ وتشريفا لقدره.

ثانيا: المعنى الإجمالي للمقطع:

جعل الله تعالى ولاية النبي ﷺ عامة على المؤمنين لأنه يستحق هذه المكانة وهو أولى بهم من أنفسهم في كل أمور الدين والدنيا لأنه أعلم بمصالحهم وأحرص عليهم من أنفسهم، ولهذا كان مقدما على اختيارهم لأنفسهم كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾، [النساء: ٦٥]، وهو كما وصفه الله تعالى: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فقد جمع النبي ﷺ بين حرص الوالد على مصلحة ولده وعطف الأم ورحمتها بأولادها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: إنما مَثَلي وَمَثَلُ الناس كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَاراً فلما أَضَاءَتْ ما حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ التي تَقَعُ في النَّارِ يَقَعْنَ فيها فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فيها فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عن النَّارِ وأنتم تَقَحَّمُونَ فيها)[1]، وقال النبي ﷺ: (ما من مُؤْمِنٍ إلا وأنا أَوْلَى بِهِ في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اقرؤوا إن شِئْتُمْ: (النبي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ من أَنْفُسِهِمْ)، فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالاً فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ من كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أو ضَيَاعاً فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ)، [2] وقال: (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم)، [3] وقال ﷺ أيضا: (لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه من وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ). [4] فاللهم اجعل حبه في قلوبنا أكثر من حبنا لأنفسنا وأموالنا وأولادنا والناس أجمعين. وهذه الولاية العامة تكون في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد بينتها الأحاديث السابقة، وأما في الآخرة فهي تتجلى بشفاعة النبي ﷺ للمؤمنين به، حتى قال بعضهم: «أرجى آية في كتاب الله عز وجل ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج:٥، ص: ٢٣٧٩، رقم الحديث: ٦١١٨، ومسلم، صحيح مسلم، ج:٤ ص: ١٧٨٩، رقم الحديث: ٢٢٨٤.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، ج:٢، ص:٨٤٥، رقم الحديث: ٢٢٦٩.

(٣) أبو داود، سنن أبي داود، ج: ١، ص: ٣، رقم الحديث:١١.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، ج:١، ص:١٤، رقم الحديث: ١٤.

رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥]، وذلك أن رسول الله ﷺ لا يرضى أن يبقى أحد من أمته في النار».[١] وبما أن كل من اتصل بهذا النبي بصلة ما صارت له أهمية واحترام، فمن باب أولى أن يكون لزوجاته التقدير والاحترام بأن جعلهن الله تعالى **أمهات للمؤمنين** من حيث حرمة التزوج بهن بعد موت النبي ﷺ ومن حيث احترامهن. وقد غلظ القرآن العقوبة لمن لا يحترم أمهات المؤمنين فيرمي إحداهن بفاحشة فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ٢٣]، فهذه الآية نزلت في عائشة خاصة، وفي أمهات المؤمنين عامة، فلم يجعل الله تعالى لمن قذفهن توبة ولعنه الله تعالى قاله ابن عباس والضحاك[٢]، فرضي الله عنهن أجمعين. ثم انتقلت الآية الكريمة للكلام عن ولاية المؤمنين بعضهم لبعض فنسخت حكم التوارث الذي كان في بداية الإسلام بين المهاجرين والأنصار وأرجعت الأمور إلى نصابها فجعلت التوارث مبنيا على القرابة النسبية، فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في التوارث خصوصا، فهم أولى من غيرهم من المؤمنين ممن لا قرابة نسبية لهم، إلا إذا أراد المورث أن يوصي للبعيد بها دون الثلث فقد سمح بذلك، وإن مضمون هذا الحكم قضاه الله تعالى وكتبه في اللوح المحفوظ.

ثم أوضحت الآية الثانية أمرا خطيرا وهو أخذ الله العهد القوي والعقد من النبي ﷺ ومن إخوانه الأنبياء عليهم السلام كي يؤدوا وظيفة النبوة والتبليغ على أحسن وجه في المنشط والمكره، وبأن يعبدوا الله ويدعوا الخلق إلى عبادة الله عز وجل، وأن يبشر كل واحد منهم بمن بعده،[٣] وهذا يدل على أمرين أولهما: عظم وخطر أمر النبوة، وثانيهما: هو مكانة خاتم الأنبياء ﷺ عند الله فهو مقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا أخذ الله العهد منهم في مكان آخر أن يؤمنوا بالنبي ﷺ إذا هو بعث في زمانهم فقال تعالى: ﴿ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٢، ص: ٢٠٩.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٢، ص: ٢٠٩.

(٣) السمرقندي، تفسير السمرقندي، ج:٣، ص:٤٢.

مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ [آل عمران: ٨١]. ونتيجة هذا العهد هو إقامة الحجة فيثيب الصادقين في وفاء العهد والمخلصين في إيمانهم، ويعذب الكافرين المنكرين عذابا أليما.

ثالثا: المناسبة بين المقطع الثالث ومحور السورة:

لما كان أحد محاور السورة الرئيسة هو بيان مكانة النبي ﷺ، فقد أوضحت هذه الآية بشكل صريح أن النبي ﷺ هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأن عليهم أن يقدموه على أنفسهم في كل شيء، ويتبع مكانة النبي الرفيعة زوجاته الشريفات فهن من خير نساء العالمين ولهذا استحققن أن يعطين لقب «أمهات المؤمنين» رضي الله عنهن أجمعين. وكذلك بينت الآية التي تلت آية الولاية مكانته ﷺ بتقديم ذكره على ذكر الأنبياء في أخذ الميثاق بتبليغ الدعوة، وبأخذ الميثاق من الأنبياء عليهم السلام بوجوب الإيمان بالرسول ﷺ ونصرته.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثالث:

* على المؤمن أن يطيع النبي ﷺ طاعة لا تردد فيها، وعليه أن يحبه أكثر من نفسه، وأن يجاهد نفسه في ذلك، لأنه مقدم على كل شيء في الحياة بعد الله تعالى.
* تتجلى مكانة النبي ﷺ من خلال هاتين الآيتين: إذ أعطته الأولى مكانة الولاية على كل المؤمنين، والثانية قدمته على جميع الأنبياء مكانة بتقديم ذكره على ذكرهم مع أنه متأخر زمنا عنهم، وفي هذا رد واضح على الجهلاء الذين لا يعرفون مكانة هذا النبي الكريم ﷺ.
* لذوي الأرحام حق عظيم على الإنسان، إذ جعل الله تعالى لهم الأولوية على غيرهم، ومن هنا مدح الإسلام الذين يصلون أرحامهم ويتقون الله فيهم قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِۦ وَالْأَرْحَامَ ﴾ [النساء: ١].
* لامانع أن يحسن الإنسان لغير أقاربه بعد أن يقوم بحق الأقرباء فهم الأصل ويأتي بعدهم غيرهم.
* إن الله تعالى كتب الأشياء قبل وقوعها في اللوح المحفوظ فالمؤمن يسلم ولا يعترض وينفذ أوامر الله تعالى دونما شعور بالتردد.

* الأنبياء عليهم السلام إخوة من علات، وكلهم أتوا بدين واحد، وأيد بعضهم بعضا، وكذلك على الدعاة أن يقتدوا بهم فيؤيد بعضهم بعضا، قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة، قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: الأنبياء إخوة من علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد وليس بيننا نبي». [(١)]

المقطع الرابع

قصة غزوة الأحزاب

التذكير بنعمة النصر على الأحزاب وابتلاء المؤمنين

قال الله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

أولا: علاقة المقطع الرابع بالمقاطع السابقة:

قال سيد قطب: «يجمل في الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث، وبدأه ونهايته، قبل تفصيله وعرض مواقفه، لتبرز نعمة الله التي يذكرهم بها، ويطلب إليهم أن يتذكروها؛ وليظهر أن الله الذي يأمر المؤمنين باتباع وحيه، والتوكل عليه وحده، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، هو الذي يحمي القائمين على دعوته ومنهجه، من عدوان الكافرين والمنافقين». [(٢)] وفي نصر المسلمين في هذه الغزوة نعمة عظيمة يمن الله تعالى بها على عباده المؤمنين المخلصين في تقواهم التي أمر الله تعالى بها في أول السورة

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٣، ص: ١٢٧٠، رقم الحديث: ٣٢٥٩، ومسلم، صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٨٣٧، رقم الحديث: ٢٣٦٥.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٣٦.

فكان النصر الإلهي نتيجة لتلك التقوى والتوكل الحقيقي على الله تعالى، فهذه النعمة تذكر المؤمن بأن الخوف الحقيقي يجب أن يكون من الله الخالق وحده لا من خلقه لأن الأمر كله بيد الله تعالى، فمن كان مع الله كان معه كل شيء، ومن لم يكن معه الله فلا شيء معه ولو ملك كل مقومات القوة الظاهرية، لذا يقول الفخر الرازي في مناسبة هذه الآيات لما قبلها: «تحقيقاً لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد... والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغي أن لا يخاف العبد غير ربه فإنه كاف أمره، ولا يأمن مكره فإنه قادر على كل ممكن»[(١)].

ثانيا: المعنى الإجمالي للمقطع:

يذكر الله تعالى عباده المؤمنين بنعمة من نعمه العظيمة عليهم، إذ نصرهم في غزوة الأحزاب وهم أذلة ضعفاء يخافون أن يغلبوا من كثرة عدوهم الذي كان زهاء اثنتي عشرة ألفا من قريش وغطفان وقبيلتي بني النضير وقريظة من اليهود، وتذكير النعمة يراد به شكران المنعم سبحانه، فهو الذي أيد المؤمنين ونصرهم بجنوده التي لايعلمها إلا هو، وفي هذه المرة كانت الريح هي أهم تلك الجنود وأبرزها حيث حسمت الريح المعركة بعد أن استمر حصار المدينة زهاء خمسة وعشرين يوما، حسمت الريح المعركة لصالح المسلمين، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور)، [(٢)] وأرسل الله تعالى نوعا آخر من الجنود وهم الملائكة لنجدة المسلمين «وكانوا ألفاً، بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاتية فأخصرتهم، وسفت التراب في وجوههم، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض وقذف في قلوبهم الرعب، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة بن خويلد الأسدي أما محمد فقد بدأكم

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٧١.

(٢) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج:٤، ص:١٥٠٧، رقم الحديث: ٣٨٧٩، ومسلم، صحيح مسلم، ج:٢، ص:٦١٧، رقم الحديث: ٩٠٠، والنسائي، سنن النسائي، ج: ٦، ص: ٤٥١، رقم الحديث: ١١٤٦٧.

بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال». [١]

الله أكبر وأَعظِمْ به من نصر، الله أكبر وأَعظِمْ بها من معركة، سلاحها الفتاك هو الريح والملائكة والرعب، فمن كان معه الله سخر له ما يشاء، نصر الله المؤمنين بالرغم من إتيان الأعداء من كل الجهات فحاصروا المدينة المنورة حصارا شديدا، أتى النصر من الله البصير بأعمال المؤمنين الصادقين في نصرة دينه وذلك بعد أن اشتد الامتحان وعظم فزاغت الأبصار واضطربت القلوب وخافت وظن المؤمنون أنهم ممتحنون فخافوا من الزلل، وظن المنافقون أن المسلمين سيستأصلون، ولكن خابت ظنون المنافقين ونصر الله عباده المتقين.

واختبر المؤمنون اختبارا عظيما واضطربوا اظطرابا شديدا من هول الموقف وبسبب خيانة المنافقين واليهود وهجوم الكافرين عليهم، إلا أنهم كانوا متيقنين بنصر الله تعالى لهم، فحقق الله تعالى لهم وعده، ونصرهم على الأحزاب.

ثالثا: المناسبة بين المقطع الرابع ومحور السورة:

يتناسب الكلام عن غزوة الأحزاب مع محاور السورة في الحديث عن غزوة الأحزاب ثم في بيان مكانة النبي ﷺ وشمائله الرفيعة وأخلاقه الكريمة فقد كشفت هذه الغزوة العصيبة -التي امتحن الله تعالى فيها المسلمين امتحانا عسيرا -عن المعدن الثمين الكريم للنبي ﷺ الذي كان همه نصرة الدين والإشفاق التام والمحبة الشديدة لأصحابه الكرام من خلال اشتراكه معهم في حفر الخندق ومن خلال دعوته لهم إلى الطعام الذي أعده جابر وغير ذلك من أمور تجلت في هذه الغزوة، [٢] وكشفت أيضا عن معدن الصحابة الكرام الذين وقفوا لجانب النبي في أحلك الساعات وأشدها حيث زلزلوا زلزالا شديدا ولم يثنهم ذلك عن تأييده والتضحية

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص: ٥٣٤.

(٢) قارن بعبد الحميد طهماز، من موضوعات سور القرآن الكريم: في سورة السجدة وسورة الأحزاب وسورة سبأ وسورة فاطر، ص: ٥٥، وصالح أحمد رضا، بصائر وعبر من سيرة خير البشر، (الشارقة: جامعة الشارقة، ٢٠٠٦)، ص: ٢٧٣-٢٧٤.

في سبيل الله تعالى. وكذلك فإن نصر الله تعالى للمؤمنين في أشد حالات الضعف وتأييده لهم في أقوى حالات الوهن وقوة بطش أعدائهم عدة وعددا إذ كان الأحزاب اثني عشر ألفا من مختلف قبائل العرب واليهود كل ذلك يؤكد ضرورة الإخلاص لله تعالى والاعتماد عليه إذ إن هذا الإخلاص والتوكل على الله حق التوكل كان أحد أهم أسباب النصر حيث تجلى ذلك في سلوك النبي ﷺ الأسوة الحسنة وأصحابه الكرام، وهذا أحد أهم مقاصد السورة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾، أما المنافقون فقد محصتهم هذه الغزوة، وكشفت عن كفرهم الدفين، فميز الله بين الخبيث والطيب والكافر والمؤمن.

ثالثا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الرابع:

* أن يشكر الإنسان ربه على ما أنعم عليه من نعم كثيرة، ومهما شكر الإنسان ربه فلن يستطيع أداء هذا الشكر ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والشكر له نتائج جميلة قال الله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ ﴾ [إبراهيم: ١]، وأعظم أنواع الشكر عبادة الله وأداء الفرائض وأولها الصلاة فقد جاء عن ابن مسعود أنه قال: «من صلى الصلوات الخمس فقد شكر لله ومن دعا لوالديه عقبها فقد شكر لهما». [١] وربنا سبحانه أرأف بنا من أمهاتنا، فهو يستحق الشكر والحب لما يغذونا من نعم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي)، [٢] وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة من كن فيه آواه الله في كنفه وستر عليه برحمته وأدخله في محبته قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: من إذا أعطي شكر، وإذا قدر غفر، وإذا غضب فتر). [٣]

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج:٢، ص: ١٠، رقم الحديث: ٥٠٤.

(٢) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج: ٣، ص: ١٦٢، رقم الحديث: ٤٧١٦، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج: ١، ص:٢١٤، رقم الحديث:٤٣٣، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد فإن عمر بن راشد شيخ من أهل الحجاز من ناحية المدينة قد روى عنه أكابر المحدثين.

* أن الله تعالى يسخر لعباده المتقين أسباب النصر فيؤيدهم بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ولكن المهم هو أن ننصر الله حتى ينصرنا.
* إن الريح هي جند من جنود الله تعالى وكذلك الملائكة يرسلهم لنصرة أوليائه، كما حدث للمسلمين في غزوة الخندق.
* حسن الظن بالله تعالى ضروري فلا يظن العبد بربه إلا خيرا، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني). [١]
* الله تعالى يبتلي عباده المؤمنين بأشد أنواع البلاء حسب درجاتهم ليرفع مقاماتهم عنده، ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].
* وردت في كتب السير تفصيلات عن غزوة الخندق ارتأينا أن لا نذكرها هنا منعا للإطالة ولكننا نذكر بعض الفوائد والبصائر المستنبطة من هذه المعركة:

أ-المسلم منفتح على كل جديد نافع لأمته والحكمة ضالته أينما وجدها التقطها، ولهذا فقد أخذ النبي ﷺ بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه فحفر الخندق حول المدينة، وشكل هذا الخندق مفاجأة حربية كبيرة للأحزاب وكان أحد أهم أسباب هزيمتهم.

ب-تحققت معجزات عديدة في هذه الغزوة ومنها بركة تكثير الطعام في شاة جابر التي كفت ألفا وثمانمائة من أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا يحفرون الخندق، ومنها: «إخباره ﷺ عن أمور ستحدث في مستقبل الإسلام من فتح الشام والعراق واليمن، وهم في أضيق حال... وإرسال الله تعالى الصحابي نعيم بن مسعود ليثبط همة الأحزاب ويفرق شملهم، فقد كان من غطفان، وكان نديما لليهود في الجاهلية، وكان معروفا لقريش بوده، وفراقه لمحمد ﷺ، فاستطاع بطريقة ذكية أن يشكك اليهود بالمشركين، وغطفان بقريش، وقريشا بالطرفين». [٢]

---

(١) الحميدي، الجمع بين الصحيحين، ج: ٣، ص: ٧، رقم الحديث: ٢١٧٠.

(٢) صالح أحمد رضا، بصائر وعبر من سيرة خير البشر، ص: -٢٧٤.



ج-ظهور غدر اليهود وعداوتهم الشديدة للرسول ﷺ وذلك بتأليب بني النضير للأحزاب وبنقض بني قريظة للعهد، وهذا تصديق لقول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ [المائدة: ٨٢]، حيث إن اليهود والمشركين تحزبوا للقضاء على الإسلام في هذه الغزوة، ولكن الله تعالى خيبهم وخذلهم وأهلك طائفة منهم وهم اليهود، ولما علم النبي ﷺ بخيانة اليهود العهد قال رسول الله: (الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين)، وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين. (١)

د-ظهر النفاق في هذه الغزوة واضحا وهو ما ستبينه الآيات القادمة، وذلك أن طعمة بن أبيرق ومعتب بن قشير أخي بني عمرو بن عوف وجماعة نحو من سبعين رجلا قالوا يوم الخندق: كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز؟. (٢)

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٢٨.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٤٧، والطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٢٨.

المقطع الخامس

فضح موقف المنافقين في هذه المعركة وبيان صفاتهم القبيحة

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

أولا سبب النزول:

١- في قوله تعالى: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ فإن العلماء يذكرون حادثة حفر النبي للخندق وما بشرهم به النبي من فتوحات لبلاد فارس والروم وغيرها ثم يقولون: قال معتب بن قشير: كان محمد يرى أن يأكل من كنز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط [١] إلا قتل، هذا والله الغرور، فأنزل الله تعالى في هذا: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾. [٢]

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج:٦، ص: ٥٧٥.

(٢) السيوطي، الدر المنثور، ج:٦، ص: ٥٧٧-٥٧٨.

٢- قال أوس بن قيظي في ملأ من قومه من بني حارثة: (إن بيوتنا عورة) وهي خارجة من المدينة ائذن لنا فنرجع إلى نسائنا وأبنائنا وذرارينا فأنزل الله على رسوله حين فرغ منهم ما كانوا فيه من البلاء يذكر نعمته عليهم وكفايته إياهم بعد سوء الظن منهم ومقالة من قال من أهل النفاق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ ﴾.[(١)]

٣- قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ ﴾ إلى آخر الآية، قال: هذا يوم الأحزاب، انصرف رجل من عند رسول الله ﷺ فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف ونبيذ فقال له: أنت ها هنا في الشواء والرغيف والنبيذ ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف، فقال: هلم إلى هذا فقد بلغ بك وبصاحبك، والذي يحلف به لا يستقبلها محمد أبدا، فقال: كذبت والذي يحلف به، قال: -وكان أخاه من أبيه وأمه- أما والله لأخبرن النبي ﷺ أمرك، قال وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، قال: فوجده قد نزل جبرائيل عليه السلام بخبره: ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.[(٢)]

ثانيا: المناسبة بين المقطع الخامس والمقطع السابق:

بعد أن بين الله تعالى نعمته على عباده المؤمنين في هذه المعركة وما حدث لهم من الابتلاء العظيم، أوضح أنواع الظنون التي كانت تختلج في نفوس المنافقين وفضح أعمالهم وأوقوالهم الشنيعة وصفاتهم القبيحة التي ظهرت في هذه المعركة.

وهذه الأمور التي ذكرها الله تعالى عن المنافقين تنطبق على المنافقين في كل زمان ومكان وكما يقول سيد قطب: «فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان»،[(٣)] ذكرها الله تعالى لنا لنحذرها ونعرف صفات عدونا.

---

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج:٦، ص: ٥٨٠-٥٨١.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٣٩، وقارن بالسيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٥٨٠-٥٨١.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٣٨.

ثالثا: المعنى الإجمالي للآيات:

تبين هذه الآيات الكريمة حالة المنافقين مع الأمة الإسلامية ومع الرسول ﷺ في حالة الشدائد وتفضحهم. فتبدأ الآيات ببيان كفرهم بإنكار وعد الله الصادق فيما وعدهم الله ورسوله من نصر في بداية معركة الأحزاب، واعتبار الوعد وعدا كاذبا، ولهذا لم يكن لهم دافع للقتال لعدم إيمانهم، فمنهم من بدأ يثبط المؤمنين ويطلب منهم الرجوع إلى المدينة وترك ساحة المعركة، وقسم آخر بدأ يستأذن من الرسول للرجوع إلى المدينة وساق الأعذار الكاذبة بادعاء أن بيوتهم عورة أي مكشوفة على الأعداء فهم يريدون الرجوع إلى بيوتهم ليدافعوا عن أعراضهم وأولادهم، فنفى القرآن أن يكون كلام هؤلاء صادقا ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾، وإنما الهدف هو سوق العذر أيا كان بهدف الفرار من المعركة، وهذا هو شأن المنافق حيث يترك المؤمنين في أشد الحالات وأصعبها ليواجهوا الصعاب، فالمنافق غدار كذاب. إنهم سريعون في غدرهم وارتدادهم عن الدين، فلو أن الأحزاب اجتاحوا المدينة ودخلوها من مختلف أطرافها، ثم سيطروا على المدينة وسألوا المنافقين أن يؤيدوهم ويرتدوا، لفعلوا هذا الأمر بسرعة وبدون تردد. وغدرهم ونقضهم للعهود هو من صفاتهم المتأصلة فيهم، فهم كانوا قد عاهدوا الله من قبل المعركة أن لا يهربوا من المعركة إلا أنهم خانوا وسيسألهم الله ويحاسبهم على نقضهم العهد. وإذا كان الأجل محتما على الإنسان وله وقت محدد معلوم عند الله تعالى ولا يمكن لأحد أن يهرب منه فقد قرر القرآن الكريم أن فرار المنافقين من ساحة القتال كي لا يقتلوا أو يموتوا لن يؤخر ذلك إتيان الأجل لأن ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح: ٤]، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨]، وهم وإن توهموا أنهم قد نجوا مؤقتا من الموت إلا أنهم سيمكثون فترة زمنية يسيرة في هذه الدنيا ثم يأتيهم أجلهم الذي قضاه الله تعالى عليهم. والحقيقة أنه لا يستطيع أحد أن يعصم أحدا أو أن يمنعه من وقوع قضاء الله عليه سواء كان ذلك القضاء خيرا أم شرا، فالله تعالى مالك الملك وبيده ملكوت كل شيء. وإن الله عليم بأفعال المنافقين الشنيعة وصفاتهم القبيحة فهم يشيعون الإشاعات ليمنعوا المؤمنين ويثبطوهم

عن الذهاب للقتال في سبيل الله، ويطلبون من إخوانهم في الدين والرأي أن اتركوا ساحة القتال والتحقوا بنا في المدينة، ولا يشهدون الحرب والقتال إن شهدوا إلا تعذيرا ودفعا عن أنفسهم[١] من أن يتهمهم المؤمنون فهم يقاتلون رياء. وأما صفاتهم القبيحة الأخرى فهم أشحة عليكم و«الشح: البخل بما في الوسع مما ينفع الغير، وأصله عدم بذل المال، ويستعمل مجازا في منع المقدور من النصر أو الإعانة... والمعنى: يمنعونكم ما في وسعهم من المال أو المعونة، أي إذا حضروا البأس -وهو القتال- منعوا فائدتهم عن المسلمين ما استطاعوا، ومن ذلك شحهم بأنفسهم وكل ما يشح به»، [٢] قال الطبري: «إن الله وصف هؤلاء المنافقين بالجبن والشح ولم يخصص وصفهم من معاني الشح بمعنى دون معنى فهم كما وصفهم الله به أشحة على المؤمنين بالغنيمة والخير والنفقة في سبيل الله على أهل مسكنة المسلمين». [٣] وأما الصفة القبيحة الثانية لهؤلاء المنافقين فهي جبنهم الشديد عند رؤيتهم للأعداء في ساحة المعركة وهم يلوذون بك وينظرون نظر الهلع المختلط الذي تدور عيناه في كل الجهات المحيطة وتضطربان كاضطراب عيني الذي يغشى عليه بسبب النزع عند سكرات الموت. [٤] وأما الصفة القبيحة الثالثة لديهم فهي أنهم إذا ما انتهى القتال وذهب الخوف آذوكم وخاصموكم بكلام مستكره وبألسنة سلطة ذربة، قال يزيد بن رومان: بسطوا ألسنتهم في أذاكم وسبكم وتنقيص ما أنتم عليه من الدين. [٥] و»قال قتادة ومعناه: بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة يقولون: أعطنا أعطنا فإنا قد شهدنا معكم فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانا، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم، قال النحاس: هذا قول حسن لأن بعده أشحة على الخير». [٦] فهم أشحة على الخير أي هم

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٣٩.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج: ١٠، ص: ٢٩٥-٢٩٦.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٤٠.

(٤) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج: ١٠، ص: ٢٩٦-٢٩٧.

(٥) الألوسي، روح المعاني، ج: ٢١، ص: ١٦٥.

(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج، ١٤، ص: ١٥٤.

بخلاء حريصون على مال الغنائم إذا ظفر المؤمنون، [١] وذهب أبو حيان إلى عموم الخير. [٢]

ولأن المنافقين كفرة أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر فقد أبطل الله أعمالهم، وهذا الأمر هين وسهل على الله عز وجل. والمنافقون من شدة خوفهم يحسبون أن الأحزاب لم يذهبوا والحال أنهم تركوا حصار المدينة وذهبوا، ويتمنى المنافقون من شدة الخوف والجبن أنه إذا أتى الأحزاب وحاصروا المدينة أن يكونوا في حينها قد خرجوا إلى البادية مع الأعراب خوفا من القتل ويتمنون أن يسمعوا أخباركم بهلاككم، ولو كانوا معكم في المعركة ما نفعوكم وما قاتلوا المشركين إلا قليلا، أي إلا تعذيرا، لأنهم لا يقاتلونهم حسبة ولا رجاء ثواب، [٣] بل يقاتلون رياء فلا أجر لهم، ولو كان قتالهم لله تعالى لكان أجرهم عظيما وكثيرا.

رابعا: المناسبة بين المقطع الخامس ومحور السورة:

بما أن محور السورة يدور حول الإخلاص لله تعالى والتوكل عليه بين القرآن الكريم فئة من الناس مرضى النفوس والقلوب، لا تتقي الله تعالى ولا تخلص له سبحانه وتعالى في اعتقادها ولا في أعمالها، فهم يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، وهم يراؤون الناس في أعمالهم الصالحة وهم غير مخلصين في أداء الأعمال: ففي الصلاة: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾، وفي القتال: ﴿ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، وفي الإنفاق يبغون الشهرة، وكذلك في سائر أعمالهم. وهذا النوع من الناس لا يتوكلون على الله تعالى في أعمالهم، فهم مضطربون في إيمانهم يظنون بالله ظن السوء بدليل قولهم: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، ويخونون العهود، ويظنون أنّ باستطاعتهم الفرار من الموت الذي قضاه الله تعالى. وفي سوق صفات المنافقين هذه حث للمؤمن على الحذر من الوقوع في هذه الصفات تحقيقا للإخلاص الكامل لله تعالى. وكذلك فإن في سوق هذه الآيات عن المنافقين توضيح لعظمة النبي ﷺ في صبره على هذا

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٤١.

(٢) الألوسي، روح المعاني، ج: ٢١، ص:١٦٥.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٤٢-١٤٣.

الصنف من الناس لنقتدي به في التعامل مع المنافقين المبثوثين في الأمة الإسلامية.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الخامس:

* إن المنافق مريض القلب والنفس، قال الله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠].
* المنافق يظن بالله تعالى ورسوله ظن السوء.
* المنافق لا يقاتل عن عقيدة ولهذا إذا وجد الفرصة للهرب من أي مهمة صعبة فهو لا يتحمل المسؤولية بل يتنصل من واجباته.
* لا يحافظ المنافق على العهود مع الله تعالى، فهو يخونها وسيسأله الله ويحاسبه على ذلك يوم القيامة، ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾[الإسراء:٣٤].
* إن قدر الله تعالى لا يمكن أن يفر منه أحد، فإذا قدر الله شيئا فهو كائن لامحالة، فعلى الإنسان ألا يفر من قضاء الله بل أن يتلقاه بكامل الرضا والقبول.
* من أهم صفات المنافقين التي يجب الابتعاد عنها: الشح والبخل وعدم حب الخير للآخرين، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة: ٣٤].
* إن المنافقين جبناء إلى درجة عالية بحيث إذا وقعوا في مصيبة كالحرب تراهم مضطربين كالميت الذي ينازع في السكرات تتحول عيناه يمنة ويسرة من هول ما يعانيه.

المقطع السادس

الرسول هو الأسوة الحسنة وأصحابه الكرام هم نجوم يهتدى بهم

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

«قال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال: قال أنس: عمي أنس بن النضر ﷺ سميت به، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه وقال أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله عز وجل ما أصنع، قال فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ ﷺ، فقال له أنس ﷺ: يا أبا عمرو أين واها لريح الجنة إني أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قتل ﷺ، قال: فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع ابنة النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه، قال فنزلت هذه الآية: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾، قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضي الله عنهم ورواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة به ورواه النسائي أيضا وابن جرير من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس ﷺ به نحوه». [1]

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٤٧٦، وقال أبو عِيسَى هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، الترمذي، سنن الترمذي، ج: ٥، ص: ٣٤٨، رقم الحديث: ٣٢٠٠.

ثانيا: علاقة المقطع السادس بالمقطع السابق:

هذا عتاب من الله للمتخلفين عن رسول الله ﷺ وعسكره بالمدينة من المؤمنين به ومن غير المؤمنين، فالمؤمن عليه أن يكون مع رسول الله حيثما كان وألا يتخلف عنه لأن النبي ﷺ قدوة له حيث بذل نفسه لنصرة دين الله في خروجه إلى الخندق، [١] وأما المنافق فتقوم عليه الحجة، ولما أخبر تعالى عن المنافقين «بهذه الأحوال التي هي غاية في الدناءة، أقبل عليهم إقبالا يدلهم على تناهي الغضب، فقال مؤكدا محققا لأجل إنكارهم: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾ أيها الناس كافة الذين المنافقون في غمارهم ﴿ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ الذي جاء لإنقاذهم من كل ما يسوءكم، وجلاله من جلاله المحيط بكل جلال، وكماله من كماله العالي على كل كمال، وأشرف الخلائق، فرضيتم مخالطة الأجلاف بدل الكون معه»، [٢] ومقابل هذه الصورة القاتمة للمتخلفين عن القتال وللمثبطين عنه من المنافقين كان هناك صورة رائعة يرسمها الرسول الأسوة الحسنة وأصحابه الكرام، صورة «مطمئنة وسط الزلازل، واثقة بالله، راضية بقضاء الله، مستيقنة من نصر الله، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب»، [٣] وكذلك رسم أصحاب رسول الله صورة الواثق بنصر الله الموفي بعهد الله تعالى، فكانوا بذلك قدوة لمن يأتي بعدهم من المؤمنين على مر العصور «ونموذجا في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير». [٤]

ثالثا: المعنى الإجمالي للآيات:

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ هو أصل عظيم في وجوب

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج:٢١، ص: ١٤٣، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص: ١٥٥.

(٢) الإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م)، الطبعة الأولى، ج:٦، ص: ٩٠.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٤١.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٤٤.

الاقتداء برسول الله في كل الأمور واتباع سنته السنية، ومن لم يقتد به فقد ضل ضلالا بعيدا. فهو القدوة الحسنة لكل المسلمين في أقواله وأفعاله وأحواله، ففي غزوة الخندق بذل نفسه لنصرة دين الله فشارك في حفر الخندق، وجاع مثلما جاع المسلمون، فعن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال: (شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين) أخرجه أبو عيسى الترمذي وقال: حديث غريب، وقال ﷺ لما شج: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)، فقد ضرب النبي ﷺ المثل للمسلمين في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل فيقتدى به في جميع أفعاله ويتعزى به في جميع أحواله، ولقد شج وجهه وكسرت رباعيته وقتل عمه حمزة وجاع بطنه ولم يلف إلا صابرا محتسبا وشاكرا راضيا،[1] فألف ألف صلاة وسلام عليه، ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.[2] ومعنى الأسوة الحسنة كما يقول الزمخشري: إما أنه في نفسه أسوة حسنة أي قدوة وهو المقتدى به، وإما أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع وهي المواساة بنفسه،[3] ولهذا قال البغوي:

«اقتداء حسن أن تنصروا دين الله وتوازنوا الرسول ولا تتخلفوا عنه، وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو إذ كسرت رباعيته وجرح وجهه وقتل عمه، وأوذي بضروب من الأذى فواساكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا انتم كذلك أيضا واستنوا بسنته».[4]

والذي يقتدي برسول الله ويتخذه قدوة حسنة إنما هو ذاك المؤمن الذي يرجو ثواب الله تعالى ويخافه، ويرجو الثواب يوم القيامة ويخاف عذاب الله تعالى فيه، والمؤمن الصادق يذكر

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص: ١٥٥-١٥٦.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣ ص٤٧٥.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص: ٥٣٩.

(٤) البغوي، تفسير البغوي، ج ٣ ص ٥١٩.

الله تعالى كثيرا فإن من ذكر الله كثيرا خافه ولان قلبه ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، وذكر الله يؤدي لملازمة الطاعة، ومن ثَم يلزم عنها محبة رسوله ﷺ والاقتداء به، وفي ذكر هذه الصفات رد على المنافقين الذين لم يقتدوا برسول الله ﷺ حيث لم يتوفر لديهم الرجاء في ثواب الله تعالى والخوف من عذابه، وهم لا يذكرون الله إلا قليلا. فاللهم اجعلنا من الذاكرين الله ذكرا كثيرا، والمقتدين برسولك الكريم اقتداء صحيحا. وقد ضرب لنا أصحاب النبي مثلا عظيما في حسن الاتباع به ﷺ والالتزام بسنته السنية، فمثلا: أخرج ابن ماجه وابن أبي حاتم عن حفص بن عاصم بن عمر قال: قلت لعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: رأيتك في السفر لا تصلي قبل الصلاة ولا بعدها، فقال: يا بن أخي صحبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كذا وكذا فلم أره يصلي قبل الصلاة ولا بعدها. [(١)] وأخرج ابن ماجه عن إسحاق بن قَبِيصَةَ عن أبيه: أَنَّ عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ الْأَنْصَارِيَّ النَّقِيبَ صَاحِبَ رسول اللَّهِ ﷺ غَزَا مع مُعَاوِيَةَ أَرْضَ الرُّوم فَنَظَرَ إلى الناس وَهُمْ يَتَبَايَعُونَ كِسَرَ الذَّهَبِ بِالدَّنَانِيرِ وَكِسَرَ الْفِضَّةِ بِالدَّرَاهِم فقال: يا أَيُّهَا الناس إِنَّكُمْ تَأْكُلُونَ الرِّبَا، سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: لَا تَبْتَاعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ إلا مِثْلاً بِمِثْلٍ لَا زِيَادَةَ بَيْنَهُمَا ولا نَظِرَةَ، فقال له مُعَاوِيَةُ: يا أَبَا الْوَلِيدِ لَا أَرَى الرِّبَا في هذا إلا ما كان من نَظِرَةٍ، فقال عُبَادَةُ: أُحَدِّثُكَ عن رسول اللَّهِ ﷺ وَتُحَدِّثُنِي عن رَأْيِكَ، لَئِنْ أَخْرَجَنِي الله لَا أُسَاكِنُكَ بِأَرْضٍ لك عَلَيَّ فيها إِمْرَةٌ، فلما قَفَلَ لَحِقَ بِالْمَدِينَةِ، فقال له عُمَرُ بن الْخَطَّابِ: ما أَقْدَمَكَ يا أَبَا الْوَلِيدِ فَقَصَّ عليه الْقِصَّةَ وما قال من مُسَاكَنَتِهِ، فقال: ارْجِعْ يا أَبَا الْوَلِيدِ إلى أَرْضِكَ، فَقَبَحَ الله أَرْضاً لَسْتَ فيها وَأَمْثَالُكَ، وَكَتَبَ إلى مُعَاوِيَةَ: لَا إِمْرَةَ لك عليه، وَاحْمِلْ الناس على ما قال فإنه هو الْأَمْرُ. [(٢)] وهناك حوادث كثيرة

---

(١) مسند أبي عوانة، ج:٢، ص: ٦٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ج:١، ص:٨، رقم الحديث: ١٨. مصنف عبد الرزاق، ج: ٨، ص: ٣٤، رقم الحديث: ١٤١٩٣.

أكثر من أن تحصى تؤكد التزام الصحابة الكرام باتباع الرسول ﷺ التزاما دقيقا حتى قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا. [١]

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾.

لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهو أنهم قالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ ﴾ من الابتلاء ثم قالوا ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ ﴾، في مقابلة قول المنافقين: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[٢] فلما عاين المؤمنون جماعات الأحزاب قادمة بحماسة لمحاربتهم علموا أنهم سيبتلون بشدائد عظيمة وأنهم سينتصرون في النهاية على الأحزاب، [٣] وزادهم هذا الأمر إيمانا بالله تعالى حيث عاينوا ما وعدهم الله حسا في عالم الشهادة بعد أن سبق وأخبرهم به قبل وقوعه، وزادهم تحقق هذا الوعد تسليما بما يخبرهم به الله ورسوله من أمور غيبية أو غيرها، قال الطبري: «وعدهم بقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فأحسن الله عليهم بذلك من يقينهم وتسليمهم لأمره الثناء فقال: وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم إلا إيمانا بالله وتسليما لقضائه وأمره ورزقهم به النصر والظفر على الأعداء». [٤]وفي إظهار اسم الله واسم الرسول في قوله: ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ ﴾ زيادة تعظيم لله تعالى فلم يقل: وصدقا. وذكر الصدق هنا تأكيد للوعد الذي وعدهم الله تعالى ورسوله به، قال ابن عطية: هذا « ليس إشارة إلى ما وقع فإنهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وإنما هي إشارة إلى بشارة وهو أنهم قالوا: ﴿ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ ﴾ وقد وقع، وصدق الله في جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس. [٥] وشأن المؤمن أن يزداد إيمانه ويسلم أمره لله تعالى كلما

---

(١) البغوي، تفسير البغوي، ج: ١، ص: ١٨٢.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج: ٤، ص: ٣٧٧.

(٣) محمد فريد وجدي، المصحف المفسر، دار المعارف ص٥٥٢.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٤٤.

(٥) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج: ٤، ص: ٣٧٧.

رأى آية من آيات الله تعالى الكونية أو القرآنية. وقد جمع الله تعالى هنا لهم بين وصفي الإيمان الذي هو التصديق القلبي، والإسلام عبر كلمة تسليما والتي هي صيغة مبالغة من الإسلام، ليشير إلى أنهم سلموا لقضاء الله وقدره بجميع جوارحهم.[١]

ومقابل صورة الخائنين للعهود غير الموفين بها من المنافقين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾، يرسم القرآن لنا صورة رجال مؤمنين صادقين وفوا بعهودهم فقال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ ﴾ فمن المؤمنين الكاملي الإيمان رجال أوفوا بعهودهم مع الله تعالى، وصبروا على البأساء والضراء وحين البأس، فمنهم من وفّى بنذره فاستشهد في سبيل الله كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر وغيرهم من الصحابة الكرام، ومنهم من يتنظر إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة،[٢] كعلي بن أبي طالب وطلحة اللذين كانا حيين عند نزول هذه الآية، فعن مُوسَى بن طَلْحَةَ قال: دَخَلْتُ على مُعَاوِيَةَ فقال ألا أُبَشِّرُكَ؟ قلت: بَلَى، قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ،[٣] فهؤلاء الرجال المؤمنون ما غيروا عهد الله ولا بدلوه كما غير المنافقون، ولا نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا: ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ﴾. ونتيجة الطاعة والوفاء بالعهد أن الله تعالى يثيب أهل الصدق بسبب صدقهم، وأما الغدارون من المنافقين فيعذبهم إن شاء تعذيبهم بأن لا يوفقهم للتوبة النصوح قبل الموت، فيموتوا على الكفر، فيستوجبوا النار، أو يتوب عليهم بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، إن الله كان دائما غفورا لذنوب المسرفين على أنفسهم إذا تابوا، رحيما بهم، حيث

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ٩٢.

(٢) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: ٤٢١.

(٣) الترمذي، سنن الترمذي، ج:٥، ص: ٣٥٠، رقم الحديث: ٣٢٠٢، وقال أبو عِيسَى هذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إلا من هذا الْوَجْهِ، وَإِنَّمَا رُوِيَ عن مُوسَى بن طَلْحَةَ عن أبيه.



وفقهم للتوبة النصوح.[1]

رابعا: المناسبة بين المقطع السادس ومحور السورة:

يبين القرآن لنا هنا مكانة النبي من أمته فهو جدير بأن يؤتسى به، فهو القدوة الحقيقية لكل المؤمنين وهو الإنسان الكامل حقا. وكذلك ربى النبي ﷺ أصحابه على الصدق والوفاء بالعهود والإيمان الكامل والاعتماد على الله حق الاعتماد ليكونوا نموذجا عمليا لنا، وبسبب تطبيقهم هذه الصفات اسحقوا هذا المدح من الله تعالى، وهذان الأمران من أهم محاور السورة.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع السادس:

* أن يتخذ المسلمون من رسول الله ﷺ قدوتهم الوحيدة في الحياة.
* إن من مستلزمات الإيمان بالله واليوم الآخر اتباع الرسول ﷺ المعرف بهما حق التعريف.
* من شأن المؤمنين حقا: التصديق بما وعد الله عباده المؤمنين في القرآن من أمور غيبية وكذلك بما وعدهم وبشرهم به الصادق المصدوق ﷺ، وأن يسلموا نفوسهم لقضاء الله وقدره في الحياة الدنيا دون اعتراض.
* مدح الله تعالى أصحاب النبي ﷺ مدحا عظيما لا يمكن لأحد أن يمدحهم به أو أن يدركهم به، وذلك كي نقتدي بهم قدر الإمكان، فهم أولا رجال مؤمنون حقا، صادقون في عهودهم مع الله تعالى، باعوا نفوسهم له وضحوا بها في سبيله حتى آخر لحظة من حياتهم. ولهذا وجب تعظيمهم واحترامهم رضي الله عنهم أجمعين.
* إن خير ربح هو في بيع النفس والمال الذي نملكه لله تعالى الذي هو المالك الحقيقي لكل شيء، فمن باع نفسه وماله لله يربح الجنة ويرتاح من متاعب الحياة ووطأة تكاليفها ويرتاح من الخوف من المستقبل، لأن المؤمن يسعى ثم يترك النتائج دائما للخالق سبحانه ويسلم له

---

(١) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: ٤٢١.



كل أموره، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١].

* إن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وكذلك من عمل سوءا يجز به، وإن باب التوبة مفتوح لمن أراد أن يدخله حتى ولو اقترف أكبر الكبائر فإن الله تواب وغفور رحيم سبحانه قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧]، فسبحان من سبقت رحمته غضبه.

المقطع السابع

نتيجة المعركة ونتيجة خيانة اليهود

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

أولا: المعنى الإجمالي للآيات:

رد الله تعالى الذين كفروا من قريش وغطفان خائبين خاسرين مغتاظين مغمومين لم ينالوا الخير في الدنيا بالنصر على المسلمين، ولا في الآخرة، وكفى الله القوي العزيز الذي لا يغلب المؤمنين القتال بأن أرسل على الأحزاب الريح والجنود التي لم يروها وهم الملائكة. وهزم اليهود الذين أيدوا الأحزاب بأن أنزلهم أذلة صاغرين من حصونهم، فأقام النبيُ ﷺ عليهم حكم الله تعالى فيهم من فوق سبع سماوات فقتّل الرجال وأسر النساء والأطفال. وأورث الله تعالى القدير على كل شيء المسلمين أرضهم الغنية بالزراعة والنخيل وبيوتهم، ووعد الله

تعالى المؤمنين بأن يرثوا في المستقبل أرضا لم يطؤوها بعد كما قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥]، وقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا ما زوى لي منها)[1] ففتح المسلمون بعد فترة وجيزة من نزول هذه الآية الكريمة بلاد فارس والروم. وكذلك قدم قوله: (وأنزل) على قوله (وقذف) وإن كان قذف الرعب قبل الإنزال وذلك لأن الاهتمام والفرح بذكر الإنزال أكثر. [2] وكذلك قدّم مفعول (تقتلون) وهو: (فريقا)، لأن القتل وقع على الرجال وكانوا مشهورين، وكان الاعتناء بحالهم شديدا ولم يكن في المأسورين هذا الاعتناء بل بقاؤهم هناك بالأسر أشد، وكذلك للاهتمام بذكره لأن ذلك الفريق هم رجال القبيلة الذين بقتلهم يتم الاستيلاء على الأرض والأموال والأسرى ولذلك لم يقدم مفعول (تأسرون) إذ لا داعي إلى تقديمه فهو على أصله، [3] ولأنه لو قال: (وفريقاً تأسرون) فإذا سمع السامع قوله (وفريقاً) ربما ظن أنه يقال بعده يطلقون أو لا يقدرون على أسرهم. [4] ومن النكات في الآية أن فيها ترتيبا بناء على ما حدث في الواقع فإن المؤمنين أولاً تملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها، ثم تملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ قلاعهم، ثم أموالهم التي كانت في بيوتهم. [5]

وأما خلاصة قصة المسلمين مع اليهود كما يرويها الطبري: «عن قتادة قوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ

---

(١) مسلم، صحيح مسلم، ج:٤، ص: ٢٢١٥، رقم الحديث: ٢٨٨٩.

(٢) نظام الدين الحسن محمد بن حسين القمّي النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م)، ط١، ج: ٥، ص: ٤٥٧، وانظر محمد الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ١٣، ص: ٢٠٥.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٠، ص: ٣١٣

(٤) نظام الدين الحسن محمد بن حسين القمّي النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج:٥، ص: ٤٥٧- وانظر محمد الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ١٣، ص: ٢٠٥.

(٥) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ١٣، ص: ٢٠٦.

ﵟظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِﵞ وهم بنو قريظة ظاهروا أبا سفيان وراسلوه فنكثوا العهد الذي بينهم وبين نبي الله، قال: فبينا رسول الله عند زينب بنت جحش يغسل رأسه وقد غسلت شقه إذ أتاه جبرائيل فقال: عفا الله عنك ما وضعت الملائكة سلاحها منذ أربعين ليلة فانهض إلى بني قريظة فإني قد قطعت أوتارهم وفتحت أبوابهم وتركتهم في زلزال وبلبال، قال: فاستلأم رسول الله ثم سلك سكة بني غنم فاتبعه الناس وقد عصب حاجبه بالتراب، قال: فأتاهم رسول الله فحاصروهم وناداهم: يا إخوان القردة فقالوا يا أبا القاسم ما كنت فحاشا، فنزلوا على حكم ابن معاذ وكان بينهم وبين قومه حلف فرجوا أن تأخذه فيهم هوادة، وأومأ إليهم أبو لبابة أنه الذبح فأنزل الله: ﵟيَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ﵞ، فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى ذراريهم، وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقال قومه وعشيرته: آثرت المهاجرين بالعقار علينا، قال: فإنكم كنتم ذوي عقار وإن المهاجرين كانوا لا عقار لهم، وذكر لنا أن رسول الله كبر وقال قضى فيكم بحكم الله». [1]

ثانيا: علاقة المقطع السابع بالمقطع السابق:

بعد أن ذكر الله تعالى المؤمنين بنعمه عليهم بأن أرسل على أعدائهم جنودا لم يروها، وجعل رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وبين أحوال المنافقين والصادقين وجزاءهم، بعد كل هذا أوضح الله تعالى هنا تمام النعمة بأنه صرف الأعداء على كثرتهم وقوتهم بطريقة معجزة بقدرته وعزته فصدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم أوضح أنه لما «أتم أمر الأحزاب أتبعه حال الذين ألبوهم وكانوا سبباً في إتيانهم من اليهود كحيي بن أخطب والذين مالؤوهم على ذلك ونقضوا ماكان لهم من عهد فقال تعالى: ﵟوَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُمﵞ، »[2] فتجلت بذلك قدرة الله تعالى على كل ما يظنه الناس مستحيلا، وكافأ عباده الضعفاء الفقراء فقواهم بالنصر على الأعداء، وأغناهم بأن أورثهم أرض الأعداء وديارهم ووعدهم بالاستيلاء على أراض أخرى.

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٥٥.

(٢) برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب بين الآيات والسور، ج:٦، ص: ٩٥-٩٦.

ثالثا: المناسبة بين المقطع السابع ومحور السورة:

لما كان المسلمون وعلى رأسهم رسول الله ﷺ متعلقين بالله وحده، ومستسلمين لقدره، وواثقين بوعده، كافأهم الله تعالى بالنصر على أعدائهم والظفر بهم، ووعدهم بفتح أماكن أخرى نتيجة لهذا الاستمساك والاعتصام به سبحانه، وقد أنجز الله تعالى فعلا وعده.

رابعا: من الفوائد المستنبطة من المقطع السابع:

* إن عاقبة الكافرين والمعادين للإسلام هي الخذلان في الدنيا والآخرة ولنا في مصير الأحزاب ومن أيدهم من اليهود عبرة.
* إذا شاء القدير العزيز سبحانه أن ينصر عباده المستضعفين في الأرض على أعدائهم الأقوياء فإنه ينصرهم، ومن هنا على المؤمنين في كل زمان ومكان أن يستمدوا العون من القوي العزيز وحده لا من الشرق أو الغرب، وأن يردوا الأمر كله لله، وبهذا فإن القرآن يرسخ في قلوب أتباعه الاعتقاد برد الأمر كله إلى الله تعالى ليقوم عليها التصور الإسلامي في النفوس[1].
* نصر الله نبيه محمدا ﷺ بالرعب وهذا ما حدث مع اليهود والأحزاب.
* إن الله وعد المؤمنين الصادقين الذين يعملون الصالحات أن يستخلفهم في الأرض ويبدلهم بعد الخوف أمنا، وصدق الله وعده إذ أورث المسلمين أرضا لم يكونوا قد وطئوها وهي خيبر والشام والعراق وفارس وبلادا أخرى كبيرة وكثيرة.[2]
* إن من شأن اليهود على مدى التاريخ الغدر وخيانة الأنبياء ورسالاتهم، ولهذا كان عاقبتهم السوء، فعلينا أن لانثق بعهودهم ومواثيقهم لأن شأنهم دائما هو الخيانة والغدر خصوصا

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٤٩.

(٢) أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ص: ١٠١٨

مع المسلمين،[١] وقد عبر سيد قطب عن ذلك أحسن تعبير عندما قال: «ومنذ هذا اليوم -أي غزوة الخندق- بدأت الحرب التي لم تضع أوزارها قط حتى اليوم بين الإسلام واليهود».[٢]

* على المسلم أن لا يخون العهود وأن لا يخون المسلمين فيدل الأعداء على أسرار المسلمين، وفي إخبار أبي لبابة لليهود عما سيقوم الرسول ﷺ به تجاههم ثم توبته من ذلك مثل لكل مؤمن كي لا يقدم على مثل ما فعله أبو لبابة ﷺ، وكذلك ضرب لنا أبو لبابة مثلا في اعتراف العبد بذنبه ورجوعه عنه.

المقطع الثامن

النبي ﷺ مع زوجاته رضوان الله عليهن أجمعين

تخيير النبي ﷺ لزوجاته أن يطلقهن أو يبقيهن معه

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

مما ذكره أهل التفسير في سبب نزول هذه الآيات: « أن أزواج النبي ﷺ سألنه شيئا من عرض الدنيا وطلبن منه زيادة النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض، فآلى رسول الله ﷺ منهن شهرا وصعد إلى غرفة له فمكث فيها، فنزلت هذه الآية، وكن أزواجه يومئذ تسعا: عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة أم سلمة وصفية الخيبرية وميمونة الهلالية وزينب بنت جحش

(١) أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ص: ١٠١٨.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٤٦.

وجويرية بنت الحارث فنزل رسول الله ﷺ فعرض الآية عليهن فبدأ بعائشة فاختارت الله ورسوله ثم قالت: يا رسول الله لا تخبر أزواجك أني اخترتك، فقال: إن الله بعثني مبلغا ولم يبعثني متعنتا»[1] والقصة بطولها مذكورة في كتب الحديث[2] والتفسير.

ثانيا: المناسبة بين المقطع الثامن والمقطع السابق:

لما نصر الله نبيه ﷺ، وفرق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وطلبن منه أمرا لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن متفقات. وروي أيضا أن بعضهن سألنه أشياء من زينة الدنيا، وقلن: « يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل والإماء والخول (الخدم)، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق»، يعني أردن شيئا من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة، فغم النبي ﷺ وآلمن قلبه بمطالبهن له بتوسعة الحياة، وقد بلغ الأسى برسول الله ﷺ من مطالبة نسائه له بالنفقة وبسط الحياة مبلغا كبيرا أدى لأن يعتزلهن شهرا، وأزواج النبي ﷺ آنذاك تسع سبق ذكر أسمائهن.[3] وقيل أيضا: إن هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبي ﷺ، وكان قد تأذى من بعض زوجاته.[4]

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير، ج: ٦، ص: ٣٧٦.

(٢) انظر القصة بتفاصيلها في كل من صحيح البخاري، ج: ٢، ص: ٨٧١-٨٧٣، رقم الحديث: ٢٣٣٦. وصحيح مسلم، ج: ٢، ص: ١٢٠٣، رقم الحديث: ١٧٤٥.

(٣) قارن بالسعدي، تفسير الكريم الرحمن، ج:٦، ص:١٠٤، والزمخشري، الكشاف، ج:٣، ص: ٢٥٨، والطبرسي، مجمع البيان، ج: ٨، ص: ١٣٣، ووهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج١٢، ص: ٢٨٩ – ٢٩٠، وابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج: ٢٠، ص: ٣١٤ – ٣١٥، وسيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٥، ص: ٢٨٥٤، والصابوني، صفوة التفاسير، ج:١٢، ص: ٥٨.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٠٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٠، ص: ٣١٤.

ثالثا: المعنى الإجمالي للمقطع:

يأمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بأن يخير نساءه اللاتي اجتمعن عليه يطلبن منه زيادة النفقة، بين أن يفارقهن دون ضرر أو إيذاء فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله وما أعدَّ الله لهن في الدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة. [١] وفيما خيرهن فيه الرسول ﷺ قولان:

أحدهما: أنه خيرهن بين الطلاق والمقام معه، هذا قول عائشة رضي الله تعالى عنها، **والثاني:** أنه خيرهن بين اختيار الدنيا فيفارقهن أو اختيار الآخرة فيمسكهن ولم يخيرهن في الطلاق، قاله الحسن وقتادة.

وفي سبب تخييره إياهن ثلاثة أقوال:

«**أحدها:** أنهن سألنه زيادة النفقة، **والثاني:** أنهن آذينه بالغيرة، والقولان مشهوران في التفسير، **والثالث:** أنه لما خير بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة فاختار الآخرة أمر بتخيير نسائه ليكن على مثل حاله حكاه أبو القاسم الصيمري». [٢]

رابعا: المناسبة بين المقطع الثامن ومحور السورة:

بما أن أحد أهم محاورالسورة يدور حول مقام النبي ﷺ ومكانته وأنه الأسوة الحسنة لكل مؤمن، فقد بينت هذه الآيات الكريمة كيفية تعامل النبي ﷺ مع أسرته ومقام النبي الزوج، وهو الذي كان يقول: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي). [٣]

---

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج:٣ ص: ٤٨١، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٦٧-٧٦٨.

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير، ج: ٦، ص: ٣٧٧.

(٣) ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج:٩، ص: ٤٨٤، رقم الحديث: ٤١٧٧.



خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثامن:

* في الآيات حث واضح على منع إيذاء النبي ﷺ أو مضايقتة، ولو من أقرب الناس إليه وفيها أدب عال خاص ببيت النبوة ونسائه الطاهرات، وفيها ترفع عن حطام الدنيا وتربية لنساء النبي ﷺ على الزهد والعفة والخلق السامي، وإعظام الله ورسوله ﷺ.

* القول الأصح في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه أنه خيرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية، أو الطلاق. فاخترن البقاء، لقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته. فقالت: قد خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعده طلاقا، ولم يثبت عن رسول الله ﷺ إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق. [١]

* بيان حب النبي ﷺ لزوجه عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنها وعن أبيها حيث بدأ بتخييرها، وفيه بيان فضلها وفضل أمهات المؤمنين على غيرهن من نساء العالمين حيث إنهن اخترن رضاء الله تعالى ورضاء رسوله ﷺ على متاع الدنيا الزائل.

* أراد النبي ﷺ أن يرفع أزواجه إلى المستوى العالي المتجرد عن حظوظ الدنيا كي يكن قدوة لنساء العالمين، وفي ذلك دلالة واضحة على أن دعوة الرسول ﷺ لم يكن هدفها سوى رضاء الله عز وجل وأنه كان أزهد الزاهدين في الدنيا التي فتحت له أبوابها وغنائمها فأعرض عنها إلى الطاعة الخالصة لله عز وجل بالتجرد عن حظوظ الدنيا، وجعل الآخرة هي المقصد الأساس، قال النبي ﷺ: (من سأل عني أو سره أن ينظر إلي فلينظر إلي أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، رفع له علم فشمر إليه، اليوم المضمار وغدا السباق، والغاية الجنة أو النار). [٢]

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ٢٩٤.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ٩٩.

المقطع التاسع

بيان فضل نساء النبي ﷺ على سائر نساء العالمين ومستلزمات ذلك

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

أولا: المعنى الإجمالي للمقطع:

يا نساء النبي مَن يأت منكن بمعصية ظاهرة يُضاعَف لها العذاب مرتين. فلما كانت مكانتهن رفيعة ناسب أن يجعل الله الذنب الواقع منهن عقوبته مغلظة؛ صيانة لجنابهن وجناب رسول الله ﷺ، وعلى قدر علو المقام يكون الملام، وبقدر النعمة تكون النقمة، [1] وكان ذلك العقاب على الله يسيراً. قال ابن كثير: «يقول تعالى واعظا نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار والآخرة واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ فناسب أن يخيرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة»[2] يضاعف عذابها، ومن تطع منكن الله ورسوله، وتعمل بما أمر الله به، نُعْطها ثواب عملها مثلَي ثواب عمل غيرها من سائر النساء وأعددنا لها رزقاً كريماً، وهو الجنة.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠٠.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٤٨٣.

يا نساء النبيِّ -محمد- لستنَّ في الفضل والمنـزلة كغيركنَّ من النساء، إن عملتن بطاعة الله وابتعدتن عن معاصيه، فلا تتحدثن مع الأجانب بصوت لَيِّن يُطمع الذي في قلبه فجور ومرض في الشهوة الحرام، وهذا أدب واجب على كل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، وقُلن قولا بعيداً عن الريبة، لا تنكره الشريعة. والْزَمْنَ بيوتكن، ولا تخرجن منها إلا لحاجة، ولا تُظهرن محاسنكن، كما كان يفعل نساء الجاهلية الأولى في الأزمنة السابقة على الإسلام، وهو خطاب للنساء المؤمنات في كل عصر. وأدِّين - يا نساء النبي - الصلاة كاملة في أوقاتها، وأعطين الزكاة كما شرع الله، وأطعن الله ورسوله في أمرهما ونهيهما، إنما أوصاكن الله بهذا؛ ليزكيكنَّ، ويبعد عنكنَّ الأذى والسوء والشر يا أهل بيت النبي -ومنهم زوجاته وذريته عليه الصلاة والسلام- ويطهِّر نفوسكم غاية الطهارة. واذكرن ما يتلى في بيوتكن من القرآن وحديث الرسول ﷺ واعملن به، واقدُرْنه حقَّ قَدْره، فهو من نِعَم الله عليكن، إن الله كان لطيفاً بكنَّ؛ إذ جعلكنَّ في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والسنة، خبيراً بكنَّ إذ اختاركنَّ لرسوله أزواجاً. [(١)]

ثانيا: المناسبة بين المقطع التاسع والمقطع السابق:

نتيجة للعهد الذي عاهدن عليه رسول الله ﷺ وهو اختيار الله تعالى واختيار الرسول ﷺ، فإن الله عز وجل كرم نساء النبي فخاطبهن مباشرة، متوعدا من اقترفت ذنبا أو فاحشة بمضاعفة العذاب، وواعدا المحسنات منهن -وكلهن محسنات والحمد لله-أجرا عظيما، وأول بوادر هذا الأجر هو مضاعفة حسناتهن ووعدهن بجنة عرضها السموات والأرض. [(٢)] ولما كان مقامهن عظيما خصهن بأمور ليقتدى بهن لأنهن خير نساء العالمين:

١- النهي عن ترقيق الكلام بأن يكون لينا عذبا رخما. [(٣)]

٢- القرار في البيت وعدم الخروج إلا لحاجة.

---

(١) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص:٧٦٨- ٧٦٩.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٧٩.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠١.

٣- عدم إظهار زينتهن التي يحرم إظهارها للأجانب.

٤- إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.

٥- تحقيق صون العرض والسمعة عن الذنوب والمعاصي والتجمل بالتقوى.

٦- أمرهن بتعليم غيرهن القرآن والسنة، وتذكر نعم الله تعالى عليهن[1] بأن جعلهن في أطهر بيت وبأن أذهب عنهن الرجس وطهرهم تطهيرا، فلتقتد نساء العالمين بخير نساء العالمين وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين.

ثالثا: المناسبة بين المقطع التاسع ومحور السورة:

لما كان من أهم محاور هذه السورة بيان مكانة النبي ﷺ، اقتضى ذلك بيان فضل نسائه عليهن الرضوان والرحمة، ولما كانت هذه السورة تحث على الطاعة الكاملة والاستسلام لله تعالى وقد فعلت نساء النبي ﷺ ذلك واخترن الله ورسوله على الدنيا وزينتها، فقد كافأهن الله تعالى الكريم الرحيم ففضلهن على نساء العالمين وجعلهن قدوة يقتدى بهن.

رابعا: من الفوائد المستنبطة من المقطع التاسع:

* إن الله عز وجل يخوف عباده بعدم الاقتراب من المعاصي والذنوب لأن في ذلك عذابا أليما، ولا يمنع القرب من النبي ﷺ مرتكب الذنب من أن يناله العقاب حتى ولو كن زوجاته بل العقوبة للأقرب تكون مضاعفة. وهذا من عدل الله تعالى، وأما نتيجة الطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ فهو مضاعفة الثواب ودخول الجنة، وهذا من فضل الله تعالى وكرمه.

* كل ما أمر الله تعالى به نساء النبي ﷺ من أوامر فهو أمر لنساء المؤمنين، وهن بالتالي مأمورات بتبليغ هذه الأوامر الربانية والنبوية للأمة: فليبلغ الشاهد الغائب، قال الزمخشري: أمرهنّ أن لا ينسين ما يتلى في بيوتهن «من الكتاب الجامع بين أمرين: هو آيات بينات تدلّ على صدق النبوّة لأنه معجزة بنظمه، وهو حكمة وعلوم وشرائع».[2]

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ٧.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج:٣، ص: ٥٤٦.



* هذه الآيات تدل على عظمة نساء النبي ﷺ وشرفهن وفضلهن على غيرهن من النساء، فهن لسن كأحد من النساء بشرط الالتزام التام بالتقوى.

* أول نتيجة للتقوى هي الابتعاد عما يغضب الله تعالى بتليين الكلام للأجانب إلى درجة تطمع الرجل بالمرأة التي أمامه. فالمرأة مأمورة بالقول المعروف وهو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس[1] السليمة.

* إن المرأة مأمورة أن لا تخرج من بيتها إلا لحاجة كقضاء حاجة أو عمل ضروري، وعليها أن تخرج محتشمة بحجاب العفة والطهر، لا كما تخرج كثير من نساء اليوم بلا حشمة كاسيات عاريات رؤوسهن كأسنمة البخت كما حدثنا النبي ﷺ، يخربن نفوس الشباب وعقولهم وأفئدتهم، ولهذا فهن لا يشممن رائحة الجنة.

* خص الله تعالى أمهات أركان الإسلام بوجوب الأداء كما في الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لأن الصلاة تمثل رأس الشكر وهي عبادة بدنية وروحية وهي عماد الدين، وأما الزكاة فهي عبادة مالية تطهر النفس من الشح والمجتمع من الفقر، فهاتان العبادتان لهما آثار عظمى على النفس والمجتمع.

* **إن آل البيت** هم على الراجح عند أهل السنة والجماعة: أولاده ﷺ، وأزواجه[2]، والحسن والحسين وعلي منهم، وكذلك بنو أعمامه: العباس وأبي طالب، [3] وسياق الآيات يؤيد دخول الزوجات في أهل البيت لأنها نزلت تخاطب نساء النبي ﷺ وهن أولى من يدخل

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ١٣.

(٢) قال عكرمة ﷺ: من شاء بأهلته انها نزلت في أزواج النبي ﷺ، انظر الرازي، التفسير الكبير، ج: ٦، ص: ٦٠٣.

(٣) أخرج مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أذكركم الله في أهل بيتي، فقيل لزيد رضي الله عنه، ومن أهل بيته، أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده: آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس. انظر الرازي، التفسير الكبير، ج: ٦، ص: ٦٠٥.

في أهل بيته، وكذلك أولى من يدخل في أهل البيت هم آل العباء: علي وفاطمة والحسن والحسين، فعن عطاء بن يسار عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: في بيتي نزلت هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى علي وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم أجمعين فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، قالت أم سلمة: يا رسول الله ما أنا من أهل البيت؟ قال: إنك أهلي خير، وهؤلاء أهل بيتي اللهم أهلي أحق.[1] وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: جئت أريد عليا رضي الله عنه فلم أجده فقالت فاطمة رضي الله عنها انطلق إلى رسول الله ﷺ يدعوه فاجلس فجاء مع رسول الله ﷺ فدخل ودخلت معهما قال: فدعا رسول الله ﷺ حسنا وحسينا فأجلس كل واحد منهما على فخذه، وأدنى فاطمة من حجره وزوجها ثم لف عليهم ثوبه وأنا شاهد فقال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا اللهم هؤلاء أهل بيتي.[2]

* إن محبة آل البيت فرض على كل مسلم ومسلمة قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وأما أيذاؤهم فهو إيذاء لله ورسوله فعن ابن أبي مليكة قال: جاء رجل من أهل الشام فسب عليا رضي الله عنه عند ابن عباس رضي الله عنهما فحصبه ابن عباس رضي الله عنهما وقال: يا عدو الله آذيت رسول الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لو كان رسول الله ﷺ حيا لآذيته.[3]

---

(١) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج:٢، ص:٤٥١، رقم الحديث:. ٣٥٥٨، هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٢) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج:٢، ص:٤٥١، رقم الحديث: ٣٥٥٩، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) السيوطي، الدر المنثور: ج: ٦، ص: ٦٥٦.

المقطع العاشر

المساواة بين الرجال والنساء في التكليف والجزاء

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

وردت روايات عديدة في سبب نزول هذ الآية الكريمة منها: عن أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: قلت للنبي ﷺ: يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني ذات يوم ظهرا إلا نداؤه على المنبر وأنا أسرح رأسي، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن فجعلت سمعي عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر: يا أيها الناس إن الله يقول في كتابه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.[1]

ثانيا: المناسبة بين المقطع العاشر والمقطع السابق:

بعد أن أمر الله تعالى نساء النبي ﷺ ونهاهن عن الأمور السابقة، وبين ما يكون لهن من ثواب، أبان الله تعالى ما أعد للمسلمين والمسلمات من المغفرة والثواب العظيم في الآخرة.[2]

يقول برهان الدين البقاعي: «ولما حث سبحانه على المكارم والأخلاق الزاكية، وختم بالتذكير بالآيات والحكمة، أتبعه ما لمن تلبس من أهل البيت بما يدعو إليه ذلك من صفات الكمال

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج:٢٢، ص: ١٠.

(٢) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ١٧.

ولكنه ذكره على وجه يعم غيرهم من ذكر وأنثى مشاكلة لعموم الدعوة وشمول الرسالة»[(١)].

ويقول سيد قطب: « وهكذا يعمم النص في الحديث عن صفة المسلم والمسلمة ومقومات شخصيتهما، بعدما خصص نساء النبي ﷺ في أول هذا الشوط من السورة. وتذكر المرأة في الآية بجانب الرجل كطرف من عمل الإسلام في رفع قيمة المرأة، وترقية النظرة إليها في المجتمع وإعطائها مكانها إلى جانب الرجل فيما فيه سواء من العلاقة بالله، ومن تكاليف هذه العقيدة في التطهر والعبادة والسلوك القويم في الحياة». [(٢)]

ثالثا: المعنى الإجمالي للمقطع:

ذكر الله تعالى عشرة صفات ومراتب لمن وعدهم بمغفرته وجنته وهي: إن المنقادين والمتذللين لأوامر الله، والمنقادات والمتذللات، والمصَدِّقين والمصدِّقات رسول الله ﷺ فيما أتاهم به من عند الله، والمطيعين لله ورسوله والمداومين على الطاعة والمطيعات، والصادقين في أقوالهم وأعمالهم والصادقات، والصابرين عن الشهوات وعلى الطاعات وعلى المكاره والصابرات، أو والصابرين لله في البأساء والضراء على الثبات على دينه وحين البأس والصابرات والخائفين من الله والخائفات، أو المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم، والمتصدقين بالفرض والنَّفْل والمتصدقات والصائمين في الفرض والنَّفْل والصائمات، والحافظين فروجهم عن الزنى ومقدماته، وعن كشف العورات والحافظات، والذاكرين الله كثيراً بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم والذاكرات، أعدَّ الله لهؤلاء مغفرة لما اقترفوا من الصغائر، وثواباً عظيماً في الآخرة على ذلك من أعمالهم وهو الجنة. [(٣)]

وفي مدح الذاكرين الله تعالى والذاكرات قيدها بالكثرة هنا وفي مواطن أخرى من القرآن

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠٥.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢٢، ص: ٢٨٦٣.

(٣) قارن بالطبري، جامع البيان، ج:٢٢، ص: ٩، والرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٢، والبيضاوي، ج: ٤، ص: ٣٧٥، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: ٧٦٩.

الكريم، يقول الرازي: « ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ يعني هم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله، واعلم أن الله تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ههنا وفي قوله بعد هذا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال من قبل: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١]، لأن الإكثار من الأفعال البدنية غير ممكن أو عسر، فإن الإنسان أكله وشربه وتحصيل مأكوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائماً بالصلاة، ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار، وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ولأن جميع الأعمال بذكر الله تعالى وهي النية»[1]، و«قال مجاهد: لايكون ذاكر الله تعالى كثيرا حتى يذكره قائما وجالسا ومضطجعا، وقال أبو سعيد الخدري ﷺ: من أيقظ أهله بالليل وصليا أربع ركعات كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات»[2] فاللهم ارزقنا أن نتصف بهذه الصفات الكريمة التي جعلتها لعبادك الصالحين ميزة، عبادك الذين يستحقون مغفرتك ودخول جنتك.

رابعا: التناسب في الآية نفسها:

يقول الإمام القرطبي: «بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذي يعم الإيمان وعمل الجوارح، ثم ذكر الإيمان تخصيصا له وتنبيها على أنه عظم الإسلام ودعامته»[3]، وقال الرازي: إن الله تعالى ذكر «الإسلام والانقياد لأمر الله أولا، والثانية الإيمان بما يرد به أمر الله فإن المكلف أولاً يقول كل ما يقوله أقبله فهذا إسلام، فإذا قال الله شيئاً وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده فهو إيمان، ثم اعتقاده يدعوه إلى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد وهو المرتبة

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٢.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٨٥-١٨٦.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٨٥-١٨٦.

الثالثة المذكورة بقوله:﴿ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ ﴾، ثم إذا آمن وعمل صالحاً كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق في كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله: ﴿ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ ﴾، ثم إن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال تعالى: ﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ ﴾، ثم إنه إذا كمل وكمل قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله: ﴿ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ ﴾، أو نقول: لما ذكر هذه الحسنات أشار إلى ما يمنع منها وهو إما حب الجاه أو حب المال من الأمور الخارجية أو الشهوة من الأمور الداخلة والغضب منهما يكون لأنه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمور شتى فقوله: ﴿ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ ﴾ أي المتواضعين الذين لا يميلهم الجاه عن العبادة، ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ ﴾ أي الباذلين الأموال الذين لا يكنزونها لشدة محبتهم إياها، ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ ﴾ إشارة إلى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله، ثم قال تعالى:﴿ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ ﴾، أي الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية، ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾، يعني هم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله، ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله». [(١)]

خامسا: المناسبة بين المقطع العاشر ومحور السورة:

لما كان بعض أهم محاور السورة يدور حول أصل العقيدة في الله والاستسلام لقدره، ناسب أن تذكر الصفات التي يتصف بها هؤلاء الذين يستسلمون لله تعالى وقدره ليلتزم بها المؤمنون، يقول سيد قطب: «وفي صدد تطهير الجماعة الإسلامية وإقامة حياتها على القيم التي جاء بها الإسلام الرجال والنساء في هذا سواء.. يذكر الله الصفات التي تحقق تلك القيم في دقة وإسهاب وتفصيل». [(٢)]

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٢، وقارن بالبقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠٥-١٠٦.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢٢، ص: ٢٨٦٢.

سادسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع العاشر:

* أوضحت الآية عشر آداب إسلامية تجمع بين أصول الإسلام في الاعتقاد والعبادة والأخلاق والسلوك والعمل الاجتماعي البناء في إطار من النية الصادقة والإخلاص لله عز وجل وهو المراد بذكر الله كثيرا،[(١)] قال ابن عاشور: اشتملت هذه الخصال العشر على جوامع فصول الشريعة كلها.[(٢)]
* أظهرت هذه الآية المساواة التامة بين الرجال والنساء في التكليف والجزاء،[(٣)] وفي هذا رد على كل من يدعي أن الإسلام ميز سلبيا بين المرأة والرجل وجعل منزلتها دون منزلة الرجل.
* كل مؤمنة وكل مؤمن يمكن أن يتصف بالصفات الجليلة التي اتصفت بها نساء النبي ﷺ لينال بذلك رضى الله سبحانه.

---

(١) الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ٢٢.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (تونس: دارسحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧)، ج: ٢٢، ص٢٢.

(٣) عبد الحميد طهماز، من موضوعات سور القرآن الكريم: في سورة السجدة وسورة الأحزاب وسورة سبأ وسورة فاطر، ص: ١١٢.

المقطع الحادي عشر
قصة زيد وزينب رضي الله عنهما

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ أقوال عديدة أهمها:

عن زَيْنَبَ بنتِ جَحْشٍ قالت: خَطَبَنِي عِدَّةٌ من قُرَيْشٍ فَأَرْسَلْتُ أُخْتِي حَمْنَةَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أَسْتَشِيرُهُ، فقال لها رسول الله ﷺ: أَيْنَ هِيَ مِمَّنْ يُعَلِّمُهَا كِتَابَ رَبِّهَا وَسُنَّةَ نَبِيِّهَا، قالت: وَمَنْ هو يا رَسُولَ الله؟ قال زَيْدُ بن حَارِثَةَ، قال: فَغَضِبَتْ حَمْنَةُ غَضَباً شَدِيداً وَقَالَتْ يا رَسُولَ الله أَتُزَوِّجُ بنتَ عَمَّتِكَ مَوْلاكَ؟ قالت: جاءَتْنِي فَأَعْلَمَتْنِي فَغَضِبْتُ أَشَدَّ من غَضَبِهَا وَقُلْتُ أَشَدَّ من قَوْلِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾، قالت: فَأَرْسَلْتُ إلى رسول الله ﷺ وَقُلْتُ: إني أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ افْعَلْ ما رَأَيْت، فَزَوَّجنِي زَيْداً وَكُنْتُ أرثى عليه، فَشَكَانِي إلى رسول الله ﷺ، فَعَاتَبَنِي رسول الله ﷺ، ثُمَّ عُدْتُ فَأَخَذْتُهُ بِلِسَانِي فَشَكَانِي إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أمسك عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ، فقال: يا رَسُولَ الله أنا أُطَلِّقُهَا، قالت: فَطَلَّقَنِي، فلما انْقَضَتْ عِدَّتِي لم أَعْلَمْ إلا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قد دخل عَلَيَّ بِبَيْتِي وأنا مَكْشُوفَةُ الشَّعْرِ، فقلت: إنه أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ

فقلت: يا رَسُولَ اللهِ بِلا خِطْبَةٍ وَلا إشهاد فقال: اللهُ الْمُزَوِّجُ وَجِبْرِيلُ الشَّاهِدُ. (١)

وعن قتادة قال: خطب النبي ﷺ زينب وهي بنت عمته وهو يريدها لزيد، فظنت أنه يريدها لنفسه، فلما علمت أنه يريدها لزيد أبت فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ فرضيت وسلمت ﴾. (٢)

وأما بالنسبة لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ فسبب نزولها كما قال ابن حجر: «لم تختلف الروايات أنها نزلت في قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش»، (٣) فقد روى البخاري عن أَنَس قال: جاء زَيْدُ بن حَارِثَةَ يَشْكُو فَجَعَلَ النبي ﷺ يقول: اتَّقِ اللَّهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، قال أَنَسٌ: لو كان رسول اللَّهِ ﷺ كَاتِماً شيئا لَكَتَمَ هذه، قال: فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ على أَزْوَاجِ النبي ﷺ تَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي الله تَعَالَى من فَوْقِ سَبْعِ سماوات. وَعَنْ ثَابِتٍ: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ نَزَلَتْ في شَأْنِ زَيْنَبَ وَزَيْدِ بن حَارِثَةَ. (٤) وقد أخرج الترمذي من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة قالت: لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية. (٥) **وقال الْحَسَنُ ما أُنْزِلَتْ عليه آيَةٌ أَشَدَّ من قوله: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ ﴾، وَلَوْ كان رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كَاتِماً شيئا مِنَ الْوَحْيِ لَكَتَمَهَا. ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ قال: خَشِيَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ قَالَةَ الناس، وقوله: ﴿ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ قال جَعَلَ يقول: يا نَبِيَّ اللهِ إنها قَدِ اشْتَدَّ عَلَيَّ خُلُقُهَا وَإِنِّي**

---

(١) السيوطي، المعجم الكبير، ج: ٢٤، ص: ٣٩.

(٢) ابن حجر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج: ٧، ص: ٩١-٩٢، وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح.

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٥٢٣-٥٢٤.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٦، ص: ٢٦٩٩، رقم الحديث: ٦٩٨٤.

(٥) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٥٢٣-٥٢٤.

مُطْلَقٌ هذه الْمَرْأَةَ، فَكَانَ النبي ﷺ إذا قال زَيْدٌ ذلك قال: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ. [١]

وقال ابن حجر معلقا على أسباب النزول الأخرى التي ذكر فيها متعلق ما أخفاه النبي في نفسه من أنه أحب زينب وغير ذلك من أمور لا تليق بعصمته ﷺ، فقال: «ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها والذي أوردته منها هو المعتمد». [٢]

ثانيا: المناسبة بين المقطع الحادي عشر والمقطع السابق:

قال البقاعي: «لما كان الله سبحانه قد قدم قوله: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ - الآية، فعلم قطعاً أنه تسبب عنها ما تقديره: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ لأن يكون له ولي غير النبي ﷺ، فطوى ذلك للعلم به، واستدل على مضمون الآية وما قبلها بقصة الأحزاب، وأتبعها نتيجة ذلك بما ذكر تأديب الأزواج له ﷺ وتهذيبهن لأجله وتطهير أهل بيته وتكريمهم حتى ختم سبحانه بالصفات العشر التي بدأها بالإسلام الذي ليس معه شيء من الإباء، وختمها بأن ذكر الله يكون ملء القلب والفم وهو داعٍ إلى مثل ذلك لأنه سبب الإسلام، **عطف** على مسبب آية الولاية ما يقتضيه كثرة الذكر من قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ﴾». [٣]

وقال ابن عاشور: «المناسبة تعقيب الثناء على أهل خصال هي من طاعة الله، بإيجاب طاعة الله والرسول ﷺ فلما أُعقب ذلك بما في الاتصاف بما هو من أمر الله مما يكسب موعوده من المغفرة والأجر، وسوّى في ذلك بين الرجال والنساء، أعقبه ببيان أن طاعة الرسول ﷺ فيما يأمر به ويعتزم الأمرَ هي طاعة واجبة، وأنها ملحقة بطاعة الله، وأن صنفي الناس الذكور والنساء في ذلك سواء كما كانا سواء في الأحكام الماضية». [٤]

---

(١) السيوطي، المعجم الكبير، ج: ٢٤، ص: ٤٢.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٥٢٣-٥٢٤.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠٦-١٠٧.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٢، ص: ٢٧.

ثالثا: المعنى الإجمالي:

إن الله تعالى بهذه الآيات المحكمات يضع قاعدة اجتماعية وهي أنه لا فرق بين الناس في أنسابهم، وأن التفاضل بينهم يكون بالتقوى، ولهذا ناسب أن يتزوج زيد زينب التي تفوقه نسبا، وناسب أن يتزوج بلال الحبشي أخت عبد الرحمن بن عوف، وهذه القاعدة أكدها القرآن الكريم في آيات أخرى تؤكد الأصل الواحد للإنسانية والمساواة بين الناس في الخلق وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾، [الحجرات:١٣]. وتستمر الآيات تضع قاعدة أخرى هو التسليم لله والرسول ﷺ في كل ما أمرا به أو نهيا عنه، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن يعص الرسول فقد عصى الله تعالى، وها هي زينب أم المؤمنين قد أطاعت الله ورسوله حقا فسلمت أمرها لله والرسول ﷺ، وتزوجت بزيد طاعة لله ولرسوله قبل الهجرة، ثم كافأها الله تعالى بأن تزوجت بسيد الخلق محمد ﷺ. وتمضي الآيات تقول: ولا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله في أنفسهم حُكماً أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم أو أن يخالفوه، بأن يختاروا غير الذي قضى فيهم، ومن يعص الله ورسوله فقد بَعُدَ عن طريق الصواب بُعْداً ظاهراً وجار عن قصد السبيل وسلك غير سبيل الهدى والرشاد.

ثم يعاتب الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: **واذكر يا محمد إذ تقول** للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام -وهو زيد بن حارثة، وأنعمت عليه بالعتق بعد أن تبنيته: أَبْقِ زوجك زينب بنت جحش ولا تطلقها، واتق الله يا زيد، وتخفي -يا محمد- في نفسك ما أخبرك الله به من أنها ستصير زوجتك بعد أن يطلقها زيد، والله تعالى مظهر ما أخفيت، «والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشيةُ قول الناس تزوجَ امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ في الإبطال منه وهو تزوج امرأة الذي يُدعى ابنا، ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم»[1]، وهذا القول هو ما عليه المحققون من المفسرين

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٥٢٣-٥٢٤.

والراسخون في العلم، وقد نفى ابن حجر كما ذكرنا سابقا في أسباب النزول وكذلك القرطبي كلَّ الرواياتِ الأخرى التي فيها تخبط فيما يتناول متعلق ما كتمه الرسول وخشي الناس من الاطلاع عليه مما يتنافى مع عصمة النبي ﷺ، وذلك كقول بعض المجّان: إن النبي ﷺ عشق زينب رضي الله تعالى عنها. (١)

والله تعالى أحق أن تخافه. فلما قضى زيد منها حاجته، وطلقها، وانقضت عدتها، زوجناكها، لتكون أسوة في إبطال عادة تحريم الزواج بزوجة المتبنى بعد طلاقها، ولا يكون على المؤمنين إثم وذنب في أن يتزوجوا من زوجات من كانوا يتبنَّوْنهم بعد طلاقهن إذا قضوا منهن حاجتهم. وكان أمر الله مفعولا لا عائق له ولا مانع. وكانت عادة التبني في الجاهلية، ثم أُبطلت بقوله تعالى:﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾. (٢) ثم خاطب القرآن الكريم جميع الأمة يعلمهم أنه ما كان على النبي ﷺ من إثم فيما أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه بعد فراقه إياها، كما أباحه للأنبياء قبله، سنة الله في الذين خَلَوا من قبل مثل داود وسليمان عليهما السلام حيث وسع الله عليهم بالنكاح، وكان أمر الله قدراً مقدوراً لا بد من وقوعه. (٣) ثم ذكر سبحانه الأنبياء الماضين وأثنى عليهم بأنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ إلى الناس، ويخافون الله وحده في تركهم تبليغ ذلك للناس، ولا يخافون أحدا إلا الله فإنهم إياه يرهبون إن هم قصروا عن تبليغهم رسالة الله إلى من أرسلوا إليهم، وكفى بالله محاسباً عباده على جميع أعمالهم ومراقباً لها. فالقرآن يقول لنبيه محمد ﷺ فمن أولئك الرسل الذين هذه صفتهم كن ولا تخش أحدا إلا الله، فإن الله يمنعك من جميع خلقه ولا يمنعك أحد من خلقه منه إن أراد بك سوءا. (٤)

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام االقرآن، ج:١٤، ص: ١٩١.

(٢) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٨، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٢.

(٣) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٤، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٩٤، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٠.

(٤) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٥، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧١.

رابعا: المناسبة بين المقطع الحادي عشر ومحور السورة:

لما كان أحد أهم محاور هذه السورة أصل العقيدة في الله والاستسلام لقدره لذا يؤكد هذا المقطع أنه ليس للمسلمين في أنفسهم شيء وليس لهم من أمرهم شيء، إنما هم وما ملكت أيديهم لله يصرفهم كيف يشاء ويختار لهم ما يريد.. وعندما فهم الصحابة الكرام الصف الأول من المسلمين هذا الفهم سلموا نفوسهم لله عز وجل، فرضيت نفوسهم بما قدره الله لهم فاستراحت نفوسهم ولم تجزع لحادثة الليالي، مع أخذهم بالأسباب والعمل ضمن سنة الله تعالى وتوفيق الحركة مع حركة الوجود، وتحقيق هذا التوازن الذي حققه الرعيل الأول هو الذي أهلهم لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة وكفل لها تحقيق المنجزات الخارقة في فتح القلوب والبلاد. [١]

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الحادي عشر:

* المسلم يسلم نفسه لله تعالى ورسوله فيقوم بما أمر الله تعالى به ورسوله دون تردد، وينتهي عما نهى الله تعالى ورسوله عنه دون تلكؤ أو تباطؤ.
* لزيد مكانة عظيمة عند الله تعالى حيث إنه الصحابي الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن، فهو حب رسول الله، وقد عوضه الله تعالى بعد أن كان يدعى زيد بن محمد بأن جعل اسمه يتلى إلى يوم القيامة وفي صحف مكرمة مرفوعة مطهرة.
* أما زينب رضي الله عنها فقد كانت مثالا للمرأة الصالحة التي أطاعت الله تعالى ورسوله في المكره والمنشط. وقد كانت تفتخر على نساء النبي الأخريات بأن الله زوجها من سبع سموات وأن الشاهد كان سيد الملائكة جبريل عليه السلام. قال الشعبي: كانت زينب تقول لرسول الله ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن: إن جدي وجدك واحد، وإن الله أنكحك إياي من السماء، وإن السفير في ذلك جبريل عليه السلام. [٢]

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢٢، ص: ٢٨٦٦-٢٨٦٧.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٩٥.

* على الإنسان أن لا يخشى أحدا إلا الله تعالى فهو الذي بيده الخير، وهو الذي يعطي ويمنع، وهو الذي يعز ويذل، وهو الذي بيده الملك وحده. فيعلم الوحي المؤمنين أن لا يخشوا أحدا في الدنيا، إذْ لا أحد يستحق الخشية إلا الله تعالى.

* **من آمن بالقدر أمن من الكدر،** فكل ما قدر الرحمن مفعول فعلينا التسليم لله سبحانه وقضائه وقدره.

* الإسلام هو دين المساواة فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، وتزويج النبي ﷺ لزينب التي هي من قبيلة مرموقة لزيد الذي كان عبدا هو دليل واضح على أن الإسلام ألغى الفوارق القبلية والطبقية في المجتمع، وجعل الناس سواسية لا يتفاضلون إلا بالتقوى.

* إن هذه الآيات تدل على صدق الرسول ﷺ في تبليغه عن الله عز وجل فهو قد نقل الوحي وبلغه كله دون أن ينسى أو يكتم منه شيئا، ولو كان كاتما شيئا لكتم هذه الآيات التي تعاتبه في إخفائه أمرا عن الناس خشية من المنافقين.

* اقترنت واقعة زواج النبي ﷺ بزينب في السيرة بأحكام شرعية منها: استخارة الله تعالى في الأمور، وندب وليمة الزواج.

المقطع الثاني عشر

محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا تَزَوَّجَ زينب قالوا تَزَوَّجَ حَلِيلَةَ ابْنِهِ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ ﴾ وكان رسول اللَّهِ ﷺ تَبَنَّاهُ وهو صَغِيرٌ، فَلَبِثَ حتى صَارَ رَجُلاً يُقَالُ له زَيْدُ بن مُحَمَّدٍ فَأَنْزَلَ الله: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ ﴾ فُلَانٌ مولى فُلَانٍ، وَفُلَانٌ أَخو فُلَانٍ، ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ يعني أعدل[1].

وعن قتادة قوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾، قال: نزلت في زيد إنه لم يكن بابنه ﷺ، ولعمري ولقد ولد له ذكور إنه لأبو القاسم وإبراهيم والطيب والمطهر، ولكن رسول الله وخاتم النبيين.[2]

ثانيا: المناسبة بين المقطع الثاني عشر والمقطع السابق:

لما بين سبحانه الفوائد الجليلة في زواج النبي ﷺ من زينب، وأن ذلك الزواج كان خاليا من المفاسد وخصوصا خلوه مما كان يعتقد خطأ أنه زواج بزوجة الابن، أكد الله تعالى ذلك

---

(١) الترمذي، سنن الترمذي، ج:٥، ص: ٣٥٢، رقم الحديث: ٣٢٠٧، وقال أبو عِيسَى: هذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج:٢٢، ص: ١٦.

بنفي أن يكون الرسول ﷺ أبا لأحد من الرجال وأولهم زيد، بل مقامه ﷺ أعلى من ذلك فهو خاتم النبيين وهو بمقام الأب الرحيم لكل المؤمنين بل هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم. وبما أن مبنى السورة، وأحد مقاصدها تعظيم النبي ﷺ وتأديبه وما ينبغي أن يكون عليه مع الله وهو التقوى، وذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي ﷺ مع أهله وأقاربه **بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ الأحزاب: ٢٨، والله تعالى يأمر عباده المؤمنين بما يأمر به أنبياءه المرسلين، لذلك أرشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال:** (ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)، **كما قال لنبيه ﷺ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ الأحزاب: ١.** [١]

ثالثا: المعنى الإجمالي:

ما كان محمد ﷺ أبا زيد بن حارثة، ولا أبا أحد من رجالكم الذين لم يلده محمد ﷺ، فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين الذي ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة، فلا نبوة بعده إلى يوم القيامة. وكان الله بكل شيء من أعمالكم ومقالكم وغير ذلك، ذا علم لا يخفى عليه شيء، [٢] فيعلم سبحانه الأحكام والحكم التي بينت فيما سبق، والحكمة في كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين. [٣] وفي هذا رد واضح على كل كذاب ادعى النبوة بعد رسول الله كمسيلمة الكذاب قديما، كزعماء فرقتي البابية والبهائية الموجودة في زماننا، وقد صح عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ **قال: (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ من قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ من زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ الناس يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ له وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ قال فَأَنَا اللَّبِنَةُ** وأنا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ). [٤] قال الرماني: ختم به عليه الصلاة والسلام الاستصلاح فمن لم يصلح به فميئوس

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٥.
(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٦.
(٣) الألوسي، روح المعاني، ج: ٢٢، ص: ٤٢.
(٤) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٣، ص:١٣٠٠، رقم الحديث: ٣٣٤٢، ومسلم، صحيح مسلم، =

من صلاحه. [١]

ثم يقول جل ذكره: يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذِكْراً كثيراً، [٢] واستكثروا من ذكره بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير، وأشغلوا أوقاتكم بذكر الله تعالى عند الصباح والمساء، وأدبار الصلوات المفروضات، وعند العوارض والأسباب، فإن ذلك عبادة مشروعة، تدعو إلى محبة الله، وكف اللسان عن الآثام، وتعين على كل خير[٣]. وقد ورد في فضيلة الذكر أحاديث كثيرة منها: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (أكثروا ذكر الله **حتى يقولوا مجنون**)، [٤]وعن معاذ بن جبل قال سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله قال: (أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله). [٥]

ونتيجة لذكر الله تعالى ذكرا كثيرا فإنه سبحانه هو الذي يرحمكم ويثني عليكم وتدعو لكم ملائكته؛ وقيل: إن معنى قوله: ﴿ يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ يشيع عنكم الذكر الجميل في عباد الله، ليخرجكم من ظلمات الجهل والضلالات والكفر إلى نور الإسلام والهدى، ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ في الدنيا والآخرة، لا يعذبهم ما داموا مطيعين مخلصين له. وتحية هؤلاء المؤمنين من الله في الجنة يوم يلقونه سلام، وأمان لهم من عذاب الله، ويمكن كذلك أن تكون التحية فيما بين المؤمنين في الجنة سلام يقول بعضهم لبعض أمنة لنا ولكم بدخولنا هذا المدخل من الله أن يعذبنا بالنار، وقد أعدَّ لهم ثواباً حسناً، وهو الجنة. [٦]

= ج:٤، ص: ١٧٩١، رقم الحديث: ٢٢٨٦.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج:١٤، ص: ١٩٧.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٧.

(٣) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧١.

(٤) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج:١، ص: ٦٧٧، رقم الحديث: ١٨٣٩، وقال الحاكم معلقا: هذه صحيفة للمصريين صحيحة الإسناد وأبو الهيثم سليمان بن عتبة العتواري من ثقات أهل مصر.

(٥) ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج:٣، ص:٩٩، رقم الحديث: ٨١٨.

(٦) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٧.

رابعا: المناسبة بين المقطع الثاني عشر ومحور السورة:

إن أحد مقاصد السورة الرئيسة بيان عظمة الرسول ﷺ ومقامه السامي وهذا المقطع يبين حقيقة هذا النبي الكريم وهو أنه ليس نبيا عاديا بل هو خاتم النبيين، والخاتم يكون سيد الأنبياء وشريعته أكمل الشرائع لأنه لا وحي بعدها.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثاني عشر:

* إن محمدا ﷺ هو رسول الله وخاتم النبيين، وفي ذلك حجة قاطعة على أهل الكتاب، وكل من ادعى النبوة بعده أو كل من ينتظر عودة نبي من الأنبياء باستثناء عيسى عليه السلام الذي ينزل ويتبع دين محمد ﷺ. فكل من ادعى النبوة بعده ﷺ فهو كذاب، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى يَخْرُجَ ثَلَاثُونَ دَجَّالُونَ كلهم يَزْعُمُ أَنَّهُ رسول اللهِ**)، [1] وقال ابن حجر في شرح هذا الحديث: «**وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقا فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم ينشأ لهم ذلك عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة وبدت له شبهة**». [2]

* الحض على ذكر الله تعالى وشكره على نعمه، وتسبيحه في معظم الأحوال بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير.

* إسباغ الرحمة الإلهية على المؤمنين، وتسخير الملائكة للاستغفار لهم بقصد هدايتهم وإخراجهم من ظلمة الكفر والجهل إلى نور الهدى واليقين.

* يشعر المؤمن بالقوة والطمأنينة عندما يعلم أن الله تعالى وملائكته يصلون على المؤمنين.

---

(١) أبوداود، سنن أبي داود، ج:٤، ص: ١٢١، رقم الحديث: **٤٣٣٣**، وأحمد بن حنبل، المسند، ج: ٢، ص: ٤٢٩، رقم الحديث: **٩٥٤٣**.

(٢) انظر شرح الحديث في ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج:٦، ص:٦١٧.

المقطع الثالث عشر

بعض أسماء النبي ﷺ وصفاته

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ۝٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝٤٨ ﴾.

أولا: المناسبة بين المقطع الثالث عشر والمقطع السابق:

من أفضل ما قيل في علاقة هذا النص مع ما قبله هو قول الرازي: «قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب للنبي ﷺ من ربه فقوله في ابتدائها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ اشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع ربه، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع أهله وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾، إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع عامة الخلق.»(١)

ثانيا: المعنى الإجمالي:

يا أيها النبي إنَّا أرسلناك شاهداً على أمتك بإبلاغهم الرسالة، قال: مجاهد: شاهداً على أمته بالتبليغ إليهم وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم،(٢) وهو ﷺ أيضا شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾[البقرة: ١٤٣]. **وهو مبشرهم بالجنة إن صدقوه وعملوا بما جاء به من عند الله، ونذير من النار أن يدخلوها فيعذبوا بها إن هم كذبوه وخالفوا ما جاءهم به من عند الله**، وداعياً إلى توحيد الله وعبادته وحده بأمره إياك، وسراجاً منيراً لمن استنار بك وبالقرآن الذي نزل معك، فأمْرك ظاهر فيما جئتَ به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند، **وعن ابن عباس قال: لما نزلت** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ **دعا رسول الله ﷺ**

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٧.

(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج: ٤، ص: ٢٨٨.

أبا موسى ومعاذا فقال: انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا فإنه قد نزل علي الليلة آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ من النار ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾، قال: شهادة أن لا إله إلا الله. [١]

وقد كان النبي ﷺ فعلا السراج المنير فعن أبي هُرَيْرَةَ قال: (ما رأيت شَيْئاً أَحْسَنَ من رسول الله ﷺ، كان كَأَنَّ الشَّمْسَ تجري في جبهته)، [٢] وكما جمع القرآن وشريعته الغراء صفات الكمال فهو كذلك جمع صفات الكمال حسا ومعنى وبعثته كان تمام الأخلاق. وقد أورد العلماء للنبي ﷺ أسماء عديدة يقول القرطبي: «**وهذه الآية تضمنت من أسمائه ﷺ ستة أسماء، ولنبينا ﷺ أسماء كثيرة وسمات جليلة ورد ذكرها في الكتاب والسنة والكتب المتقدمة، وقد سماه الله في كتابه: محمدا وأحمد، وقال ﷺ فيما روي عنه الثقات العدول:** «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب». وفي صحيح مسلم من حديث جبير بن مطعم وقد سماه الله رءوفا رحيما، وفيه أيضا عن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ **يسمي لنا نفسه أسماء فيقول:** (أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة). وقد تتبع القاضي أبو الفضل عياض في كتابه المسمى (بالشفا) ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ **ومما نقل في الكتب المتقدمة وإطلاق الأمة أسماء كثيرة وصفات عديدة قد صدقت عليه ﷺ مسمياتها ووجدت فيه معانيها. وقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربي في أحكامه في هذه الآية من أسماء النبي ﷺ سبعة وستين اسما. وذكر صاحب** (وسيلة المتعبدين إلى متابعة سيد المرسلين) **عن ابن عباس: إن لمحمد ﷺ مائة وثمانين اسما من أرادها وجدها هناك**». [٣] **وهذا كله يدل على علو مكانة النبي ﷺ عند الله تعالى.**

---

(١) عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم الرازي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق أسعد محمد الطيب، (مكة المكرمة، مكتبة مصطفى نزار الباز، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، ج: ٩، ص:٣١٤٠.

(٢) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، وهو حديث حسن، ج:٢، ص:٣٨٠.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص:٢٠٠.

وبشر -يا محمد- أهل الإيمان بالله بأن لهم من الله ثوابا كبيرا مضاعفا وهو روضات الجنات، قال ابن عطية: قال لنا أبي ﷺ: هذه من أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى، لأن الله عز وجل قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلا كبيرا وقد بين تعالى الفضل الكبير في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]، **فالآية التي في هذه السورة خبر والتي في حم عسق تفسير لها.**[1] ولا تطع لقول كافر ولا منافق فتسمع منه دعاءه إياك إلى التقصير في تبليغ رسالات الله إلى من أرسلك بها إليه من خلقه، وثق بالله في كل أمورك واعتمد عليه؛ فإنه يكفيك ما أهمَّك من كل أمور الدنيا والآخرة.[2]

ثالثا: المناسبة بين المقطع الثالث عشر ومحور السورة:

جمع الله تعالى لنبيه ﷺ كل صفات الكمال، ومن محاور السورة الرئيسة بيان فضله وكماله فوضح الله تعالى في هذه الآيات بعض صفاته بأنه شاهد على أمته وكل الأمم، وكذلك هو مبشر ونذير والسراج المنير بشخصه ورسالته وكتابه فهو نور على نور، وهو فوق هذا داع إلى الكمال المطلق إلى الله تعالى بإذنه وبتوفيقه، ولولا بعثته ﷺ وصفاته الشريفة لما استجاب أحد ولما وصل الإسلام إلى ما وصل إليه الليل والنهار، ولما عرف الله تعالى، ولما عرفت حكمة خلق السموات والأرض والكون كله.

رابعا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثالث عشر:

* أرسل الله محمدا ﷺ **يدعو إليه سبحانه بإذنه وتوفيق منه تعالى، وجعله سراجا للخلق ينير لهم الطريق ويبشرهم بجنات عرضها السموات والأرض، وينذر من أعرض منهم بعذاب شديد، فالعاقل من أجاب، والشقي من كفر وأعرض.**

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص:٢٠٢.

(٢) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١١، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٠.

* إن النبي ﷺ ذو شرع مستقل مطالب بألا يطيع الكافرين فيما يشيرون عليه من أنصاف الحلول والمداهنة في الدنيا. ولكنه مأمور أيضا بأن يدع أذاهم مجازاة على إذايتهم إياه، فلا يعاقبهم، وإنما يصفح عن زللهم معتمدا على الله بنصر دينه وتأييده وعصمته من الناس.

* من توكل على الله كفاه ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦]؟.. بلى.

المقطع الرابع عشر

خصائص النبي ﷺ في أحكام الزواج

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

١- سبب نزول الآية رقم (٥٠)

أخرج ابن سعد وابن راهويه وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله

عنها قالت خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت اليه فعذرني فأنزل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾، إلى قوله: ﴿ هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ قالت: فلم أكن أحل له لأني لم أهاجر معه كنت من الطلقاء. [١]

وأخرج ابن سعد عن منير بن عبد الله الدوسي أن أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية عرضت نفسها على النبي ﷺ وكانت جميلة فقبلها، فقالت عائشة رضي الله عنها: «ما في امرأة حين وهبت نفسها لرجل خير قالت أم شريك رضي الله عنها، فأنا تلك فسماها الله تعالى (مؤمنة) فقال: ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾، فلما نزلت هذه الآية قالت عائشة رضي الله عنها: إن الله يسارع لك في هواك». [٢]

٢- سبب نزول الآية رقم (٥١)

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير عن الحسن وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عائشة قالت: «كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ **وأقول كيف تهب نفسها فلما أنزل الله ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك».** [٣]

وأخرج ابن مردويه عن مجاهد قال: كان للنبي ﷺ تسع نسوة فخشين ان يطلقهن فقلن يا رسول الله اقسم لنا من نفسك ومالك وما شئت ولا تطلقنا فأنزل الله ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ ﴾، إلى آخر الآية، قال وكان المؤويات خمسة: عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وأم حبيبة والمرجآت أربعة: جويرية وميمونة وسودة وصفية. [٤]

---

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٢٨.

(٢) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٣٠.

(٣) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٣٤.

(٤) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٣٣.

٣- سبب نزول الآية (٥٢)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ ﴾ قال: حبسه الله عليهن كما حبسهن عليه. وأخرج أبو داود في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس ﷺ قال: لما خيرهن الله فاخترن الله ورسوله قصره عليهن فقال: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ ﴾.[1]

ثانيا: المناسبة بين المقطع الرابع عشر والمقطع السابق:

لما ذكر الله سبحانه قصة زيد وطلاقه لزينب وكان قد دخل بها وخطبها النبى ﷺ **بعد انقضاء عدتها،**[2] **خاطب المؤمنين مبينا لهم حكم الزوجة إذا طلقها زوجها قبل الدخول**، وقال ابن عاشور: «إنه لما خاض المنافقون في تزوّج النبي ﷺ زينب بنتِ جحش وقالوا: تزوج من كانت حليلة متبنّاه، أراد الله أن يجمع في هذه الآية مَن يحل للنبي تزوجهن حتى لا يقع الناس في تردد ولا يفتنهم المرجفون. ولعل ما حدث من استنكار بعض النساء أن تهدي المرأة نفسها لرجل كان من مناسبات اشتمالها على قوله: ﴿ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾، ولذلك جمعت الآية تقرير ما هو مشروع وتشريع ما لم يكن مشروعاً لتكون جامعة للأحوال، وذلك أوعب وأقطع للتردد والاحتمال».[3]

ثالثا: المعنى الإجمالي:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إذا عقدتم على النساء المؤمنات -ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد-[4] ولم تدخلوا بهن، ثم طلقتموهن مِن قبل أن تجامعوهن، فما لكم عليهن مِن عدَّة تحصونها عليهن، فأعطوهن من أموالكم متعة يتمتعن بها بحسب الوسع

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٣٧.
(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج: ٤، ص: ٢٩٠.
(٣) ابن عاشور التحرير والتنوير، ج: ٢٢، ص: ٦٣.
(٤) الشوكاني، فتح القدير، ج: ٤، ص: ٢٩٠.

جبراً لخواطرهن، وخلُّوا سبيلهن مع الستر الجميل، دون أذى أو ضرر،[١] ولا تمسكوهن ضرارا، وأخرجوهن من منازلكم إذ لا عدة لكم عليهن.[٢] **وتخصيص المؤمنات في قوله تعالى: (نكحتم المؤمنات) والحكم عام للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيرا لنطفته.**[٣]

ثم تنبه الآية الكريمة التالية على أن الله تعالى أحل لنبيه أربعة أصناف من النساء فتقول: **١**- يا أيها النبي إنَّا أَبَحْنا لك أزواجك اللاتي أعطيتهن مهورهن، **٢** - وأَبَحْنا لك اللاتي مَلَكَتْ يمينك من إمائك اللواتي سبيتهن فملكتهن بالسباء وصرن لك بفتح الله عليك من الفيء فهن مما أنعم الله به عليك، **٣**-وأبحنا لك الزواج من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن **معك دون من لم يهاجر منهن معك، ٤**- وأبحنا لك امرأة مؤمنة مَنَحَتْ نفسها لك من غير مهر، إن كنت تريد الزواج منها خالصة لك، وليس لغيرك من المؤمنين أن يتزوج امرأة بالهِبَة. قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين في أزواجهم وإمائهم بألا يتزوجوا إلا أربع نسوة، وما شاؤوا من الإماء، واشتراط الوليِّ والمهر والشهود عليهم، ولكنا رخصنا لك في ذلك، ووسَّعْنا عليك ما لم يُوسَّع على غيرك؛ لئلا يضيق صدرك ولا يكون عليك إثم في نكاح مَن نكحت مِن هؤلاء الأصناف. وكان الله غفوراً لك ولذنوب عباده المؤمنين، رحيماً بالتوسعة عليك وعليهم. وقد كان لرسول الله ﷺ **قبل أن تنزل عليه هذه الآية أن يتزوج أي النساء شاء فقصره الله على هؤلاء فلم يعدهن، وقصر سائر أمته على مثنى وثلاث ورباع.**[٤] ولم يكن تحت رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها بالرغم من عرض ما يقرب من ثلاث نسوة أنفسهن على رسول الله ﷺ منهن أم شريك.[٥]

تؤخر مَن تشاء مِن نسائك في القَسْم في المبيت، وتضم إليك مَن تشاء منهن، ومَن طَلَبْتَ

(١) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٣٨.

(٢) النسفي، مدارك التنزيل، ج: ٣، ص: ٣١٠.

(٣) البيضاوي، تفسير البيضاوي، ج: ٤، ص: ٣٨٠.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص:٢١-٢٢.

(٥) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص:٢٣.

ممن أخَّرت قَسْمها، فلا إثم عليك في هذا، ذلك التخيير أقرب إلى أن يفرحن ولا يحزنَّ، ويرضين كلهن بما قسمت لهنَّ، والله يعلم ما في قلوب الرجال مِن مَيْلها إلى بعض النساء دون بعض. وكان الله عليماً بما في القلوب، حليماً لا يعجل بالعقوبة على من عصاه. وعن قتادة قوله: ﴿ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ ﴾ قال: فجعله الله في حل من ذلك أن يدع من يشاء منهن ويأتي من يشاء منهن بغير قسم وكان نبي الله يقسم،... ويعدل بينهن حتى لقي الله،[1] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يستأذن إذا كان في يوم المرأة منا بعد ما نزل: ﴿ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ ﴾، قالت معاذة فقلت لعائشة: ما كنت تقولين لرسول الله ﷺ ؟ قالت: كنت أقول: «إن كان ذاك إلي لم أوثر أحدا على نفسي».[2]

ثم يخاطب الله تعالى نبيه بأنه لا يباح لك النساء من بعد نسائك اللاتي فى عصمتك، واللاتي أبحناهنَّ لك، وهنَّ المذكورات في الآية السابقة رقم [٥٠] من هذه السورة، ومن كانت في عصمتك من النساء المذكورات لا يحل لك أن تطلِّقها مستقبَلا وتأتي بغيرها بدلا منها، ولو أعجبك جمالها، وأما الزيادة على زوجاتك من غير تطليق إحداهن فلا حرج عليك وأما ما ملكت يمينك من الإماء فحلال لك منهن من شئت. وكان الله على كل شيء رقيباً، لا يغيب عنه علم شيء.[3]

رابعا: المناسبة بين المقطع الرابع عشر ومحور السورة:

لما بين الله تعالى في بدء السورة أن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وكان من أهم مقاصد السورة بيان ما شرف الله تعالى به نبيه وبيان مناقبه وما خصه الله به مما قد يطعن فيه المنافقون من كونه أولى من كل أحد بنفسه وما له، **ناداه** بوصف النبوة لأنه مدار الإكرام من الخالق والمحبة

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص:٢٥-٢٦.

(٢) الحاكم، المستدرك، ج: ٢، ص: ٢٠٤، رقم الحديث: ٢٧٦٢، **وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.**

(٣) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٢-٧٧٣.

من الخلائق تشريفا له به، ثم بين أنه مع ذلك لا يرضى إلا بالأكمل، فبين أنه كان يعجل المهور ويوفي الأجور، وأحل له أصنافا محددة من النساء دون غيره من المؤمنين نظرا لأهمية الدور الذي يقوم به في الدعوة إلى الله تعالى مما اقتضى تشريعات خاصة به. [١]

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الرابع عشر:

* المرأة المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك، فإن دخل بها فعليها العدة إجماعا. وإن العدة ليست خالص حق العبد، وإنما يتعلق بها حق الله وحق العبد معا؛ لأن منع الفساد باختلاط الأنساب من حق الشارع أيضا، ولا تسقط العدة إذا أسقطها المطلق لأن الشرع أثبتها. [٢]

* إذا طلق الرجل زوجته فعليه أن يسرحها سراحا جميلا ويحسن لها ولا يؤذيها.

* ظاهر قوله: ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ ﴾ ناسخ لما كان قد ثبت له -ﷺ- من أنه إذا رأى واحدة فوقعت في قلبه موقعا كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها، وهو دليل على منع تبديل زوجات النبي اللاتي اخترنه وهن تسع، [٣] **وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لما حرم الله عليهن أن يتزوجن من بعده، حرم عليه أن يتزوج غيرهن.** [٤]

* قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ ﴾ دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها فعن أبي هُرَيْرَةَ قال: كنت عِنْدَ النبي ﷺ **فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ تَزَوَّجَ امْرَأَةً من الْأَنْصَار فقال له رسول اللَّهِ ﷺ: «أَنَظَرْتَ إِلَيْهَا؟ قال: لَا قال: فَاذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فإن في أَعْيُنِ الْأَنْصَارِ شيئا».** [٥]

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١١٨-١١٩.
(٢) الزحيلي، تفسير المنير، ج: ٢٢، ص: ٤٥.
(٣) الزحيلي، تفسير المنير، ج: ٢٢، ص:٧٥-٧٧.
(٤) الشوكاني، فتح القدير، ج: ٤، ص: ٢٩٣.
(٥) مسلم، صحيح مسلم، ج:٢، ص:١٠٤٠، رقم الحديث: ١٤٢٤.

* ظاهر عموم قوله تعالى ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ يدل على إحلال الأمه الكافرة للنبي ﷺ وهو قول مجاهد وسعيد، والأصح أن الكافرة لا تحل له تنزيها لقدره عن مباشرة الكافرة.

* خص الله تعالى النبي ﷺ بخصائص فأحل له أشياء لم يحلها لأحد غيره، وحرم أشياء عليه لم يحرمها على أحد غيره.

* كل من يعدد بين الزوجات فالنبي ﷺ قدوته في العدالة، فقد كان ﷺ متشددا في ذلك حتى أنه كان إذا سافر يجري القرعة بين زوجاته، وفي مرض موته استأذن من زوجاته أن يمرض في بيت عائشة رضي الله تعالى عنها، فصلى الله عليك يا رسول الله ألف ألف مرة. فالعدالة المادية ممكنة ولكن الحب فوق الطاقة البشرية، **فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل فيقول: اللهم هذا** قسمي فيما أملك **فلا تلمني فيما تملك ولا أملك).** [1]

* أن يحذر المؤمن اطلاع الله تعالى على ما في قلبه من نوايا غير صالحة لأنه عليم بذات الصدور مطلع عليها، وهو رقيب على كل شيء. وهذا مدعاة كي يراقب العبد ربه في كل أحواله.

* إن الله تعالى ذكر في هذه الآيات الكريمة أسماء حسنى له مثل الغفور والرحيم والعليم والحليم وكونه على كل شيء رقيب، كل ذلك ليزداد الإنسان حبا لله تعالى وتعلقا به ويعرف صفات خالقه وأسمائه الحسنى.

(١) الحاكم، المستدرك، ج: ٢، ص: ٢٠٤، رقم الحديث: ٢٧٦١، **وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.**

المقطع الخامس عشر

آداب دخول بيت النبي والأمر بالحجاب

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

١- سبب نزول قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾عن أنس ﷺ قال بُنِيَ على النبي ﷺ بزَيْنَب بنْت جَحْش بخُبْز، وَلَحْم فَأُرسِلْتُ على الطَّعَام دَاعياً، فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حتى ما أَجِدُ أَحَداً أَدْعُو، فقلت: يا نَبِيَّ الله ما أَجِدُ أَحَداً أَدْعُوهُ، قال: ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ، وَبَقِيَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ في الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النبي ﷺ فَانْطَلَقَ إلى حُجْرَةِ عَائِشَةَ فقال: السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ الله، فقالت: وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ الله، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ بَارَكَ الله لك؟ فَتَقَرَّى حُجَرَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ يقول لَهُنَّ كما يقول لِعَائِشَةَ وَيَقُلْنَ له كما قالت عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النبي ﷺ فإذا ثَلاثَةٌ رَهْطٍ في الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ وكان النبي ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقاً نحو حُجْرَةِ عَائِشَةَ فما أَدْرِي آخْبَرْتُهُ أو أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حتى إذا وَضَعَ رِجْلَهُ في أُسْكُفَّةِ الْبَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ.[1] وفرض

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٤، ص: ١٧٩٩، رقم الحديث: ٤٥١٥.

الحجاب على نساء النبي ﷺ من موافقات سيدنا عمر ﷺ حيث قال: (وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ فقلت: يا رَسُولَ اللهِ لو اتَّخَذْنَا من مَقَامِ إبراهيم مُصَلًّى فَنَزَلَتْ: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وَآيَةُ الْحِجَابِ قلت يا رَسُولَ اللهِ لو أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ فإنه يُكَلِّمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النبي ﷺ في الْغَيْرَةِ عليه فقلت لَهُنَّ ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم: ٥]، فَنَزَلَتْ هذه الْآيَةُ.[1]

٢- سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ الآية (٥٣):

قال ابن كثير: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده، قال رجل لسفيان أهي عائشة قال: قد ذكروا ذلك وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم...، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين.[2] وروي عن ابن عباس أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبد الله ﷺ إلا أن القرطبي رد هذه الرواية وقال: « وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله والكذب في نقله وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال».[3]

ثانيا: المناسبة بين المقطع الخامس عشر والمقطع السابق:

يتتابع الكلام عن خصائص الرسول فبعد أن انتهى الكلام عن خصائصه المتعلقة بالزيجات بدأ الكلام عن خصوصية دخول بيته المبارك، ومخاطبة نسائه من وراء حجاب، وكما أكدت الآيات السابقة على مراقبة الله تعالى عادت هذه الآيات لتؤكد على هذه المراقبة الذاتية

---

(١) اليخاري، صحيح البخاري، ج: ٤، ص:١٥٧، رقم الحديث: ٣٩٣.

(٢) ابن كثير، التفسير القرآن العظيم، ج:٣، ٥٠٧.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٩.

لله تعالى بقوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾، ويلاحظ في هذا المقطع والذي سبقه التركيز على القلوب واطلاع الله تعالى عليها كي يطهرها المرء من الأدناس الحسية والمعنوية، ولهذا أمر الله تعالى المؤمنين بمخاطبة النساء من وراء حجاب حفاظا على طهارة القلب ثم حذرهم من اطلاعه على ما في قلوبهم وعلى كل أعمالهم وأنه شهيد عليهم، كل ذلك ليرقى الإنسان إلى مرتبة الإحسان فيعبد الله كأنه يراه.

ثالثا: المعنى الإجمالي:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله لا تدخلوا بيوت النبي في حال من الأحوال إلا بإذنه لتناول طعام غير منتظرين نضجه، ولكن إذا دعاكم رسول الله فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله، فإذا أكلتم فانصرفوا من منزله غير مستأنسين بالحديث بينكم؛ فإن انتظاركم واستئناسكم يؤذي النبي، فيستحيي من إخراجكم من البيوت مع أن ذلك حق له، والله لا يستحيي من بيان الحق وإظهاره. وإذا سألتم نساء رسول الله ﷺ حاجة من أواني البيت ونحوها فاسألوهن من وراء ستر؛ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال؛ فالرؤية سبب الفتنة، وتركها نفي للريبة والتهمة، وما ينبغي لكم أن تؤذوا رسول الله، ولا أن تتزوجوا أزواجه من بعد موته أبداً؛ لأنهن أمهاتكم، ولا يحلُّ للرجل أن يتزوج أمَّه، إنَّ أذاكم رسول الله ﷺ ونكاحكم أزواجه من بعده إثم عظيم عند الله. وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه[1]. إن تُظْهِروا شيئاً على ألسنتكم -أيها الناس- مما يؤذي رسول الله مما نهاكم الله عنه أو من مراقبة النساء، أو تخفوه في أنفسكم، **فإن الله تعالى بكل ذلك وبغيره من أموركم وأمور غيركم عليم لا يخفى عليه شيء وهو يجازيكم على جميع ذلك**، قال البيضاوي: وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود

---

(١) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٤.

مزيـد تهويـل ومبالغة في الوعـيد.[١]

ولما نزلت آيات الحجاب تساءل بعض أقارب أمهات المؤمنين أنحن نكلمهن من وراء حجاب فرد الله سبحانه عليهم: لا إثم ولا حرج على نساء النبي ﷺ وأمهات المؤمنين في عدم الاحتجاب من آبائهن وأبنائهن وإخوانهن وأبناء إخوانهن وأبناء أخواتهن وعني بإخوانهن وأبناء إخوانهن إخوتهن وأبناء إخوتهن، والنساء المؤمنات والعبيد المملوكين لهن؛ لشدة الحاجة إليهم في الخدمة. وخفن الله -أيتها النساء- أن تتعدَّيْن ما حَدَّ الله لكنَّ، فتبدين من زينتكن ما ليس لكُنَّ أن تبدينه، أو تتركن الحجاب أمام مَن يجب عليكن الاحتجاب منه. والزمن طاعته إن الله كان على كل شيء شهيداً، يشهد أعمال العباد ظاهرها وباطنها، وسيجزيهم عليها، يقول الطبري: «**فاتقين الله في أنفسكن لا تلقين الله وهو شاهد عليكم بمعصيته وخلاف أمره ونهيه فتهلكن فإنه شاهد على كل شيء**».[٢]

رابعا: المناسبة بين المقطع الخامس عشر ومحور السورة:

لما كان محور السورة يدور حول تعظيم الرسول ﷺ وإظهار شرفه ومناقبه، بين القرآن كيفية الدخول إلى بيته وأن في ذلك خصوصية له، وكذلك هناك خصوصية في الكلام مع زوجاته وفي حجابهن، وأن الهدف من كل هذه الأوامر هو تقوى لله تعالى والارتباط به، وقد ختمت الآيات بحرمة إيذاء الرسول ﷺ مطلقا وخصوصا فيما يتعلق بتزوج نسائه من بعد موته.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الخامس عشر:

* **أمر الله تعالى المؤمنين ألا يدخلوا بيوت النبي إلا إلى الطعام وطلب من الذين يدعون لمأدبة في منزل النبي أن يتفرقوا وينتشروا بعد الانتهاء من الطعام، وذلك لأن الدخول حرام وإنما**

---

(١) البيضاوي، تفسير البيضاوي، ج: ٤، ص: ٣٨٤.

(٢) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص:٤٣، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٣١، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٤-٧٧٥، ومحمد محمود حجازي، التفسير الواضح، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣)، ط ١٠، ص: ١١٢.

جاز لأجل الأكل فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله. (١)

* في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض أو مسألة يستفتين فيها ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة بدنها وصوتها فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة كالشهادة عليها أو داء يكون ببدنها أو سؤالها عما يعرض وتعين عندها. (٢)

* **يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل، له فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته.** (٣)

* **أذية رسول الله ﷺ أو نكاح أزواجه من جملة الكبائر ولا ذنب أعظم منه.** (٤) **قال الشافعي رحمه الله: وأزواجه ﷺ اللاتي مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن ومن استحل ذلك كان كافرا لقوله تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾. (٥)

* إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يفيد إحاطة علم الله تعالى بكل شيء فهو جل وعلا عالم بما بدا وما خفي، وما كان وما لم يكن، لا يخفى عليه ماض تقضى ولا مستقبل يأتي، وهذا الوصف مدح لله تعالى، وهو كذلك توبيخ ووعيد لمن أضمر إيذاء النبي ﷺ في زوجاته كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾. (٦)

* استثنى الله تعالى من فرضية الحجاب على أزواج النبي صلى الله علبه وسلم الأقارب المحارم من النسب أو الرضاع، وهم الآباء والأبناء والإخوة وأبناء الإخوة وأبناء

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٦.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٨.
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٨.
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٣٠.
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٩.
(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٣٠.

الأخوات والنساء المؤمنات، وهو رأي بن عباس ومجاهد، وتكون إضافتهن إليهن باعتبار أنهن على دينهن، ويكون ذلك دليل احتجاب نساء النبي ﷺ من الكافرات. ويرى بعضهم أن المراد منهن النساء القريبات، وتكون إضافتهن إليهن لمزيد اختصاصهن بهن، لما لهن من صلة القرابة، وكذلك الخادمات. وأيضا ماملكت أيمانهن من الذكور والإناث.

* توج الله تعالى آية الحجاب واستثناء المحارم بالأمر بالتقوى، كأنه قال:اقتصرن على هذا، واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره، وخص النساء بهذا الامر وعينهن، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن، ثم توعد تعالى بأنه رقيب على كل شئ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي أنه يعلم علم شهود وحضور ومعاينه، فيجازي على مايكون. (١)

المقطع السادس عشر

بيان مكانة النبي عند الله وفي الملأ الأعلى وعند الخلق إنسا وجنا وحرمة إيذائه وإيذاء المؤمنين

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

عن ابن عباس في قوله:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾، قال: نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي بن أخطب. (٢)

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج:٢١-٢٢، ص: ٨٢.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٤٥.

ثانيا: المناسبة بين المقطع السادس عشر والمقطع السابق:

شرف الله تعالى في هذه الآية رسوله ﷺ وذكر منزلته منه وطهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء في أمر أزواجه ونحو ذلك، [1] قال الفخر الرازي: «لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراماً كمل بيان حرمته وذلك لأن حالته منحصرة في اثنتين حالة خلواته وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله: ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾، وحالة يكون في ملأ، والملأ إما الملأ الأعلى وإما الملأ الأدنى، أما في الملأ الأعلى فهو محترم فإن الله وملائكته يصلون عليه، وأما في الملأ الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾. [2]

ثالثا: المعنى الإجمالي:

شرف الله تعالى في هذه الآية رسوله عليه الصلاة والسلام، وبين مقامه ومنزلته منه بأنه سبحانه وتعالى يثني على النبي ﷺ عند الملائكة المقربين ويباركه ويرحمه، وملائكته يثنون على النبي ويدعون له، وأكد الله تعالى تمجيده ﷺ بصيغة (إن)، وبالجملة الاسمية لتفيد الدوام، وذكر اسم (الله) تعالى، وفعل المضارع (يصلون) الذي يفيد تجدد الثناء. **ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بأن يصلوا** على رسول لله ويدعوا له، وأن يسلِّموا عليه تسليماً، تحية وتعظيماً له **فجمع الله تعالى في هذ الآية الثناء عليه** من **أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا**. وأما حكم الصلاة والسلام عليه فهي فرض في العمر مرة، قال ابن عطية: «والصلاة على رسول الله في كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه». [3] وعند الإمام الشافعي هي فرض في الصلاة ومن تركها فسدت صلاته. [4]

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج:، ص:.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٩٦.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج: ٤، ص: ٣٩٧-٣٩٨.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج:٣، ص: ٥٠٩.

أما كيفية الصلاة على النبي ﷺ فقد وردت أحاديث كثيرة حول ذلك منها: عن ابن أبي لَيْلَى عن كَعْبِ بن عُجْرَةَ ﷺ قِيلَ: يا رَسُولَ اللَّهِ أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ فَكَيْفَ الصَّلَاةُ؟ قال: «قُولُوا: اللهم صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كما صَلَّيْتَ على آلِ إبراهيم إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللهم بَارِكْ على مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كما بَارَكْتَ على آلِ إبراهيم إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ». [(١)]

أما أجر الصلاة عليه فقد وردت أحاديث عديدة منها: عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «من صلى عَلَيَّ وَاحِدَةً صلى الله عليه عَشْراً». [(٢)] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات». [(٣)]

وعن أَوْسِ بن أَوْسٍ قال: قال النبي ﷺ «إِنَّ من أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يوم الْجُمُعَةِ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ من الصَّلَاةِ فيه فإن صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ قال فَقَالُوا يا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وقد أَرَمْتَ؟ قال يَقُولُونَ بَلِيتَ قال إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَرَّمَ على الأرض أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ صلى الله عليهم». [(٤)]

وزيادة على ما سبق من فوائد متعلقة بالصلاة على النبي ﷺ فقد ذكر ابن قيم الجوزية جملة من الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة على النبي ﷺ ومنها: امتثال أمر الله تعالى، وأنها سبب لغفران الذنوب، وكفاية العبد ما أهمه، وأنها تقوم مقام الصدقة لذي العسرة، وأنها سبب لقضاء الحوائج. [(٥)]

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٤، ص: ١٨٠٢، رقم الحديث: ٤٥١٩.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، ج: ١، ص:٣٠٦، رقم الحديث: ٤٠٨.

(٣) علي بن أبي بكر الهيثمي أبو الحسن، موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، ج:١، ص:٥٩٤، رقم الحديث: ٢٣٩٠.

(٤) أبو داود، سنن أبي داود، ج: ٢، ص: ٨٨، رقم الحديث: ١٥٣١.

(٥) ابن قيم الجوزية، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤٢٠)، ط٣، ص: ٦١٢-٦١٣.

وإذا بان شرف رسول الله ﷺ ومكانته عند الله تعالى وعند الملأ الأعلى، وفضل المسلم عليه فعندئذ يعرف عظم ذنب من يذمه أو يؤذيه باستحقاقه اللعنة التي هي أشد المحذورات لأن البعد من الله لا يرجى معه خير، [١] ولهذا قال الله تعالى محذرا ومنبها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ ﴾ بالشرك أو غيره من المعاصي، ويؤذون رسول الله بالأقوال أو الأفعال، أبعدهم الله وطردهم مِن كل خير في الدنيا والآخرة، وأعدَّ لهم في الآخرة عذاباً يذلهم ويهينهم فيه بالخلود فيه. والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بقول أو فعل من غير ذنب عملوه، فقد ارتكبوا أفحش الكذب والزور، وأتوا ذنباً ظاهر القبح يستحقون به العذاب في الآخرة، فكيف إذا أوذوا بالمعروف فذلك يضاعف له العذاب. [٢]

رابعا: المناسبة بين المقطع السادس عشر ومحور السورة:

قال الطبرسي: لما صدر سبحانه هذه السورة بذكر النبي ﷺ وقرر في أثناء السورة ذكر تعظيمه، ختم ذلك بالتعظيم الذي ليس يقاربه تعظيم ولا يدانيه. [٣]

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع السادس عشر:

* إن الصلاة على النبي ﷺ من أفضل العبادات لأن الله تعالى تولاها بنفسه مع ملائكته الكرام وأمر بها المؤمنين، ولا يوجد عبادة مماثلة لها من هذا الوجه.
* إن الأمر بالصلاة على النبي ﷺ بهذه الطريقة تفيد أن الرسول ﷺ هو أكرم مخلوق على الله تعالى وأفضل الخلق أجمعين، وهو أفضل الأنبياء قاطبة حيث لم نؤمر بالصلاة على غيره من الأنبياء عليهم السلام.
* يصلى على النبي شفاهة كلما ذكر، أما كتابة فقد ذكر ابن كثير: أن أهل الكتابة استحبوا أن

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٩٧.
(٢) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٤٥، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٥.
(٣) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (بيروت: دار الحياة)، ج: ٢٢، ص: ١٦٥.

يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ **كلما كتبه**، ولم يصح في ذلك حديث، **ونقل ما ذكره الخطيب البغدادي قال: رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيرا ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة، قال: وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظا.** [١]

* لا يفرد غير الأنبياء بالصلاة والسلام عليهم، لأن هذا صار شعارا لهم إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: أبو بكر عليه الصلاة والسلام ولا علي عليه الصلاة والسلام بل ﷺ، **فعن ابن عباس أنه قال: لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة.** [٢]

* يستحب الصلاة على الرسول في مواطن عديدة منها: بعد إجابة المؤذن وعند الإقامة، وعند الدعاء، ويوم الجمعة، وغيرها من مواطن وأزمنة، ومن المواطن التي مضى عليها عمل الأئمة ولم تنكرها الأمة: الصلاة على النبي ﷺ في الرسائل، وما يكتب بعد البسملة. [٣]

* من المواطن التي لا تصح فيها الصلاة على النبي ﷺ: عند طنين الأذن،[٤] وعند أكل الفجل، ولمن اتهم وهو بريء. [٥]

* إيذاء النبي ﷺ من أكبر الكبائر التي تستوجب الطرد من رحمة الله تعالى، ولم يتعرض أحد في التاريخ للأذى كرسول الله ﷺ، وما نراه اليوم من التطاول على مقام النبي ﷺ ومكانته بالرسوم الكاريكاتورية وغيرها دليل على ما نقوله، وبذلك نعلم حكمة إظهار مقامه الحقيقي عند الله تعالى وإثم من اعتدى عليه، وبشاعة عمله، ويصور هذا التعبير ﴿ إِنَّ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥١٧.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥١٨.

(٣) القاضي أبو الفضل عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق عبد السلام محمد أمين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢)، ط٢، ج: ٢، ص: ٤.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥١٧.

(٥) السخاوي، القول البديع في الصلاة على النبي الشفيع، ص: ٤٢٢، ٤٢٨، ٤٤٧.

ﱡﭐ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﱠ الحساسية بإيذاء الرسول وكأنما هو إيذاء لله عز وجل، فما أبشع وما أشنع هذا العمل.[١]

* لا يجوز إيذاء المؤمنين والمؤمنات بالافتراء عليهم بنسبة أمور سيئة لم يرتكبوها، وها نحن اليوم نرى هذا ونسمعه من كثير من أعداء الإسلام الذين يتهمون المسلمين زورا بالإرهاب، وقد قال الله تعالى محذرا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

المقطع السابع عشر

حجاب المرأة المسلمة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩ ﴾.

أولا: سبب النزول:

عن أبي مالك قال: كانت نساء المؤمنين يخرجن بالليل الى حاجاتهن، وكان المنافقون يتعرضون لهن ويؤذونهن، فنزلت هذه الآية. وقال السدي كانت المدينة ضيقة المنازل، وكان النساء إذا كان الليل خرجن، فقضين الحاجة، وكان فساق من فساق المدينة يخرجون فإذا رأوا المرأة عليها قناع قالوا هذه حرة فتركوها، وإذا رأوا المرأة بغير قناع قالوا هذه أمة فكانوا يراودونها فأنزل الله تعالى هذه الآية.[٢]

(١) سيد قطب، الظلال، ج: ٥، ص: ٢٨٧٩.

(٢) علي بن أحمد الواحدي، أسباب النزول، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٥)، ط٢، ص:٢٥٧.

ثانيا: المناسبة بين المقطع السابع عشر والمقطع السابق:

لما نهى الله تعالى عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات، ناسب أن يتبع ذلك أمر المؤمنات باجتناب أسباب الأذى ومواطن التهم بفرض الحجاب عليهن عند الخروج كي لا يتعرض لهن الفساق من الناس، وفي ذلك حصانة لهن وطهر ومنع من وصول الأذى إليهن. وأما سبب تخصيص النهي عن إيذاء النساء هنا فلعل سببه ما قاله الرازي: «ولما كان الإيذاء القولي مختصاً بالذكر اختص بالذكر ما هو سبب الإيذاء القولي وهو النساء، فإن ذكرهن بالسوء يؤذي الرجال والنساء. بخلاف ذكر الرجال فإن من ذكر امرأة بالسوء تأذت وتأذى أقاربها أكثر من تأذيها، ومن ذكر رجلاً بالسوء تأذى ولا يتأذى نساؤه». [١]

ثالثا: المعنى الإجمالي:

تعد هذه الآية الكريمة من أهم آيات الأحكام المتعلقة بحجاب المرأة المسلمة، وهي عنوان لحشمة النساء وتبيان لعلة فرض الحجاب عليهن بأنه الحفاظ عليهن من الفسقة المعتدين، ومعناها: يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن يرخين ويسدلن على رؤوسهن ووجوههن من أرديتهن وملاحفهن؛ لستر وجوههن وصدورهن ورؤوسهن، والجلباب ثوب واسع أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما الرداء الذي يستر من فوق إلى أسفل، وقيل الملحفة وكل ما يستتر به من كساء أو غيره، [٢] ورجح القرطبي أنه الثوب الذي يستر جميع البدن. [٣] ذلك أقرب أن يميَّزن بالستر والصيانة وأن يعرفن بأنهن حرائر، فلا يُتعَرَّض لهن بمكروه أو أذى، وهذا هو علة الأمر بالحجاب. وكان الله غفوراً رحيماً حيث غفر

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٩٨، وقارن بالبقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٣٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٢، ص: ١٠٤.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج:٣، ص: ٥٦٩.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص:٢٤٣.

لكم ما سلف من عدم إدنائهن من جلابيبهن، ورحمكم بما أوضح لكم من الحلال والحرام.[١] والإدناء: التقريب وضمن معنى الإرخاء والإسدال ولذلك عدي بـ(على)، وكما قال الطبري: اختلف أهل التأويل في صفة الإدناء الذي أمرهن الله به،[٢] وقال ابن عطية: اختلف الناس في صورة إدنائه فقال ابن عباس وعبيدة السلماني: ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها، وقال ابن عباس أيضا وقتادة: وذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه، وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ ﴾ بأنهن حرائر ولسن بإماء، فإذا عرفن لم يقابلن بأذى.[٣] وأيا كان الأمر فالأمة مجمعة على وجوب أن تغطي المرأة شعرها ورأسها أما الأمر بتغطية الوجه فقد اختلفوا فيه، وهذا مبني على اختلافهم في معنى الزينة التي يجب على المرأة أن تسترها في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ ﴾ وهل وجه المرأة عورة أم لا؟ والقول ومعلوم أن للعلماء رأيين في هذا المجال: رأي يوجب تغطية البدن جميعا مع الوجه والكفين، ورأي آخر يوجب تغطية البدن كله ما عدا الوجه والكفين، **وكلا الرأيين حق**، ولسنا هنا في معرض الترجيح بينهما وإنما نكتفي بالقول: **إن الأكمل والأحسن للمرأة هو ستر الوجه والكفين، وأما التي كشفت وجهها وكفيها دون زينة زائدة فقد التزمت شرع ربها ولا يجوز أن ننكر عليها ذلك خصوصا في هذا الزمان العصيب الذي قل فيه الالتزام بأدنى متطلبات الحجاب في كثير من الدول الإسلامية، والمفروض في زماننا أن يقوم الدعاة بنصح أولئك الكاسيات العاريات كي يرجعن إلى الله تعالى قبل أن يمتن فلا يشممن رائحة الجنة**، فعن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: **«صِنْفَانِ من أَهْلِ النَّارِ لم أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بها الناس، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رؤوسهن كأسنة الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ ولا يَجِدْنَ**

(١) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٥.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٤٦.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج:٤، ص: ٣٩٩.

رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ من مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا». [١] وقد دخل نسوة من بني تميم على عائشة رضي الله عنها عليهن ثياب رقاق، فقالت عائشة: إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات، وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعينه. وأدخلت امرأة عروس على عائشة رضي الله عنها وعليها خمار قبطي معصفر فلما رأتها قالت: لم تؤمن بسورة النور امرأة تلبس هذا. [٢]

رابعا: المناسبة بين المقطع السابع عشر ومحور السورة:

إن من أهم مقاصد السورة تبيان مقام الرسول وأنه قدوة للناس، وفي هذه الآية أمر الله تعالى الرسول ﷺ القدوة بأن يكون أول من يبادر إلى تطبيق الحجاب على زوجاته ليسير خلفه قافلة المؤمنين فيطبقوا هذا الأمر على زوجاتهم.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع السابع عشر:

* إن الرسول ﷺ هو سيد الأمة وقدوتها ولهذا توجه الأمر إليه أولا في فرض الحجاب على زوجاته، وكذلك تبعه المؤمنون من الصحابة والصحابيات فبادروا لتطبيق هذا الحكم دون أي تردد، فقد ذكر عند عائشة نساء قريش وفضلهن فقالت: إن نساء قريش لفضلاء ولكني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا بكتاب الله ولا إيمانا بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]، فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل فيها، ما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها فأصبحن يصلين الصبح معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان. [٣] وهذا الأمر يدعونا في هذا الزمان للمسارعة إلى تطبيق ما أمر الله تعالى به دون أي تردد خصوصا في مسألة الحجاب الذي يصعب على بعض النفوس تطبيقه.

---

(١) مسلم، صحيح مسلم، ج:٣، ص: ١٦٨٠، رقم الحديث: ٢١٢٨.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص:٢٤٤.

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٤٩٠.

* إن الحجاب حصانة للمرأة ونور يغطيها، **وهو من شعائر الإسلام**، يميز المرأة المسلمة عن غيرها أينما كانت، فلابد من الالتزام به وحث المرأة عليه.
* إن الحجاب مناسب لفطرة المرأة، لأنها لا ترغب في أن ينظر إلى جمالها الفسقة من الناس [1] والحجاب سبب لدوام حب الزوج لزوجته التي لا تبدي زينتها إلا لزوجها خلافا للمرأة المتبرجة، يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى: «إن الهدف صيانة المجتمع كله من الفتنة وإبقاء الاستقرار والأمن بالنسبة للمرأة حتى لا يخرج زوجها من بيته وهي لا تعلم هل ستفتنه امرأة أخرى فيتزوجها... أم أنه سيعود إلى بيته؟». [2]
* أدى ترك الحجاب في مجتمعاتنا إلى مفاسد عظيمة لكل من الرجال والنساء.

المقطع التاسع عشر

جزاء المنافقين والكفار

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

---

(١) سعيد النورسي، اللمعات، ترجمة محمد زاهد الملازكردي، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٥/ ١٩٨٥)، ط١، ص:٣٠٣.

(٢) بليغ فتحي عبد الخبير، تأملات في سورة الأحزاب، ص: ٣١١.

أولا: سبب النزول:

أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة ﷺ قال: إن أناسا من المنافقين أرادوا ان يظهروا نفاقهم فنزلت فيهم: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾، لنحرشنك بهم.[1]

ثانيا: المناسبة بين المقطع التاسع عشر والمقطع السابق:

لما كان المؤذون بما مضى وغيره أهل النفاق ومن داناهم، حذرهم الله تعالى من استمرار الأذى كي لا يظنوا أن حلم الله عنهم سيستمر، وتشير هذه الآية إلى أن إيذاء الرسول بالقول أو الفعل، والتعرض بالسوء لنسائه وآل بيته، وعدم امتثال أمر الله مطلقا وخاصة في ستر عورات النساء، كل هذا من لوازم النفاق العملي الذي يأباه الله ويتنافى مع حقيقة الإسلام.[2]

ثالثا: المعنى الإجمالي:

لئن لم يكفَّ الذين يضمرون الكفر ويظهرون الإيمان والذين في قلوبهم شك وريبة من شهوة الزنى وحب الفجور، والمنافقون أصناف عشرة في سورة براءة، فالذين في قلوبهم مرض صنف منهم مرض من أمر النساء. والذين ينشرون الأخبار الكاذبة التي تخيف قلوب المسلمين في مدينة الرسول ﷺ، يتوعدهم الله تعالى إن لم ينتهوا عن نفاقهم لنسلطَنَّك عليهم، ثم لا يسكنون معك في المدينة إلا زمناً قليلا فتنفيهم عنها وتخرجهم منها. وهم مطرودون من رحمة الله، في أي مكان وُجِدوا فيه أُسِروا وقُتِّلوا تقتيلا إذا هم أظهروا الكفر وداموا على النفاق ونشر الأخبار الكاذبة بين المسلمين بغرض الفتنة والفساد.

وتلك هي سنة الله مع منافقي الأمم السابقة أن يؤسَروا ويُقَتَّلوا أينما كانوا، ولن تجد

---

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٦٢.

(٢) قارن بالبقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٣٦، ومحمود حجازي، التفسير الواضح، ج: ٣، ص: ١١٩-١٢٠.

-أيها النبي- لطريقة الله تحويلا ولا تغييراً، يقول القرطبي: «**وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد والدليل على ذلك بقاء المنافقين مع الرسول ﷺ حتى مات**». [(١)]

ولما بين الله تعالى ما أعد لأعداء دينه في الدنيا، وبين أن طريقته جادة لا تنخرم، لما لها من قوانين الحكمة وأفانين الإتقان والعظمة، وكان من أعظم الطرق الحكمية والمغيبات العلمية الساعة، وكان قد قام ما يحرك إلى السؤال عنها في قوله: ﴿ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ الأحزاب: ٥٧، وكان قد مضى آخر السجدة أنهم سألوا استهزاء وتكذيباً عن تعيين وقتها، وهددهم سبحانه على هذا السؤال، قال تعالى مهدداً أيضاً على ذلك مبيناً ما لأعداء الدين المستهزئين في الآخرة:[(٢)] يسألك الناس -أيها الرسول- عن وقت القيامة استبعاداً وتكذيباً، قل لهم: إنما علم الساعة عند الله وما يدريك -أيها الرسول- لعل زمانها قريب؟، **فأرشده إلى أن رد علم الساعة إلى الله** كما أعلمه في سورة الأعراف، وأعلمه في آيات أخرى كذلك بقرب الساعة مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧]، ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر: ١]، وقوله: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، وقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١]. [(٣)]

ثم توعد تعالى الكافرين بعذاب لا ولي لهم منه ولا ناصر فقال: إن الله طرد الكافرين من رحمته في الدنيا والآخرة، وأعدَّ لهم في الآخرة ناراً موقدة شديدة الحرارة، ماكثين فيها أبداً، لا يجدون وليّاً يتولاهم ويدافع عنهم، ولا نصيراً ينصرهم، فيخرجهم من النار. يوم تُقَلَّب وجوه الكافرين في النار، وخصت الوجوه بالذكر لأنها طالما عصت ربها، وآذت رسوله، وتكبرت على عباده المؤمنين. [(٤)] واذكر يوم يقولون نادمين متحيِّرين عندما يسحبون في النار على وجوههم:

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٤٨.
(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٣٧.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥٢٠.
(٤) محمد حجازي، التفسير الواضح، ص: ١٢١.

يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا رسوله في الدنيا، فكنا من أهل الجنة،[1] ومثل هذا قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]

وقال الكافرون يوم القيامة معتذرين: ربنا إنا أطَعْنا أئمتنا في الضلال والشر وكبراءنا في الشرك، فأزالونا عن طريق الـهُدى والإيمان. ربنا عذِّبهم من العذاب مثلَيْ عذابنا الذي تعذبنا به، واطردهم من رحمتك طرداً شديداً. وفي هذا دليل على أن طاعة غير الله في مخالفة أمره وأمر رسوله، موجبة لسخط الله وعقابه، وأن التابع والمتبوع في العذاب مشتركون، فليحذر المسلم ذلك، لأن الله تعالى خلق لكل إنسان عقلا وفكرا مستقلا يحاسبه عليه بناء على ما يختار من خير أو شر.

رابعا: المناسبة بين المقطع التاسع عشر ومحور السورة:

لما كان من أهم مقاصد السورة تعظيم النبي، بين الله تعالى جزاء المنافقين والكفار الذين يؤذون الرسول ﷺ، وما سيتعرضون له من العقاب الدنيوي والأخروي جزاء وفاقا لهذا الإيذاء.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع التاسع عشر:

* النفاق مرض قلبي وهو أنواع منه حب الشهوات المحرمة كالزنى وغيره، نعوذ بالله تعالى منه ومن كل أمراض القلوب.
* إن المدينة المنورة بلدة مباركة وهي كما قال النبي: (**أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى يَقُولُونَ يَثْرِبُ وَهِيَ الْمَدِينَةُ تَنْفِي الناس كما يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**)،[2] فمن جاور فيها فهو ذو حظ

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج: ٤، ص: ٤٠٠.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، ج:٢، ص: ٦٦٢، رقم الحديث: ١٧٧٢، ومسلم، صحيح مسلم، ج: ٢، ص: ١٠٠٦، رقم الحديث: ١٣٨٢، وعبد الرزاق الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، ج:٩، ص: ٢٦٩، رقم الحديث: ١٧١٦٥.



عظيم، اللهم ارزقنا ذلك.

* إن لله تعالى سننا في الكون لا تتغير ولا تتبدل، فعلى الإنسان أن يحذر عذاب الله تعالى وغضبه، وأن يتحرى رضوانه بأن يراعي سنن الله في الكون ويوافق حركته لها.

* غيب الله تعالى علم وقوع الساعة عن الإنسان لحكم عظيمة، منها متعلق بالتكليف كي يبقى الإنسان مستعدا دوما للقاء الله تعالى فيستعجل في عمل الخير ويبتعد عن اقتراف المعاصي.

* أن لا يكون الإنسان إمعة يتبع كل ناعق، بل على الإنسان أن يستخدم عقله في كل أموره فيتنبه لأصحاب الدعاوى الباطلة فيحذرهم لأنه يوم القيامة سيحاسب على عمله وعلى من يتبع ويحب فالمرء يحشر مع من يحب، ويوم القيامة لا تنفع الندامة. وفي ذلك اليوم لا ينفع السادة الضالون من اتبعوهم من الضعفاء والمساكين وغيرهم.

المقطع العشرون

توجيهات وعظات للمؤمنين

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾.

أولا: المناسبة بين المقطع العشرين والمقطع السابق:

لما ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله والمؤمنين بأنواع عديدة من الأذى وتوعدهم بأصناف من العذاب، حذر المؤمنين من التعرض للإيذاء، ونهاهم عن التشبه ببني إسرائيل في أذيتهم سيدنا موسى عليه السلام حتى لا ينالهم ما نال المنافقين والكفار من العذاب. ويقول النسفي: «وهذه الآية مقررة للتي قبلها بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله ﷺ، **وهذه على الأمر باتقاء الله في حفظ اللسان ليترادف عليهم النهي والأمر مع اتباع النهي ما**

يتضمن الوعيد من قصة موسى ﷺ واتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه». (١)

ثانيا: المعنى الإجمالي:

ابتدأ الله تعالى بنداء المؤمنين تنبيها إلى أهمية وخطورة ما سيأتي بعد النداء فقال: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه لا تؤذوا رسول الله ﷺ بقول أو فعل، ونداء المؤمنين فيه تعريض بمن لا يؤمن بالرسول من المنافقين لأنه يصدر منه إيذاء الرسول ﷺ قولا وفعلا مثل الأذى الذي عمله المنافقون حول زواج النبي بزينب، أو الأذى الذي تعرض له النبي أثناء قسمة الغنائم وغيرها، ونهى الله تعالى المؤمنين بأن لا تكونوا أمثال بني إسرائيل الذين آذوا نبيَّ الله موسى باتهامه بأنواع من الأذى مثل قولهم: إنه آدر أي: منفوخ الخصيتين، أو أبرص، أو أنه قتل أخاه هارون، ورجح الطبري الأول لورود الحديث التالي في ذلك، فبرَّأه الله مما قالوا فيه من الكذب والزور، وكان عند الله عظيم القدر والجاه. فنفر الله المؤمنين أن يكونوا كهؤلاء المنحرفين الملتوين الذين يضربهم القرآن مثلا صارخا للالتواء. (٢)

ومثل عموم هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥]، حيث لم يحدد نوع الإيذاء فكما آذوه شخصيا آذوه كثيرا من جانب الرسالة كما بينه تعالى في قوله عنهم: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥]، وقالوا له: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٤٢]، فآذوه بالعصيان والتهكم، وقالوا له مرة: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ ﴾ [البقرة: ٦٧]، فنسبوه إلى الطيش والسخرية، ولهذا رد موسى عليهم بقوله: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧]. وقال صاحب أضواء البيان: ومن مجموع هذا يتبين أن الإيذاء المنصوص عليه هنا هو في خصوص الرسالة

(١) النسفي، مدارك التنزيل، ج: ٣، ص: ٣١٧.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج:٢٥، ص:٢٨٨٣- ٢٨٨٤.

ولا مانع من أنهم آذوه بأنواع من الإيذاء في شخصه وفي ما جاء به فبرأه الله مما قالوا في آية الأحزاب وعاقبهم على إيذائه فيما أرسل به إليهم بزيغ قلوبهم والعلم عند الله تعالى.[1] أما إيذاء موسى الشخصي فقد أخرج البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ مُوسَى كان رَجُلاً حَيِيّاً سِتِّيراً لَا يُرَى من جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً منه فَآذَاهُ من آذَاهُ من بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا ما يَسْتَتِرُ هذا التَّسَتُّرَ إلا من عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ وَإِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قالوا لِمُوسَى فَخَلَا يَوْماً وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ على الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ فلما فَرَغَ أَقْبَلَ إلى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يقول ثَوْبِي حَجَرُ ثَوْبِي حَجَرُ حتى انْتَهَى إلى مَلأٍ من بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَاناً أَحْسَنَ ما خَلَقَ الله وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْباً بِعَصَاهُ فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَباً من أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثاً أو أَرْبَعاً أو خَمْساً فَذَلِكَ قَوْلُهُ**: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ الله مِمَّا قالوا وكان عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً)».[2]

وهذه الآية تدل على وجوب توقير النبي والابتعاد عن إيذائه وقد التزم أصحاب النبي بذلك أشد التزام، وقد حصل الإيذاء من بعض المنافقين أو الغافلين فعن عَبْدَ اللَّهِ رضي الله عنه قال: **قَسَمَ النبي ﷺ قَسْماً فقال رَجُلٌ إِنَّ هذه لَقِسْمَةٌ ما أُرِيدَ بها وَجْهُ اللهِ فَأَتَيْتُ النبي ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَغَضِبَ حتى رأيت الْغَضَبَ في وَجْهِهِ ثُمَّ قال يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى قد أُوذِيَ بِأَكْثَرَ من هذا فَصَبَرَ**.[3]

وبعد الانتهاء من نهي المسلمين عن إيذاء الرسول أمرهم بجماع الأمر كله وهو التقوى وذلك بأن يعملوا بطاعته، ويجتنبوا معصيته؛ لئلا يستحقوا بذلك العقاب، وأمرهم بأن: قولوا في جميع أحوالكم وشؤونكم قولا مستقيماً موافقاً للصواب خالياً من الكذب والباطل. والقول السديد يشمل مدح النبي ﷺ وقول الصدق، والإخلاص في القول العمل، بل هو يعم الخيرات كلها.[4]

---

(١) الشنقيطي، أضواء البيان، ج: ٩، ص: ١٠٩.

(٢) البخاري صحيح البخاري، ج: ٣، ص: ١٢٤٩، رقم الحديث: ٣٢٢٣.

(٣) البخاري صحيح البخاري، ج:٣، ص:١٢٤٩، رقم الحديث: ٣٢٢٤.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج:١٤، ص: ٢٥٣.

وإذا اتقيتم الله وقلتم قولا سديداً أصلح الله لكم أعمالكم، وغفر ذنوبكم. ومن يطع الله ورسوله فيما أمر ونهى فقد فاز بالكرامة العظمى في الدنيا والآخرة. قال الرازي: «**أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال أما الأفعال فالخير، وأما الأقوال فالحق لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله، ومن قال الصدق قال قولاً سديداً، ثم وعدهم على الأمرين بأمرين على الخيرات بإصلاح الأعمال فإن بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالداً في الجنة وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب**».[1]

ثالثا: المناسبة بين المقطع العشرين ومحور السورة:

لما ابتدأت السورة بأمر النبي ﷺ بتقوى الله تعالى واتباع الوحي **ناسب** أن يثني هنا بأمر المؤمنين في ختام السورة بهذا الأمر العظيم وهو التقوى، وكذلك لما كانت السورة في بيان فضل النبي وبيان مقامه العظيم ناسب أن يؤكد على المؤمنين كيف يعظمونه بالابتعاد عن إيذائه وبأن يقولوا في حقه ما يناسب مقامه الجليل ﷺ.

رابعا: من الفوائد المستنبطة من المقطع العشرين:

* حرمة إيذاء النبي ﷺ، **وضرورة تعظيمه.**
* **إن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا، فمن كان مع الله كان الله معه ومن لم يكن الله معه فلا شيء معه ولو كانت الدنيا كلها معه.**
* ضرورة التزام التقوى لأن النتائج كبيرة ومهمة، وضرورة الصدق في القول و**العمل**، لأن النتيجة هي مجتمع صالح يصلح الله له أعماله في الدنيا ويغفر له ذنوبه في الآخرة ويكون له الفوز العظيم بالجنة.

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ٢٠٢، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٧.

المقطع الحادي والعشرين

عظمة تكليف الإنسان وحمله الأمانة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

أولا: المناسبة بين المقطع الحادي والعشرين والمقطع السابق:

بعد أن ذكر الله تعالى أهمية التقوى ونتائجها الحميدة وأمر بطاعة الله تعالى ورسوله وبين أن نتيجتها الفوز بالجنة، عقب ذلك عظيم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام من غير جبر هناك ولا إبرام وعبر عنها بالأمانة، فالطاعة هي الأمانة التي هي التكليف. [١]

ثانيا: المعنى الإجمالي:

ينبئنا الله تعالى بأنه عرض تحمل الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وخفن أن لا يقمن بأدائها، وحملها الإنسان والتزم بها على ضعفه، إنه كان شديد الظلم والجهل لنفسه فهو ظلوم بترك حمل الأمانة وجهول بما يترتب على حملها من تبعات، فالذي كلف به «الإنسان بلغ من عِظَمِهِ أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه فأبى حمله وأشفق منه، وحمله الإنسان على ضعفه، إنه كان ظلوما جهولا حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ثم خان بضمانه فيها». [٢]

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج: ٢٢، ص: ٩٦، وسعيد حوى، الأساس في التفسير، (دار السلام للنشر والتوزيع)، ج: ٨، ص: ٤٤٩٠.

(٢) النسفي، مدارك التنزيل، ج:٣، ص: ٣١٨.

فما هي هذه الأمانة التي خافت منها كل المخلوقات عدا الإنسان؟ ذكر المفسرون أقوالا عديدة ولكنها كلها ترجع إلى معنى جامع لها هو **التكليف** والشعور بتحمل المسؤولية، إنها **(الأنا)**، يقول ابن كثير بعد أن ذكر الأقوال العديدة حول معنى الأمانة: « وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله». [1] وقال الطبري مرجحا: «إنه عنى بالأمانة في هذا الموضع جميع معاني الأمانات في الدين وأمانات الناس وذلك أن الله لم يخص بقوله: ﴿ عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ بعض معاني الأمانات»، [2] لهذا فقد عد من قصر في طاعته لله تعالى خائنا للأمانة قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فالإنسان إذا اعترف بألوهية الله تعالى وعبوديته له سبحانه واعترف بعجزه وفقره، عرف أنه ضيف في ملك الله تعالى القدير المطلق والغني المطلق، وأنه خلق لعبادة الله فيؤدي الأمانة على وجهها الأتم ويرضى بقضاء الله وقدره فيصير عبدا صالحا يقتفي أثر الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأما إذا خان الأمانة فأنكر ألوهية الله تعالى أو عصاه وتفرعنت نفسه وأنانيته واتخذ إلهه هواه فقد خان الأمانة ويصير من زمرة الضالين والمغضوب عليهم من الفراعنة والنماردة والظلمة المعتدين.

وكانت النتيجة: أَنْ حملَ الإنسانُ الأمانة وذلك كي يعذب الله الذين خانوا الأمانة من المنافقين والمنافقات الذين يُظهرون الإسلام ويُخفون الكفر، والمشركين والمشركات في عبادتهم غير الله تعالى، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بستر ذنوبهم وترك عقابهم. وكان الله غفوراً للتائبين من عباده، رحيماً بهم. [3] وههنا لطيفة في ختم الآية الكريمة بصفتي المغفرة والرحمة قال

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج:٣، ص: ٥٢٣.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٥٧.

(٣) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٩.

الرازي: «إن الله تعالى أعلم عبده بأنه غفور رحيم وبصره بنفسه فرآه ظلوماً جهولاً، ثم عرض عليه الأمانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة والله أعلم». [1]

ثالثا: المناسبة بين المقطع الحادي والعشرين ومحور السورة:

لما أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدب النبي ﷺ بأحسن الآداب بين أن التكليف الذي وجهه الله إلى الإنسان أمر عظيم فقال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ أي التكليف وهو الأمر بخلاف ما في الطبيعة. [2] ولما بين تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بين، أمر بالتزام أوامره، والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح. [3]

رابعا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الحادي والعشرين:

* جعل الله الإنسان ثمرة للكون فخلقه في أحسن تقويم وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، ولهذا كان تكليفه بحسب مقامه فحمله الأمانة والتكليف الذي أبت السموات والأرض حملها.

* الإنسان يبلغ إلى درجة أعلى عليين إذا هو اعترف بربوبية الله تعالى وأذاب أنانيته وأطاع ربه فيتوب الله عليه ويوفقه ويرحمه فيستحق بذلك الجنة وهذا هو شأن المؤمنين والمؤمنات. وينزل الإنسان إلى دركة أسفل سافلين إذا هو خان الأمانة وادعى الربوبية واتبع هواه وعصى ربه فيعذبه الله تعالى وهذا هو شأن المنافقين والكافرين. [4]

* إن فعل الحسنات هو محض فضل وتوفيق من الله تعالى لأن طبيعة الإنسان الميلان للمعصية والظلم بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٣٥].

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ٢٠٥.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ٢٠٢.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٥٣.

(٤) سعيد النورسي، المقالات، ترجمة الملا محمد زاهد الملازكردي، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٦/ ١٩٨٥)، ط١، ص: ٣٥٢-٣٥٣.

كلمة الختام

لقد بينت سورة الأحزاب مقام هذا النبي الكريم صاحب الخلق العظيم وخير خلق الله أجمعين، بدءا من ندائه في أول السورة بصفة النبوة ثم تخصيصه بتشريعات متعلقة بالزواج وبأهل بيته الذين طهرهم الله وأذهب عنهم الرجس، ثم بينت مكانته عند الله وفي الملأ الأعلى وفي العالم العلوي والسفلي بأن الله بذاته مع ملائكته يصلون على النبي وقد أمر المؤمنين إنساً وجناً أن يصلوا عليه، ثم بين الله تعالى جزاء الذين يؤذون النبي واعتبر إيذاء النبي إيذاء لله تعالى. وفصلت سورة الأحزاب الطريق العملي للتقوى وبينت ما يتناقض معه فبدأت بأمر النبي بالتقوى وختمت بأمر المؤمنين بذلك.

وبينت سورة الأحزاب كيف يتعامل المسلم مع الأحداث اليومية والمحن على مختلف المستويات وكيف ينبغي أن يكون حاله القلبي وسلوكه اليومي، وسورة الأحزاب حددت أطر الحياة في المجتمع الإسلامي وحددت الأخلاقيات العليا للمرأة حتى تسلك عليها فتخرج من الظلمات إلى النور.

إن سورة الأحزاب تذكرنا بأن على الإنسان أن يحاسب نفسه[1] وأن يذكر الله كثيراً، إنها تدور حول المحور الأساسي ألا وهو الاستسلام لله تعالى ورسوله فيما يأمران أو ينهيان عنه، والتي عبرت السورة عنها بالأمانة التي من خانها استحق غضب الله وعذابه، ومن راعاها أدخله الله في رحمته وجنته، وما أجمل ما ختمت به السورة من صفتي المغفرة والرحمة بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ليعلم الإنسان أن الله تعالى سبقت رحمته غضبه فيطمع المؤمن بذلك فاللهم رحمتك ومغفرتك.

---

(١) سعيد حوى، الأساس في التفسير، ج: ٨، ص: ٤٤٩٥.

سورة سبأ

بين يدي السورة

أ. اسم السورة.

سُميَتْ هذه السورةُ الكريمةُ بسورةِ سبأ، حيث وردت فيها قصةُ قوم سبأ، حين كفروا بأنعمِ الله، وأعرضوا عن الحق، فجزاهم الله بكفرهم وجحودهم وجعلهم آيةً وعبرةً.

قَالَ تَعَالَى:﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾[سبأ: ١٥ - ١٩].

ب. فضائل السورة.

وهذه السورة الكريمة من السور المثاني، ومما ورد في فضائل هذه السور الكريمة ترغيبا في تلاوتِها وتبيينا لمزيَّتها:

* ما رواه الإمام أحمد وغيره عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**) [1].

ج. مكية السورة.

* هذه السورة مكية، نزلت بمكة قبل الهجرة. [2]

(١) الحديث إسناده حسن وقد سبق تخريجه في تفسيرنا لسورة الأنعام.

(٢) قال القرطبي « مكية في قول الجميع، إلا آية واحدة اختلف فيها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]. فقالت =

* نزلت لتكون حجة ساطعة تشهد بصدق النبي ﷺ.
* نزلت لتقرر الإيمان بالبعث وتبين الحكمة منه.
* كان نزولُها تسليةً وتسريةً وتثبيتاً لقلبِ النبيِّ ﷺ.
* جاءت بتقريرِ معنى الشكرِ لله تعالى وجزاء الشاكرين، مع التحذير من عاقبة الكافرين بأنعم الله.

د. عدد آيات السورة.

عددُ آيها: خمسون وخمس آيات في الشامي، وخمسون وأربع في عدد الباقين.

وكلمُها: ثماني مئة وثلاث وثمانون كلمة.

وحروفها: ثلاثة آلاف وخمس مئة واثنا عشر حرفا.

اختلافها: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾[سبأ: ١٥]، عدَّها الشاميُّ ولم يعُدَّها الباقون.[١]

= فرقة: هي مكية، والمراد المؤمنون أصحاب النبي ﷺ؛ قاله ابن عباس، وقالت فرقة: هي مدنية، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة؛ كعبد الله بن سلام وغيره قاله مقاتل، وقال قتادة: هم أمة محمد ﷺ المؤمنون به كائنا من كان". الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢٥٨ ويراجع المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١٢/ ١٣٠.

وأرى أن هذه السورة كلها مكية، والآية السادسة ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ عامة في كل من آتاه الله العلم النافع من أمة محمد ﷺ وسائر الأمم، فالعلم يبصِّرُ صاحبه بالحق ويهديه إليه، يقول صاحب الظلال « ومجال الآية أكبر وأشمل، فالذين أوتوا العلم في أي زمان وفي أي مكان، من أي جيل ومن أي قبيل، يرون هذا متى صح علمهم واستقام؛ واستحق أن يوصف بأنه { العلم }! والقرآن كتاب مفتوح للأجيال، وفيه من الحق ما يكشف عن نفسه لكل ذي علم صحيح، وهو يكشف عن الحق المستكن في كيان هذا الوجود كله، وهو أصدق ترجمة وصفيةٍ لهذا الوجود، وما فيه من حق أصيل. في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٩٤.

(١) يراجع: كتاب **البيان في عد آي القرآن** لأبي عمرو الداني الأندلسي ص ٢٠٩، وكتاب « **أقوى العدد في معرفة العدد** « لعلم الدين السخاوي»، **جمال القراء وكمال الإقراء** ١/ ٢١٢ **وفنون الأفنان في علوم** =

هـ. محور السورة.

تدور آياتُ السورة الكريمة حول قضيةٍ أساسيةٍ وحقيقةٍ إيمانيةٍ: إنها قضية البعث، الذي قرَّره القرآن، وأثبته بالحجة والبرهان المادي والعقلي.

وعن ذلك يقول صاحب الظلال: « موضوعات هذه السورة المكية هي موضوعات العقيدة الرئيسية: توحيد الله، والإيمان بالوحي، والاعتقاد بالبعث، وإلى جوارها تصحيح بعض القيم الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسية، وبيان أن الإيمان والعمل الصالح لا الأموال ولا الأولاد هما قوام الحكم والجزاء عند الله، وأنه ما من قوة تعصم من بطش الله، وما من شفاعة عنده إلا بإذنه.

والتركيز الأكبر في السورة على قضية البعث والجزاء؛ وعلى إحاطة علم الله وشموله ولطفه، وتتكرر الإشارة في السورة إلى هاتين القضيتين المترابطتين بطرقٍ منوَّعة، وأساليب شتى؛ وتظلل جوَّ السورة كله من البدء إلى النهاية.

فعن قضية البعث قال تعالى﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ: ٣.

وعن قضية الجزاء يقول سبحانه﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ سبأ: ٤ ـ ٥ [1].

= القرآن لابن الجوزي ص ٣٠٠.

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٨.



و. المناسبات في السورة.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

سميت سورة سبأ: نسبةً إلى قصة سبأ، ولهذه القصة صلةٌ دقيقةٌ بمحور السورة، حيث وردت احتجاجا على منكري البعث؛ مع إقرارهم بهذه القصة التي استفاضت بها الأخبار وتداولتها الأجيالُ، حتى صارت مَثَلا عربياً شائعا يدلُّ على الفرقةِ بعد اجتماعٍ، يقولون: [ذَهَبُوا أَيْدِي سَبا، وَتَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبا]. [1].

قال تعالى﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾[سبأ ١٥ - ١٧]

فهذه القصة التي يعرفها العرب، ويضربون بها المثل، دليلٌ جليٌّ على كمال قدرته تعالى وعجيب صنعه، فلئن كانت تلك الوفرة والرفاهية وَرَغَدُ العيش آيةً من آيات الله، فإن تبدُّل النعم وتداول الأجيال وانقلاب المنحة إلى محنة آيةٌ عظيمة تدل على قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه، حضارات تزدهر وأخرى تضمحل وتتلاشى، أممٌ تنهض وترتقي سُلَّمَ المَجد وأخرى تتنحَّى عن مقدمةِ الركبِ ثم تتداعَى وتتساقط.

خصوبةٌ ورغدٌ ووفرةٌ ورخاء، يعقبه جدبٌ وقحطٌ وفقرٌ وهوانٌ وفُرقةٌ وشتاتٌ: ألا يدلُّ ذلك على وجودِ إرادةٍ غالبةٍ ومشيئةٍ عليّةٍ وأقدارٍ مقضيّةٍ، وأحكامٍ عادلةٍ فاصلةٍ، لا تقبل النقض أو الاستئناف، وجزاءٍ دنيوي عاجل يُعَدُّ مقدمةً وبرهانا وتمهيدا وعنوانا على الجزاء الأخروي الآجل؛ إذ لا بدَّ من مجازاة كلِّ كفورٍ، ومثوبة كلِّ صبَّارٍ شكور.

فهذه القصةُ لمن تأملها برهانٌ ساطعٌ على كمالِ قدرتِهِ تعالى وجزائِه العادل وإرادته الغالبة

(١) يراجع: مجمع الأمثال للميداني ١ / ٢٧٥ برقم ١٤٥٤.



ومشيئته النافذة، ومِنْ ثَمَّ فهو قادرٌ على البعثِ والجزاء.

المناسبة بين افتتاح السورة وخاتمتها.

* بدأت السورةُ الكريمة ببيان موقف المشركين من البعث حيث الإصرار على إنكاره واستبعاده والسخرية والتهكُّم بالنبي ﷺ حين أخبر عنه، ومضت السورة الكريمة في إقامة الأدلة على البعث، ثم جاء الختام ببيان إقرارهم بالبعث ولكن بعد فوات الأوان.

قَالَ تَعَالَى:﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٢ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ۝٥٤ ﴾ [سبأ: ٥٢ - ٥٤].

* افتتحت السورةُ الكريمةُ بحمد الله تعالى على نعم الدنيا والآخرة، وتضمنت العديدَ من النعم منها نعمةُ الخلق والرزق، ونعمة البعث والجزاء، ونعمة الهداية إلى طريق الحق والنجاة، لكن الكفارَ في غفلةٍ عن هذه النعم وجحودٍ لها، لم يتأسَّوا بمن أدَّى شكرَ هذه النعم كنبي الله داود وسليمان عليهم السلام، ولم يعتبروا بمن سلف من الأمم التي كفرت بأنعم الله كقوم سبأ.

المناسبة بين السورة وسابقتها

مع نزول سورة الأحزاب في المدينة، ونزول سورة سبأ في مكة إلا أن الترابط بينهما وثيقٌ متينٌ، قد تجلَّى في وجوه عديدة، نذكرُ منها:

* حديث السورتين عن الريح، فهي جندٌ من جنودِ الله تعالى ونعمةٌ من نعمه: ففي سورة الأحزاب بين تعالى أنها حسمت غزوة الأحزاب لصالح المسلمين حين سلطها الله على المشركين فكانت شديدة عاتية باردةً قلعت خيامهم وأطفأت نارهم وأكفأت آنيتهم دون أن تجاوز عسكرهم إلى أن تبدد شملُهم ولاذوا بالفرار، وبيَّن تعالى في سورة سبأ أنها كانت من جنود سليمان عليه السلام تحمله وجنده بسرعةٍ فائقةٍ وتهبط بسلام حيث شاء.

كما سلط الله الماء على قوم سبأ، فانفتق السدُّ وفاضَ الماءُ، فسلط الله الريح على الأحزاب وعاقب سبأ بالماء.

* في سورة الأحزاب تذكير بنعم الله تعالى، ومنها نصرُ المؤمنين على الأحزاب، وجملةٌ من نعم الله تعالى على نبيه ﷺ، وفي سورة سبأ تذكير بنعمه تعالى العاجلة والآجلة، نعمة الخلق والرزق والهداية والرعاية ونعمة البعث والجزاء، فضلا عن نعمه تعالى التي أسداها على داود وسليمان عليهما السلام

* في سورة سبأ دعوة لآل داود عليه السلام أن يشكروا الله تعالى شكرا تاما بالقلب واللسان والجوارح، وفي سورة الأحزاب توجيهاتٌ عديدة لآل بيت النبي ﷺ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

* في السورتين الكريمتين بيانٌ لمهمةِ النبي ﷺ الجليلة ورسالته السامية ودعوته العامة:

قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٥ - ٤٨].

وقال تعالى في سورة سبأ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ۖ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ: ٤٦].

* في السورتين الكريمتين بيان لعاقبة المستضعفين والمستكبرين وتخاصمهم يوم الدين، قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا

ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٨].

وقال تعالى في سورة سبأ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

مناسبة فاتحة السورة لخاتمة السورة التي قبلها:

* اختتمت سورة الأحزاب بقوله تعالى ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٣].

وافتتحت سورة سبأ بقوله تعالى ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [سبأ: ١].

ونظير هذا ختام سورة المائدة مع بداية سورة الأنعام: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [المائدة: ١١٨ - ١٢٠].

وقال تعالى﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام: ١].

فتعذيبُ العصاة وإثابة الطائعين نعمةٌ عظيمةٌ تستوجبُ الحمد.

قال السيوطي في وجه مناسبة سورة سبأ لما قبلها: « ظهر لي في وجه اتصالها بها قبلها أن تلك لما ختمت﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾، افتُتِحَت هذه بأن له ما في السموات وما في الأرض، وهذا الوصفُ لائقٌ بذلك الحكم، فإن الملك العام، والقدرة التامة، يقتضيان ذلك».

* في السورتين الكريمتين دفاعٌ ونصرةٌ للحبيب المصطفى ﷺ، أما الأحزابُ: ففيها دفاعٌ عنه من أراجيف المنافقين، وأما سبأ: ففيها دفاعٌ عنه من دعاوَى وافتراءات المشركين.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطعُ السورة الكريمة مع المحور العام لها؛ إذ تتصلُ جميعُ مقاطعها بقضية البعث والجزاء، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورةِ كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحدٍ وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو تقريرُ أمر البعث والجزاء، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة، وتفسير كلٍّ مقطع على حدةٍ.

بين مقدمة السورة ومحورها

لما دارت السورةُ حول تقرير قضية البعث والجزاء: استُهلَّت بحمد الله تعالى على نِعَمِهِ في الدارين فهو تعالى المحمود فيهما قال تعالى في مطلع السورة ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾.

مقدمة السورة

الاستفتاح بالحمد

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ [سبأ: ١ – ٢]

التفسير الإجمالي

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أثنى على نفسه سبحانه، فهو المحمودُ قبل أن يحمَدَهُ الحامدون، وأمرنا بالثناء عليه، فهو الموصوفُ بصفاتِ الكمالِ والجلالِ، المنعِم المتفضلِ على عبادِه في الدنيا والآخرة.

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً ورزقاً وتدبيراً وتصريفاً وتقديراً وقضاءً، الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه؛ وكما أوجد هذه النعم في الدنيا فهو تعالى قادرٌ على إيجادها في الآخرة، فالنعمُ العاجلة دليلٌ على النعم الآجلة، ونعيم الدنيا يذكِّر بنعيم الآخرة، وعالمُ الشهادة دليلٌ وعنوانٌ على عالم الغيب.

﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ على كمال عدله وتمام رحمته؛ إذ يفصل بين العباد ويقضي بينهم فيثيب المحسنين، ويعاقب المسيئين، وينصف المظلومين، ويقتصُّ من الطغاة المجرمين، فهو المحمود في الآخرة، حتى ممن كانوا يجحدونه في الدنيا، أو يشركون معه غيره عن جهلٍ وضلالةٍ، أو هوىً متبعٍ أو عصبيةٍ وتقليدٍ، إذ تنكشف لهم الحقائق وتنجلي الحجج، ويتبينُ لهمّ فضلُ الله عليهم في الدنيا وإمهاله لهم، وعدله في حكمه، فيقرون له بالحمد والثناء.

قال النيسابوري: « واعلم أنه تعالى وصف نفسه في أول هذه السورة بأن له ما في السموات وما في الأرض؛ إيذاناً بأنَّ كونه مالكاً لكل الأشياء يُوجبُ كونَه محموداً على كل لسان، لأن الكل إذا كان له فكل من ينتفعُ بشيء من ذلك كان مستنفعاً بنعمه، ثم صرح بأن له الحمد في الآخرة: تفضيلاً لنعم الآخرة على نعم الدنيا وإيذاناً بأنها هي النعمة الحقيقية التي يحقُّ أن يحمد

عليها ويثنى عليه من أجلها [١].

﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الحكيم في ملكه وتدبيره، وحكمه وتقديره، وأفعاله وأقواله.

﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ببواطن الأمور، فضلاً عن ظواهرها، فالخلقُ خلقُه والملكُ مُلكُهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤].

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ ﴾

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾أي ما يدخل فيها من قِطْرٍ وكائناتٍ، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٢١] ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من كنوزٍ ونباتٍ، ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ من الأمطار والأرزاق والمقادير والبركات والرحمات. فما من شاردة ولا واردة، ولا والجةٍ ولا خارجةٍ، ولا نازلة ولا صاعدةٍ إلا وقد أحصاها ربُّنا عدّاً، وأحاط بها قدرةً وعلماً.

﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ نَشَرَ بساطَ رحمتِه وبثَّ آثارَها، وأمطرَ سحائبَ مغفرتِهِ وفتَّح أبوابَها.

المناسبة بين مقدمة السورة ومحورها

الموضوعُ الرئيسي في هذه السورة هو تقرير حقيقة البعث وبيان الحكمة منه، وقد استهلت السورة بحمد الله تعالى على ما اتصف به من كمال الربوبية، فالسموات والأرض وما بينهما وما فيهما ملكه وتحت سلطانه وتدبيره، وعلمه تعالى شاملٌ لكل ما جلَّ ولطُفَ وكلِّ ما صغر وكبُرَ وكلُّ والجٍ وخارجٍ وكل نازلٍ وعارجٍ، فله الحمد في الدنيا على نعمه الجليلة التي لا تعدُّ ولا تحصى، وله الحمد في الآخرة على فصله بين العباد، وإثابة المطيعين، وإنصاف المظلومين، وعقاب المعرضين الجاحدين.

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص ٧٤، ٧٥.

وفي الآية الكريمة: ردٌّ على منكري البعث ببيان إحاطة علمه تعالى وشمول قدرته، ونظير هذا قوله تعالى في سورة (ق): ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق: ٢ – ٨].

الهدايات المستنبطة من مقدمة السورة

* أثنى الله تعالى على نفسه سبحانه، فهو المستحقُّ لجميع المحامد، الموصوفُ بصفات الكمال والجلال المنعِمُ المتفضِّلُ على عباده في الدنيا والآخرة.
* ورد الحمد في القرآن الكريم متعلقا بنعم كثيرةٍ ومتنوعةٍ، منها العامُّ والخاصُّ،والماضي والحاضرُ، والعاجلُ والآجلُ، والظاهرُ والباطنُ، واستفتح الله تعالى خمس سورٍ بالحمد، كما اختتمت به بعض السور؛ وذلك للتذكير به والتنويه على فضله، وتنبيه الغافلين عن جلائل النعم فضلا عن لطائفها.
* لله تعالى ما في السموات وما في الأرض، فالجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وسلطانه.
* القادر على إيجاد هذه النعم في الدنيا قادرٌ على إيجادها في الآخرة، فالنعم العاجلة دليلٌ على الآجلة، ونعيم الدنيا برهانٌ على الآخرة.
* لله الحمد في الآخرة على كمال عدله وتمام رحمته وقضائه بين خلقه.
* هو تعالى الحكيم في ملكه وتدبيره، وحكمه وتقديره، وأفعاله وأقواله، الخبير ببواطن الأمور، فضلاً عن ظواهرها.
* علمُه تعالى بما كان وما يكون وما سيكون، فهو المحيط بكل شيء علما.

-١-

قضية البعث والجزاء

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ [سبأ: ٣ - ٩]

المناسبة

دارت مقدمةُ السورة حول تفرده تعالى بالحمد واستحقاقه له، فهو المالك المتصرف، وهو الحكيم الخبير، وهو العليم بكل معلوم، وهو الرحيم الغفور، وهذا تمهيدٌ وتوطئةٌ للحديث عن قضية البعث والجزاء؛ لذا أتبع هذه المقدمة ببيان موقف المشركين من هذه القضيةِ، وتجلية الحكمة من البعث وإبرازِ موقف أهل العلم منه، وبهذا تتجلَّى المناسبة بين آيات هذا المقطع ومقدمة السورة ومحورها.

التفسير الإجمالي

موقف الكفار من البعث

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ

مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾.

مع هذه الآيات البينات التي تشهد بكمال ملكه وتمام عدله، وعظيم حكمته، وإحاطة علمه، وطلاقة قدرته إلا أن الكفار يصرون على إنكار البعث ! مع أنهُ أمرٌ يقينيٌّ تقتضيه الحكمةُ لإقامة موازين العدل ونشر بساط الرحمة، وهذا الإنكار: « ناشئ من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره، فحكمة الله لا تترك الناس سدى، يحسن منهم من يحسن ويسيء منهم من يسيء؛ ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه، ولا يلقى المسيء جزاء إساءته، وقد أخبر الله على لسان رسله: أنه يستبقي الجزاء كله أو بعضه للآخرة، فكل من يدرك حكمة الله في خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره.. ولكن الذين كفروا محجوبون عن تلك الحكمة»[(١)].

ولقد أمر سبحانه رسولَه الكريم وهو الصادق المصدوق أن يقسم لهم مؤكدا لهم أن الساعة آتية لا محالة، حتى لا يترك لهم حجةً، فقد سلك بهم جميع طرق الإقناع: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ثم بَرْهَنَ على مجيئها باستئثاره تعالى بعلم الغيب وإحاطته به وشمول علمه لكل ما دقّ ولطف وكل ما ظهر وخفي فلا يعزب عن علمه شيء﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾، فأكد تعالى وقوعها بأشدِّ أنواع التوكيد، وأتبع ذلك ببيان علمه للغيب؛ فالساعةُ أمرٌ غيبيٌّ، وموعدها مما استأثر الله تعالى بعلمه، وهو تعالى لا يعزب عن علمه شيء مهما صغر ولطف، فما من صغيرةٍ ولا كبيرةٍ إلا وهي مسجَّلةٌ في اللوح المحفوظ الذي حوى كل ما كان وما يكون وما سيكون.

وفي هذا ردٌّ قاطعٌ على ما أثاره المنكرون للبعث من شكوك وشبهات، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٢٢/ ٤٠.

جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الإسراء:٩٧ — ٩٨].

البعثُ عدلٌ ورحمةٌ

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ سبأ: ٤ — ٥

بيّن عز وجل حكمته في بعث العباد؛ ليفصلَ بينهم، ويقضيَ فيهم، فيثيب المؤمنين بالمغفرة والرضوان والفوز بالجنان﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾، ويعاقب الجاحدين المعاندين بالشقاء والحرمان والخلودِ في النيران ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾: سعوا في آياته صداً عنها وقدحاً فيها، وتعجيزاً لمن جاء بها وتثبيطاً لمن آمن بها ودعا إليها، ظانين بإنكارهم للبعث والنشور أننا لن نقدر عليهم، وناسبين العجز لمن تبع النبي ﷺ، وساعين إلى تعطيل سير قافلة الدعوة أو إبطائها، أو إعاقة الناس عن اللحاق بها، وباذلين كلَّ جهودهم في إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسلنا، ومسرعين في تكذيبها، وجاهدين في إظهار المؤمنين بمظهر الضعيفِ العاجز عن الدفاع عن دينه والذَّبِّ عن عقيدته.

عن قَتادة رحمه الله قال:﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ قال: كذبوا بآيات الله فظنوا أنهم يعجزون الله، ولن يعجزوه.

قرأ الجحدري وابن كثير: ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾ بدون ألفٍ: أي معجِّزِينَ قدرة الله تعالى فيهم بزعمهم، وقال ابن الزبير: معناه مثبطين عن الإيمان من أراده مدخلين عليه العجز في نشاطه وهذا هو سعيهم في الآيات [1].

---

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٩٢.

وعن مجاهد، قوله: «مُعَجِّزِينَ» قال: مبطِّئين يبطِّئون الناس عن اتباع النبيّ ﷺ.[(١)]

وقال الطبري: « وقراءة: (مُعَجِّزِينَ) بتشديد الجيم بغير ألف، بمعنى أنهم عجَّزوا الناس وثبطوهم عن اتباع رسول الله ﷺ والإيمان بالقرآن، ومن عجز عن آيات الله فقد عاجز الله ومن معاجزة الله التعجيز عن آيات الله، والعملِ بمعاصيه وخلاف أمره، وكان من صفة القوم الذين أنزل الله هذه الآيات فيهم أنهم كانوا يبطِّئون الناس عن الإيمان بالله تعالى، واتباع رسوله ﷺ ويغالبون رسول الله ﷺ، يحسبون أنهم يعجزونه ويغلبونه، وقد ضمن الله له نصره عليهم، فكان ذلك معاجزتهم الله»[(٢)].

وقال البغوي: « ... ومعنى يعجِّزوننا: أي يفوتوننا فلا نقدر عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤]، وقيل: «معاجزين» مغالبين، يريد كل واحد أن يظهر عجز صاحبه»[(٣)].

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾: أي مؤلم لأبدانهم ولمشاعرهم، فهو عذابٌ حسيٌّ ومعنويٌّ، والرجز يعني سوء العذاب، وشدة الإيلام، وما يَضِيقُ به الإنسان من قذرٍ ووجعٍ.

موقف أهل العلم من البعث

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦].

لما ذكر موقف المنكرين للبعث الذي ينبثقُ عن جهلهم واتباعهم للهوى وتقليدهم الأعمى، ذكر موقف أهل العلم: وهو التصديق والتسليم بأن هذا اليوم حق وأن النبيين حق

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ٣٣٤ ويراجع الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٢٥٤ وحجة القراءات لابن زنجلة (أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه) ص ٤٨٠.

(٢) جامع البيان للطبري ١٨ / ٦٦٢ ويراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٦١ والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني ١ / ٣٢٣.

(٣) جامع البيان للطبري ١٨ / ٦٦١.

وأن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق، وأنهم موقنون به حقَّ اليقين.

﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ يهدي إلى طريقِ الهُدَى والنور، طريق العزِّ والتمكين، وهو طريقٌ محمودُ العواقب.

قال صاحب الظلال: « وصراط العزيز الحميد هو المنهج الذي أراده للوجود؛ واختاره للبشر لينسِّق خطاهم مع خطى هذا الكون الذي يعيشون فيه، وهو الناموس الذي يهيمن على أقدار هذا الكون كله، بما فيه من الحياة البشرية التي لا تنفصل في أصلها ونشأتها، ولا في نظامها وحركتها عن هذا الكون وما فيه ومن فيه». [(١)]

شبهات وأباطيل

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [سبأ: ٧ – ٨]

إلى هذا الحد من الدهشة والاستغراب كانوا يثيرون الشكوكَ حول قضية البعث ويتهكَّمونَ ويسخرونَ من النبي ﷺ ويَشيعُون بين الناس هذه الإشاعة الكاذبة المغْرضة ! حتى أخرجوا كلامهم مخرج الألغاز والأحاجي: ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ !

ونحو هذا قوله تعالى عنهم ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [ق: ٢ – ٥].

فقد كذبوا بالساعة، واستبعدوا وقوعها ونالوا من النبي ﷺ فرموه بالافتراء تارةً والجنون تارةً أخرى، وأشاروا إليه إشارة تعبِّرُ عن تجاهلهم له « كأنهم لا يعرفونه ﷺ، مع أنه أظهر من الشمس.

(١) معالم التنزيل للبغوي ٥ / ٣٩٢.



وليس قولك من هذا بضائره... العُرْبُ تعرفُ من أنكرتَ والعَجَمُ»[(١)].

فرد عليهم تعالى أبلغ الردِّ ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾؛ إذ أي ضلالٍ أشدُّ من إنكارهم للوعد الحق مع تسلسل آياته وتجلي شواهده فيما حولهم، بل في أنفسهم، وأيُّ ضلالٍ أشدُّ من تنكرهم لهذا النبي الذي يعرفون صدقه وأمانته ورجاحة عقله وفطانته، لكنها الأهواء الجامحة والنفوسُ المريضة والقلوب القاسية والعقول التي احتجبت عن هذه البصائر الجلية، وعمتْ عن الآيات الصريحة، وغفلت عن الشواهد الناطقة والبراهين العقلية، وتجاهلت الأدلة الحسِّيَّة التي تقرِّر البعث على حدِّ قولِ القائل:

لقد ظهرتَ فما تخفَى على أحدٍ   إلا على أكمهٍ لا يعرفُ القمرَ

« وحاصل الآية إثبات الجنون الحقيقيِّ لهم؛ فإن الغفلة عن الوقوع في العذاب وعن الضلال الموجب لذلك جنون أي جنون واختلال عقل أي اختلال؛ إذ لو كان فهمهم وإدراكهم تاما وكاملا لفهموا حقيقة الحال ولما اجترؤوا على سوء المقال»[(٢)].

الأدلة العقلية والمادية على البعث

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾[سبأ: ٩].

دعاهم الله تعالى إلى النظر والاعتبار فيما سبقهم وما حولهم من آياتٍ بيناتٍ، ثم توعدهم سبحانه بعذاب عاجل فقال﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾، فالأرض والسماء مسخرةٌ لأمره، خاضعة لسلطانه، ولو شاء الله تعالى لأمر الأرض فخسفت

---

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٩٤.

(٢) البيت للفرزدق ويقصد به زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب y حين تجاهله هشام بن عبد الملك لما رآه يطوف حول الكعبة والأبيات موجودةٌ في كثير من كتب الأدب، يراجع الأغاني للأصبهاني - ٥ / ٤٤٥، وزهر الآداب وثمر الألباب للحُصري: أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم القيرواني المعروف بالحُصَري القَيرَواني ص ٢٧.



بهم، أو السماء فأسقطت عليهم كسفا، وأمطرتهم بالحجارة، أو رجمتهم بالشهب، ولكنه تعالى يمهلهم ويستدرجهم.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾: إن فيما سبق ذكره والإشارة إليه لآية لكل عبد منيب مقبل على مولاه راجع إليه في كل أحواله، فهو تعالى قصده ووجهتُه ورجاؤه وغايته.

الهدايات المستنبطة

* البعث أمرٌ يقينيٌّ تقتضيه الحكمةُ الإلهية؛ لإقامة موازين العدل والإنصاف ونشر بساط الرحمة وظلالها، وصدق الله جلَّ وعلا إذ يقول ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١].

* علمُ الساعة أمرٌ غيبيٌّ، مما استأثر الله تعالى بعلمه، وهو تعالى لا يعزب عن علمه شيء مهما صَغُرَ ولَطُفَ، فما من صغيرةٍ ولا كبيرةٍ إلا وهي مسجَّلةٌ في اللوح المحفوظ الذي حوى كل ما كان وما يكون وما سيكون، وفي هذا ردٌّ على شبهات المشركين التي أثاروها حول البعث.

* كشفت الآيات عن موقف أعداء الإسلام من الحق وأساليبهم الملتوية في الصد عنه وتشكيكهم في قدرة الله تعالى وتثبيطهم للمؤمنين وبثِّ روح الهزيمة فيهم، والسعي الدءوب إلى إبطاء مسيرة الدعوة، وإظهار المؤمنين بمظهر الضعيفِ العاجز عن الدفاع عن دينه والذَّبِّ عن عقيدته.

* لما ذكر موقف المنكرين للبعث الذي ينبثقُ عن جهلهم واتباعهم للهوى وتقليدهم لأساطين الكفر وأئمةِ الضلال، ذكر موقف أهل العلم وهو التصديق والتسليم بأن هذا الوعد حق. قال السعدي رحمه الله: « وهذه منقبةٌ لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علما وتصديقا بأخبار ما جاء به الرسول ﷺ، وأعظم معرفة بحِكَم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجةً على ما جاء به الرسول ﷺ،

احتج الله بهم على المكذبين المعاندين»[(١)].

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾يقول صاحب الظلال: « يهدي إلى صراط العزيز الحميد بما ينشئه في إدراك المؤمن من تصور للوجود وروابطه وعلاقاته وقيمه؛ ومكان هذا الإنسان منه، ودوره فيه؛ وتعاون أجزاء هذا الكون من حوله وهو معها في تحقيق مشيئة الله وحكمته في خلقه، وتناسق حركات الجميع وتوافقها في الاتجاه إلى بارئِ الوجود.

* ويهدي إلى صراط العزيز الحميد بمنهجه التربوي الذي يعد الفرد للتجاوب والتناسق مع الجماعة البشرية، ويعد الجماعة البشرية للتجاوب والتناسق أفراداً وجماعات مع مجموعة الخلائق التي تعمر هذا الكون! ويعد هذه الخلائق كلها للتجاوب والتناسق مع طبيعة الكون الذي تعيش فيه.

* ويهدي إلى صراط العزيز الحميد بما فيه من نظم وتشريعات مستقيمة مع فطرة الإنسان وظروف حياته ومعاشه، متناسقة مع القوانين الكلية التي تحكم بقية الأحياء، وسائر الخلائق؛ فلا يشذُّ عنها الإنسان بنظمه وتشريعاته، وهو أمة من هذه الأمم في نطاق هذا الكون الكبير». [(٢)]

* دلَّ إنكارُ الكفارِ للبعث على توغلهم في غَمَرَاتِ الضلال وتردِّيهم في دركاته، فضلا عن تقلبهم في عذاب الدنيا قبل أن يذوقوا عذاب الآخرة قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾، وأي ضلالٍ أشدُّ من إنكارهم للوعد الحق مع تسلسل آياته وتجلي شواهده فيما حولهم، بل وفي أنفسهم !

* فهم في ضلالٍ بعيدٍ وعذابٍ دائم، ودليلُ ذلك عيشُهم في عذابٍ نفسيٍّ؛ إذ لا شعور

---

(١) روح البيان لإسماعيل حقي ١١ / ١٦٦.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٩٥ .



بالراحة ولا إحساس بالسكينة، ولا غاية لهم في هذه الحياة، فإن وقع عليهم ظلمٌ واستبدادٌ فهم في يأسٍ وقنوطٍ، إذ لا أمل عندهم في تعويضٍ من حرمان أو إنصافٍ من ظلم وطغيان، حتى المتقلبُ منهم على فراشِ العافية، الرافل في أثواب النعم يعيش حياةً مفعمةً بالهموم والمنغصات والخوف والقلق والحيرة؛ مخافة أن تسلب منه تلك النعمُ العارضةُ، وفي الحياة مواقفُ وابتلاءاتٌ لا يقوَى الإنسانُ على مواجهتها إلا وفي قلبه يقينٌ وفي نفسه رجاءٌ بالآخرة، وتعلُّقٌ بثوابها، فيتسلى عن كل نقص وحرمان وتعبٍ ونصَبٍ بما ينتظره عند الله من حسن الثوابِ.

* عن أَنَس ﷺ قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَق فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنْ النَّصَبِ وَالْجُوعِ، قَالَ: (اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةْ)[1].
* وعَنْ سَهْلٍ ﷺ قَالَ جَاءَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَحْفِرُ الْخَنْدَقَ وَنَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَافِنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ)[2].

فدعها وسلِّ النفسَ عنها بجنَّةٍ ... من الحُسنِ في روضاتها الدر يبسم
ومن تحتِها الأنهار تخفق دائما ... وطير الأماني فوقها يترنم
وقد ذُللت منها القطوفُ فمن يُرد ... جَناها ينلْه كيف شاء وينعم
وقد فتحت أبوابها داعي الهدى ... هلموا إلى دار السعادة تغنموا

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير. باب: التحريض على القتال. حديث ٣٦٧٩، ورواه مسلم في الجهاد والسير، باب: غزوة الأحزاب وهي الخندق، رقم: ١٢٧ - (١٨٠٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة - باب دعاء النبي ﷺ (أصلح الأنصار والمهاجرة) حديث ٣٥٤٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير: باب غزوة الأحزاب وهي الخندق. حديث ١٢٦- (١٨٠٤).

وقـد طـاب منها نُـزْلُهـا ومقيلها فطوبى لمـن حـلُّوا بهـا وتنعموا
وقـد غـرس الـرحمـنُ فيها غراسه من الناس والرحمن بالغرس أعلم
فمن كـان مـن غـرس الإلـه فإنه سـعـيـدٌ وإلا فـالـشـقـا متحتم
فيا مـسرعـينَ الـسـيرَ بـالله ربكم قفوا بي على تلك الربوع وسلموا
وقولـوا محب قاده الشـوق نحوكـم قضى نحبه فيكم تعيشوا وتسلموا [١]

* وقال أبو تمام:

والحـادثـاتُ وإنْ أصابك بُؤْسها فهو الـذي أدْراك كيفَ نعيمُها

وقال أيضا:

وليس يعرفُ طيبَ الوصل صاحبُه حتى يـصـابَ بـنـأيٍ أو بهِجران

فإذا أنعم الله على المؤمن بنعمةٍ كانت النعمُ حافزةً له ومشوقةً لنعيمِ الآخرة التي يستحضرها ويستشعرها ويجدد ذكراها مع كل نعمةٍ ينالُها.

* دعاهم الله تعالى إلى النظر والاعتبار فيما حولهم وما سبقهم من آيات بينة وعظات بليغة، ثم توعدهم سبحانه بعذاب عاجل فقال: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾، فالأرض والسماء مسخرةٌ لأمره، خاضعة لسلطانه، ولو شاء الله تعالى لعجل بهلاكهم ولكن يمهلهم ويستدرجهم.

* الإنابة إلى الله تعالى هي الرجوع إليه في جميع الأحوال، في السراء والضراء، في الشدة والرخاء، وتفويض الأمر إليه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه والمسارعة إلى عفوه ورضاه، ومِنْ ثمرات الإنابة نفاذُ البصيرة وصفاء الذهن وحضور القلب وخشوع الجوارح وعمق الفكرة وبعد النظرة وجلاء العبرة.

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ١ / ٩٣.

-٢-

مع داود وسليمان عليهما السلام

مثالٌ عمليٌّ للأوابين الشاكرين

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٠ - ١٤]

المناسبة

لهذه الآيات صلة جلية بمحور السورة الكريمة وسياقها العام والذي يدور حول قضية البعث، فقدرة الله تعالى لا تحدُّها حدودٌ، والكون مشحونٌ بعجائب الآيات.

فالجبل الأشمُّ ينبض بالروح وتسري فيه الحياة ويخشع ويتصدع من خشية الله ويتجاوب مع نبي الله داود فيردد معه.

والطير مع وحشتها ونفورها تترنم في ألفةٍ ووئام وأُنس وانسجامٍ.

والحديد مع صلابته يلين كالشمع أو العجين، بين يديه ﵇.

والريح تطير بسليمان ﵇ وجنده وعتاده فتنقلهم من مكان إلى مكان.

والجن مع نفوره وتمرده يذعن خاضعا وينقاد مستسلما في خدمة سليمان.

والنحاسُ وهو معدنٌ جامدٌ يذوبُ نعمةً وكرامةً وآيةً لهذا النبيِّ الملك.

كل هذه الأمور الخارقة ألا تدل على إمكانية البعث ؟

أليس القادر على هذه الآيات قادر على أن يحيي الأموات ؟

أليس من منح داود وسليمان هذه الفضائل والمكرمات بقادرٍ على أن يبعث عباده ليجزل لهم المثوبات، ويغدق عليهم الجوائز والهبات ؟ بل هو قادر.

قال أبو حيان: « مناسبة قصة داود وسليمان، عليهما السلام، لما قبلها، هي أن أولئك الكفار أنكروا البعث لاستحالته عندهم، فأخبروا بوقوع ما هو مستحيل في العادة مما لا يمكنهم إنكارُه، إذ طفحت ببعضه أخبارُهم وشعراؤهم على ما يأتي ذكره، إن شاء الله، من تأويب الجبال والطير مع داود، وإلانة الحديد، وهو الجرمُ المستعصي، وتسخير الريح لسليمان، وإسالة النحاس له، كما ألان الحديد لأبيه، وتسخير الجن فيما شاء من الأعمال الشاقة.

وقيل: لما ذكر من ينيب من عباده، ذكر من جملتهم داود، كما قال:﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾[ص: ٢٤] وبين ما آتاه الله على إنابته فقال:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾، وقيل: ذكر نعمته على داود وسليمان، عليهما السلام، احتجاجاً على ما منح محمداً ﷺ: أي لا تستبعدوا هذا، فقد تفضَّلنا على عبيدنا قديماً بكذا وكذا». [(١)]

وقال البقاعي: « ولما أشار سبحانه بهذا الكلام الذي دلَّ فيه على نفوذ الأمر إلى أنه تارة يعدل وتارة يفضل، وكان الفضل أكثر استجلاباً لذوي الهمم العلية والأنفس الأبية، بدأ به في عبد من رؤوس المنيبين على وجه دالٍّ على البعث بكمال التصرف في الخافقين وما فيهما بأمور شوهدت لبعض عبيده تارة بالعيان وتارة بالآذان، أما عند أهل الكتاب فواضح، وأما عند العرب فبتمكينهم من سؤالهم فقد كانوا يسألونهم عنه ﷺ» [(٢)].

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٢٦٢.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٦/ ١٥٧.

التفسير الإجمالي

مع نبي الله داود عليه السلام

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ: ١٠- ١١]

ضرب الله مثلاً بنبيه داود عليه السلام على كمال قدرته وجميل عطائهِ وجليل نعمائه على عباده الشاكرين، حيث تفضل الله على داود بهذه الآية العجيبة، وهي ذلك التآلف والانسجام بينه وبين ما حوله من جبالٍ وطيور، فالجبال تؤوب بأمر من الله تعالى، دليلا على صدقه وإخلاصه وخشوعه وتضرعه، وقوةِ تأثيره، فتنسجمُ مع هذا الصوت الجميل الذي صدر من قلب حاضر ولسان شاكر، فتثيرُ المشاعر وتوقظ الهمم وترقق القلوب وترهف الأسماع، وترنو الأنظار لهذا المشهد المهيب، مشهد الجبال الشامخات وصداها العجيب حين تخشع وتلين وتؤوب مع داود، ومنظرُ الطير وهي تشدو بأحلى الألحان وأعذب الأصوات وأطيب الكلم.

ونظير هذا قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

قيل: كان داود عليه السلام إذا تخلل الجبال فسبَّح جعلت الجبالُ تجاوبُهُ بالتسبيح نحو ما يسبح.

وقيل: كان داود عليه السلام إذا لحقه فتورٌ أسمعه الله تسبيحَ الجبال تنشيطا له [(١)].

ولقد ضرب النبي ﷺ أروع المثل بهذا الصوتِ النديِّ الشجيِّ حين امتدح تلاوةَ أبي موسى الأشعري فقال ﷺ: (**لَقَدْ أُعْطِيَ أَبُو مُوسَى مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرَ دَاوُدَ**) [(٢)].

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ٦ / ٣٨٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن - باب: حسن الصوت بالقراءة للقرآن الحديث: ٤٧٦١، ورواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن، حديث: ٢٣٥ - (٧٩٣)، ورواه النسائي في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه كتاب الافتتاح، باب=

وكما لانت له الجبال مع صلابتها وألِفَتْهُ الطيرُ مع نفورها ووحشتها، فقد ألان الله له الحديد ليصنع به الدروع السابغات المحكمات، فكان الحديد في يده كالشمع أو العجين، يعمل منه ما يشاء من غير طرقٍ أو تسخينٍ.

قال السدِّي: « كان الحديد في يده كالطين المبلول، والعجين، والشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار، ولا ضرب بمطرقة» [1]. فيصنع منه بدقة وإحكام دروعا حصينة متينة، بأمر الله تعالى وتعليمه، حيث أرشده سبحانه إلى أُسُسِ الجودة وأصول الإتقان وفنون الإبداع في صناعتها ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ اجعلها سابغةً محكمةً وقدِّر في سردها ودقِّقْ في حلقاتِها حتى تكون منتظمة متينةً متناسقة ضيقة لا تنفذ منها السهام.

فهذه نعمة على نبي الله داود ﷺ بل وعلى البشرية جمعاء، كما أفاد ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

﴿ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

لما ذكر جملةً من نعمه عليه أمره بالمبادرة إلى عمل الصالحات التي يعمُّ نفعُها ويمتدُّ أثرُها في العاجل والآجل فقال سبحانه: ﴿ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ مطلعٌ على أعمالكم بصيرٌ بدقائقِها ولطيفِها فضلا عن جليلها .

=تزيين القرآن بالصوت - الحديث: ١٠١٣ والمراد بآل داود نفسه وكثيرا ما يطلق آل فلان على نفسه. ورواه الترمذي في السنن أبواب المَنَاقِب عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مناقب أبي موسى الأشعري ﷺ وقال: " هذا حديث غريب حسن صحيح، وفي الباب عن بريدة وأبي هريرة وأنس "، ورواه ابن ماجه في السنن كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب في حسن الصوت بالقرآن حديث ١٣٤١ .

ورواه أحمد في المسند ٥/ ٣٤٩، ورجال أحمد رجال الصحيح●

(١) معالم التنزيل للبغوي ٦ / ٣٨٨ فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣١٥.

مع نبي الله سليمان ﷺ

قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٠ - ١٤]

المناسبة

* كما سخر الله الجبال والطير لداود ﷺ فأوَّبت معه الجبالُ وترنَّمت الطيور ولان الحديد فقد سخر الله لسليمان ﷺ الإنس والجن والطير والرياح.
* وكما امتن الله على داود بهذه النعم الجليلة، كذلك امتن الله على سليمان فسخر له الريح تجري بأمره، وتحمله هو وجنوده فتقطع المسافات البعيدة في الزمن اليسير، وتهبط بهم آمنين مطمئنين.
* وهذه النعم الربانية تدل على كمال قدرته وجليل حكمته تعالى، وفي هذا ردٌّ على منكري البعث لجهلهم بربهم، وغفلتهم عن شهودِ عظمتِهِ.
* ولقد كان ملك سليمان العادل وعهده المبارك امتداداً لملك أبيه داود ﷺ ومواصلةً لمسيرةِ الخير والنماء وطريق الأمن والرخاء.

التفسير الإجمالي

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ أي تقطع في الغدو أو الرواح مسيرة شهر مما يدل على سرعتها الفائقة.

جاء في المصباح المنير: « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ: أَيْ ذَهَابُهَا وَرُجُوعُهَا» [(١)]، وقال قتادة: معناه: إنها كانت تَقْطَعُ به في الغُدُوِّ إلى قُرْبِ الزَّوالِ؛ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَتَقْطَعُ في الرَّوَاحِ مِنْ بَعْدِ الزَّوَالِ إلى الغُرُوبِ كذلك [(٢)].

وقال سبحانه ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وفي هذه الآية ما يدل على سرعتها الفائقة.

وقال تعالى﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص: ٣٥ - ٣٦].

وفي هذه الآية وصف لها بالليونة وأنها موجهةٌ حيث أراد نبي الله سليمان عليه السلام.

فهذه الريح مسخرة لسليمان تسير بأمره حيث شاء، وهي سريعة ومأمونة الجانب ولينةٌ.

فجمعت الريح بين القوة الرهيبة والمعجزة العجيبة مع كونها وسيلةً آمنةً مريحةً وآيةً فريدةً لا يمكن للبشر مهما أوتوا من علم وقوة أن يتمكنوا منها ويتحكموا فيها ويوجهوا مسيرها فتنقلهم وتحمل متاعهم من بلد إلى بلد..

وكما ألان الله الحديد لداود وتجاوبت معه الجبال وألفته الطير، فقد أسال الله تعالى القطرَ لسليمان، قال تعالى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ ﴾ لتفيض بالنحاس المذاب الذي يستخدم في أغراض السلم والحرب، في التشييد والبناء وصناعة الآلات والأواني والأسلحة، كما سخر الله تعالى له الجن يعملون بين يديه فيراهم ويشرف على عملهم ويوزع عليهم المهام كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ص: ٣٧ - ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ٤ / ٣.

(٢) يراجع: جامع البيان للطبري ٢٠ / ٣٦٢.



﴿ حَافِظِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

فسخر له الشياطين في بناء وتشييد المساكن والمحاريب، وصناعة الجفان والتماثيل وفي الغوص لاستخراج كنوز البحار.

﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ فسليمان عليه السلام نبي ملك تجب طاعته من جهتين: من جهة كونه نبيا مرسلا، ومن جهة كونه ملكا وقائدا، فطاعته من طاعة الله تعالى فكل من تمرَّد على سلطانه، فقد عرَّض نفسه للعذاب العاجل فضلا عن الآجل.

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

المحراب: كل موضع مرتفع، وقيل للذي يصلَّى فيه: محراب لأنه يجب أن يرفع ويعظم فالمساجد، والأبنية المرتفعة من قصور حصينة ودورٍ شريفة وحصونٍ منيعة من المحاريب، وسميت بها لأنها يذبُّ عنها ويحارب عليها، والمحراب مقدم كل مسجد ومجلس وبيت [(١)].

﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾ قصاع ﴿ كَٱلْجَوَابِ ﴾ جمع جابية وهي الحياض التي يجبى فيها الماء، يقال: كان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها، ولما ذكر الصحاف على وجه يعجب منه ويستعظم، ذكر ما يطبخ فيه طعامها فقال ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ ثابتات لها قوائم لا يحرَّكن عن أماكنها، ولا ينزع عنها أثافيها لعظمها، وكان يصعد إليها بِدَرَجٍ.

فقال: ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ أي ثابتات ثباتاً عظيماً.

قال الألوسي « وقدمت الجفان على القدور مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل؛ لأنه لما ذكرت الأبنية الملكية ناسب أن يشار إلى عظمة السماط الذي يمد فيها فذكرت الجفان أولاً لأنها تكون فيها بخلاف القدور فإنها لا تحضر هناك، كما ينبىء عنه

(١) معالم التنزيل البغوي ٦ / ٣٨٩، وفتح القدير للشوكاني ٤ / ٤٥٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٤٠، وأنوار التنزيل للبيضاوي ص ٣٩٤.

قوله تعالى: ﴿ رَّاسِيَـٰتٍ ﴾، وكأنه لما بين حال الجفان اشتاق الذهن إلى حال القدور فذكرت للمناسبة»[1].

﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما آتاكم، أو اعملوا عملاً يُعبِّر ويعربُ ويترجمُ عن شكركم لله تعالى، وخصَّهم بالذكرِ مع أن الشكر واجب على سائر الخلق لأنهم موضع التأسي والاقتداء ومحطُّ الأنظار.

علوٌّ في الحياة وفي الممات !

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

كما كانت حياته ﷺ حافلة بالمنح والمكرمات زاخرةً بالدلائل النيرات والمعجزات الباهرات، فقد كان موته آيةً من أعظم الآيات؛ إذ كان شياطينُ الجنِّ قد ادعوا معرفة الغيب فأراد اللهُ تعالى أن يُطْلِعَ الإنسَ على كذبِهِم، وكان سليمانُ ﷺ يشرف على الأعمال فيجلس الساعات الطوال يتابع سير العمل، وهو متكئ على عصاه، حتى أتاه الموت وهو على حاله والجن مستغرقون في العمل؛ هيبة له وإجلالاً، وخضوعا وإذعانا، حتى أكلت الأَرَضَةُ عصاه، فخرَّ سليمانُ، ليعلمَ الجميع بموته ويستيقن الإنس أن الجن لا علم لهم بالغيب وتسقط تلك الأوهام والادعاءات، ويواجه الجنُّ بهذه الحقيقة التي غابت عنهم أو غفلوا عنها، فكان معرفتهم بموتِ سليمان كالصاعقة التي أفاقوا منها على تلك الحقيقة التي كانت الأرضةُ هذه المخلوقةُ الضعيفةُ وراء انكشافها؛ لينكشف للجميع كذب ادعائهم معرفة الغيب إذ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في هذا العمل الشاق الذي كلفهم به سليمان ﷺ.

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٢٧٢ بتصرف.

الهدايات المستنبطة

* تفضل الله تعالى على أنبيائه بالنعم الجليلة والمواهب العظيمة تأييدا لهم وإنعاما عليهم.

* « في قصة داود ﷺ وتعلمه صناعة الدروع دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف بها لا ينقُصُ من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان، وفي الصحيح عَنْ الْمِقْدَام ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)[1]، وإنما خصَّه ﷺ بالذكر لأنه مع نبوته كان ملِكاً، فلم يمنعه ذلك من العمل.

* إتقان العمل من شيم أهل التقى والصلاح، والاجتهاد في تطوير الحرف والصناعات النافعة مطلب شرعي وأمر ضروري.

* في قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ دعوة إلى توظيف الملكات والمواهب والنعم في الأعمال الصالحة، ومراقبة الله تعالى في جميع الأحوال والأعمال، قال صاحب روح البيان: « ومن عرف أنه البصير راقبه في الحركات والسكنات، حتى لا يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره»[2].

* قَوْله تَعَالَى: ﴿ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَمَلَ التماثيل كَانَ مُبَاحاً، وَهُوَ مَحْظُورٌ فِي شَرِيعَتنا، كما جاء في الحديث: (لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتاً

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٣٤ والحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب البيوع. - باب: كسب الرجل وعمله بيده. حديث ١٩٦٦ .

(٢) روح البيان لإسماعيل حقي ١١ / ١٧٣.

فِيهِ صُورَةٌ)[١]، وحديث (لَعَنَ اللَّهُ الْمُصَوِّرِينَ)[٢].

قال ابن العربي: « فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ شَاءَ عَمَلَ الصُّوَرِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا ؟ قُلْنَا: لَمْ يَرِدْ أَنَّهُ كَانَ مَنْهِيّاً عَنْهَا فِي شَرْعِهِ، بَلْ وَرَدَ عَلَى أَلْسِنَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُ كَانَ أَمْراً مَأْذُوناً فِيهِ، وَالَّذِي أُوجِبَ النَّهْيَ عَنْهُ فِي شَرْعِنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، فَكَانُوا يُصَوِّرُونَ وَيَعْبُدُونَ، فَقَطَعَ اللَّهُ الذَّرِيعَةَ وَحَمَى الْبَابَ... وَإِنْ قُلْنَا: إنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا فَيَكُونُ نَهْيُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ الصُّوَرِ نَسْخاً...

وَإِنْ قُلْنَا: إنَّ الَّذِي كَانَ يُصْنَعُ لَهُ الصُّوَرُ الْمُبَاحَةُ مِنْ غَيْرِ الْحَيَوَانِ وَصُورَتِهِ فَشَرْعُنَا وَشَرْعُهُ وَاحِدٌ»[٣].

وقد استثنى من هذا الباب لعب البنات لما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَهَا وَهِيَ بِنْتُ سَبْعِ سِنِينَ، وَزُفَّتْ إِلَيْهِ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ، وَلُعَبُهَا مَعَهَا وَمَاتَ عَنْهَا وَهِيَ بِنْتُ ثَمَانَ عَشْرَةَ.[٤]

وعنها أيضا: أَنَّهَا كَانَتْ تَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: وَكَانَتْ تَأْتِينِي صَوَاحِبِي فَكُنَّ يَنْقَمِعْنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ[٥].

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن عائشة كتاب اللباس باب: من كره القعود على الصور. حديث ٥٦١٣، ورواه مسلم في صحيحه كتاب اللباس والزينة باب تحريم تصوير صورة الحيوان، وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه، وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتاً فيه صورة ولا كلب. حديث ٨١- (٢١٠٤).

(٢) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة كتاب الطلاق - باب: مهر البغي والنكاح الفاسد.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ٨، ٩ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب: تزويج النبي ﷺ عائشة، وقدومها المدينة، وبنائه بها حديث ٣٦٨٣.

(٥) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب: الانبساط إلى الناس. حديث ٥٧٧٩.
ورواه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب في فضل عائشة، رضي الله

قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدربن على تربية أولادهن ثم إنه لا بقاء لذلك وكذلك ما يُصنَع من حلاوة أو عجين لا بقاء له فرخص في ذلك، والله أعلم[1].

وكذلك ما يصنع من تماثيل لأغراضٍ علمية، كدراسة علم الطبِّ والتشريح ونحوه.

* وهب الله سليمان ملكا عظيما وأيده بجنود عجيبة منها الريح والطير والجن فضلا عن الإنس، وإذابة عين النحاس له، فشهد عصره ازدهاراً حضارياً وتقدماً ورقيّاً مادياً وروحياً.

* الشكر من أعمال القلوب والألسنة والجوارح: وهو اعتراف القلب بنعمة الله واستحضارها وثناء اللسان وعمل الجوارح.

وشكر الله تعالى لا نهاية له ولا حد له، بل التوفيق للشكر نعمة تستوجب الشكر، وقد نظم هذا المعنى بعضُهم فقال:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً　　　علي له في مثلها يجبُ الشكرُ
فكيف بلوغُ الشكرِ إلا بفضلِهِ　　　وإن طالتِ الأيامُ واتسعَ العُمرُ
إذا مس بالنعماء عمَّ سرورُها　　　وإن مسَّ بالضراء أعقبها الأجرُ[2]

* قوله تعالى﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾: قال صاحب الظلال: « تعقيبٌ تقريري وتوجيهي من تعقيبات القرآن على القصصِ، يكشف من جانب عن عظمة فضل الله ونعمته حتى ليقل القادرون على شكرها، ويكشف من جانب آخر عن تقصير البشر في شكر نعمة الله وفضله، وهم مهما بالغوا في الشكر قاصرون عن الوفاء، فكيف إذا قصروا وغفلوا عن الشكر من الأساس ؟!

تعالى عنها. ٨١- ٢٤٤٠، والانقماع: الاختفاء حياء وهيبة.

(١) يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٤٠.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٢٧٤ .

وماذا يملك المخلوق الإنساني المحدود الطاقة من الشكر على آلاء الله وهي غير محدودة؟.. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها.. وهذه النعم تغمر الإنسان من فوقه ومن تحت قدميه، وعن أيمانه وعن شمائله، وتكمن فيه هو ذاته وتفيض منه. وهو ذاته إحدى هذه الآلاء الضخام!»(١) انتهى كلامه رحمه الله.

* وإنما خصَّ آل داود بالذكر مع أن الشكر واجب على سائر الخلق فالخير قد عم الجميع في هذه المملكة العادلة ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾؛ لأنهم موضع التأسي والاقتداء ومحطُّ الأنظار، وفي هذا درسٌ لآلِ كلِّ داعيةٍ وأسرة كلِّ حاكم أن تكونَ أسرعَ استجابةً وأشدَّ حرصا وأعظم إقبالا على طاعة الله وشكر نعمه، شكرا تاما عمليا.

-٣-

مع قوم سبأ

مثالٌ واقعيٌ لعاقبة من كفر بأنعم الله

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ سبأ: ١٥ — ٢١

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٩٩.

المناسبة

* لما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقَّبه بحال بعض الجاحدين لها، فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾

* كذلك لما بين تعالى أن الحكمة من قيام الساعة جزاء المؤمنين ومجازاة الكافرين، ذكر مثالا لمجازاة الكافرين في الدنيا بقوم سبأ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾.

* وكذلك جاءت هذه القصة مفصلةً ومقررةً لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ [سبأ: ٩] فهي عبرةٌ وعظةٌ لكفارِ قريشٍ الذين أنكروا البعث وما يستتبعه من جزاءٍ، وكذّبوا بالنبيِّ ﷺ وأعرضوا عما بين أيديهم وما خلفهم من الآيات، وهذه القصةُ التي يعرفونها من أجلِّ العبرِ وأبلغِ النذُر.

التفسير الإجمالي

بعد أن ذكر الله أحوال الشاكرين وضرب لهم مثالا بداود وسليمان عليهما السلام، ذكر عاقبة الكافرين بأنعم الله، فضرب مثالاً بقوم سبأ الذين قابلوا نعمة الله عليهم بالجحود والنكران والإعراض والنسيان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾: آيةٌ عجيبة تحتاج إلى وقفة وتأمل ونظرة واعتبار، فهي عظةٌ وعبرةٌ، ودلالةٌ على قدرة الله تعالى، وإرادته الغالبة وسننه الماضية والجارية.

قال الألوسي: « أي علامة دالة بملاحظة أخواتها السابقة واللاحقة على وجود الصانع

المختار، وأنه سبحانه قادر على ما يشاء من الأمور العجيبة، مجازٍ للمحسن والمسيء»[1].

﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾: هذه الجنانُ عن اليمين والشمال رمزٌ لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل، ومن ثم كانت آية تذكر بالمنعم الوهاب.

لقد ارتقوا في سُلَّم الحضارةِ والمدنيَّةِ، حتى تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين، وجعلوا على فم الوادي بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق، وخزنوا الماء بكميات وفيرةٍ وراء السد، وتحكموا فيها وفق حاجتهم، فكان لهم من هذا موردٌ مائيٌّ عظيم، عُرِفَ باسم « سد مأرب ».

﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾: فالأرض بساطٌ سندسيٌّ أخضر، قد طبعتْ فيها الزهورُ الفواحةُ بألوانها الزاهية أبدع النقوش.

وقد دعاهم الله تعالى بلطفٍ ولينٍ إلى مائدته العامرةِ ورزقه الكريم﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾: دعوة من الكريم للتمتع بهذه الطيبات ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ من الآفاتِ، خاليةٌ من المنغصاتِ، قد طاب فيها المقامُ ورَغدَ العيشُ، وثمارٌ يانعةٌ دانيةٌ، وقصورٌ منيفةٌ ومساكنُ عاليةٌ، ومناظرُ رائعةٌ، وسهولٌ ممتدةٌ، وربوعٌ خضراءُ، وأنهارٌ تتدفقُ بالخيرات، وأشجارٌ تتفتقُ بأطايبِ الثمراتِ، وحقولٌ تجودُ بأجودِ المحاصيلِ، وهواءٌ عليلٌ،﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ يعفو عن الكثير ويثيبُ على القليلِ ويمنحُ الثوابَ الجزيلَ.

فماذا فعل قوم سبأ ؟

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

أقبل قوم سبأ على المائدة الربانية معرضين عن شكرها، فقابلوا النعم بالجحود والنكران، والآيات والعبر بالغفلة والنسيان، فكان جزاؤهم الشقاء والحرمان.

---

(١) روح المعاني للألوسي ١٦/ ٢٧٥ .



﴿ فَأَعۡرَضُواْ ﴾ عن المنعم جل وعلا،﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ ﴾ السيل الجرار الذي خرب سدهم وأفسد زرعهم، وأتلف أشجارهم، فتبدلت تلك الحقول والبساتين المثمرة، بأشجارٍ رديئة الثمر، قليلة النفع.

قال الشوكاني: « وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبأ من أودية اليمن، فردموا ردماً بين جبلين، وحبسوا الماء، وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، وكانوا يسقون من الباب الأعلى، ثم من الباب الثاني، ثم من الثالث، فأخصبوا، وكثرت أموالهم، فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذاً، ففتقت ذلك الردم حتى انتقض، فدخل الماء جنتهم، فغرقها، ودفن السيل بيوتهم، فهذا هو سيل العرم، وهو جمع عرمة وهي: السِّكْرُ التي تحبس الماء»[١].

﴿ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَىۡ أُكُلٍ خَمۡطٍ وَأَثۡلٍ وَشَيۡءٍ مِّن سِدۡرٍ قَلِيلٍ ﴾

وتسمية البدل جنتين: للمشاكلة اللفظية، والتهكم بهم.

وقال قتادة: بينما شجرهم من خير شجر إذ صيره الله من شرِّ الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة، وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر، ويحتمل: أن يرجع قوله: ﴿ قَلِيلٍ ﴾ إلى جميع ما ذكر من الخمط والأثل والسدر.

وقال الخليل: الخمط الأراك، وكذا قال كثير من المفسرين، وقال أبو عبيدة: الخمط كل شجرة مرّة ذات شوك، وقال الزجاج: كلُّ نبتٍ فيه مرارةٌ لا يمكن أكلُهُ، وقال المبرّد: كل شيء تغيّر إلى ما لا يشتهى يقال له: خمط، ومنه اللبن إذا تغير[٢].

وقال الأزهري: السدر من الشجر سدران: بريٌّ لا ينتفع به، ولا يصلح للغسول، وله ثمر عفص لا يؤكل، وهو الذي يسمى: الضال، والثاني سدر ينبت على الماء، وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب، قيل: ووصف السدر بالقلة لأن منه نوعاً يطيب أكله، وهو

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣٢٠.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣٢١، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٢٤٩ .



النوع الثاني الذي ذكره الأزهري.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ﴾: ذلك التبديل بسبب كفرهم وجحودهم كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣].

﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ « كانوا في رَغَدٍ من العَيْش وسلامة الحال ورفاهته، فأُمِروا بالصبر على العافية والشكر على النعمة، وهذا أمرٌ سهلٌ يسيرٌ، ولكنهم أعرضوا، وكفروا بالنعمة، وضَيَّعوا الشكر، فَبَدَّلوا وبُدِّلَ بهم الحال، كما قيل:

تبدلت وتبدلنا، يا حسرةً لِمَن ابتغى عِوَضاً لِسَلْمَى فلم يَجِدِ

بين الجحود والفتور !

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ بين تعالى ما كانوا فيه من نعم ظاهرة، وحياة رغيدة، وعيشة سهلة ليِّنة، وبلاد طيبة آمنة وقرى متقاربة متواصلة التي باركنا فيها، قيل هي بلاد الشام.

﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾: متواصلة تتراءى للناظرين، فلا يغادر المسافرُ قريةً إلا ويشرف على قرية أخرى، وتظهر معالُمها فلا يحتاج إلى دليلٍ ولا حمل زاد أو مبيت في أرض خالية ولا يخشى من عدوٍ أو وحوشٍ ضارية.

﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ جعلنا السير بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سيرا مقدرا من منزل إلى منزل ومن قرية إلى قرية، حتى يكون المَقِيلُ في قريةٍ والمبيتُ في قريةٍ أخرى، وإنما يبالغُ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء أو قلتهما، أو لخوف الطريق فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة.

﴿ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ ونعمة الأمن من أعظم النعم؛ فهم في أمن من كل المخاطر والآفات مهما ساروا بالليل أو النهار.

والتعبير بـ ﴿ سِيرُوا فِيهَا ﴾ «مؤذن بشدة القرب حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى»[١]، وقدم الليالي لأنها مظنة الخوف؛ وقد قيل الليل أخفى للويل، أو لأنها سابقة على الأيام أو قلنا سيروا فيها آمنين وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالي وأياماً كثيرة.

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾

قرأ ابن كثير وأبو عمرو فقالوا ربنا بعِّدَ بالتشديد وقرأ الباقون باعد بالألف، وقرأ أبو صالح ومحمد بن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب ويروى عن ابن عباس: (ربُّنَا باعَدَ) تقديره: لقد باعد ربنا بين أسفارنا كأن الله تعالى يقول: قربنا لهم أسفارهم فقالوا أشرا وبطرا: لقد بوعدت علينا أسفارنا وعلى هذا فإنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب بطرا وعجبا مع كفرهم، وقراءة يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر وتروى عن ابن عباس (ربُّنا بَعَّدَ بين أسفارنا) وفسرها ابن عباس قال: شكوا أن ربهم باعد بين أسفارهم، وقراءة سعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصري (ربَّنَا بَعُدَ بينُ أسفارنا) ربنا نداء مضاف ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا: (بَعُدَ بينُ أسفارِنا) ورفع (بينُ) بالفعل (بعُدَ) أي بعُد ما يتصل بأسفارنا، وبعدت المسافات بين البلاد، وروى الفراء وأبو إسحاق (بَعُدَ بينَ أسفارِنا): بعد سيرنا بين أسفارنا.[٢]

والمعنى: تبطروا على هذه النعم وطلبوا زوالها وتمنوا لو كان السفر طويلاً وشاقاً، وبلغ الترفُ ببعضهم والدَّعَةُ أن اشتكى من بعد الأسفار جحوداً وإنكاراً لنعم الله تعالى فكانوا بين جاحدٍ للنعمة وبين متبرم منها متململٍ يتمنى زوالَها، وذلك لما طالت بهم مدة النعمة فبطروا وملوا وآثروا الذي هو أدْنى على الذيْ هو خير، وقالوا: لو كانت متاجرُنا أبعدَ كان ما نجلبُه منها أشهى وأغلى.

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٢٨٨.

(٢) يراجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ٤٨٢ والنشر في القراءات العشر ٢ / ٣٥٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٥٦ .

فسئموا طيب العيش وملوا العافية، وطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان السلوى والعسل، وقالوا لو كان جنى جناننا أبعد لكان أجدر أن نشتهيه وسألوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز وقفارا ليركبوا فيها الرواحل ويتزودوا الأزواد ويتطاولوا فيها على الفقراء.

قال الشوكاني: « وكان هذا القول منهم بطراً وطغياناً لما سئموا النعمة، ولم يصبروا على العافية، فتمنوا طول الأسفار، والتباعد بين الديار، وسألوا الله تعالى: أن يجعل بينهم وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء، والشجر، والأمن: المفاوز، والقفار، والبراري المتباعدة الأقطار، فأجابهم الله إلى ذلك، وخرّب تلك القرى المتواصلة، وذهب بما فيها من الخير، والماء، والشجر.»[1]

﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾وظلموا أنفسهم بجحودهم وغفلتهم، وتململهم وتعنتهم.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ يتحدث الناس بها ويتعجبون من أخبارهم وبؤسهم بعد عيشهم الرغيد، وتفرقهم بعد اجتماع شملهم وذلهم بعد عزهم.

﴿ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾أي فرقناهم حتى صار تفريقهم مثلاً سائر لكل فُرقة ليس بعدها وصال فقالوا، تفرقوا أيادي سبأ، وذهبوا أيادي سبأ، يؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ وَعْلَةَ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ إِنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ سَبَأٍ مَا هُوَ أَرَجُلٌ أَمْ امْرَأَةٌ أَمْ أَرْضٌ ؟ فَقَالَ: (بَلْ هُوَ رَجُلٌ وَلَدَ عَشَرَةً فَسَكَنَ الْيَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ وَبالشَّام مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا الْيَمَانِيُّونَ فَمَذْحِجٌ وَكِنْدَةُ وَالْأَزْدُ وَالْأَشْعَرِيُّونَ وَأَنْمَارٌ وَحِمْيَرُ عَرَباً كُلُّهَا، وَأَمَّا الشَّامِيَّةُ فَلَخْمٌ وَجُذَامُ وَعَامِلَةُ وَغَسَّانُ).[2]

(١) فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣٢٢.

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣١٦) وإسناده حسن.

ضحايا إبليس !

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [سبأ: ٢٠ – ٢١].

تأتي هذه الآيةُ الكريمة تعقيباً على قصة سبأ واستخلاصاً لبعض دلائلها وعبرها، فتبين قيمة الإيمان باليوم الآخر وأثره في وقاية الإنسان من مكائد الشيطان وعصمته من فتنته، وكيف وقع قوم سبأ في مصائد الشيطان فصدق عليهم ظنُّه لما أعرضوا عن شكر النعم ونسوا المنعم بل وجحدوا النعم، وأخلدوا إلى الترف، وتنافسوا في المتع والملذات، فوقعوا في حبائل الشيطان وانقادوا لوساوسه، فصدق عليهم قوله كما أخبر رب العزة ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ – ١٧].

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾: تركوا له الذمام وأذعنوا له وساروا في ركابه.

﴿ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: ممن عصمهم الله من وساوسه ونجّاهم من إغوائه.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾: ما كان له أن يصل إلى بني آدم، لولا أن الله تعالى قدّر ذلك فتنة وابتلاء للناس، فلم يقهرهم إبليس على الكفر وإنما كان منه الدعاء والتزيين والسلطان: القوة وقيل الحجة أي لم تكن له حجة يبينها لهم، ولا برهان يقيمه عليهم، وإنما اتبعوه بأهوائهم الجامحة، وتقليدهم الأعمى، لا عن حجة ودليل.

﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ ﴾ «أي: ليقوم سوقُ الامتحان، ويعلمَ به الصادقُ من الكاذبِ، ويعرف من كان إيمانه صحيحا، يثبت عند الامتحان والاختبار وإلقاء الشبه الشيطانية، ممن إيمانه غير ثابت، يتزلزل بأدنى شبهة، ويزول بأقل داع يدعوه إلى ضده،

فالله تعالى جعله امتحانا، يمتحن به عباده، ويظهر الخبيث من الطيب»[1].

﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾: يحفظ العباد، ويحصي عليهم أعمالهم، فيجازيهم بها.

الهدايات المستنبطة

* الجزاء الدنيوي تمهيدٌ وبرهان ودليلٌ وعنوانٌ على الجزاء الأخروي.
* سيقت قصة سبأ لتكون عبرةً وعظةً وحجةً على كفارِ قريشٍ الذين أنكروا البعث وكذبوا بالنبيِّ ﷺ وأعرضوا عما بين أيديهم وما خلفهم من الآيات.
* أقبل قوم سبأ على المائدة الربانية ولكنهم تغافلوا عن شكرها، فقابلوا النعم بالجحود والنكران، والآيات والعبر بالغفلة والنسيان، فكان جزاؤهم الشقاء والحرمان.
* دلَّ قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾: على عدله سبحانه في حكمه وسنته في مجازاة كل كفور، ومن هنا تتجلى حكمة البعثِ لإقامة موازين القسطِ وردِّ الحقوق لأصحابها والانتصاف للمظلومين.
* في قصة سبأ درسٌ للأمم الآمنة المطمئنة أن تعبد الله وتشكره على نعمه وتوظفها في طاعة الله تعالى.
* كم من أُناس تحولت نعمتهم إلى نقمة وعذاب؛ بكفرهم وفسادهم، وكم من أمة شقيت من حيث ترتجي وتأمل وقد قيل:

إذا كنتَ في نعمةٍ فارعَها   فإن المعاصي تزيلُ النعم
وداوِمْ عليها بشُكْرِ الإلهِ   فشكرُ الإلهِ يُزيلُ النِّقَم

* اقترن ذكر «الصبار الشكور» بهذه الصيغة الدالة على المبالغة في أربعة مواضع هي:

١ - قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٦٧٧.

إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٥].

٢ - وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان: ٣١].

٣ - وقوله تعالى﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [سبأ: ١٩].

٤ - وقوله تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورى: ٣٣].

ذلك أنه حين تمتزج مرارة الصبر بحلاوة الشكر مع حرارة الإيمان: تتفتق عن بصيرةٍ نافذةٍ وفكرٍ ثاقبٍ وعقلٍ مستنيرٍ وقلبٍ حاضرٍ يستنبط الدروس ويستوعبُ العبر، ويستجلي الآياتِ ويستنطق الآثار.

* ذاك هو حال المؤمن بين الصبر والشكر، فأمره كلُّه خير وحياته كلها ثمرٌ: كما في الصحيح عَنْ صُهَيْب قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "عَجباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ» [(١)].

* كلُّ من ضلَّ وغوى فقد صدق فيه ظنُّ إبليس حين أقسم بعزته تعالى أن يغويهم إلا عباد الله المخلصين كما أخبر رب العزة ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ

---

(١) رواه مسلمٌ في صحيحه كتاب الزهد والرقائق. باب المؤمن أمره كله خير. ٦٤ وابن حبان في صحيحه ٧/ ١٥٥ حديث ٢٨٩٦، وهو على شرط مسلم والبيهقي في شعب الإيمان ٤ / ١١٦ حديث ٤٤٨٧.

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: ٣٩ – ٤٠].

* فتنة إبليس ابتلاءٌ وامتحانٌ للناس ليتبين المؤمنُ الصادقُ من الكافر المرتاب، فيثبتُ المؤمنُ ويعصمُه الله، ويقعُ المرتابُ في حبائل الشيطان، وبقدرِ إيمان العبد بالله ويقينه باليوم الآخر بقدر ثباته أمام هذه الفتنة ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾.

-٤-

حوارٌ مع المشركين

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ [سبأ: ٢٢ – ٢٨]

المناسبة

هذه جولاتٌ حواريةٌ مع المشركين لتقرير القضية الأساسية في هذه السورة، قضية البعث والجزاء، بعد قيام الحجةِ عليهم بقصة داود وسليمان عليهما السلام، ثم بقصة سبأ وتحذيرِهم من اتباع الشيطان.

وفي هذه الآيات تقريرٌ لوحدانية الله تعالى وبيانٌ لعظمة سلطانه، وإشعارٌ بهيبته تعالى

وجلاله، ودحضٌ لمزاعم أهل الشرك، وتمهيدٌ للحديث عن مشاهد القيامة.

الملكُ والأمرُ لله وحده

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: بعد ذكر هذه القصة وما انطوت عليه من دلائل وعِبَر أمر الله تعالى رسوله أن يقول للمشركين احتجاجاً عليهم وتبكيتاً لهم وتهكماً بهم: ادعوا آلهتكم التي زعمتم، فهل يملكون في هذا الكون مثقال ذرة ؟ أم لهم شرك في السماوات والأرض؟ أم الله تعالى في حاجة إليهم فيستعين بهم ؟

فإذا لم يصحَّ شيء من ذلك فلم توجهون لهم الدعاء وتلتمسون منهم الرجاء ؟

قال القرطبي: « هذا الذي مضى ذكره من أمر داود وسليمان وقصة سبأ من آثار قدرتي، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين هل عند شركائكم قدرةٌ على شيء من ذلك ؟ وهذا خطاب توبيخ وفيه إضمار: أي ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله لتنفعكم أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم فإنهم لا يملكون ذلك»[(١)].

﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾: والله سبحانه لا يستعين بهم في شيء، ولا بغيرهم؛ فما هو في حاجة إلى معين.

﴿ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾: حتى الملائكة الذين كانت العرب تدعوهم بنات الله؛ وتزعم لهم شفاعة عند الله، لا يملكون من الأمر شيئا.

الشفاعة لا تكون إلا بإذن من الله لمن ارتضاه.

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٦٠ .



ﭐلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سبأ: ٢٣].

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ ﴾: فالشفاعةُ مرهونةٌ بإذن الله، والله لا يأذن في الشفاعة في غير المؤمنين به المستحقين لرحمته، فأما المشركون به فليسوا أهلاً لأن يأذن بالشفاعة فيهم، أما الأصنام التي عبدوها فأنَّى لها أن تشفع وهي لا تضر ولا تنفع، والشفاعة لا تكون إلا لمن ارتضاه الله وأذن له من الملائكة المقربين والنبيين والصديقين.

« ويثبت من هذا حرمان هؤلاء الكفرة من شفاعة الشفعاء المستأهلين للشفاعة بعبارة النص وعن شفاعة الأصنام بدلالته إذ حين حرموها من جهة القادرين عليها في الجملة فلأن يحرموها من جهة العجزة عنها بالكلية أولى»[1].

والمعنى: أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة وغيرهم، إلاّ أن الله سبحانه يأذن للملائكة والأنبياء، ونحوهم في الشفاعة لمن يستحقها، وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى:﴿ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٨]، فإذا أذن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل، والخوف الشديد من أن يحدث شيء من أقدار الله، فإذا سُرّي عنهم﴿ قَالُواْ ﴾ للملائكة فوقهم، وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن:﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ ﴾ أي: ماذا أمر به ؟ فيقولون لهم: قال: القول ﴿ ٱلۡحَقَّۖ ﴾ وهو: قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ استشعارٌ وتعبيرٌ عن هيبته وإجلاله، فله سبحانه أن يحكم في عباده بما يشاء، ويفعل ما يريد.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾: إنه مشهد في ذاك اليوم العصيب، يوم يقف الناس، وينتظر الشفعاء والمشفوع فيهم أن يأذن ذو الجلال في عليائه بالشفاعة لمن ينالون هذا المقام، ويطول الانتظار، ويطول التوقع، وتعنو الوجوه، وتسكن الأصوات، وتخشع القلوب في انتظار الإذن من ذي الجلال والإكرام، ثم تصدر الكلمة الجليلة

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٢٩٧.

الرهيبة، فتنتاب الرهبة الشافعين والمشفوعين لهم.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ «وكشف الفزع الذي أصابهم، وأفاقوا من الروعة التي غمرتهم فأذهلتهم، ﴿ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾يقولها بعضهم لبعض، لعل منهم من يكون قد تماسك حتى وعى، ﴿ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ﴾.. ولعلهم الملائكة المقربون هم الذين يجيبون بهذه الكلمة المجملة الجامعة: ﴿ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ﴾.. قال ربكم: الحق... ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾.. وصف في المقام الذي يتمثل فيه العلو والكبر للإدراك من قريب..

وهذه الإجابة المجملة تشي بالروعة الغامرة، التي لا ينطق فيها إلا بالكلمة الواحدة !

فهذا هو موقف الشفاعة المرهوب، وهذه صورة الملائكة فيه بين يدي ربهم، فهل بعد هذا المشهد يملك أحدٌ أن يزعم أنهم شركاء لله، شفعاء في من يشرك بالله ؟!»[(١)].

وقيل: إن الذين يقولون: ماذا قال ربكم هم: المشفوع لهم، والذين أجابوهم: هم: الشفعاء من الملائكة، والأنبياء[(٢)].

وهذا المشهد المهيب: مشهد الملائكة وهم في غاية الهيبة والإجلال لربهم، خاشعين مذعنين لأمره تعالى مشهدٌ متكررٌ في الدنيا، كما جاء في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَاناً لِقَوْلِهِ كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا ﴿ فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾...) الحديث[(٣)].

الرزق والهداية من الله

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٠٤ بتصرف .

(٢) يراجع: تفسير ابن كثير ٦ / ٥١٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ الحجر: ١٨.

ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ: ٢٤].

هذه الآيةُ تقريرٌ لما سبق ذكره من بيان عجز آلهتهم عن الخلق والرزق﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فإنهم يعلمون أن الخالق الرازق هو الله، فلماذا يلجئون إلى الأصنام وهي لا تملك لهم رزقا ؟

وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فالذي يُنْزِلُ عليكم الخيرات ويمنحكم البركات من السموات هو الله وحده، والذي ينبت لكم الأرض ويخرج خيراتها وكنوزها هو الله تعالى، ومن ثَمَّ فهو وحده المستحقُّ للعبادة أما الأصنام فإنها لا تملك في هذا الكون مثقال ذرةٍ.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

وهذه غاية النُّصفة والاعتدال والأدب في الجدال، أن يقول رسول الله ﷺ للمشركين: إن أحدنا لا بد أن يكون على هدى، والآخر لا بد أن يكون على ضلال، ثم يدع تحديد المهتدي منهما والضال، ليثير دوافع التدبر ونوازع التفكر في رفقٍ ولطفٍ بعيدا عن أجواء التعصب والهوى والاستعلاء.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ فلا رازق سواه ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ ﴾ فالحقُّ لا يتعددُ، فإما هدى وإما ضلالٌ.
وبعد هذا البيانِ الساطعِ والبرهانِ القاطعِ تبينَ لمن له أدنى نظر من المحق ومن المبطل

« وإيثار (على) في صاحب الهدى و(في) في مقابله: للدلالة على استعلاء صاحب الهدى وتمكنِهِ واطلاعِهِ على ما يريدُ، كالواقفِ على مكانٍ عالٍ أو الراكب على جواد، وانغماس الضال في ضلاله، حتى كأنه في مهواة مظلمة» [١].

(١) محاسن التأويل للقاسمي ١٤/ ٢٣ .



﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٢٥]

هذا أبلغ في الإنصاف حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلو عنها مؤمن بما يعبر به عن العظائم وأسند إلى النفس، وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبر به عن الهفوات وأسند للمخاطبين، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك.

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ سبأ: ٢٦]

أمرٌ لهم على سبيل التعجب من حالهم وتبكيتهم وإثبات عجزهم وضلالهم.

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٧]

« وأريد بأمرهم بإراءته الأصنام مع كونها بمرأى منه ﷺ إظهار خطئهم وإطلاعهم على بطلان رأيهم، أي أرونيها لأنظر أيَّ صفة فيها اقتضت إلحاقها بالله تعالى في استحقاق العبادة، وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزامهم الحجة... »[1].

ثم حذرهم وأنذرهم عاقبة أمرهم، فأمر رسوله أن يبلغهم قوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ يوم القيامة وجهاً لوجه، ثم يحكم بيننا بالقول الفصل والحكم العادل، وهو سبحانه الفتاح: يفتح بين عباده بالحق، العليم بصالحهم وطالحهم لا يخفى عليه منهم شيء.

ومن عرف أنه تعالى هو العالم بكل شيء، راقبه في كل شيء وفوَّض إليه كل أمر.

عموم الرسالة

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

هذه الآية بمثابة الختام لما قبلها والتمهيد لما بعدها، إذ بعد أن أقام سبحانه الأدلة على

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن – للسيد محمد صديق خان الهندي ٧/ ٤٥٢.

البعث، وضرب لذلك الأمثال، وأورد من الآياتِ والعبرِ ما يقرر صدق النبي ﷺ في ما أخبر عنه، من ذلك قصة داود وسليمان وقصة سبأ، وفي إيرادها دليلٌ على صدقِ رسالتِه ﷺ، شرع في ذكر الرسالة وبيّن أنها عامةٌ للناس جميعا، وأن من سماتها البارزة البشارة والنذارة، فكانت هذه الآية بالنسبة لما سبقها كالنتيجة لهذه المقدمات، كما أنها تمهيدٌ للحديث عن مشاهد يوم القيامة.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وما أرسلناك إلى قومك خاصة بل للناس عامة، مبشراً من أطاع بجزيل الثواب، ومنذراً من عصى بأليم العقاب.

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾: لا يعلمون حقيقة الرسالة ومهمة الرسول، فيحملهم جهلُهم إلى الصدود والإعراض والتكذيب والاستبعاد ويدفعهم إلى سوء الأدب مع الرسل عليهم السلام، فتراهم يتطاولون على الأنبياء ويوسعونهم افتراءً، ويطالبونهم بمقترحات تنمُّ عن تعنتهم وعنادهم.

الهدايات المستنبطة

* الخالق الرازق والمالك المصرف هو الله تعالى ولا شفيع إلا بإذنه ورضاه، ولا شفاعة إلا لمن ارتضاه.

* قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ درسٌ في آداب الجدل والمناظرة، يدل على غايةِ الإنصاف والموضوعية، والتجرد للحقِّ وابتغائه في رفقٍ ولطفٍ بعيدا عن أجواء التعصب والهوى، والجدل على هذا النحو المهذب الموحي أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين، وأجدر بأن يثير التدبر الهادئ والاقتناع العميق، وهو نموذج من أدب الجدل ينبغي تدبره من الدعاة.

* قوله تعالى ﴿ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥ ﴾[سبأ: ٢٥].

دليلٌ على الرفق بالمخالف والتلطف معه في الخطاب وترغيبه وكسب وُدِّه وعاطفته؛ حتى يقبل على الحقِّ ويذعن له فلا يكابر ولا ينفر من أهل الحق.

* الجهل بحقيقة الرسالة ومهمة الرسل، من دواعي الصدود والإعراض والتكذيب والاستبعاد والتجني على الأنبياء، ومطالبتهم بمقترحات تنمُّ عن تعنتهم وعنادهم، من هنا كان الحديث عن الرسول والرسالة من محاور القرآن الرئيسة.

- ٥ -

من مشاهد القيامة

حواراتٌ صريحةٌ

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

المناسبة

* صلة هذه الآيات بمحور السورة الكريمة واضحة جلية حيث تنتقلُ بنا إلى مشاهد القيامة وحال الكفار في هذا اليوم لتخاطب وجدانهم وتثير مشاعرهم وتنقلهم إلى أجواء هذا اليوم.

* وصلتها بالآية السابقة واضحةٌ حيث إنها تتصلُ بمهمة الرسول ﷺ وهي البشارة والنذارة حيث أنكر الكفار ما أُنذروا به واستعجلوه استبعادا له وتهكما به.

التفسير الإجمالي

وعدُ اللهِ آتٍ.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

من سوء أدب الكفار وفرط جهلهم وشدة تعنتهم ولجاجهم: سؤالهم سؤال استبعاد وإنكار عن وقت مجيء هذا الوعد الحق فيقولون: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؟

ولكن: أيُّ تلازم بين معرفةِ ساعةِ هذا الوعدِ الحقِّ، وبين التصديق بها حتى يربطوا هذه بتلك ؟ أليس هذا دليل على جهلهم وسفههم؟.

وتأتي الإجابة الحاسمة: ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾: فالذي قدره وحدَّده هو الله عز وجل، وإذا حلَّ بكم فلا مفرَّ منه ولا سبيل إلى تأخيره وتأجيله كما لا يمكن تقديمه.

عاقبة التكذيب

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ إنه منطق الكفر الذي تأصل فيهم وتغلغل في أعماقهم، فاندفعوا إلى التكذيب الذي لا مبرر له إلا سحائبُ الجحودِ المعتمة، وحُجُبُ الإنكارِ الكثيفة التي ظللتهم وجللتهم، فلا تنجلي عنهم ولا تنقشع إلا بالمواجهة الواقعية والمعاينة الحسية.

مراجعاتٌ

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ دعوا السؤال عن وقت الساعة، فإنها آتيةٌ لا محالة، وتأملوا في هذا المصير الذي ينتظركم إن متم على ظلمكم وإعراضكم.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾ حوارات صريحة وحقيقية بين الأتباع والمتبوعين، بين المستكبرين والمستضعفين، حوارات حقيقية لا يتبادلون فيها المجاملات والابتسامات، بل يتراشقون الملامة والعتاب، حوارات واقعية لا شكلية تدور حول المصير المحتوم.

يبدأُ المستضعفون بالكلامِ الصَّريحِ بعد أن سقط ذلك الحاجز الذي كان يفصل بين الفريقين، وتلاشت تلك الهيبة التي كانت تَمنع المستضعفين من مراجعة الكبراء فكلُّهم في المذلة والهوان سواء.

لكن الحوارَ يبدأ هذه المرة من جانب المستضعفين بعد أن كانت الصدارة في الدنيا للكبراء والوجهاء، يتراشقون التُّهم ويتبادلون اللوم والعتاب ويسعى كلُّ فريق إلى التنصُّل والانفلات، والنجاة، والتعلُّل والتبرير﴿ يَـقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾: أنتم تتحملون مسئوليتنا، فقد كنا لكم تبعاً، وكنا رهن إشارتكم، وعشنا تحت أقدامكم، وكنا عونا لكم لتحقيق مآربكم، وجنودا لضمان سلامتكم !

وهنا يتملص المتبوعون من الأتباع بل ويرمونهم بتهمة الإجرام لينسلُّوا منها، ويتساءلون بكل سماجةٍ وصفاقةٍ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ بعد أن كانوا في الدنيا لا يقيمون وزناً للمستضعفين ولا يسمعون لهم، ولا يبالون بهم، ولا يعتدُّون بوجودهم، ولا يحفِلون بآرائهم، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا يأذنون لهم بمناقشة ! فهم اليوم يسمعون منهم ويجيبون عليهم في حوارٍ واقعيٍ صريحٍ، يقولون للمستضعفين: بل اخترتم طريق الإجرام بإرادتكم وتسابقتم إلى التزلف منا وبالغتم في الخنوع لنا، وتفننتم وأخلصتم في خدمتنا، من أجل مصالحكم العارضة ومآربكم الحقيرة، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾: فقد جاءكم الهدى فما الذي صرفكم عنه أيها المجرمون ؟ هل أرغمناكم على اتباعنا ؟ أم أنه الإجرامُ يسري في دمائكم والتبعيةُ تحملُكم على الانصياع لنا وممالأتنا.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

أجابوهم بكل ما لديهم من لوعةٍ وأسى وحسرةٍ وحُرْقَةٍ وبكل ما يضمرونه من حنقٍ وغيظٍ:﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ أنسيتم عملَكم الدائبَ وكيدكم المتواصل وتآمركم الخبيث على الحق وأهله وصدَّكم الدائم وأوامركم الصريحة ودعواتكم المتواصلة إلى الكفر البواح ؟ واتخاذ الأنداد ؟

﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ لما تبين لهم ضلالهم وتحققت خسارتهم، تمنوا لو سلكوا طريق الحق، وأسروا بالندامة خشية الفضيحة، وهنا نلحظُ أنهم في بعض مواقف القيامة يجاهرون بالحسرة والندم، وفي بعضها يتهامسون ويتخافتون ويضمرون ويسرون.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ﴾ إذلالا لهم وتضييقاً عليهم ونكالاً بهم﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ كما كانوا عبيداً للشهوات أسارى للأهواء استحقوا المذلة والمهانة والقيد والحبس، فالجزاء من جنس العمل.

قال صاحب الظلال: « ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين. وكلاهما ظالم، هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله، وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان؛ وإدراك الإنسان، وحرية الإنسان، وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان.. وكلهم في العذاب سواء، لا يجزون إلا ما كانوا يعملون.

يسدل الستار وقد شهد الظالمون أنفسهم في ذلك المشهد الحي الشاخص، شهدوا أنفسهم هناك وهم بعد أحياء في الأرض، وشهدهم غيرهم كأنما يرونهم، وفي الوقت متسع لتلافي ذلك الموقف لمن يشاء!» [1].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩١٠.

الهدايات المستنبطة

* في تذكر المؤمن أمورَ الآخرة ومواقف القيامة واستحضار مشاهدها ما يسلِّي الفؤاد ويثبت القلب، ويزيدُه يقينا بوعد الله وإجلالا وهيبةً بعظمة مقامِ الله مما يهوِّن عليه كلَّ بلاءٍ.
* ضرورة تذكير الكافر ومواجهته بمصيره الذي ينتظره إن بقي على كفره.
* يشهدُ يومُ القيامة مواجهاتٍ عنيفةً وحواراتٍ صريحةً بين الأتباعِ والمتبوعين، بين المستكبرين والمستضعفين، يتبادلون فيها اللوم والعتاب، ويتراشقون التُّهم ويسعى كلُّ فريق إلى النجاةِ على حسابِ الآخر.
* ينكشف لكلٍّ فريق حقيقة الآخر وتفضح النوايا ويظهر المستور، وتتهاوى العلاقة الهشَّة والمودة الزائفة، ويظهر الحقد الدفين.
* يشهد يوم القيامة مواقف الكفار المتباينة والتي تنمُّ عن حيرةٍ واضطراب فتارةً يجاهرون بالحسرة والندم، وتارةً يتهامسون ويتخافتون، ويضمرون ويسرون وتارة يجحدون وينكرون وتارة يقرون ويعترفون !

-٦-

الترف والمترفون

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ سبأ: ٣٢ - ٣٩

المناسبة

يخبر تعالى عن أحوال الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء المكذبين، وأن الترف من أسباب الصدود والاستكبار عن الحق، وأنه سبحانه ما أرسل رسولا في قرية من القرى، إلا كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم وفخروا بها، وفي هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتثبيت له وبيانٌ لما للترف من آثارٍ سلبيةٍ، من أخطرها أنه سببٌ للصدود عن الحق وإنكار البعثِ والجزاءِ مع جلاء الآياتِ والبراهين.

التفسير الإجمالي

المال ليس قيمةً في ذاته، وليس عصمة ووقاية لصاحبه، وليس دليلا على قربه من الخالق الرازق عز وجل، وليس برهاناً على نجاته في الآخرة بل الترف من عوامل الصدود والإعراض عن الحق ومن معاول هدم الأمم وإبادة الشعوب فعادة المترفين في كل العصور: الركون إلى الدنيا وملذاتها والصدود عن الحق وإعلان الحرب على أهله، والاغترار بالأماني الكاذبة والظنون المبنية على الوهم والخيال، والاعتزاز بالمال والولد والتفاخر بذلك.

وهم مع الرفاهية التي يعيشونها والنعم التي يرفلون في أثوابها جفاةُ المشاعر غلاظ

القلوب.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

سارعوا إلى الكفر وأعلنوا الحرب على دعاة الحق واستبعدوا العذاب متعللين بكثرة المال والولد.

وخصَّ المترفين بالذكر لأنهم غالبا أول المكذبين للرسل عليهم السلام لما انشغلوا به من زخارف الدنيا وبهارجها، فهم منهمكون في شهواتها مستغرقون في ملذاتها قد انقلبت موازينهم واختلطت مفاهيمهم فتراهم يستهينون بالفقراء، ويزدرونهم وينفرون منهم، فكيف بدعوةٍ تجمعهم ورسالةٍ توحدهم وعقيدةٍ تؤاخيهم !

أما الفقراء فهم غالبا أصفياء القلوب أنقياء السرائر قد خلت قلوبهم من حب الدنيا خلوَّ جيوبهم وفراغَ بيوتهم من متاعها وأعراضها، ليس عندهم ما يخافون عليه إن اتبعوا دعوةَ الحقِّ بل إنها طريقهم إلى الخير والسعادة التي يحلُمون بها؛ ولذلك تراهم أكثر أتباع الأنبياء عليهم السلام كما جاء في حديث هرقل مع أبي سفيان وفيه «... وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ...».[1]

﴿ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهمٌ كاذبٌ وسرابٌ خادعٌ، ذاك الذي يتعلقون بأهدابه الواهية، أيظنون أن كثرة الأموال والأولاد سببٌ للنجاةِ والرضوان ! أيُّ منطقٍ هذا ! وأيُّ ميزان !

﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ فليس بسطة الرزق وتضييقه دليلاً على ما زعمتم؛ فالرزق بتقدير وتدبير من الله عز وجل إن شاء بسطه

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب بدْءِ الْوحْيِ بَاب كيف كان بَدْءُ الْوَحْيِ حديث ٦ .

وإن شاء ضيقه، وليست الأموال والأولاد هي التي تقرب إلى الله وتدني منه، إلا لمن آمن وعمل صالحاً، وجعل المال والولد وسيلةً لرضا الله تعالى، فأولئك لهم جزاء مضاعف بإيمانهم وصلاحهم وقيامهم بحقوق المال والولد.

﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ إنما الذي يتزلَّف به العبد إلى مولاه هو ما قدمه من إيمانٍ خالص وعمل صالح؛ يرتقي به إلى أعلى مقامات القرب ودرجات الرضوان في أعالي الجنان﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾: أي في أعالي القصور منعمون آمنون في الغرفاتِ الهانئة الوثيرةِ، يُسْعَى إليهم بما يشتهون،﴿ ءَامِنُونَ ﴾من كل آفةٍ فلا موت ولا حرمان ولا أسقام ولا أحزان، بل بهجة وسرور وكرامة وأمان.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أما أولئك الذين يسعون في آيات الله، لا لتدبرها والانتفاع بها بل للتكذيب بها وتعجيز من آمن بها ودعا إليها يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أي في جهنم، تحضرهم الزبانية فيها.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[الانفطار: ١٤ - ١٦].

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ تقريرٌ لهذا المعنى وتمهيدٌ للدعوة إلى الإنفاق في وجوه الخير﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾: ما أنفقتم من نفقة واجبة أو مستحبة في أي باب من أبواب الخير فإن الله تعالى يخلف على المنفق،﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ فاطلبوا الرزق منه والتمسوا أسبابه وأنفقوا ينفق عليكم، ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

الهدايات المستنبطة

* المال ليس قيمة في ذاته، وليس عصمة ووقاية لصاحبه، وليس دليلا على قربه من الخالق الرازق عز وجل، وليس برهاناً على نجاته في الآخرة.

* الترف من عوامل الصدود والإعراض عن الحق ومن معاول هدم الأمم وإبادة الشعوب.

* من أحوال المترفين: الركون إلى الدنيا وملذاتها والصدود عن الحق، والاغترار بالأماني الكاذبة، والاعتزاز بالمال والولد.

* الرزق بتقدير وتدبير من الله عز وجل إن شاء بسطه وإن شاء ضيقه، وليست الأموال والأولاد هي التي تقرب إلى الله وتدني منه، إلا لمن آمن وعمل صالحاً وجعل المال والولد وسيلة لرضا الله تعالى.

* الحث على البذل والإنفاق قال تعالى ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ)، وَقَالَ: (يَدُ اللَّهِ مَلأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)، وَقَالَ (أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ)[1].

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً)[2].

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير- باب: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾.[هود ٧] - حديث ٤٤٠٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة. باب: قول الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل: ٥ – ١٠].

-٧-

عودٌ إلى مشاهد القيامة

مواجهةٌ حاسمة... وعاقبة الظالمين

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[سبأ: ٤٠ - ٤٢]

المناسبة

يعودُ بنا السياق للحديث عن مشاهد يوم القيامة فيوقفُنا أمام موقفٍ مهيبٍ ومواجهةٍ صريحةٍ مباشرةٍ بين المشركين والملائكة الذين يتبرؤون من الشرك وينزهون الله تعالى عن ذلك، ويشهدون على ضلال المشركين واتباعهم لشياطين الجن.

التفسير الإجمالي

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يحشر الله تعالى المشركين ومن أشركوهم معه تعالى في مواجهةٍ فاصلةٍ ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ في هذا المشهد المهيب والموقف العصيب مواجهةٌ حاسمةٌ بين الملائكة ومن عبدوهم، وهذا الاستفهام يتضمن توبيخا وإنكارا على المشركين، ومواجهة لهم بمن عبدوهم من دون الله.

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

تنزيه وتقديس لله تعالى مع تعجب وتبرؤٍ من صنيع المشركين، إذ كيف يعبدوننا وأنت مالكُنا ومدبِّر أمورنا ! ونحن ما دعوناهم لعبادتنا، بل فعلوا ذلك استجابةً وطاعةً لشياطين الجن الذين وسوسوا وزينوا لهم ذلك.[1]

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٧١ .

وهنا يلتفت الخطاب إلى هذا الحشد العظيم ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ خاب رجاؤكم وانقطع أملُكم وضلَّ سعيكم، فلا يملك بعضكم لبعض نفعاً وضراً؛ إذ كانوا يعبدون الجن رغبة ورهبة، وكان الجن يستمتعون بعبادة المشركين لهم كما قال سبحانه ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]

﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أمرٌ لا سبيل إلى التفلُّتِ منه، أمرٌ يحملُ معنى الإهانة والتوبيخ، وسهامَ التقريع، كما قال سبحانه ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الطور: ١٣ – ١٦]

الهدايات المستنبطة

* يشهد يوم القيامة مواجهاتٍ حاسمةٍ ومساجلاتٍ مباشرة بين الأتباع والمتبوعين وبين المشركين ومن أشركوهم مع الله.
* تقديس الملائكةِ ربهم وتنزيهه عن شرك المشركين، ويَبْرَؤون ممن عبدوهم من دون الله.
* لا تبقى للمشركين حجةٌ يتعللون بها بل يستيقنون من ضلالهم ويعاينون العذاب الذي طالما استبعدوه وكذبوا به.

-٨-

عودٌ إلى حال المشركين في الدنيا

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سبأ: ٤٣ – ٤٥]

المناسبة

بعد التذكير بهذا المشهد المهيب والموقف العصيب بين يدي علام الغيوب، تذكر هذه الآيات بسجلِّ المشركين الحافل بالصفحات المظلمة والجرائم المنكرة، فتبين ما كانوا عليه في الدنيا من تكذيب وإعراض وجحود وعناد وصدود وافتراء، وعداءٍ لدعوة الحقِّ التي جاءتهم وتشكيك في الكتاب الذي جاءهم.

وكان الأولى بهم أن يقبلوا على هذه الدعوة ويناصروها ويؤازروها فهي شرفٌ لهم، كان عليهم أن يعتبروا ممن سبقهم على طريق الضلال من الأمم الغابرة الذين ما أغنى عنهم ما حازوه من الخيرات وما بلغوه من التمكين ؟ فأين هم منهم ؟ ولم يبلغوا معشار ما بلغوا !

التفسير الإجمالي

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

أعرضوا عن آيات الله تعالى مع جلائها، وافتروا على الله الكذب، ونالوا من نبيه ﷺ وكذبوا بوعيده، واختلقوا الأباطيل، ورفعوا شعار التقليد الأعمى لما كان عليه الآباءُ والأجدادُ، ليصدوا الناسَ عن دعوة الحقِّ.

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ فكان أحرى

بهم أن يقبلوا على هذا الكتاب وأن يتمسكوا به ويتشبثوا بهذا النذير الذي جاءهم بخيري الدنيا والآخرة، بدلاً من التكذيب والافتراء الذي لا أصل له.

﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ من الأمم السالفة والقرون الغابرة، فما بلغ كفارُ قريش من الرفاهية والترف معشار ما بلغت تلك الأمم التي آتاها الله نعماً وفيرة ومكَّن لهم ما لم يمكِّنْ لغيرهم، فما أغنت عنهم النعم حين كذبوا رسلَ الله ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فانظر كيف كان عذابي لهم وإنكاري عليهم.

الهدايات المستنبطة

* إعراض المشركين عن آيات الله وصدودهم عنها، واختلاقهم الأكاذيب المتناقضة ونسجهم الافتراءات المتضاربة للصدِّ عنها.
* كان الأولى بكفار قريش أن يقبلوا على هذه الدعوة ويناصروها ويؤازروها فهي لهم شرفٌ وذخرٌ، ومجدٌ وذكرٌ، كما كان عليهم أن يعتبروا ممن سبقهم على طريق الضلال من الأمم الغابرة الذين ما أغنى عنهم ما حازوه من الخيرات وما بلغوه من التمكين.
* تمكين الله لكثيرٍ من الأمم السابقة لم يغنِ عنهم شيئا حين كذبوا وأعرضوا.

خاتمة السورة

دعوة للتفكر والنظر

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سبأ:٤٦ – ٥٤]

المناسبة

بعدما أقام عليهم من حجج، وحذرهم من سوء العاقبةِ، دعاهم إلى التجرد للحق والصدق في طلبه، والتخلي عن الأهواء والمطامع التي تحول دون التفكير الصحيح والنظر الثاقب والقرار الصائب في أمر هذه الدعوة، وأحوالِ إمامها، والنظر في مصيرهم المحتوم ومراجعةِ حالهم قبل فوات الأوان.

التفسير الإجمالي

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ أقدم لكم هذه الموعظة البليغة، وأدعوكم إلى هذه النظرة العميقة التي إن فعلتموها أصبتم ووُفقتُم:أن تقوموا لله تعالى بإخلاص وتجرد، فتشمّروا عن ساعد الجد، وليحاور كلُّ واحد صاحبه الذي يثق في صدقه ونصحه، ويعرض كلُّ واحد محصولَ فكره على صاحبه، وينظران معا نظر الصدق والإنصاف أو يراجعُ كلُّ فردٍ نفسَهُ فيتفكر ويتأمل بعدلٍ ونُصْفَةٍ ويعزم عزما خالصا على ابتغاء الحق، فإن

من سنن الله تعالى الثابتة أن من ينشُد الحقَّ بعزمٍ وصدقٍ يوفَّقْ إليه.

قال الإمام النسفي: « ومعنى تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوشُ الخواطر ويُعمي البصائر ويمنع من الرويَّة ويقلُّ الإنصاف فيه ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب، أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق، وكذلك الفرد يتفكر في نفسه بعدل ونصفة ويعرض فكره على عقله». [1]

﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾: ثم تتفكروا فيما بينكم في أمر صاحبكم، هل صحيحٌ ما تدَّعُونَهُ وتصِمُونَهُ به من جنون ؟ أليس للجنون أعراض ؟ فهل ظهر عليه شيء منها؟ أم هل جربتم عليه كذباً ؟ أليس تدعونه بالصادق الأمين ؟ ألستم تشهدون له برجاحة العقل؟ ورحابة الفكر؟

قال القرطبي: «... ثم تتفكروا هل جربتم على صاحبكم كذبا أو رأيتم فيه جنة أو في أحواله من فساد أو اختلف إلى أحد ممن يدعي العلم بالسحر أو تعلم الأقاصيص وقرأ الكتب أو عرفتموه بالطمع في أموالكم أو تقدرون على معارضته في سورة واحدة ؟ فإذا عرفتم بهذا الفكرِ صدقَهُ فما بالُ هذه المعاندة !». [2]

« وإذ قد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام أرجح الناس عقلاً وأصدقهم قولاً وأذكاهم نفساً وأفضلهم علماً وأحسنهم عملاً وأجمعهم للكمالات البشرية، وجب أن تصدقوه في دعواه فكيف وقد انضم إلى ذلك معجزاتٌ تخرُّ لها صمُّ الجبال، والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبكم للإيماء إلى أن حاله ﷺ مشهورٌ بينهم لأنه نشأ بين أظهرهم معروفاً بما ذكرنا» [3]، وفي هذا تعريضٌ بتجاهلهم وتنكيرهم له.

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي٣/ ٣٢٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٧٢ .
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٣٣٠.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: إن هذه هي الحقيقة وهي النتيجة التي تصل إليها العقول السليمة بعد تجريد الفكر وإمعان النظر.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ لا أريد منكم أجراً ولا عطاءً في مقابل دعوتي إليكم فخذوا أنتم الأجر الذي طلبته منكم ! وهو أسلوب فيه تهكم، وفيه توجيه، وفيه تنبيه.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فهو وحده رجائي ووجهتي، وهو الذي كلفني، وهو الذي يثيبني، فلا أرتقب إلا ثوابه، ولا أبتغي إلا رضاه.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم بجميع الأمور شاهدٌ عليها.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ أي يلقيه إلى أنبيائه ويهدي إليه كل من ينشده ويتحراه، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥].

وأفادَ التعبيرُ بقوله ﴿يَقْذِفُ﴾ سرعة وصول الحق، وسرعة التحول من الكفر إلى الإيمان فالهداية تأتي في لحظة واحدة، فإذا القلب وقد تلقفها، وإذا النفس في طَرَبٍ وفرحة لا توصف فقذائف الحق دوماً صائبة لا تسري إلا للقلوب التي تتلهف عليها وتتشوق إليها، والعقولِ التي تبحثُ عنها.

﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فلا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه شيء مهما صغر ودقَّ.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ بعد ما قدمته السورة من حجج وبراهين جاء الحق ولاحت أعلامه، وتجلت حججه وقامت دلائله، أما الباطل فقد تمزقت حجُبُه وتلاشت شبهاتُه، وتبددت ظلماتُه وانقشعت غيومه وانطفأ بريقه، فلم تعد له صولة ولا جولة فهو زاهقٌ، أما الحقُّ فإنه ظاهرٌ.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقوله جلَّ وعلا: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ فالوحي هو طريق الهداية، فلا هداية إلا من هذا الطريق مهما كانت سعة الإدراك وصفاء الذهن ونقاء الفطرة، فالهداية منحةٌ وتوفيقٌ من الله تعالى.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾ لو ترى هذا الموقف حين يروعهم الفزع ويغشاهم الهول ويستبدُّ بهم الرعبُ ويُحاطُ بهم من كل جهة، وفي كلِّ مرحلةٍ عند الموت وعند دخول القبر، وسؤال المَلَكَينِ، وعند يوم الفزع الأكبر، أهوالٌ عظامٌ تتربص بهم.

﴿ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من حيث كانوا فمهما شرَّقوا أو غرَّبوا فهم من الله قريب.

قال الألوسي: ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ فلا يفوتون الله عز وجل بهرب أو نحوه عما يريد سبحانه بهم ﴿ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من الموقف إلى النار أو من ظهر الأرض إلى بطنها أو من صحراء بدر إلى القليبِ أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم، والمراد بذكر قرب المكان سرعة نزول العذاب بهم والاستهانة بهم وبهلاكهم، وإلا فلا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله عز وجل»[(١)].

﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ قالوها بعد انقضاء الزمان وفوات الأوان وانطواء الصحف، وأنى لهم ذلك وقد انقضت الدنيا فلا مردّ إليها، فلا يُسْمَعُ لهم دعاء، ولا يُرْحَمُ لهم بكاء، كما قيل:

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدك للبُكَا		فليس لأيامِ الصفاءِ رجوعُ

وقيل:

وَلَيسَتْ عَشِيّاتُ الحِمَى بِرَوَاجِعٍ		إلَيكَ، وَلكِن خَلِّ عَينيكَ تَدمَعَا[(٢)]

والتناوش التناول، والمعنى: كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بُعْدٍ ! يعني: في الآخرة، وقد تركوه في الدنيا، وهو معنى ﴿ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾: وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بعد

(١) روح المعاني للألوسي ١٦ / ٣٣٥.
(٢) البيت: للصّمّة بن عبد الله القشيريّ.

ما فات عنهم، وقيل: التناوش الرجعة، أي: وأنى لهم الرجعة إلى الدنيا؛ ليؤمنوا، ومنه قول الشاعر:

تمنى أن تؤوبَ إليَّ ميٌّ ... وليس إلى تناوشِها سبيلُ[1]

﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ أنى لهم أن يقبل إيمانهم وقد كفروا به من قبل، وألقوا الشبه والأباطيل ورموه بالظنون والأوهام.

عَنْ قَتَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾، قَالَ: «يَرْجُمُونَ بِالظَّنِّ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يُكَذِّبُونَ بِالْآخِرَةِ، وَيَقُولُونَ: لا بَعْثَ، وَلا جَنَّةَ، وَلا نَارَ»[2].

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

حيل بينهم وبين ما يشتهون من الأهل والعشيرة والجاه والسلطان والأولاد والخلان.

أو حيل بينهم وبين الإيمان فلا يقبل منهم. أو حيل بينهم وبين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا وترفها، وحرمانهم من نعيم الجنة وملذاتها.

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب.

الهدايات المستنبطة

* الدعوة إلى التفكر والنظر في رَوِيَّةٍ وهدوءٍ، وإخلاصٍ وتجردٍ بهدف الوصول إلى الحقيقة والتسليم بها.
* تضمنت الآية الكريمةُ الأصولَ الثلاثةَ، فقوله تعالى: ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾ إشارة إلى التوحيد

---

(١) يراجع: جامع البيان للطبري ٢٠ / ٤٢٨، ومعالم التنزيل للبغوي ٦/ ٤٠٧، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٣٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ١٧٩ حديث ١٧٩١٠.

وقوله: ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ إشارة إلى الرسالة وقوله: ﴿ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر.[1]

* الداعية يرتقب الأجر من الله تعالى على دعوته ويراقب الله تعالى في أداء هذه الرسالة الخالدة.

* الهداية تأتي في لحظة واحدة، فإذا القلب وقد تلقفها، وإذا النفس في طرب ونشوةٍ لا توصف، وقذائف الحق لا تسري إلا للقلوب التي تتلهف عليها وتتشوق إليها.

* الباطلُ على مَرِّ الأيام لا يزيد إلا زهوقاً، والحقُّ على مَرِّ الأيام لا يزداد إلا قوةً وظهوراً.

* طريق الهداية هو الوحي، فلا هداية إلا من هذا الطريق مهما كانت سعة الإدراك وصفاء الأذهان وجلاء الأفهام، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى... فأكثرُ ما يجني عليه اجتهادُهُ

* تذكر أحوال الآخرة ومواقفها العظيمة ومشاهدها المهيبة مما يسلي الدعاة ويخفف عنهم ويهون عليهم ما يواجهونه من مصاعب وعقبات.

* بعد فوات الأوان يعترف الكفار ويقرون بالبعث ! وأنى لهم أن يقبل إيمانهم وقد كفروا به من قبل، وألقوا الشبه والأباطيل ورموا من أخبر عنه بالظنون والأوهام.

* يحال بين الكافر وبين المتع والملذات والجاه والسلطان والأهل والخلان.

* الشك والارتياب في حقائق الدين يورث الحرمان كما ورد عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: «﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾، قَالَ: إِيَّاكُمْ وَالشَّكَّ وَالرِّيْبَةَ، فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ عَلَى شَكٍّ بُعِثَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى يَقِينٍ بُعِثَ عَلَيْهِ».[2].

(١) أفاد هذا المعنى الإمام الرازي في تفسيره ٢٥/ ٢٦٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم - ١٠ / ٣١٦٩ حديث ١٧٩١٤.

سورة فاطر

بين يدي السورة

أ. اسم السورة:

سميت هذه السورةُ الكريمةُ بسورة فاطر، حيث جاء في مطلعها قوله تعالى﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾[فاطر : ١] فسميت بهذا الاسم لاستفتاحها بهذه الصفة العظيمة الدالة على عجيب قدرته تعالى وبديع صنعه.

كما سميت بسورة الملائكة لورود ذكر الملائكة الكرام عليهم السلام، في مطلعِها بما يدلُّ على عظمتهم وطاعتهم وجليل قدرهم ورفيع درجتهم عند ذي الجلال والإكرام، وعجيب خلقهم الذي يتناسب مع مهامِّهم الجليلة ويبين عظمة الخالق وبديع صنعه، وفي هذا إشعارٌ بنعم الله تعالى على عباده وتفضُّله عليهم، فإن فطر السموات والأرض : ابتداؤهما وإنشاؤهما وإبداعهما، وكذلك خلق الملائكة بهذه الهيئة حتى يتمكنوا من أداء مهامِّهم، حيث لا يتنزلون إلا بالحق ولا يُرْسَلُونَ إلا بالخير.

ب. فضائل السورة:

ورد في فضائل هذه السورة الكريمة ما يرغِّب في تلاوتها ويبيِّن مزيَّتها :

* فعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**)[1].

وهذه السورة الكريمة من السور المثاني.

* وروى أبو عبيد القاسم بسنده عن عامر بن عبد قيس قال : « أربعُ آياتٍ من كتابِ الله

(١) الحديث إسناده حسن وقد سبق تخريجه في تفسيرنا لسورة الأنعام.

إذا قرأتهن ما أبالي ما أصبحُ عليه وما أُمسي : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾[فاطر : ٢]، وقوله تعالى ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧ ﴾[يونس: ١٠٧]، وقوله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾[الطلاق : ٧]، وقوله تعالى﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ ﴾[: هود: ٦]»[1].

ج. مكية السورة:

هذه السورة مكية نزلت بمكة قبل الهجرة.

قال القرطبي : « سورة فاطر مكية في قول الجميع ».[2]

* نزلت بما يشهد بعظمة الخالق جل وعلا وبديع صنعه وجليل إنعامه.
* نزلت مقررة لوحدانيته تعالى ومفندة شبه أهل الشرك.
* نزلت لتقرر الإيمان بالبعث بالأدلة والبراهين.
* وكان نزولُها تسليةً وتسريةً وتثبيتا لقلب النبي ﷺ.

د. عدد آيات السورة:

عدد آيِها : أربعون وست آيات في المدني الأخير والشامي، وأربعون وخمسٌ في عدد الباقين.

وكلمها : (٧٧٧) سبع مئة وسبع وسبعون كلمة.

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام ٢ / ٥ حديث ٤٥٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٣١٨



وحروفها : ثلاثة آلاف ومئة وثلاثون حرفا [1].

هـ. محور السورة:

حديث هذه السورة الكريمة حول تقرير العقيدة الإسلامية : حيث استفاضت في بيان أركان الإيمان : الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وأجابت عن الأسئلة الملحّة التي تدور في الأذهان : كيف ؟ ولماذا خلقنا ؟ وما هو دورنا في هذا الوجود ؟ وما هو مصيرنا ؟ فتضمنت السورةُ حديثا عن خلق الإنسان والغاية من وجوده ومصيره الذي ينتظره، كما تحدثت عن نظرة المؤمنِ للكونِ والحياةِ.

والمحورُ الرئيسي الذي تدورُ حوله السورةُ : التذكيرُ بنعمِ الله تعالى الجليلة، من ذلك نعمة فطر السموات والأرض ونعمة إرسال الملائكة بالخير، ونعمة الزيادة في الخلق ونعمة خلق الإنسان ونعمة الرزق ونعمة العناية والهداية، والإنذار والإعذار، ونعمة القرآن ونعمة الفوز بالجنان، والنجاة من النيران، ونعمة الاستخلاف في الأرض، وحرية الاختيار، ونعمة الآثار المبثوثة والعبر الناطقة، ونعمة الإمهال والحلم، ونعمة إهلاك الظالمين وقطع دابر المجرمين هذه النعمُ الجليلةُ حين نتأملُها في ضوء هذه السورة الكريمة : تملأ قلوبَنا هيبةً وإجلالا وتشحَنُ نفوسَنا خشيةً وتعظيما، وأرواحَنا تحفُّزا وتوثُّبا، ورغبةً ورجاءً في فضل ورحمةِ هذا المنعِم العظيم.

و. المناسبات:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

محور السورة يدورُ حول التذكير بنعم الله تعالى وعظمتِه تعالى، وتسميتها بسورة « فاطر»،

---

(١) يراجع : كتاب البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ، ص ٢١٠، وكتاب « أقوى العدد في معرفة العدد » لعلم الدين السخاوي ت ٦٤٣هـ »، جمال القراء وكمال الإقراء ١/ ٢١٣ وفنون الأفنان في علوم القرآن لابن الجوزي ص ٣٠١.

وسورة «الملائكة»: يحملُ دلائلَ العظمةِ وآياتِ القدرةِ وشواهِدِ الإبداعِ، وجليلِ النعم حيث خَلَقَ اللهُ هذا الكونَ الرحيبَ بهذا الإبداعِ العجيبِ الشاهِدِ على كمال قدرته وبديع صنعه وعظيم سلطانه ولطيف إنعامه، كذلك خلق الملائكة بهذه القوة العجيبة والسرعة الفائقة والهيئة الرائعة التي تتناسب مع مهامِّهم ووظائفهم.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

* في مطلع السورة الكريمةِ حديثٌ عن خلق السموات والأرض، وفي ختام السورة حديثٌ عن نعمة العناية والحفظ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿١﴾ ﴾ [فاطر: ١].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٖ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر: ٤١].

* في السورة الكريمة تسليةٌ للنبي ﷺ وتعزيةٌ له عن تكذيب الكفار الذين ساروا على خُطى من سبقهم على طريق التكذيب والإعراض، فإلى الله المرجع والمآب، وبينت السورةُ أسباب صدودهم وإعراضهم وهو الاستكبار والمكرُ السيئُ، وجاء الوعيدُ بسنة الله تعالى في المكذبين وهي الإهلاك والعذاب.

قال تعالى في أول السورة ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٞ مِّن قَبْلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾ [فاطر: ٤].

و في منتصفها ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فاطر: ٢٥ – ٢٦].

و في آخرها ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارٗا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ

إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر: ٤٢ – ٤٣].

المناسبة بين السورة وسابقتها:

الصلة بين سورة فاطر وسورة سبأ: صلة واضحة جلية، من ذلك:

* افتتاح السورتين بالحمد على نعم الله تعالى الظاهرة والباطنة، ومنها نعمة الخلق والرزق والهداية والاجتباء، والرحمة والعطاء، ونعمة البعث والجزاء وغير ذلك من النعم.

التناسب بين سور الحمد كلِّها: في القرآنِ الكريمِ خمسُ سورٍ مفتتحةٌ بالحمدِ وهي: فاتحة الكتاب والأنعام والكهف وسبأ وفاطر، ويقترن ذكر الحمد في مطالع هذه السور ببيان نعم الله تعالى العاجلة والآجلة في الدنيا والآخرة التي تضمنتها هذه السور: نعمة الحياة وما يتصل بها من نعمٍ جليلة، ونعمة الهداية وإرسال الرسل وإنزال الكتب، ونعمة البعث والجزاء.[1]

---

(١) **قال الإمام الرازي**: «السور المفتتحة بالحمد خمس سور: سورتان منها في النصف الأول وهما الأنعام والكهف، وسورتان في الأخير، وهما هذه السورة [يقصد سورة سبأ] وسورة الملائكة والخامسة وهي فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير، والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فإن الله تعالى خلقنا أولاً برحمته وخلق لنا ما نقوم به، وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة، فإنه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما يدوم، فلنا حالتان الابتداء والإعادة، وفي كل حالةٍ له تعالى علينا نعمتان نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فقال في النصف الأول ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢] إشارة إلى الإيجاد الأول وقال في السورة الثانية وهي الكهف: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴾ [الكهف: ١، ٢] إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء، فإن الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولوقعت المنازعات في المشتبهات وأدى ذلك إلى التقاتل والتفاني، ثم قال في سورة سبأ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [سبأ: ١] إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ ﴾، وقال في سورة الملائكة:=

* ختام سورة سبأ مع مطلع سورة فاطر تشبه خاتمة الأحزاب مع مطلع سبأ وخاتمة المائدة مع افتتاح الأنعام، فالقضاء بين العباد نعمة تستوجب الحمد وإهلاك الظالمين وقطع دابرهم وحرمانهم مما يشتهون كذلك، ونظير هذا قولُه تعالى في سورة الأنعام: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

قال الإمام أبو حيان: « ولما ذكر تعالى في آخر السورة التي قبلها هلاكَ المشركين أعداء المؤمنين، وأنزلهم منازل العذاب، تعيَّن على المؤمنين حمدُهُ تعالى وشكرُهُ لنعمائه ووصفُهُ بعظيم آلائه، كما في قوله: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى، لأنَّ قوله تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾ بيانٌ لانقطاع رجاء من كان في شك مريب، ولما ذكر حالهم، ذكر حال المؤمن وبشره بإرسال الملائكة إليهم مبشرين، وأنه يفتح لهم أبواب الرحمة»[1].

* بينت السورتان بطلان دعاوى المشركين وفساد اعتقادهم في تلك الآلهة التي زعموها من دون الله، فهي لا تضر ولا تنفع، ولا تملك مثقال ذرةٍ في هذا الكون ولا تقدر على شيءٍ.

= ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر : ١]، إشارة إلى نعمة الإبقاء ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ [فاطر : ١] والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلاً إلا يوم القيامة يرسلهم الله مسلِّمين كما قال تعالى: ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] وقال تعالى عنهم ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر : ٧٣] وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] إشارة إلى النعمة العاجلة وقوله ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] إشارة إلى النعمة الآجلة قرئت في الافتتاح وفي الاختتام» التفسير الكبير للرازي ٢٥ / ٢٣٨.

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٧/ ٢٩٧ بتصرف.

قال تعالى في سورة سبأ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢].

و قال تعالى في سورة فاطر: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر: ٤٠].

* في سورة سبأ: دعوة إلى التفكر والنظر، من ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ: ٤٦]، وفي سورة فاطر: دعوةٌ للتأمل والإمعان في آيات الكون، وحثٌّ على السير والنظر والاعتبار في عاقبة السابقين: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [فاطر: ٤٤].

* في السورتين حديث عن خطورة المكر، وانكشاف أمر الماكرين، وفضحهم وخسرانهم وسوء عاقبتهم وانقلاب مكرهم عليهم: قال تعالى في سورة سبأ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال تعالى في سورة فاطر: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر: ٤٣].

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها ؛ وهو استحضارُ نعمه تعالى واستشعارُ عظمتهِ، فتمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث المستفيض عن لطائف نعمه وجليلِ عطائِه وعظيم سلطانه، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

التناسب بين موضوع السورتين يتجلى في وجوهٍ عديدةٍ : منها تقريرُ أركان العقيدة وبيان أصولها، ورد شبه الكفار ودحض حججهم، واستجلاء نعمه تعالى، واستعراض دلائل القدرة وشواهد العظمة، والدعوة إلى التفكر والنظر والسير والاعتبار.

بين مقدمة السورة ومحورها:

لما دارت السورةُ حول التذكير بنعم الله العظيمة استُهِلَّت بالحديث عن نعمة خلق السموات والأرض وما فيهما من آيات تدلُّ على عظمة الخالق جلَّ وعلا.

مقدمة السورة

الاستفتاح بالحمد

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ١ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٖ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢ ﴾[فاطر : ١ – ٢]

التفسير الإجمالي

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ١ ﴾ : حمد تعالى نفسه قبل أن يحمده الحامدون، وأثنى على نفسه قبل ثناء غيره عليه، وعلَّم خلقه كيف يحمدونه، فله الحمد على ما اتصف به من صفات الكمال والجلال، وله الحمد على ما أولى عباده من كريم السجايا وجميل الخصال، وله الحمد على أن علمنا كيف نحمده ونثني عليه.

﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أبدعهما وأنشأهما، فله الحمد على إيجادهما من غير أن يسبقهما مثالٌ، وله الحمد على ما بث فيهما من مشاهد الجمال وآيات العظمة والجلال، فكل ما في الكون يدل على بديع صنعه ولطائفِ حكمتِهِ.

قال ابن عباس : ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى اختصم أعرابيَّان في بئر، فقال أحدهما : أنا فطرتُها، أي : ابتدأتُها[1].

﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ فمنهم الموكل بالرزق، ومنهم الموكل بالوحي، ومنهم الموكل بحفظ الإنسان، ومنهم الموكل بكتابة الأعمال، ومنهم الموكل بقبض الأرواح، فلكلٍ مهمته ورسالته التي يؤديها على أتم وجهٍ.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ٦/ ٤٧٢.

﴿ أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ ﴾ : يتفاوتون في القوة، وفي السرعة، كما يتفاوتون في الرتبة والدرجة، فضلا عن تنوع مهامهم، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، وفي هذه الآية لفتٌ للأنظار إلى هذا العالَم النوراني الذي جُبِلَ على طاعة الله ومحبة أولياء الله، وبيانٌ لتفاضلهم في الرتبة والمنزلة.

وفي الملائكة من له أكثر من أربعة أجنحة، وهذا يندرج تحت قوله تعالى: ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ ﴾، ففي الصحيحين : « عن ابن مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ»[1].

﴿ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ ﴾ : فالذي فطر السموات والأرض وأبدعهما من غير مثالٍ مسبوق، والذي خلق الملائكة بهذه الهيئةِ الجليلةِ قادرٌ على المزيدِ، فقدرته تعالى لا تحدها حدود وإبداعه تعالى لا منتهى له.

والزيادة في الخلق عامة وشاملة، منها على سبيل المثال : الخُلُقُ الحَسَنُ، والوجه الحسن والصوتُ الحَسَنُ، ومنها مَلاَحَةُ العينين، واعتدال الصورة، وطلاقة اللسان، ومنها كمال العقل وجزالة الرأي، وجرأة القلب، وسماحة النفس، والظُّرف في الشمائل، وخفة الروح، وغير ذلك من الزيادات المحمودة، فهي شاملةٌ لكلِّ وصفٍ محمودٍ، والأولى أن يعمم، ويقال: الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء، فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء.

وهذه دعوةٌ للتأمل والنظر في ما حواه هذا الكون الرحيب من آيات الجمال والجلال الدالة على كمال القدرة، وبقدرِ معرفة الإنسان وتعمقه بقدر تذوقه لهذا الجمالِ الكونيِّ الباهر الذي يتجلَّى حتى يراه الجميع، ويدقُّ ويلطفُ حتى لا يكتشفه إلا العلماء المدققون.

قال صاحب الظلال : « ولا يحتاج القلب المفتوح الواعي الموصول بالله إلى علم دقيق بمواقع النجوم في السماء، وأحجامها ونسبها، ونسب الفضاء حولها، وطرق سيرها في مداراتها، وعلاقة بعضها ببعض في أحجامها وأوضاعها وحركاتها.. لا يحتاج القلب المفتوح الواعي

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٦/ ٤٧٢.



الموصول بالله إلى علم دقيق بهذا كله، ليستشعرَ الروعة والرهبة أمام هذا الخلق الهائل الجميل العجيب، فحسبه إيقاع هذه المشاهد بذاتها على أوتاره، حسبه مشهد النجوم المتناثرة في الليلة الظلماء، حسبه مشهد النور الفائض في الليلة القمراء، حسبه الفجر المشقشق بالنور الموحي بالتنفس والانطلاق، حسبه الغروب الزاحف بالظلام الموحي بالوداع والانتهاء، بل حسبه هذه الأرض وما فيها من مشاهد لا تنتهي ولا يستقصيها سائح يقضي عمره في السياحة والتطلع والتملي، بل حسبه زهرةٌ واحدة لا ينتهي التأمل في ألوانها وأصباغها وتشكيلها وتنسيقها..

والقرآن يشير إشاراته الموحية لتدبُّر هذه الخلائق... الجليل منها والدقيق... وحسب القلب واحدة منها لإدراك عظمة فاطرها، والتوجه إليه بالتسبيح والحمد والابتهال..»[1].

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾ [فاطر: ٢].

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾: لا يقدر أحدٌ على إمساكها وحبسها.

﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾: لا يقدر أحد على إرسالها فخزائن الرحمات بيد الذي يقول للشيء كن فيكون، يجود بها على من يشاء من عباده، فدل هذا على سَعَةِ رحمتِهِ وكمالِ قدرتِهِ وتواترِ إنعامه وتسلسلِ إحسانه.

« وعبَّر عن إرسالِها بالفتحَ إيذاناً بأنَّها أَنْفَسُ الخزائنِ التي يتنافسُ فيها المتنافسون وأعزُّها منالاً»[2].

﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ هو العزيزُ الغالبُ فلا يمتنعُ عليه شيء، والحكيمُ في تصريفِهِ وتدبيرِهِ وتقديره.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب: ذكر الملائكة حديث ٢٩٩٣، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب: في ذكر سدرة المنتهى، رقم: (١٧٤) - ٢٨٠.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٤/ ٣٦٠.

قال صاحب الظلال : « وما من نعمة يمسك الله معها رحمته حتى تنقلب هي بذاتها نقمة، وما من محنة تحفُّها رحمةُ الله حتى تكون هي بذاتها نعمة، ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله فإذا هو مهاد، وينام على الحرير -وقد أمسكت عنه- فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور برحمة الله فإذا هي هوادة ويسر، ويعالج أيسر الأمور وقد تخلت رحمة الله فإذا هي مشقة وعسر.

ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام، ويعبُر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار!

ولا ضيق مع رحمة الله، إنما الضيق في إمساكها دون سواه، لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، أو في جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك، ولا وسعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء، فمن داخل النفس برحمة الله تتفجَّر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة، ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة!

هذا الباب وحده يفتح وتغلق جميع الأبواب، وتوصد جميع النوافذ، وتسد جميع المسالك فلا عليك، فهو الفرج والفسحة واليسر والرخاء، وهذا الباب وحده يغلق وتفتح جميع الأبواب والنوافذ والمسالك فما هو بنافع، وهو الضيق والكرب والشدة والقلق والعناء!

هذا الفيض يفتح، ثم يضيق الرزق، ويضيق السكن، ويضيق العيش، وتخشن الحياة، ويشوك المضجع، فلا عليك، فهو الرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة، وهذا الفيض يمسك ثم يفيض الرزق ويقبل كل شيء، فلا جدوى، وإنما هو الضنك والحرج والشقاوة والبلاء!...

ومن رحمة الله أن تحسَّ برحمة الله! فرحمةُ الله تضمُّك وتغمرُك وتفيضُ عليك، ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة، ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة، وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة.

وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرةً منه، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه

في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام... ويبقى أن أتوجه أنا بالحمد لله على رحمة منه خاصة عرفتها منه في هذه الآية.. لقد واجهتني هذه الآية في هذه اللحظة وأنا في عسرٍ وجهد وضيق ومشقة. واجهتني في لحظة جفاف روحي، وشقاء نفسي، وضيق بضائقة، وعسر من مشقة.. واجهتني في ذات اللحظة. ويسر الله لي أن أطلع منها على حقيقتها، وأن تسكُبُ حقيقتَها في روحي؛ كأنما هي رحيقٌ أرشُفُهُ وأحس سريانَه ودبيبه في كياني، حقيقةٌ أذوقُها لا معنى أدركه، فكانت رحمة بذاتها، تقدم نفسها لي تفسيراً واقعياً لحقيقة الآية التي تفتحت لي تفتحها هذا، وقد قرأتها من قبل كثيراً، ومررت بها من قبل كثيراً، ولكنها اللحظة تسكب رحيقها وتحقق معناها، وتتنزل بحقيقتها المجردة، وتقول : هاأنذا.. نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها، فانظر كيف تكون!

إنه لم يتغير شيء مما حولي، ولكن لقد تغير كلُّ شيء في حسي! إنها نعمةٌ ضخمةٌ أن يتفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود، كالحقيقة الكبرى التي تتضمنها هذه الآية، نعمة يتذوقها الإنسان ويعيشها ؛ ولكنه قلما يقدر على تصويرها، أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة، وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها، وتم هذا كله في أشد لحظات الضيق والجفاف التي مرت بي في حياتي، وهاأنذا أجدُ الفرج والفرح والرِّيَّ والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق، وأنا في مكاني ! إنها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها في آية من آياته»[1].

المناسبة بين المقدمة ومحور السورة

الصلة بينهما واضحةٌ جلية : حيث بدأت بحمد الله تعالى على نعمه الجليلة وآلائه العظيمة وأشارت إلى نعمة خلق السموات والأرض وكذلك خلق الملائكة بهذه الهيئة العجيبة والقوة الفائقة التي تمكنهم من أداء وظائفهم، وهذا من فضله تعالى على الناس لأن الملائكة لا تتنزل إلا بالحق والخير، كذلك من بديع صنعه وعظمة سلطانه وجليل إنعامه زيادته في الخلق ما يشاء، وفتح خزائن رحمته، وعزته تعالى وحكمته.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٢٢ - ٢٩٢٤ باختصار.

الهدايات المستنبطة

* استفتاح السورة بحمد الله تعالى تنويهٌ وتنبيهٌ على فضائل الحمد، وتقريرٌ لتفرده تعالى به فهو تعالى واهب النعم وصاحبُ العطاء والكرم، وكثيرٌ من الناس في غفلةٍ عن شكره تعالى.

* كل ما في الكون يدل على بديع صنعِهِ وبلاغةِ حكمتِهِ، ولطائِفِ إحسانِهِ وفيضِ جودِهِ ويشهدُ بعظمتِهِ، ويلهجُ بحمدِهِ تَعَالَى.

* تلفتُ الآياتُ أنظارَنا إلى هذا العالَمِ النوراني الذي جُبِلَ على طاعةِ الله ومحبةِ أولياء الله، وبيانِ تفاضلهم في الرتبة والمنزلة، فالإيمان بالملائكة ومحبتهم وتعظيمهم من صميم الإيمان وأركانه، وهم متفاوتون في القوة، وفي السرعة، كما أنهم متفاوتون في الرتبةِ والدرجة، فضلا عن تنوع مهامهم، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة.

* الزيادة في الخلق عامة وشاملة تشمل كلَّ وصفٍ محمودٍ، وكل نعمةٍ جليلةٍ وعطيةٍ حسنةٍ وهبةٍ طيبةٍ.

* في الآيات دعوةٌ للتأمل والنظر في ما حواه هذا الكون الرحيب من آيات الجمال والجلال الدالة على كمال قدرته تعالى وعظيم سلطانه وجليل تفضله وإنعامه.

* بقدرِ معرفة الإنسان وتعمقه في هذا الكون بقدر تذوقه لما أودعه الله فيه من آيات الجمال وشواهد العظمة والجلال.

وقد قيل:

تأملْ سُطُورَ الكائناتِ فإنها من	الملأ الأعلى إليك رسائلُ
وقد خُطَّ فيها لو تأملتَ خطَّها	ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ
تأمل في ربيعِ الأرضِ وانظرْ	إلى آثارِ ما صنعَ المليكُ
عيونٌ من لُجَينٍ شاخصاتٌ	كأنَّ حداقَها ذهبٌ سبيكُ
على قُضُبِ الزَّبرجَدِ شاهداتٌ	بأنَّ اللهَ ليسَ لهُ شريكُ

* خزائن الرحمات بيد الذي يقول للشيء كن فيكون، يجود بها على من يشاء من عباده، وهو العزيز فلا يمتنع عليه شيء، الحكيم في تصريفه وتدبيره وتقديره.

-١-

النداء الأول

تذكيرٌ وتسليةٌ

قَالَ تعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾[فاطر : ٣، ٤]

المناسبة

استهلت السورة بحمد الله تعالى وأشارت إلى جملةٍ من نعمه تعالى، وفي هذه الآيات نداءٌ عامٌّ يشمل الناس جميعا، ويأمرهم بذكر نعمته تعالى واستحضارها وحمده عليها، فهو تعالى الخالق الرازق، كما يلتفت الخطابُ إلى النبي ﷺ تسليةً له وتعزيةً وتأسيًا بمن سبقه من الأنبياء عليهم السلام، وما سجلوه من صفحاتٍ مضيئةٍ بالصبرِ والصمود في مواجهة تكذيب أقوامهم وإعراضهم، وأن مرجعَ الأمورِ جميعا إليه تعالى.

التفسير الإجمالي

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾

هذا هو النداء الأول في هذه السورةِ الكريمةِ، وهو موجَّهٌ إلى الناس جميعا، وفيه تذكيرٌ لهم بنعمه تعالى التي لا تعدُّ ولا تحصى، ومن أجلِّها نعمة الخلق والرزق، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ مما يدلُّ على تفرده تعالى

بالوحدانية فلا رب غيره ولا معبود سواء،﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ومع ذلك ينصرف الكفار عن هذه المعاني الجليلة ويقلبون تلك الحقائقَ الجلية فيشركون مع الله آلهة لا تضر ولا تنفع ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

ثم يجيء الخطاب في الآية التالية بالتسلية والتسرية فتكذيبُهم لا مبرر له، وشأنهم شأنُ من سبقهم من المكذبين، فإلى الله مرجعهم ومصيرهم، وفي هذا وعيدٌ لهم ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾.

وفي اللطائف : « هذه تسليةٌ للرسول ﷺ، وتسهيلٌ للصبر عليه ؛ فإذا عَلِمَ أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلما استقبله، وأنّهم صَبَرُوا وأنَّ اللَّهَ كفاهم، فهو يسلك سبيلَهم ويقتدي بهم، وكما كفاهم عَلِمَ أنه أيضاً يكفيه»[1].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

يتسق هذا المقطع مع المحور العام للسورة حيث التذكير بنعم الله تعالى، والتفكر في عظمته فهو تعالى الخالق الرازق وإليه المرجع والمصير.

الهدايات المستنبطة

* جاء النداء الأول موجهاً للناس جميعاً مذكراً لهم بنعمه تعالى التي لا تعدُّ ولا تُحصى، ومن أجلِّها نعمة الخلق والرزق، مما يدلُّ على تفرده تعالى بالألوهية، فكيف ينصرف الناس لعبادة غيره، ويعرضون عن هذه الحقائق الثابتة ؟

* تسلية النبي ﷺ وتثبيته ببيان حالِ من سبقه من الأنبياء، حيث كذبوا وأوذوا وصبروا ليتسلَّى بقصصهم ويتأسَّى بهم.

---

(١) لطائف الإشارات للإمام القشيري ٦/ ٣٢٢.

-٢-

النداء الثاني

أسبابُ الغرور

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨ ﴾[فاطر : ٥-٨]

المناسبة

بعد الدعوة إلى تذكر نعمه تعالى واستحضارها، والدعوة إلى التوحيد الخالص، تأتي آيات هذا المقطع بالتحذير من الاغترار بالدنيا وزخرفها والاغترار بوساوس الشيطان، والوقوع في شِراكِهِ ومكائِدِه، والانتماءِ إلى حزبه وأوليائه، فإنما يدعو حزبَه إلى السعير، وهي مصير أهل الكفر والعصيان، أما أهل الإيمان والصلاح فلهم من الله مغفرة على ما بدر منهم من ذنوبٍ وتقصير ولهم أجرٌ كبيرٌ على صالحِ أعمالهم، فضل من الله ونعمة، ومغفرة ورحمة، ثم تبين الآيات سببا من أسباب الصدود والإعراض وهو الاغترار بالباطل وزخارفه، حين تميل إليه النفس وتركن إليه، ومن هنا جمعت الآياتُ بين التحذير من الاغترار بالدنيا والشيطان والاغترار بالنفس وهو العُجْبُ، ودعت دعاةَ الحق إلى الصبر والثبات وأن لا يأسوا على من اختار طريق الضلال واستحسنه ؛ فإن الهدايةَ من الله تعالى، وهو عليم بهم مجازيهم بما يصنعون.

التفسير الإجمالي

تحذيرٌ من فتنة الدنيا والشيطان

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ ﴾ : هذا

هو النداء الثاني في السورة الكريمة وفيه تحذير من الاغترار بفتنة الدنيا وفتنة الغَرور، وهو «كلُّ ما يغرُّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فُسِّرَ الغَرورُ بالشيطان ؛ إذ هو أخبث الغارين، وهو محرِّكُ كلِّ فتنةٍ، ووراء كل اغترار.

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾: تأكيدٌ لعداوته ودعوةٌ لأخذِ الحذرِ والحيطةِ منه ومن مكائده ومصائده، والترهيب من سوء عاقبة من والاه وسلَّم له الزمام فقاده إلى عذاب السعير.

وفي الإرشاد : « تقريرٌ لعداوته وتحذيرٌ من طاعتِه بالتَّنبيهِ على أنَّ غرضَه في دعوةِ شيعته إلى اتِّباعِ الهَوَى والركونِ إلى ملاذِّ الدُّنيا ليس تحصيلَ مطالبِهم ومنافِعهم الدُّنيويَّة كما هو مقصدُ المُتحابِّين في الدُّنيا عند سعي بعضِهم في حاجةِ بعضٍ، بل هو توريطُهم وإلقاؤُهم في العذابِ المُخلَّد من حيثُ لا يحتسبون»[(١)].

عاقبة الفريقين

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾

بين تعالى حال الفريقين : الفريق المطيع لإبليس والمتحزِّب له، والفريق الذي عصمه الله من فتنة إبليس وجنوده، أما فريق الكافرين فلهم عذاب شديدٌ، وأما أهل الإيمان والصلاح فلهم مغفرة وأجر كبير.

الاغترار بالباطل... وداءُ العُجْب

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

هذه الآيةُ تقريرٌ لما سبق من ذكر التفاوت بين الفريقين وبيانٌ لأسباب الصدود.

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٤/ ٣٦٢.

وإتمامٌ لأسبابِ الصدودِ والإعراضِ، وهي الاغترار بالدنيا والشيطان والنفس وقد قال الشافعي : إني ابتليتُ بأربعٍ ما سُلِّطُوا إلاَ لشدةِ شِقوتي وعنائي

إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى كيفَ الخلاصُ وكلُّهم أعدائِي

وأرى الهوى تدعُو إليه خواطري في ظلمةِ الشهواتِ والآراءِ

وفي التعبير عن الكافر بمن زين له سوء عمله فاستحسنه : إشارةٌ إلى غاية ضلاله واعتلال فكره وسفاهة نفسه، حتى بلغ به الحال أن استحبَّ الكفر على الإيمان، وآثر الباطل على الحق بتزيين ما حوله من شياطين الجن والإنس، وإغرائهم وتهييجهم، حتى تعصب لما عليه من ضلالٍ، وانتصر لباطله ونافح عنه.

قال صاحب الظلال : « هذا هو مفتاح الشر كله، أن يزين الشيطانُ للإنسان سوءَ عمله فيراه حسناً، ويعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنها، ألا يفتش في عمله ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه، لأنه واثقٌ من أنه لا يخطئ ! متأكدٌ أنه دائماً على صوابٍ ! معجبٌ بكل ما يصدُرُ منه ! مفتونٌ بكل ما يتعلق بذاته، لا يخطر على باله أن يراجع نفسه في شيء، ولا أن يحاسبها على أمر، وبطبيعة الحال لا يُطيق أن يُراجعه أحد في عمل يعمله أو في رأي يراه، لأنه حسنٌ في عين نفسه، مزيَّن لنفسه وحسه، لا مجال فيه للنقد، ولا موضع فيه للنقصان!»[1].

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

فالهداية من الله تعالى لمن سلك طريقها ورام أسبابها ورَغِبَها بصدقٍ وهمةٍ، أما أولئك الغارقون في ضلالهم، الذين استحبوا العمى على الهدى وآثروا الحياة الدنيا ورضوا بها: ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ لا تُهْلك نفسك حزنًا على حالهم، فقد ارتضوا هذا الطريق، والله تعالى عليمٌ بأحوالهم مطلعٌ على ضمائرهم، ومجازيهم بما يستحقونه.

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٢٦، ٢٩٣٦.



المناسبة بين المقطع ومحور السورة

من نعمه تعالى تذكيرنا بوعده الحق وتحذيرنا من الاغترار بدنيانا، وتحذيرنا من أخطار أعدائنا وكشف مكائدهم وأساليبهم حتى نتوقَّى شرورهم ونتوخَّى الحذر منهم، كذلك من نعمه تعالى عقاب الكافرين وإثابة المؤمنين الطائعين، كذلك تسليةُ النبي ﷺ وورثةِ دعوتهِ والتخفيف عنهم من هموم الدعوةِ والتحذير من المبالغة في التأسُّف على المشركين والحسرة عليهم، فالهداية من الله تعالى يمنُّ بها على من يشاء، وفي التفكر في ما اشتملت عليه آيات المقطع من معانٍ إدراكٌ للطائف نعمه تعالى، وإشعارٌ بعظمةِ سلطانه.

الهدايات المستنبطة

* التحذير من الاغترار بفتنة الدنيا وفتنة الشيطان، وبيان معاداته للإنسان، والدعوةُ لأخذِ الحذرِ والحيطةِ منه والتوقي من الوقوع في مكائده ومصائده والتسلُّحُ بالإيمان والعمل الصالح في هذه المعركةِ الفاصلةِ مع الشيطان وأعوانه.
* من أسباب الصدود والإعراض: الاغترارُ بالباطلِ وزخارفهِ، والانبهار بطلائه الزائف.

-٣-

آيات الله في الكون

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝١١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٢ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ۝١٤ ﴾ [فاطر : ٩-١٤]

المناسبة

في هذه الآيات بيانٌ لطائفةٍ من آيات الله الكونية الدالة على عظمته تعالى، الناطقةِ بكمال قدرته، وإنعامه على عباده بالحياة وأسبابها، الحافلة بشواهد العظمة ودلائل القدرة المبثوثة في هذا الكون في تناسق بديع وانسجام تامٍّ، وفيها برهانٌ جليٌّ على أن وعد الله حقٌّ، وفيها لفتةٌ إلى الانشغال بالمنعم بعد التحذير من الاغترار بالدنيا وزخارفها، وبيانٌ لضلالِ أهل الشرك في عبادتهم لما لا يملك مثقال ذرةٍ في هذا الكون الفسيح.

التفسير الإجمالي

إمكانية البعث

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ

ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾

في هذه الآية تقريرٌ لحقيقة البعث بدليلٍ حسيٍّ مشاهَدٍ وهو إرسالُ الرياح وإثارتُها للسحاب ونزوله بالمطر الذي ينصرف بتقدير الله تعالى إلى حيث شاء سبحانه فيحيي به الله تعالى الأرض القاحلة، إنها دورةٌ الحياة التي تدلُّ دلالةً قاطعةً على البعثِ والنشورِ.

قال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت: ٣٩].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ [نوح: ١٧-١٨].

وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا ؟ قَالَ : أَبَيْتُ قَالَ أَرْبَعُونَ شَهْرًا ؟ قَالَ : أَبَيْتُ، قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ : ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[1].

طريق العزة وعاقبة الماكرين

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾

بينت هذه الآية الكريمة طريق العزة وأنها لله ومن الله فلا عزَّ إلا به ولا ذلَّ إلا له، فمن اعتز بغيره ذلَّ ومن تذلل له عزَّ، وقد قيل :

وإذا تذللت الرِّقاب تقرُّباً منها إليك فعزُّها في ذلّها

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب: قوله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر: ٦٨] حديث ٤٥٣٦، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين، حديث ١٤١- (٢٩٥٥).

فالآية تنبيه لأصحاب الهمم، من أين تنال العزَّة ؟ وما السبيل إليها ؟ فمن كان يريد العزَّة، ويطلبها، فليطلبها من الله عزَّ وجلَّ بطاعته وموالاته: فللَّه العزّة جميعاً، ليس لغيره منها شيء.

وفي الآية ردٌّ على المشركين الذين تعززوا بعبادة الأصنام كما قال سبحانه: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم: ٨١ – ٨٢]

﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ أي : إلى الله يصعد لا إلى غيره، ومعنى صعوده إليه : قبوله له، وصعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف، وخصّ الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه، وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيباً من ذكر لله، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتلاوة، وغير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد، أو بالتحميد، والتمجيد.

إذ يشمل كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار ودعوة وإصلاح ووعظ وإرشاد وتذكير.

﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾ فالعمل الصالح يرفع الكلم الطيب والكلم الطيب يرقى بالعمل الصالح فكلاهما ينهض بالآخر ويُعضده.

قال النسفي : « والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب فالرافع الكلم والمرفوع العمل، لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد، وقيل : الرافع الله والمرفوع العمل أي العمل الصالح يرفعه الله وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع والكلم الطيب يصعد بنفسه، وقيل : العمل الصالح يرفع العامل ويشرفه أي من أراد العزة فليعمل عملاً صالحاً فإنه هو الذي يرفع العبد»[(١)].

والكلم الطيب مع العمل الصالح من أسباب نيل العزة.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ : في مقابل الكلم

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ٣٣٥.



الطيب والعمل الصالح نجد من يسعى ويحتالُ في تحصيل السيئات من الأعمال والخبيثاتِ من الأقوال، فيجعلها مرادَه ومطيَّتَه، ويجتهد في إخفائها شأن الماكر الذي يدبر الأمر في خفيةٍ ويظهر خلاف ما يضمره، فمكرهم إلى بوارٍ، كالذي يغرس في أرضٍ بورٍ لا تنبت زرعاً كذلك أعمالهم وكيدهم إلى بوارٍ، وسبيلهم إلى المذلة والانكسار.

قال صاحب الظلال : « والذين يمكرون السيئات يمكرونها طلباً للعزة الكاذبة، والغلبة الموهومة، وقد يبدو في الظاهر أنهم أعلياء، وأنهم أعزاء، وأنهم أقوياء. ولكن القول الطيب هو الذي يصعد إلى الله، والعمل الصالح هو الذي يرفعه إليه. وبهما تكون العزة في معناها الواسع الشامل. فأما المكر السيئ قولاً وعملاً فليس سبيلاً إلى العزة، ولو حقق القوة الطاغية الباغية في بعض الأحيان. إلا أن نهايته إلى البوار وإلى العذاب الشديد»[(١)].

أطوار ومراحل خلق الإنسان

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

بينت هذه الآية الكريمة مراحل وأطوار خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم تحديد النوع الإنساني : ذكر أم أنثى، والحمل والوضع عند سائر المخلوقات التي تحمل وتضع كالحيوانات والزواحف والأسماك والحشرات والطير، ومدة حياة كل كائنٍ، كل ذلك مسجَّلٌ في اللوح المحفوظ، وهذا أمر يسيرٌ على الله تعالى، وهذا دليلٌ على إحاطة علمه وشمول قدرته وعظمة سلطانه.

والتعمير يكون بطول الأجل ومد الأعوام ؛ كما يكون بالبركة في العمر، والتوفيق لصالح الأعمال، وكذلك يكون نقص العمر بقصره ؛ أو نزع البركة منه، وإنفاقه في اللهو والعبث وتبديده في الكسل والفراغ.

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٣١.



ورب ساعة تعدل عمراً بما يتم فيها من أعمال وآثار. ورب عام يمر خاوياً فارغاً لا حساب له في ميزان الحياة، ولا وزن له عند الله !

وقد قيل: «رب عمر اتسعت آمادُهُ، وقلت أمدادُه، ورب عمر قليلة آماده، كثيرة أمداده»[1] .

عالم البحار والأفلاك

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾

تلفت الآيات الكريمة أنظارنا إلى هذه العوالم التي تنطوي على آياتٍ وعجائب لا حصر لها، وتجمع من التنوع والاختلاف ما يدل على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده وتفضله عليهم.

« هذا التنوع البيئي : يدلُّ على قدرة الله عز وجل وبديع صنعه، وتقديره عز وجل وتدبيره لهذا الكون، فمع تنوعه وتباينه إلا أن أعيننا لا تقع إلا على انسجام تامٍّ وتكاملٍ بين هذه المخلوقات التي تشارك في دورة الحياة، حسب الدور المنوط لكلِّ كائنٍ حي، كما أنَّ هذا التنوع العجيب يكسو هذا الكون روعةً وجمالا، وطرافةً تُثيرُ الدهشةَ، وتدعو إلى النظرِ والتفكُّر في عجائب المخلوقات ونوادرِها، فيزداد المؤمن إيمانا ويقينا»[2].

فهذا العذب الفرات له مكوناته وخصائصه ومنافعه، وكذلك الملح الأجاج له خصائصه ومنافعه ومكوناته، فلا يستويان في التراكيب ولا في مستوى الماء ولا في الكثافة ولا فيما يحوياه من كائناتٍ إلى غير ذلك من تباين بينهما تتجلى من خلاله عظمة الله تعالى وكمال إنعامه على الناس.

---

(١) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم لابن عجيبة ص ٢٥٦.

(٢) منهج القرآن في التوعية البيئية، إعداد أحمد محمد الشرقاوي ص٢٤ من بحوث المؤتمر الوطني للبيئة – جامعة القصيم ١٤٢٨هـ.

﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾.. « واللحم الطري هو الأسماك والحيوانات البحرية على اختلافها، والحلية من اللؤلؤ والمرجان، واللؤلؤ الذي ينمو في القواقع نتيجة دخول جسم غريب كحبة رمل أو نقطة ماء، فيفرز جسم القوقعة داخل الصدفة إفرازاً خاصاً يحيط به هذا الجسم الغريب، كي لا يؤذي جسم القوقعة الرخو، وبعد زمن معين يتصلب هذا الإفراز، ويتحول إلى لؤلؤة ! والمرجان نبات حيواني يعيش ويكوِّن شعاباً مرجانية تمتد في البحر أحياناً عدة أميال، وتتكاثر حتى تصبح خطراً على الملاحة في بعض الأحيان؛ وخطراً على كل حي يقع في براثنها! وهو يقطع بطرق خاصة ومنافعه كثيرةٌ !»[1].

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾: كذلك من منافع عالم البحار والأنهار أنها تحمل السفن المحملة بالخيرات والمنافع فتنقلها من بلدٍ إلى بلد وتنقل الناس بقدرة الله تعالى ولطفه وتيسيره .

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾دعوة إلى شكر الله تعالى على هذه النعم التي سخرها للإنسان والكنوز التي استأمنه عليها، ليعمر هذا الكون.

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾: فالليل والنهار نعمتان لا غنى بأحدهما عن الأخرى، ومن رحمته تعالى أن جعل الليل للسكن والراحة والنهار لطلب المعاش، وتجد التداخل بينهما والامتزاج فتارة يطول النهار وتارة يقصر وتارة يطول الليل وتارة يقصر وفي هذا التنوع فوائد جمة ومنافع كثيرة.

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾: والشمس والقمر من أعظم الآيات على قدرة الله تعالى وتدبيره حيث يجريان بحساب دقيق وتقديرٍ محكمٍ فلا يتوقفان ولا يصيبهما عطَبٌ ولا يعتريهما تغيرٌ.

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾:

---

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٤٣٩٢.

ألا يدل هذا كله على ربوبيته تعالى وسعة ملكه وعظمة سلطانه ؟ فأين تلك الآلهة المزعومة التي لا تملك مثقال ذرة في هذا الكون ؟

والقطمير القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة، وقيل: هو شق النواة، وقيل: القمع الذي على رأس النواة، وكل ذلك يسيرٌ وحقيرٌ، وفيه دلالةٌ على أنهم لا يملكون شيئا فلماذا الشرك ؟ وأين العقل والإدراك ؟ وأيُّ منطقٍ يدعو الإنسان إلى عبادة أحجارٍ لا تضرُّ ولا تنفعُ ! ولا تبصر ولا تسمع !

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ : فهي أصنامٌ لا تسمع، ولو قدر لها السماع فأنى لها أن تجيب ؟ وهي لا تملك ذرةً ولا قطميرا، فضلا عن أن الله تعالى يُنْطِقُ تلك الأحجارَ يوم القيامة لتشهد على من عبدها بالكفر وتبرأ إلى الله تعالى من الشرك.

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به، وهذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق، لأني خبير بما أخبرت به.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

اشتملت آيات هذا المقطع على جملةٍ من نعم الله تعالى التي امتنَّ بها على عباده منها نعمة الماء، وهو إكسير الحياة وأصلها، ونعمة البعث والنشور، وبيان معالم طريق العزة، وأثر الكلم الطيب مع العمل الصالح في رفعة العبد وارتقائه، وجزاء الماكرين وعاقبة مكرهم، ثم جاء الحديث عن خلق الإنسان، وعن شمول علمه تعالى وإحاطته بكل مخلوقٍ، وعن نعمة الأنهار والبحار ومنافعها التي لا تحصى، كذلك نعمة الليل والنهار والشمس والقمر، فالخلق خلقه تعالى، والملك ملكه وهو المستحق للحمد المتفرِّد بالكمال والجلال، وكلُّ ما في الكون يشهدُ له بالعظمة.

ثم يلتفت إلى الخطاب إلى المشركين منكرا عليهم اتخاذهم آلهةً من دون الله لا تملك أدنى

شيءٍ في هذا الكون الفسيح، كما أنها لا تسمع ولو سمعت ما استجابت لأنها لا تملك شيئا فضلا عن تبرؤها ممن عبدوها من دون الله، ومن فضله تعالى وإنعامه أن أنبأنا بهذه الحقائق، فهو الخبير ببواطن الأمور فضلا عن ظواهرها.

الهدايات المستنبطة

* تقرير البعث بدليلٍ حسيٍّ مشاهَدٍ وهو إرسال الرياح وإثارتها للسحاب ونزوله بالمطر الذي ينصرف بتقدير الله تعالى إلى حيث شاء سبحانه فيحيي به الله تعالى الأرض القاحلة، إنها دورةُ الحياةِ التي تدلُّ دلالةً قاطعةً على البعثِ والنشورِ.
* تنبيهٌ وتوجيهٌ لذوي الأقدارِ والهممِ إلى طريقِ العزةِ وسبيل نيلها.
* صعود الكلم الطيب والعمل الصالح معا فكلاهما ينهض بصاحبه ويرقى به ويعضده.
* تحذيرٌ لأهل المكر والخداع الذين يضمرون ما لا يظهرون ويحتالون على ارتكاب الخطايا فمكرهم إلى بوار ومصيرهم إلى المذلة والهوان.
* تلفت الآيات الكريمة أنظارنا إلى هذه العوالم التي تنطوي على آياتٍ وعجائب لا حصر لها، ومنافع لا حدَّ لها، كما أنها تجمع من التنوع والاختلاف والتوازن ما يدل على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده وتفضله عليهم، كما تشهد بتفرده تعالى بالخلق والأمر واستحقاقه وحده للعبادة.
* ما أحوج النفس البشرية إلى تلك الانطلاقة في أرجاء هذا الكون الرحيب بعيدا عن هموم هذا الواقع المرير وآلامه المبرحة وحدوده الضيقة وأحداثه الجارية ؛ لتستشعر عظمة الخالق جلَّ وعلا وتستحضر نعمه وتدرك قيمتها وتؤدي شكرها وتصونها.

-٤-

النداء الثالث

غنى الله عن خلقه وعدله فيهم

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فاطر: ١٥-٢٦]

المناسبة

هذا هو النداء الثالث في هذه السورة الكريمة وهو متناسق مع النداءات السابقة التي وُجِّهت للناس جميعا، وجاءت بتوجيهاتٍ رشيدة وحكَم بالغةٍ، وفيه بيانٌ لافتقار الناس الدائم إلى مولاهم الغني الحميد، وأنه تعالى لو شاء أن يستبدلَهم بغيرهم لاستبدلهم، وأنه لا يؤاخذُ أحدا بجريرةِ غيره، ولا يحملُ أحدا وزر أحدٍ، وأنه لا ينتفع بالإنذار إلا الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة، وأن من يتزكى فلنفسه، وأن الأعمى والبصير لا يستويان، كذلك الظلمات والنور، والظل والحرور، وكذلك الأحياء والأموات، وأن الذي يسمع وينتفع بما يسمعه هم أحياء القلوب، وأن مهمة النبي ﷺ هي النذارة، وأن الله تعالى أرسله بالحق مبشرا ومنذرا، كما أرسل أنبياءه في سائر الأمم السابقة، وأن التكذيب دأب الكفار على مرِّ الزمانِ وأن عاقبة التكذيب وخيمةٌ ونهايته أليمةٌ.

التفسير الإجمالي

افتقار الخلق إلى الله !

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ بيانٌ لافتقار الناس إلى مولاهم « فالإنسانُ فقيرٌ إلى الله تعالى في دقائقِ الأمور وجلائلها، وعظيمها وهيِّنها، وعسيرها ويسيرها، لا يستغني عنه طرفة عين، وهو به مستغن عن كل واحد، والله تعالى غني عن الناس وعن كل شيء من مخلوقاته غني على الإطلاق»[(١)].

«وهو الحميد النافع بغناه خلقه، والجواد المنعم عليهم ؛ إذ ليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان جواداً منعماً، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم»[(٢)].

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : قد قوبل الفقراء بالغنى، فما فائدة الحميد؟ قلت : لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم - وليس كل غني نافعاً بغناه إلاّ إذا كان الغني جواداً منعماً، فإذا جاد وأنعم حمده المنعَم عليهم واستحق - بإنعامه عليهم أن يحمدوه»[(٣)].

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾

فاللهُ تعالى غنيٌّ عن العالمين لو شاء لاستبدل الخلقَ بغيرهم كما قال سبحانه ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ : وما ذلك على الله تعالى بممتنعٍ ولا عسيرٍ فهو القادر على كل شيءٍ.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١٢/ ٢٣٣.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي، ٣/ ٣٣٧.

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل للزمخشري ٥ / ٤١٠.

لا يحمل أحد وزر غيره

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

لا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثمَ نفس أخرى، ولا يستتبعُ ذنبٌ ذنب غيره، وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى إلى حمل شيء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوّة من تلك الذنوب شيئاً، ولو كانت قريبة لها في النسب، فكيف بغيرها ؟

أما قوله ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ١٣] فإنه وارد في الضالين المضلين، يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم، وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم، ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ [العنكبوت: ١٢] بقوله ﴿ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ [العنكبوت: ١٢].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: بيانٌ لمن يتعظ بالإنذار، ومعنى ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ : أنهم يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه، أو يخشون عذابه، وهو غائب عنهم، أو يخشونه في الخلوات بعيدا عن أعين الناس.

﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: دلَّ ذلك على قيامهم بحق ربهم ومن حافظ على الصلاة حافظ على غيرها من الطاعات.

﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ : ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ ﴾ تطهر من أدران الشرك وأدناس المعاصي فإنما تزكيته لنفسه تنفعه في دنياه وتنجيه في أخراه، والله تعالى لا تنفعه طاعةُ الطائعين ولا تضرُّه معصيةُ العاصين، وإنما يعودُ نفعُ الطاعة إلى صاحبها وضررُ المعصية إلى مرتكبها.

﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فالمرجع والمآب إليه تعالى، يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

لا يستويان !

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذا مثل للكافر والمؤمن، أو للجاهل والعالم، أنهما لا يستويان أبدا، وهل يستوي من تعامى عن الحق وأعرض عنه، بمن أبصر الحق واستضاء به، وهل تستوي ظلمات الكفر والضلال مع نور الإيمان والهدى ؟

وإنما جمع الظلمات وأفرد النور لأن نور الحق واحد وطريق الهدى واحد، أما طرق الضلال وسبل الظلمات فإنها كثيرة متشعبة.

﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾ لا يستوي الظلُّ الذي يستروحُ إليه الإنسان ويقيلُ ويتقِي به وَهَجَ الشمس ولهيب الحرِّ بالحرورِ الذي لا يتحملُهُ الإنسانُ، وقيل الظل إشارةٌ إلى الجنةِ والحرورُ إشارةٌ إلى النار أو ظلُّ الإيمان وحرارةُ الكفر.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ ﴾ : من شرح الله صدره للإسلام، ومن أقام على الكفر والضلال. فالإيمان حياة القلوب ونور البصائر وانشراحٌ للصدور وبهجةُ النفوس، وجلاء الأفهام وربيعُ الأكوان، أما الكفر فإنه ظلمةٌ في القلب ووحشةٌ في النفسِ وموتٌ للروحِ وغشاوةٌ على البصيرة وحيرةٌ للعقول وضيق في الصدور.

وقد قيل :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ … إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأحْيَاءِ
إِنَّمَا المَيْتُ مَنْ يَعِيشُ ذَلِيلاً … كَاسِفًا بَالُهُ قَلِيلَ الرّجَاءِ

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ : ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم وأنى لهم أن يسمعوا وقد قُبِرُوا وهم أحياء في غياهب الشرك ولحود الضلال، فلا سبيل إلى سماعهم وقد جعلوا بينهم وبين الحق برزخًا وحاجزا من المكابرة والجحود والتقليد الأعمى والتعصب للأهواء.

مهمةٌ جليلةٌ

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

فمهمتك هي النذارة والله تعالى أرسلك بالحق داعيا وهاديا ومبشر ونذيرا، فمن تمام رحمته وكمال عدله وبليغ حكمته تعالى أن أرسل الرسل في سائر الأمم منذرين.

فما عليك إلا الدعوة والبلاغ أما النتائج فهي على الله تعالى فلا تنشغل عما طلب منك بما لم يطلب منك.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

فالتكذيبُ ديدنُ أهل الكفر والضلال، ودأبهم، كما فعل من سبقهم على هذا الطريق الشائك والمنعطف الخطير، رغم ما جاءتهم به الرسل من الآيات البينات والمعجزات الباهرات وبالكتب المنزلة من عند الله، فكان جزاء الكافرين وعاقبتهم أن أخذهم الله أخذا شديدا وجعلهم عبرةً لكلِّ معتبرٍ.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

تتسق هذه الآيات مع محور السورة حيث تتجلى فيها عظمة الخالق عز وجل ولطائف نعمه فهو الغني عن خلقه والكل مفتقر إليه، القادر على تبديلهم بغيرهم ولكنه يمهل ويؤخر ويعفو ويصفح، العادل في حكمه وجزائه لا يؤاخذ أحدا بجريرة غيره، ولا يحمل أحدا وزر غيره ولا يحاسبه إلا على ما قدم، ومن عدله وإنصافه أنه لا يسوي بين أهل الهدى والضلال، وأنه لا يحاسب أنبياءه وأولياءه إلا على ما كلفوا به، فلا يضرهم بقاء الكفرة على كفرهم لأن الهداية منه تعالى، ومهمة الرسول هي تبليغ الحق والبشارة والنذارة، ومن رحمته تعالى وعدله أن أرسل الرسل مبشرين ومنذرين فلا تخلو أمة منهم، وفي الآيات تسليةٌ للنبي ﷺ أن عاقبة المكذبين إلى خسرٍ وهلاكٍ شأن من سبقهم من الأمم الغابرة.

الهدايات المستنبطة

* افتقار الناس إلى مولاهم الغني الحميد، وأنه تعالى لو شاء أن يستبدلهم بغيرهم لاستبدلهم، وفي الحديث القدسي الذي رواه نبينا ﷺ عن رب العزة جل وعلا: (يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ)[١].

* قال ذو النون: الخلق محتاجون إليه في كل نَفَس وخَطرَة ولحظة وكيف لا ووجودهم به وبقاؤهم به! ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ﴾ عن الأشياء أجمع ﴿ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ المحمود بكل لسان، ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل للتعريض على الاستغناء، وقال سهل: لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى ولهم بالفقر، فمن ادعى الغنى حُجِبَ عن الله، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه، فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسر إليه ومنقطعاً عن الغير إليه حتى تكون عبوديته محضة، فالعبودية هي الذل والخضوع وعلامته أن لا يسأل من أحد، وقيل: صفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله في كل شيء، والفقر إليه في كل شيء، والرجوع إليه من كل شيء.[٢]

* من رحمته تعالى وعدله أنه لا يؤاخذُ أحدا بجريرةِ غيره، ولا يحملُ أحدا وزر أحدٍ.

* الإيمان حياة القلوب ونور البصائر وانشراحٌ للصدور وبهجةُ النفوس، وجلاء الأفهام وربيعُ الأكوان، أما الكفر فإنه ظلمةٌ في القلب ووحشةٌ في النفسِ وموتٌ للروحِ وغشاوةٌ على البصيرة وحيرةٌ للعقول وضيقٌ في الصدور.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، حديث ٥٥/ ٢٥٧٧.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي٣/ ٣٣٧.

* لا ينتفع بالإنذار ويرعوي به إلا أهل الخشية والطاعة ممن أحيا الله قلوبهم وأنار بصائرهم.
* بيان مهمة النبي ﷺ وهي النذارة، ومن رحمته تعالى وعدله أنه لم تخلُ أمةٌ من الأمم السابقة من نذيرٍ.
* التكذيب دأب الكفار على مرِّ الزمانِ، وعاقبته وخيمةٌ ونهايته أليمةٌ.

- ٥ -

اختلافُ الألوانِ

من روائع الأكوان

كتاب الله المنظور

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر : ٢٧-٢٨].

المناسبة

تتضمن هذه الآيات : دعوة إلى النظر في جمال الكون، ولفتة إلى هذا الإبداع العجيب والنسق الفريد والتمازج الدقيق في الألوان المختلفة والتي تحتاج إلى وقفةٍ متأنيةٍ ودراسةٍ عميقةٍ وتشهد بعظمة الخالق جلَّ وعلا وبديع صنعه، وتقر افتقار الخلق إليه وغناه عنهم وإنعامه عليهم بما يستوجب حمده.

قال صاحب الظلال : « إنها لفتةٌ كونيةٌ عجيبةٌ من اللفَتَاتِ الدالة على مصدر هذا الكتاب

لفتة تطوّف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها، في الثمرات، وفي الجبال وفي الناس، وفي الدواب والأنعام، لفتة تجمع في كلمات قلائل، بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً ؛ وتدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً «[1].

التفسير الإجمالي

يبدأ هذا المشهد الرائع بإنزال المطر من السماء، وتفتُّقِ الثمراتِ المختلفةِ الألوان من أكمامها، فترى الحقول والرياضَ في حُللها القشيبةِ، قد تدلت الثمراتُ من أغصانها كالقناديل المعلقةِ بألوانها الزاهية وأشكالها الرائعة، فالماء واحدٌ والتربة واحدةٌ ومع ذلك تخرج الثمرات المختلفة الألوان، فهذا أحمر وهذا أصفر وهذا أخضر وهذا أسودٌ وهذا أبيضٌ بل تجد للصنف الواحد ألوانا متعددةً، بل وللون الواحد درجاتٍ متفاوتة، وتجد للثمرة الواحدة ألوانا متناسقةً متمازجةً، فكيف بالتمازج بين الألوان ؟ فمن الذي أبدع هذا الجمال وصبغَ هذه الألوان ؟

قال صاحب الظلال «.. وألوانُ الثمار معرضٌ بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسامين في جميع الأجيال، فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر، بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد، فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شيء من اختلاف اللون !»[2].

وإذا انتقلنا من عالم النبات إلى عالم الجبال : لوجدنا من أبدع الألوان ما تزدهي به الجبال وتزدان، فترى الجمال في أبدع حلله وأزهي ألوانه.

﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾.

والجُدَد جمع جُدة بالضم، بمعنى الطريقة التي يُخَالِفُ لونُها ما يليها سواء كانت في الجبل

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٢

(٢) نفس المرجع ٥/ ٢٩٤٢

أو في غيره، وقد تكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه.

قال صاحب الظلال : « والجدد الطرائق والشعاب، وهنا لفتة في النصِّ صادقة، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها، والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها، مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه، وهناك جدد غرابيب سود، حالكة شديدة السواد، واللفتة إلى ألوانِ الصخورِ وتعدُّدِهَا وتنوعِها داخل اللون الواحد، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار، تهز القلب هزاً، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان»[1].

« ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك، يستحق النظر والالتفات.

ثم ألوان الناس، وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر، فكلُّ فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه، بل متميز من توأمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن واحدة!

وكذلك ألوان الدواب والأنعام. والدواب أشمل والأنعام أخص. فالدابة كل حيوان. والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز، خصصها من الدواب لقربها من الإنسان. والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء»[2].

وهذا الاختلاف والتنوع مما يدعو إلى العظة والاعتبار، فكذلك الناس يختلفون في ألوانهم وهيئاتهم وأجناسهم وألسنتهم ومشاربهم وطبائعهم اختلافا تتجلى فيه عظمةُ الخالق جلَّ وعلا

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٢

(٢) نفس المرجع ٥/ ٢٩٤٢، ٢٩٤٣

وعجيب صنعه، وتمام نعمته، ولطائف حكمته، بما يدعو إلى هيبته تعالى وإجلاله.[١]

---

(١) **وعن الإشارة العلمية في هذه الآية الكريمة : يقول الدكتور كارم غنيم :** « ويصنف علماء الجيولوجيا الجبال تبعًا لصخورها الغالبة على تركيبها إلى ثلاثة أقسام رئيسية: هي جبال رسوبية طبقية، وهي المشار إليها في الآية الكريمة بـ «جدد بيض». وجبال قاعدية متبلورة متحولة وهي المشار إليها في الآية الكريمة «وحمر مختلف ألوانها». وجبال بركانية غير متحولة نارية، وهي المشار إليها في الآية الكريمة بـ «غرابيب سود».

وإذا كان جمهور المفسرين قد ذهبوا إلى أن «جدد» هي الخطط أو الطرق أو الطرائق، فإن من معناها العلمي (الطبقات)، وهذه إحدى خصائص الجبال الرسوبية، إذ هي جبال تكونت بترسيب طبقات فوق بعضها على مر الزمان، وهي «بيض» لأن اللون الغالب عليها هو الأبيض، وهو ما توصل إليه علماء الجيولوجيا، فالجبال الرسوبية إن لم تكن بيضاء فإن لونها يتحول إلى الأبيض بمرور الزمن، ويذكر المتخصصون من صخور هذه الجبال أنواعًا يغلب عليها اللون الأبيض مع وجود بعض الشوائب، ومن هذه الصخور: دياتوميت، وأوبوكا، وليوسيت، وبوكسيت، وكوارتز، وأميانت، وأورثوكلاس، وأنهاريت، ... إلخ.

أما الجبال الحمراء التي ورد ذكرها في الآية الكريمة بـ «حمر مختلف ألوانها»، فيفسر المتخصصون ألوانها إلى شيوع عنصر الحديد فيها، وهو الذي يتأكسد، فيظهر الصخر بلون أحمر، ويصاحب الحديد معادن فلزية أخرى كالنحاس والرصاص، وتختلف نسب وجودها، وبالتالي فاللون الأحمر ذو درجات، وليس أحمر قانيًا أو محضًا.

أما الجبال النارية (البركانية) غير المتبلورة، فيشيع اللون الأسود الغربيب عليها، ويعتبر البازلت هو الغالب في هذه الجبال، ويؤكد المتخصصون أنها أكثر الصخور القاعدية انتشارًا، وتشكل حمم الهضاب وكذلك الجبال البركانية (النارية) التي غالبًا ما تكون على شكل مخاريط. ويعرف معجم المصطلحات الجغرافية للدكتور «يوسف توني» البازلت بأنه صخر ناري أسود اللون، له عدة أنواع، يتكون بفعل تجمد اللافا (الصهارة)، وأهم خصائصه أنه غير بلوري الذرات. والجبال النارية ليس لها سوى اللون الأسود، لأنها -بحكم طريقة تكوينها البركاني- لم يتعرض لإضافة أشياء (مخاليط) إليها.

وللماء دور حيوي في تلوين الجبال : لدور الماء في ألوان الصخور، كما أن دوره حيوي في ألوان الثمرات (النباتات)، فإن له دورًا أيضًا في ألوان الجبال. ويمكن عرض موجز ما توصل المتخصصون إليه في النقاط التالية: تظهر ألوان الصخور (ومن ثم ألوان الجبال) نتيجة لألوان المعادن الموجودة بها، ويتوقف لون المعدن على التركيب الكيميائي له وظروف البيئة التي يتكون فيها، إن كانت مؤكسدة أم غير ذلك.=

﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾.

= وتتغير ألوان المعادن بامتصاصها لكمية من الطاقة أو الموجات الضوئية، وأشد المعادن تأثرًا بذلك المعادن المحتوية لفلزات انتقالية مثل الحديد والكروم والمنجنيز، وتتغير ألوانها بظاهرة الامتصاص فيما يسمى «نظرية المجال البللوري» ولما كان الماء أكثر السوائل انتشارًا (وخصوصًا السوائل ذات الكثافة المنخفضة)، وأكثر السوائل مقدرة على الإذابة، وأكثرها مقدرة على النقل، وأفضل العوامل المساعدة في تفاعلات المعادن السيليكاتية في الصهارة (الماجما)، وأفضل العوامل المساعدة في تحويل الصخور من نارية أو رسوبية إلى متحولة، فإنه يتدخل في تحديد ألوان الصخور بتدخله في عمليات جيولوجية خارجية وعمليات جيولوجية داخلية. أما العمليات الخارجية فتستمد الطاقة اللازمة لحدوثها من الشمس، وأهمها عملية التجوية وعملية الترسيب، ويتدخل الماء في تغيير ألوان معادن كالفلسبار والبيروكسين والهورينلند والميكا، ويتدخل في أكسدة المعادن الحديدية فينتج مثلاً معدن الجوسان من الأكاسيد الحديدية المائية، وهي الأكاسيد التي يحدد محتواها المائي ألوان المعادن الناتجة عنها. كما أن الماء يقوم بدور ضروري في تحويل العديد من المعادن الأولية إلى معادن ثانوية ذات التراكيب الكيميائية والألوان العديدة، مثل المعدن الأولي المسمى يورانينيت ذي اللون الأسود الداكن، الذي يتحد بأيونات وكتيونات عديدة فينتج أكثر من مائة معدن ثانوي ذات ألوان جميلة.

كما تذوب عناصر مثل الحديد والمنجنيز في الماء، ويعاد توزيعها على أسطح الحبيبات والبللورات، ومن ثم تصطبغ هذه الحبيبات والبللورات بألوان حمراء أو بنية أو بنفسجية أو غيرها من الألوان. وتحدث في المناطق غزيرة الأمطار عمليات التجوية الكيميائية حيث يغسل الماء المعادن، فتتبقى منها رواسب مثل الهيروكسيدات والسيليكات المتميهة والكاولين والبوكسيت (الألومنيوم الخام) والحديد والنيكل.

وأما دور الماء في تغيير ألوان الصخور (ومن ثم ألوان الجبال) عن طريق تدخله في عمليات الترسيب، فهو دور واضح جدًّا؛ إذ تتبلور المعادن نتيجة التبخر، فتصطبغ بألوان معينة ويتوقف هذا على محتواها المائي (مثل الإنهيدريت والجيبسوم)، وتتكون رسوبيات غروية في أثناء فعل عمليات التجوية، وتجري في الماء وتتجدد بأيونات معينة، وكذلك يتكون الكثير من المواد اللاصقة التي تربط فيما بين الحبيبات المنقولة إلى أحواض الترسيب، فتكسب الصخور ألوانًا مميزة، ومن هذه الصخور: الحجر الرملي الحديدي..

الجبال.. اختلاف في الألوان وثراء في الصنعة !! أ. د. كارم السيد غنيم أستاذ بكلية العلوم جامعة الأزهر موقع إسلام أون لاين أضيف بتاريخ ٩/ ١١/ ٢٠٠٠

ويقول الدكتور زغلول النجار : « أثبتت دراسات علم الصخور أن العامل الرئيسي في تصنيف =

أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة بالعظيم الجليل

= الصخور النارية هو تركيبها الكيميائي والمعدني والذي ينعكس انعكاسا واضحا علي ألوانها، وتقسم الصخور النارية علي أساس من تركيبها الكيميائي والمعدني إلى المجموعات الرئيسية الثلاث التالية:

(١) صخور حامضية وفوق حامضية وتشمل عائلة الجرانيت التي تتكون أساسا من معادن المرو (الأبيض) والفلسبار البوتاسي (المقارب إلي الحمرة) والبايوتايت (الذي يتراوح بين اللونين الأصفر والبني المائل إلي الحمرة أو العسلي).

(٢) صخور متوسطة وتشمل عائلة الدايورايت التي تتكون أساسا من قليل من المرو ومعادن البلاجيوكليز الكلسي والصودي والأمفيبول والتي تتراوح ألوانها بين الأبيض والأحمر والرمادي.

(٣) صخور قاعدية وفوق قاعدية وتشمل عائلتي الجابرو والبريدوتايت وتتميز بالألوان الداكنة التي تميل إلي السواد لوفرة معادن كل من الحديد والمغنيسيوم فيها من مثل معادن البيروكسين والأوليفين والبلاجيوكليز الكلسي. ومن ذلك يتضح بجلاء أن الجدد التي تتداخل في صخور الجبال هي في الأصل من الصخور النارية، وأن أفضل تصنيف لتلك الصخور هو التصنيف القائم علي أساس من تركيبها الكيميائي والمعدني والذي ينعكس علي ألوانها علي النحو التالي:

(١) صخور تتراوح ألوانها بين اللونين الأبيض والأحمر وهي الصخور الحامضية وفوق الحامضية وتشمل عائلة الصخور الجرانيتية(الرايولايت ـ الجرانيت).

(٢) صخور تتراوح ألوانها بين اللونين الأبيض والأحمر من جهة والألوان الداكنة من جهة أخري، ولذا يغلب عليها الألوان الرمادية، وهي الصخور الموصوفة بالوسطية(بين الصخور الحامضية وفوق الحامضية من جهة، والصخور القاعدية وفوق القاعدية من جهة أخري) وتضم عائلة الصخور الدايورايتية (الانديزايت ـ ديورايت)، وتقع تحت الوصف القرآني: مختلف ألوانها..

(٣) صخور تميل ألوانها إلي الدكنة حتي السواد وهي الصخور القاعدية وفوق القاعدية، وتشمل عائلتي الجابرو(البازلت ـ الجابرو) والبريدوتايت. وهذا التصنيف لم يصل إليه العلماء إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين بعد مجاهدة استغرقت آلاف العلماء، وآلاف الساعات من البحث المضني، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليه في هذه الأية الكريمة بهذه الدقة البالغة التي تجمع الجدد البيضاء والحمراء في جهة، تعبيرا عن الصنف الاول من الصخور النارية(عائلة الجرانيت)، ثم تضيف هذه الإضافة المعجزة مختلف ألوانها لتعبر عن كل مراحل الانتقال في هذه المجموعة الحامضية وفوق الحامضية، ومنها إلي الصخور ذات التركيب الوسطي(مجموعة الصخور الدايوريتية)، وتخص المجموعة القاعدية وفوق القاعدية بهذا الوصف المبهر وغرابيب سود (مجموعة صخور الجابرو والبريدوتايت). =

العليم القدير أتمَّ وأعمق، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر.

« والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب. ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية. يعرفونه بآثار صنعته. ويدركونه بآثار قدرته. ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه. من ثم يخشونه حقاً ويتقونه حقاً، ويعبدونه حقاً. لا بالشعور الغامض الذي يجده القلب أمام روعة الكون. ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر.. وهذه الصفحات نموذج من الكتاب.. والألوان والأصباغ نموذج من بدائع التكوين الأخرى وبدائع التنسيق التي لا يدركها إلا العلماء بهذا الكتاب. العلماء به علماً واصلاً. علماً يستشعره القلب، ويتحرك به، ويرى به يد الله المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق في ذلك الكون الجميل.

إن عنصر الجمال يبدو مقصوداً قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه. ومن كمال هذا الجمال أن وظائف الأشياء تؤدى عن طريق جمالها، هذه الألوان العجيبة في الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التي تفوح، ووظيفة النحل والفراش بالقياس إلى الزهرة هي القيام بنقل اللقاح، لتنشأ الثمار. وهكذا تؤدي الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها!.. والجمال في الجنس هو الوسيلة لجذب الجنس الآخر إليه، لأداء الوظيفة التي يقوم بها الجنسان. وهكذا تتم الوظيفة عن طريق الجمال.

الجمال عنصر مقصود قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه. ومن ثم هذه اللفتات في كتاب الله المنزل إلى الجمال في كتاب الله المعروض»[(١)].

يقول العلامة الهندي الدكتور عناية الله المشرقي : كنت أدرس في كمبريدج. وذات يوم كانت السماء تمطر بغزارة، وكان صبيحةَ يوم الأحد سنة ١٩٠٩م فإذا بي أرى العالم الفلكي

= من أسرار القرآن – الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية (٣٤).. ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود بقلم :د. زغـلول النجـار اسم الرابط hp: //www. geociies. com /zaghloolalnajja /034. hml بتاريخ ٢٨/ ١١/ ١٤٢٢ هـ ١/ ٢/ ٢٠٠٢ م

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٤٣

المشهور «السير جيمس جينز» ذاهبا إلى الكنيسة والإنجيل والشمسية تحت إبطه.. فدنوتُ منه وسلمتُ عليه. فلم يرد عليَّ.. فسلمتُ مرةً أخرى فسألني : ماذا تريد مني ؟ فقلت له : أريد سؤالك عن شيئين :

الأول : لماذا لا تفتح مظلتك رغم نزول المطر ؟ فابتسم السير جينز وفتح المظلة.

والثاني : لماذا تذهب إلى الكنيسة وأنت عالمٌ كبيرٌ ذائعُ الصيت ؟ (١)

وهنا توقف العالم الكبير لحظة ثم قال لي : نلتقي معا في هذا المساء لنناقش هذه القضية.. وذهبت إليه في الموعد المحدد، فسألني على الفور : ماذا كان سؤالك لي في هذا الصباح ؟ ودون أن ينتظر مني جوابا، بدأ يتكلم عن الكون ونظامه الدقيق المدهش وعن الكواكب في السماء ونظامها العجيب المحكم... وعن المجرات وأبعادها اللامتناهية وطوفان أنوارها الباهرة.. و... نظرت إلى العالم الكبير فإذا به يبكي.. ويداه ترتعدان من خشية الله. ثم توقف فجأة. وبدأ يقول : عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ كياني يهتز من الجلال الإلهي. وعندما أركع أمام الله وأقولُ : إنك لعظيمٌ أحس بسعادةٍ تفوقُ كل سعادة..

فقلت له : لقد تأثرت كثيرا بما قلت : فهل تسمح لي بقراءة آية من آيات (القرآن) ؟

فأجاب المستر جينز : بكل سرور تفضل..

فقرأت عليه قوله سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر : ٢٧-٢٨]، وترجمت له معناها، وما كدت أتوقف حتى صرخ السير جينز قائلا: ماذا قلت ؟

---

(١) تعجب من ذهابه إلى الكنيسة في وقت انتشر فيه الإلحاد.

إنما يخشى الله من عباده العلماء. مدهش.. غريب.. عجيب جدا... من أنبأ محمدا بهذا ؟ هل هذه الآية في القرآن حقا ؟ لو كان كما تقول.. فاكتب شهادة عني أن القرآن وحي من عند الله.. لقد كان محمد أميا.. ولا يمكن أن يكشف هذا السر بنفسه.. ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر.. مدهش وغريب وعجيب جداً.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

صلة هاتين الآيتين بمحور السورة صلة واضحةٌ بيِّنة ؛ حيث تتجلى فيهما عظمة الخالق وجلاله وهيبته في قلوب العالِمين المدققين في آيات الكون، الوقَّافين على بدائعِ المخلوقات وعجائب الكائنات ودقائق الآيات ولطائف الأسرار، الذين يعشقون هذا الجمالَ الذي أبدعه الخالق وأودعه في جميع العوالِم المحيطة بنا في الآفاق وفي الأعماق وفي الثمرات اليانعة والجبال الشامخة، وفي الناس والدوابَ والأنعام وغير ذلك.

دعوةٌ إلى تذوق هذا الجمال واستحضار عظمة الخالق واستذكار جليل نعمه ودقائقها.

الهدايات المستنبطة

* الدعوة إلى النظر في الجمال الكوني وما يتمتع به من إبداع عجيب ونسق فريد وتمازجٍ دقيق في الألوان المختلفة، التي تشهد بعظمة الخالق جلَّ وعلا وبديع صنعه

* هذا الاختلاف والتنوع مما يدعو إلى العظة والاعتبار، فكذلك الناس يختلفون في ألوانهم وهيئاتهم وأجناسهم وألسنتهم ومشاربهم وطبائعهم اختلافا تتجلى فيه عظمةُ الخالق جلَّ وعلا وعجيب صنعه بما يدعو إلى هيبته تعالى وإجلاله ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ : أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة به أتمَّ والعلمُ به أكملُ، كانت الخشية له أعظم.

* فالتقوى والعلم متلازمان التقوى طريق العلم والعلم يقوي التقوى ويزيدها، قال نبينا

ﷺ (... أَنَا أَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمُكُمْ بِحُدُودِ اللَّهِ)[١]. وقال مسروق كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً، وقال رجل للشعبي أفتني أيها العالم فقال الشعبي: إنما العالم من يخشى الله عز وجل، وقال مقاتل: أشد الناس خشية لله أعلمهم به، وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم[٢].

* على المؤمن أن يجتهد في تحصيل العلم بالله حتى يرتقي إلى أعلى مقامات الخشية وينتفع بثمراتها ؛ فبقدر مراتب العلم تكون مراتب الخشية وتتحقق ثمارُها المرجوة.

-٦-

نعمةُ القرآنِ ومصير المؤمنين

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فاطر : ٢٩-٣٥]

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب قول النبي ﷺ(أنا أعلمكم بالله)، وأن المعرفة فعل القلب حديث ٢٠، ورواه الإمام مالك في الموطأ باب ما جاء في الرخصة في القبلة للصائم موطأ مالك برواية يحي الليثي ١/ ٢٩١ - حديث ٦٤١ وبرواية محمد بن الحسن ٢/ ١٦٥ حديث ٣٥١، ورواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ٥/ ٤٣٤

(٢) يراجع لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٥/ ٢٤٧.

المناسبة

بعد الحديث عن كتاب الله المنظور : جاء الحديث عن كتابه المسطور، فكما دعت السورة إلى التأمل في هذا الكون والنظر في شواهده وآياته، كذلك رغبت في تلاوة القرآن وتدبره والعمل به.

التفسير الإجمالي

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ أي يداومون على قراءته حتى صارت سمةً لهم كما يشعر به التعبير بالفعل المضارع.

﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ جمعوا بين التلاوة والتدبر والعمل، وإقامة الصلاة والإنفاق في وجوه الخير برهان عمليٌّ على اتباع القرآن والانتفاع بهديه.

﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾: فدلَّ هذا على سلامةِ القصد وصدقِ التوجُّه وإخلاص النية مع إتقان العمل، فهم يبتغون الأجر والمثوبة من الله تعالى ويجدُّون في ذلك فتجارتهم رابحةٌ وسعيهم مشكورٌ.

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾: يبتغون الأجر من الله والزيادة من فضله والله تعالى يحققُ لهم ما يبتغون، ويبلغهم ما يرتجون، فهو تعالى غفور يغفر لهم الذنوب والتقصير، شكور يشكر سعيهم فيثيبهم الثواب الجزيل على العمل اليسير.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

فهذا الكتاب وحيٌ من الله تعالى، وهو الحقُّ كما شهدت بذلك الآيات والدلائل وهو المصدق لما بين يديه.

أشرف ميراث

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ : أورث الله تعالى أعظم كتبه لِخِيرَةِ خيرِ أممه ممن اختارهم لحمل هذه الأمانة، ثم جعل الله هؤلاء القراء على ثلاث مراتب : فمنهم ظالم لنفسه بلغ حد التقصير وخلط الصالحات بالسيئات، ومنهم مقتصدٌ يكتفِي بتركِ المحرمات وفعل الواجبات، ومنهم سابق بالخيرات، وهم أصحابُ الهمم العالية والنفوس المطمئنة والأرواح الوثَّابة إلى كلِّ فضيلةٍ، فذلك هو الفضل الكبير والشرف العظيم.

عَنِ ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنه قَالَ: فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾: « هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَّثَهُمُ اللهُ كُلَّ كِتَابٍ أُنْزِلَ، فَظَالِمُهُمْ مَغْفُورٌ لَهُ، وَمُقْتَصِدُهُمْ يُحَاسَبُ حُسَابًا يَسِيرًا، وَسَابِقُهُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ» [(١)].

وعن محمد بن الحنفية رحمه الله قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له، والمقتصد في الجنات عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله. [(٢)].

وقال ابن كثير: «﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات.﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات»[(٣)].

« وإنما قدم الظالمين للإيذان بكثرتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون

---

(١) جامع البيان للطبري ٢٠ / ٤٦٥، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣١٨١ - برقم ١٧٩٨٥ ولباب التأويل للخازن ٥/ ٢٤٩

(٢) جامع البيان للطبري ٢٠ / ٤٦٥، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣١٨٢ - برقم ١٧٩٩٢ ولباب التأويل للخازن ٥/ ٢٤٩

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦ / ٥٤٦

أقل من القليل، وقال ابن عطاء : إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله، وقيل : إنما قدمه ليعرّفه أن ذنبه لا يبعده من ربه»[(١)].

ونظير هذا قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾[التوبة: ١٠٠-١٠٦].

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ يعني الأصناف الثلاثة الظالم لنفسه المقصر في بعض الواجبات المرتكب لبعض المحظورات، وكذلك المقتصد الذي يقتصر على ترك المحرمات وفعل الواجبات دون أن يجتهد في النوافل ويتنافس في الخيرات، وأما السابق إلى الخيرات فهو في أعلى المراتب بعلو همته وسموِّ روحه وصفاء قلبه واجتهاده في الطاعة وتقربه بالنوافل.

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ وقدم الحلية لأنها أحبُّ إلى النفس والشوق إليها أبلغُ، وقد كان الذهب محرما على الرجال في الدنيا وكذلك الحرير وقد أحله الله لهم وحلاهم بالأساور الذهبية وألبسهم الحرير بألوانه الزاهية وملمسه الناعم كرامةً لهم وتفضلا عليهم.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

(١) مدارك التنزيل للنسفي ٣/ ٣٣٩



فالجنة دار النعيم وأهلها في أفراحٍ متواصلة وسرورٍ دائم، وقد نسوا ما مرَّ بهم في الدنيا من خوف وحزن وهم وغم وشقاء وحِرمان، كما في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ، يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ).[(١)]

وأهل الجنة في استحضارٍ دائم لتلك النعم الربانية نعمة النجاة والفوز بالنعيم المقيم ونيل الفوز الكبير بالعمل اليسير ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾يغفر الزلات فينساها المُنَعَّمُ في الجنان حتى لا تكدِّر عليه صفو عيشه، وهو تعالى الشكور يثيب على القليل بالثواب الجزيل.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

فالجنة من أجلِّ النعم التي ينالها العباد بفضل الله تعالى وبرحمته : كما في الصحيحين : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ ؛ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا)[(٢)].

﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ فلا شقاء فيها ولا عناء ولا تعب ولا نصب لأنها دار الجزاء لا دار عملٍ، فهي دار الراحة والاسترواح، ودار النعيم في ضيافةِ الكريم.

والنصب التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له، وأما اللغوب فما يلحقه

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيح كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤساً في الجنة. حديث ٥٥ – (٢٨٠٧)، ورواه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٢٠٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب: القصد والمداومة على العمل حديث ٦٠٩٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار. باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة اللهِ تعالى. حديث ٧١ – (٢٨١٦).

من الإجهاد أو الإعياء أو الفتور الناتج عن النصب، فالنصب نفس المشقة والكلفة، واللغوب : نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة[١].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

إذا كان الكونُ شاهدا على عظمة الخالقِ وبديعِ صنعه، داعيا إلى شكره تعالى على نعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى، فإن كتابَ الله تعالى من أجلِّ النعم وأعظم الشواهد الناطقة بكمال قدرته وإحاطة علمه وشمول رحمته وتمام نعمته، قد منّ الله تعالى على من اصطفاه ليكون من ورثة هذا الخير ووعدهم بالجنات التي تتفاوت فيها الدرجات بتفاوت المقامات والأحوال والأعمال في الدنيا، والكلُّ فيها منعَّمٌ مسرورٌ، قد دخلوها برحمة الله وفضله ولطفه وإنعامه، فهي دار الخلد والمقامة والنعمة والكرامة، لا تعب فيها ولا نصب.

الهدايات المستنبطة

* الدعوةُ إلى التأمل والنظر في كتاب الله المنظور وكتابه المسطور للوقوف على شواهد العظمة وآيات الحكمة ودلائل القدرة.
* الحثُّ على تلاوة القرآن وتدبر معانيه، والنظر في مقاصده وأحكامه وعبره وعظاته مع التمسك بهديه والتخلق بأخلاقه.
* أورث الله تعالى أعظم كتبه لمن اصطفاه واختارهم لحمل هذه الأمانة ونيل هذه المكانة
* القراء على ثلاث مراتب : فمنهم ظالم لنفسه قد بلغ حد التقصير وخلط الصالحات بالسيئات، ومنهم المقتصد الذي يكتفي بترك المحرمات وفعل الواجبات، ومنهم السابق بالخيرات، وهم أصحاب الهمم العالية والنفوس الزاكية والأرواح الوثَّابة إلى كلِّ فضيلةٍ.

---

(١) يراجع الكشاف عن حقائق التنزيل للزمخشري ٥ / ٤٢٠

* الجنة دار نعيم مقيم وأهلها في فرحٍ وحبور ولذةٍ وسرور، وأنسٍ وبهجةٍ، لا شقاء فيها ولا عناء ولا تعب ولا نصب، فهي دار الجزاء لا دار عملٍ، دار الراحة والاسترواح، ودار النعيم في ضيافةِ الكريمِ.

-٧-

مصير الكافرين

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[فاطر : ٣٦-٣٧]

المناسبة

بعد ذكر حال السعداء من ورثة كتاب الله تعالى التالين له العاملين به، ذكر حال أهل الشقاء من الكفرة المعاندين المعرضين.

التفسير الإجمالي

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ ﴾ هذا مصيرهم المحتوم وجزاؤهم المعلوم ونصيبهم المقسوم، فلا يخرجون منها ولا يموتون فيستريحون، ولا يخفف عنهم من عذابها فيستروحون.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾: جزاءٌ عادلٌ لكل من أصرَّ على الكفر ومات عليه، وأعرض عن الحق وصدف عنه.

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ ﴾

يجأرون ويستغيثون ألما وحسرة وندما وحرقةً، فيطلبون الرجوع إلى دار العمل ليستدركوا ما فاتهم ويصلحوا ما أفسدوه في حياتهم الأولى، وأنى لهم ذلك وقد أمهلهم الله تعالى وأمدَّ لهم في العمر فما استكانوا لربهم ولا رجعوا إليه، بل كذبوا بالنذر وأعرضوا عنها.

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ وهذا وإن كان يشمل كلَّ عُمُرٍ تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وتغيير مساره، إلا أن ذنب من طال عمرُه أقبح وجرمه أعظم.[١]

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً)[٢] وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ (أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ ؟ قَالَ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، قَالَ فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ ؟ قَالَ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ).[٣]

﴿ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

ذوقوا العذاب الذي كنتم تستعجلونه استبعادا وتحديًا وتعجيزا، ذوقوا العذاب بعد ما حيل بينكم وبين ما تشتهونه في الدنيا من متع وملذات، فهو اليوم طعامكم وشرابكم ومهادكم وغطاؤكم، فلا ناصر لكم.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

كما أن مصير السعداء فضل من الله ونعمة وعدلٌ ورحمةٌ، فكذلك مصير الأشقياء نعمة تستوجب الحمدَ على أن قطع الله دابرهم وأراح المؤمنين من شرورهم، والمؤمن يحمد الله تعالى

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣/ ٣٤١

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق بَاب مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ لِقَوْلِهِ: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ حديث ٦٠٥٦

(٣) رواه الترمذي في السنن وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن بسر بسند صحيح المسند ٤/ ١٨٨، ١٨٨ وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ وإسناده حسن المسند ٥/ ٤٧، ٤٨.

على النجاةِ والعافية، كما يحمده على الفوز والرضوان، وفي التأملِ في مصيرِ الكفارِ استحضارٌ لعظمة الله تعالى وهيبةٌ وإجلالٌ لمقامه تعالى.

الهدايات المستنبطة

* الترهيب من النار ومن عذابها وشقاء أهلها، فلا يموتون فيستريحون ولا يخفف عنهم العذاب فيستروحون.
* في التأمل في مصير الكفار استحضارٌ لعظمة الله تعالى وهيبةٌ وإجلالٌ لمقامه تعالى، وفيه تسليةٌ لأهل الإيمان.
* يُجمع للكفارِ بين العذاب الحسيِّ والمعنويِّ، زيادةً في إيلامهم، وتنكيلا بهم.

-٨-

من دلائل العظمة وشواهد القدرة

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾[فاطر : ٣٨-٤١]

المناسبة

بعد بيان مصير أهل الإيمان وعاقبة أهل الكفر والعصيان بيَّن تعالى إحاطة علمه بعالم الغيب فضلا عن عالم الشهادة، وشموله لعلم كلِّ ما استكنَّ واستتر فضلا عما بدا وظهر، وإنعامه على بني آدم بنعمة الاستخلاف، ووعيده للكفرة بزيادة المقت والخسران بقدر زيادة

الكفر، ثم نفى شُبَهَ المشركين ودحض حججهم الواهية، وجلّى من شواهد قدرته وعظمته ووجوه لطفه وتمام نعمته : إمساكه السموات والأرض أن تزولا.

التفسير الإجمالي

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ يعلم كل ما غاب واستتر فكيف علمه بما تجلّى وظهر، فضلا عن علمه بما يدور في الصدور، وما تكنُّه القلوب فيحاسب العباد على ما أظهروه وما أضمروه، ويثيب أهل الإيمان ويعاقب أهل الكفر والعصيان.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾

فكان الأولى القيام بواجبات هذه الخلافة والوفاء بحقوقها، فهي تشريف وتكليفٌ، وابتلاءٌ يعقبه جزاءٌ، والله تعالى لا تنفعه طاعة الطائعين كما لا يضرُّه كفرُ الكافرين، بل الكافر هو من يتضررُ بكفره وينال جزاء عناده واستكباره وجحوده وإعراضه، ولا يزداد بكفره إلا مقتاً وبعداً وبغضاً من الله تعالى على هذه الجريمة النكراء، ولا يحظى إلا بالخسارة في الدارين لِقَاءَ بقائِهِ على الكفر مع تسلسل الحجج وجلاء البراهين.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

بعد أن شهدت آيات الكون بعظمة الخالق عز وجل ونطقت بوحدانيته، فلماذا يصرُّ المشركون على شركهم ؟ وقد ظهر لهم أن الخالق الرازق هو الله وحده ؟ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ؟

وقد تقرر أنهم لم يخلقوا شيئا ولم يملكوا مثقال ذرةٍ فلماذا يصر المشركون على شركهم وما حجتهم أمام الواحد الأحد ؟ حين يقفوا بين يديه ويستيقنوا من أنهم كانوا على ضلال

بيِّن، وسرابٍ خادع، متعلِّقين بالأماني الكاذبةِ والمعاذيرِ الواهيةِ والشبه الباطلة ﴿ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾

من شواهد العظمة ودلائل القدرة أنه تعالى هو المدبر لهذا الكون المصرف لأموره وفق تقدير عجيب وترتيب محكم، وأنه تعالى يمسك السموات والأرض ولولا ذلك لزالتا، وهل يستطيع أحدٌ سواه أن يقوم بهذا الأمر الجليل ؟ ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾، فيا لحلمه تعالى بعباده وإمهاله لهم ولو شاء لأطبق السماء على الأرض وعجَّل بهلاك كل مذنب ومقصر ولكنه تعالى حليم بهم غافر لذنوب من قصده ورجاه وتاب إليه وطرق بابه.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

هذه الآيات الكريمة ناطقةٌ بعظمة الخالق جل وعلا ودالةٌ على تمام عدله وشمولِ رحمته وشاهدةٌ بكمال قدرته وتفرده بالوحدانية، وفيها وعيدٌ للكافرين بما يستحقونه من مقت وخسرانٍ بقدر كفرهم، ودحضُ شبهِ أهل الشرك، ومن دلائل العظمة ولطائف النعم إمساكُ السموات والأرض وحفظُهما فلا يقدر على ذلك إلا الله.

الهدايات المستنبطة

* إحاطة علمه تعالى بكل ما غاب واستتر، فضلا عما تجلَّى وظهر، فهو عالم الغيب والشهادة وهو العليم بما يدور في الصدور وما تكنُّه القلوب، وفي هذا ما يدعو إلى الخشية والإجلال والإحسان في سائر الأعمال.
* من نعمه تعالى على البشرية وتكريمه لهم أن استخلفهم في الأرض فعليهم القيام بواجبات هذه المهمة الجليلة ومقتضيات هذه المسئولية العظيمة.
* الله تعالى غنيٌّ عن العالمين، لا تنفعُه طاعةُ الطائعين، ولا يضرُّه كفرُ الكافرين.

* التحذير من جريمة الكفر وسوء عاقبته، فالكافرُ لا يزداد بكفره عند ربه إلا مقتا وبعدا، ولا يحظى إلا بالخسارة في الدارين.

* من شواهد العظمة ودلائل القدرةِ ولطائف النعمة : أنه تعالى هو المدبر لهذا الكون المصرف لأموره وفق تقدير عجيب وترتيب محكم.

-٩-

من أسباب الصدود

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر : ٤٢، ٤٣].

المناسبة

هذه الآياتُ متصلة بما سبقها من حوار الكافرين ودحض شبههم وبيان أسباب صدودهم ونفورهم من دعوة الحق، ووعيدهم بما أصاب من سبقهم من المكذبين، فتلك سنة الله تعالى في الأولين لا تبديل لها ولا تحويل، وهذا من تمام عدله تعالى ودلائل قدرته وشواهد عظمته، وفي إهلاك المكذبين نجاةٌ للمؤمنين ونصرٌ لهم وتلك نعمةٌ جليلةٌ.

التفسير الإجمالي

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾

أقسموا بالله إن جاءهم نذير ليؤمنن به ولينصرنه، فيتسابقون إلى الهداية والرشاد، فلما جاءهم النذير ما زادهم إلا نفورا، وكان أولى بهم أن يشكروا الله على هذه المنَّة، لكنهم بالغوا

في النفور من هذه الدعوة واستكبروا عنها ومكروا بخبث ودهاء لإمامها ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ ﴾ : فماذا ينتظرون بعد ذلك ؟ وقد أنكروا النعمة وردُّوا الهدية واحتالوا لإمام الهدى وكادوا له ولمن آمن به، ماذا ينتظرون إلا عاقبة كفرهم وتكذيبهم، وسنةَ الله فيمن سبقهم على طريق الجحود والإعراض ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ ﴾سنة الله في المكذبين أن يعاقبهم بعذاب عاجلٍ مع ما ينتظرهم من العذاب الآجل وتلك سنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل وحكمٌ فاصلٌ عادلٌ ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾.

أما كان الأولى بكفار قريشٍ أن يحتفوا بهذا النبي العربي وأن يناصروه ويعزِّروه، وقد جاءهم بأعظم الكتب وأتمِّ الشرائعِ وأقوم المناهج التي ترقى بهم إلى قيادة الأمم ؟

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢].

﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[الأنعام: ١٥٥ – ١٥٧].

فما حجتهم وقد جعل الله فيهم خير الدعوات وآخرها، وبعث فيهم خير الرسل وخاتمهم؟

لقد كفروا بهذه النعمة المسداة، والرحمة المهداة، شأنهم شأن اليهود كانوا يستفتحون بالنبي الخاتم ﷺ فلما جاءهم وعرفوه كفروا به وجحدوه قال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة: ٨٩].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

بينت الآيات موقف الكفار من هذه النعمة المهداة نعمة النبي العربيِّ ﷺ الذي منَّ الله عليهم به لكنهم أعرضوا عن نعمة الله وأنكروها استكبارا منهم واحتيالا على دعوة الحق ومكرا بأهلها، وغفلةً عن سنن الله الثابتة.

الهدايات المستنبطة

* من أسباب الصدود والإعراض ومظاهره : التخاذل عن نصرة الحق والاستكبار في الأرض، والكيد لهذا الدين.
* المكرُ السيئ يحيط بأهله فيهلكهم، فترتدُّ إليهم عاقبته وتدورُ الدائرةُ عليهم، ومن مكر الله بهم استدراجهم وسوء خاتمتهم.
* التأمل والنظر في سنن الله تعالى والوقوف على سماتها وأبعادها وآثارها، فهي سننٌ ثابتةٌ لا تتغير ولا تتبدل، وهي سننٌ عادلةٌ، ومن هذه السنن إهلاك المكذبين.

خاتمة السورة

دعوةٌ للسير والنظر

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾ [فاطر : ٤٤، ٤٥].

المناسبة

لما توعدهم بسنته تعالى في الأولين دعا إلى السير للاعتبار بآثارهم والوقوف على أخبارهم

وبين سبحانه أنه يمهلهم استدراجا لهم ومكرا بهم، فإذا حان الأجل، وحُمَّ الأمرُ فإن الله بصيرٌ بهم محيطٌ بأعمالهم فيجزيهم عليها.

التفسير الإجمالي

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾

تختم السورة الكريمة بهذه الدعوة إلى السير والنظر في آثار الأمم الغابرة وحضاراتهم الآفلةِ، كيف ازدهرت وارتقت ثم تلاشت واضمحلت، وكيف تحولت هذه الأمم من القوة إلى الضعف، ومن الأمن إلى الخوف، ومن الوحدة إلى الفرقة والشتات، ومن العزة إلى المذلة والهوان، فهل من معتبرٍ وهل من مدَّكر !

أنشدَ قُسُّ بنُ ساعدة الإيادي :

في الـذّاهـبـين الأوَلـين ... مِـنَ الـقُـرون لنا بَـصَـائـرْ
لمـا رأيـتُ مـوارداً ... لِـلـمَـوْتِ ليس لها مَـصَـادرْ
ورأيـتُ قَـومـي نَـحْـوَهَـا ... يَـمْـضِي الأصـاغـر والأكـابـرْ
لا يَـرْجِـع المـاضي إليَّ ... ولا مـن الـبـاقـين غـابـرْ
أَيْـقَـنْـتُ أنّي لا مَحَـالـةَ ... حَـيـث صـار الـقَـوْمُ صائر

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ هل أغنت عنهم حصونهم المنيعة وبروجهم المشيدة وجيوشهم الجرَّارة ؟ كلا واللهِ الذي لا يعجزه شيء، فهو تعالى العليم لا تخفى عليه خافيةٌ ولا تغيب عن علمه غائبة، القديرُ على إلحاق العذاب بمن خالفه وعصاه. ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾

حلمه تعالى ولطفه بخلقه

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن

﴿ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾

ومن لطفه تعالى وحلمه ورحمته بعباده أنه لا يعجل لهم العقوبة بل يمهلهم ويؤخرهم لعلهم يتوبون ويرجعون، ولو عجَّل المؤاخذة وأعقب كل ذنب بعقوبة عاجلة وبادر العصاة بحربٍ شاملةٍ لما بقي على ظهر الأرض من دابة، ولكن يمهل ويؤخر إلى أجلٍ قد قدّره فإما أن يجمع لهم بين عذاب الدنيا والآخرة وإما أن يدّخر لهم العذاب ليكون أشدَّ وأعظمَ نكايةً.

يقول صاحب الظلال: «إن تتابع الأجيال في الأرض، وذهاب جيل ومجيء جيل، ووراثة هذا لذاك، وانتهاء دولة وقيام دولة، وانطفاء شعلة واتقاد شعلة، وهذا الدثور والظهور المتواليان على مر الدهور.. إن التفكير في هذه الحركة الدائبة خليق أن يجد للقلب عبرة وعظة، وأن يشعر الحاضرين أنهم سيكونون بعد حين غابرين، يتأمل الآتون بعدهم آثارهم ويتذاكرون أخبارهم، كما هم يتأملون آثار من كانوا قبلهم ويتذاكرون أخبارهم، وجدير بأن يوقظ الغافلين إلى اليد التي تدير الأعمار، وتقلب الصولجان، وتديل الدول، وتورث الملك، وتجعل من الجيل خليفة لجيل، وكل شيء يمضي وينتهي ويزول، والله وحده هو الباقي الدائم الذي لا يزول ولا يحول.

ومن كان شأنه أن ينتهي ويمضي، فلا يخلد ولا يبقى، من كان شأنه أنه سائح في رحلة ذات أجل؛ وأن يعقبه من بعده ليرى ماذا ترك وماذا عمل، وأن يصير في النهاية إلى من يحاسبه على ما قال وما فعل، من كان هذا شأنه جدير بأن يحسن ثواءه القليل، ويترك وراءه الذكر الجميل، ويقدم بين يديه ما ينفعه في مثواه الأخير[1].

المناسبة بين خاتمة السورة ومحورها

السير في الأرض من أجلِّ العبر وأبلغ النُّذُر، فالأرضُ حافلةٌ بشواهد العظمة وآيات القدرة، ناطقةٌ بمصير الأمم السابقةِ، واعيةٌ لتاريخهم، حافظةٌ لآثارهم، وهذه النُّذُرُ من أجلِّ النعم؛ لأنها تهزُّ الوجدانَ وتقيمُ الحجةَ والبرهانَ.

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٧.



الهدايات المستنبطة

* الدعوة إلى السير والنظر في أحوال السابقين وآثارهم سيرَ تأملٍ ونظرة اعتبارٍ
* قدرة الله تعالى التي لا تحدُّها حدودٌ، وحكمته تعالى في إمهال الكافرين واستدراجهم وحلمه ولطفه في إمهال العصاة وإعذارهم.

سورة يس

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

سُميت سورة يس بهذا الاسم لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم .

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواهُ الإمام أحمد وغيره، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ) [1].

ومما ورد في فضل سورة يس على وجه الخصوص: ما أخرجه ابن حبان، عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غُفِرَ له». [2]

ومما هو جدير بالذكر أن سورة يس قد ورد في فضلها أحاديثُ كثيرة، لكنها إما ضعيفة أو موضوعة، ونشير إليها فيما يلي للعلم والحذر:

---

(١) الحديث أخرجه أبو داوود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/ ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى، ص: ٢٢٤.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ك: الصلاة، ب: قيام الليل، مبحث: استحباب قراءة يس للمتهجد في كل ليلة رجاء مغفرة الله ما قدم من ذنوبه بها ٠ الإحسان) ٦/ ٣١٢ رقم ٢٥٧٤. عن جندب - ﷺ. والحديث صحيح. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى ص: ٢٩٤.

- (إن الله تبارك وتعالى قرأ ﴿ طه ﴾ و﴿ يس ﴾ قبل أن يخلق آدم بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأمة ينزل هذا عليهم، وطوبى لألسن تتكلم بهذا، وطوبى لأجوف تحمل هذا) وهذا الحديث ضعيف.[1]
- (من دخل المقابر فقرأ سورة ﴿ يس ﴾ خفف عنهم يومئذ، وكان له بعدد من فيها حسنات) وهذا الحديث موضوع.[2]
- (إن لكل شيء قلبا، وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس؛ كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات) وهذا الحديث موضوع.[3]
- (من قرأ ﴿ يس ﴾ ابتغاء وجه الله، غُفر الله له ما تقدم من ذنبه، فاقرؤوها عند موتاكم) وهذا الحديث ضعيف.[4]
- (من قرأ ﴿ يس ﴾ في صدر النهار؛ قضيت حوائجه) وهذا الحديث ضعيف.[5]

ج - مكية السورة:

سورة يس مكية، ماعدا الآية «٤٥» فمدنية، وترتيبها في المصحف الشريف السادسة والثلاثون (٣٦). نزلت بعد سورة الجن. من الجزء «٢٣» والحزب «٤٥».

عدد آيات السورة. عدد آياتها ٨٣[6].

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة ١٢٤٨.
(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة ١٢٤٦.
(٣) ضعيف الترغيب والترهيب ٨٨٥.
(٤) ضعيف الجامع الصغير ٥٧٨٥.
(٥) ضعيف مشكاة المصابيح ٢١١٨.
(٦) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ١٨٥.

محور السورة:

تناولت سورة يس ثلاثة مواضيع أساسية هي:

- الإيمان بالبعث والنشور والجزاء.
- قصة أهل القرية.
- الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.

والمحور الأساس الذي تدور عليه السورة الكريمة: إثبات البعث والجزاء، وإقامة الأدلة والبراهين على ذلك.

المناسبات في السورة الكريمة:

١. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع سورة يس وخاتمتها واضحة؛ ففي بداية السورة جاء الحديث عن استحقاق الكافرين العذاب، لعنادهم، وختْم الله على قلوبهم.﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

وفي نهاية السورة نموذج لواحد من هؤلاء المعاندين الجاحدين، ختم الله على قلبه، وأعمى بصيرته؛ فجاء يجادل النبي ﷺ في قضية البعث ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة يس وخاتمة السورة التي قبلها (فاطر) ففي نهاية سورة فاطر جاء الحديث عن قدرة الله تعالى المطلقة:﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤]. وجاء في أول سورة (يس) إشارة إلى

بعض مظاهر هذه القدرة المطلقة، مثل قدرته تعالى على إحياء الموتى، وإحصاء الأعمال وتدوينها على العباد بكل دقة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

٣. المناسبة بين مضمون سورة (يس) ومضمون السورة التي قبلها (فاطر).

هناك ارتباط بين مضمون سورة (يس) والسورة التي قبلها (فاطر)، وذلك في مواضع عديدة منها ما يلي:

* في السورتين حديث عن عداوة الشيطان للإنسان: ففي سورة فاطر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر: ٥-٦]. وفي سورة يس: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.
* في السورتين حديث عن آيات الله تعالى في الكون والآفاق: ففي سورة فاطر: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

وفي سورة يس: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ

(٣٣) ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) ﴾.

* في السورتين مقارنة بين حال المؤمنين وحال الكافرين: ففي فاطر: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾.

وفي سورة يس: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٩) ﴾.

* في السورتين حديث عن قدرة الله تعالى؛ ففي سورة فاطر: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) ﴾ وفي سورة يس: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾.

ومن أوجه الارتباط بين سورتي فاطر ويس ما أورده السيوطي - رحمه الله - حيث قال:

« لما ذكر – جل شأنه في سورة فاطر قوله : ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أعرضوا عنه وكذبوه، فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته وأنه على صراط مستقيم، لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم وهذا وجه بين.

وفي فاطر : ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ وفي يس ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ وذلك أبسط وأوضح.

وفي فاطر : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ وفي يس: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ فزاد القصة بسطاً. »[1]

(١) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي ١/ ١٦.

التفسير الموضوعي للسورة الكريمة

القَسَم بالقرآن الكريم، وحال النبي ﷺ مع قومه

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾:

عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سَلِمة في ناحية المدينة، فأرادوا النُّقْلَة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه:﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن آثاركم تُكْتبُ، فلا تنتقلوا». [(١)]

التفسير الإجمالي

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بـ﴿ يسٓ ﴾ والقرآن الحكيم على صحة الوحي، وصدق رسالة محمد ﷺ. و﴿ يسٓ ﴾ حرفان من الحروف المقطعة، ذكرت في أوائل بعض السور للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها. [(٢)]

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ٣٦٣ رقم الحديث: ٣٢٢٦. وقال: حسن غريب. وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الترمذي ٣/ ٩٧.

(٢) حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين. وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا. وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. يراجع: تفسير ابن كثير ١ / ٣٩، ومفاتيح الغيب ١ / ١٢٧، والكشاف ١ / ١٣.

وقد أقسم الله تعالى هنا بهذا الكتاب المحكم، المعجز في نظمه، وبديع معانيه، المتقن في تشريعه وأحكامه، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة، على أن محمداً ﷺ رسوله. وفي هذا القسم من التعظيم والتفخيم لشأن الرسول ﷺ ما فيه.

أي وحق هذا القرآن الحكيم، إنك أيها الرسول الكريم – لمن عبادنا الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا، وتبليغ دعوتنا إلى الناس، لكى يخلصوا العبادة لنا، ولا يشركوا معنا فى ذلك غيرنا.

وجاء هذا الجواب مشتملا على أكثر من مؤكد، للرد على أولئك المشركين الذين استنكروا رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا فى شأنه: « لست مرسلا». [(١)]

والتعبير على هذا النحو يوحي بأن إرسال الرسل أمر مقرر، له سوابق مقررة. فليس هو الذي يراد إثباته. إنما المراد أن يثبت هو أن محمداً ﷺ من هؤلاء المرسلين. ويخاطبه هو بهذا القسم – ولا يوجهه إلى المنكرين المكذبين – ترفعاً بالقسم وبالرسول وبالرسالة عن أن تكون موضع جدل أو مناقشة. إنما هو الإخبار المباشر من الله للرسول [(٢)].

وكما أنك أيها نبي من المرسلين، فإنك كذلك على طريق ونهج مستقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج، هو الإِسلام دين الرسل قبلك، الذين جاءوا بالإِيمان والتوحيد، قال الطبري: أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى، وهو الإِسلام كما قال قتادة، والتنكير للتفخيم والتعظيم.[(٣)]

ومن اختار هذا الرأي الأخير وانتصر له، من المفسرين المعاصرين: صاحب الظلال، حيث يقول رحمه الله: « هذه الأحرف إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه – مع هذا – هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جوابا !» فى ظلال القرآن ١ / ٣٨ بتصرف يسير.

(١) يراجع: تفسير القرطبي ١٥ / ٥.، التفسير الوسيط، لسيد طنطاوي ١/ ٣٥٢٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٥٨.

(٣) تفسير الطبري ٢٢ / ٩٧.

وهذا بيان لطبيعة الرسالة بعد بيان حقيقة الرسول. وطبيعة هذه الرسالة الاستقامة، فهي قائمة كحد السيف، لا عوج فيها ولا انحراف، ولا التواء فيها ولا ميل. الحق فيها واضح، لا غموض فيه ولا التباس. ولا يميل مع هوى، ولا ينحرف مع مصلحة. يجده من يطلبه في يسر وفي دقة. [١]

هذا القرآن الهادي المنير، تنزيلٌ من ربّ العزة جل وعلا، العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه لتُحَذِّرَ يا محمد بهذا القرآن العرب، الذين ما جاءهم رسولٌ ولا كتاب، لتطاول زمن الفترة عليهم، فهم بسبب ذلك غافلون عن الهدى والإِيمان، يتخبطون في ظلمات الشرك وعبادة الأوثان..

« والغفلة أشد ما يفسد القلوب. فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته. معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة. تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها. ودون أن ينبض أو يستقبل. ومن ثم كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم الذين مضت الأجيال دون أن ينذرهم منذر، أو ينبههم منبه. فهم من ذرية إسماعيل ولم يكن لهم بعده من رسول. فالإنذار قد يوقظ الغافلين المستغرقين في الغفلة، الذين لم يأتهم ولم يأت آباءهم نذير. » [٢]

ثم بيَّن تعالى استحقاقهم للعذاب بإِصرارهم على الكفر والتكذيب فبين أن عذاب النار قد وجب على أكثر هؤلاء المشركين، بسبب إصرارهم على الكفر والإِنكار، وعدم تأثرهم بالتذكير والإِنذار، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئتهم به يا محمد..

لقد قُضي في أمرهم، وحق قدرُ الله على أكثرهم، بما علمه من حقيقتهم، وطبيعة مشاعرهم. فهم لا يؤمنون. وهذا هو المصير الأخير للأكثرين. فإن نفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعارها.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٥٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٥٩.

وهنا يرسم مشهداً حسياً لهذه الحالة النفسية، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسراً عن النظر، محال بينهم وبين الهدى والإيمان بالحواجز والسدود، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون:

إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً، فهي إلى الأذقان، فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً. فأغشيناهم فهم لا يبصرون..

إن أيديهم مشدودة بالأغلال إلى أعناقهم، موضوعة تحت أذقانهم. ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة قسراً، لا يملكون أن ينظروا بها إلى الأمام ! ومن ثم فهم لا يملكون حرية النظر والرؤية وهم في هذا المشهد العنيف ! [١]

قال في الجلالين: وهذا تمثيل، والمراد أنهم لا يُذعنون للإيمان، ولا يخفضون رؤوسهم له. [٢]

قال ابن كثير: ومعنى الآية: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء، كمن جُعل في عُنقه غلٌّ، وجمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه فصار مُقمحاً، والمُقمح هو الرافع رأسه، واكتفى بذكر الغُلِّ في العنق عن ذكر اليدين، لأن الغُلَّ إنما يُعرف فيما جمع اليدين مع العنق. [٣]

وقال أبو السعود: مثَّل حالهم بحال الذين غُلَّت أعناقهم والأغلال منتهيةٌ إلى أذقانهم فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يُطأطئون رؤوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحقَّ، أو ينظرون إلى جهته. [٤]

وجعلنا من أمامهم سداً عظيماً، ومن ورائهم سداً كذلك فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئاً أصلاً، لأنهم أصبحوا محصورين بين سدين هائلين، وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغيِّ والجهالات، محرومين عن النظر في الأدلة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٥٩.
(٢) تفسير الجلالين ٣ / ٣١٨.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٥.
(٤) إرشاد العقل السليم ٤/ ٢٤٨.



والآيات، قال المفسرون: وهذا كله تمثيل لسدِّ طرق الإِيمان عليهم، بمن سُدَّت عليه الطرق فهو لا يهتدي لمقصوده. [(١)]

يقول الفخر الرازي: يحتمل أن يكون المراد هو أن الكافر مصدود، وسبيل الحق عليه مسدود، وهو لا يبصر السد، ولا يعلم الصد، فيظن أنه على الطريقة المستقيمة، وغير ضال. [(٢)]

وهؤلاء الذين جعلنا فى أعناقهم أغلالا.. وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه، فهم - لسوء استعداداهم وفساد فطرهم - لا يؤمنون بالحق الذى جئتهم به سواء دعوتهم إليه أم لم تدعهم إليه، وسواء خوفتهم بالعذاب أم لم تخوفهم به، لأنهم ماتت قلوبهم، وصارت لا تتأثر بشئ مما تدعوهم إليه. [(٣)] وهذا تسلية له صلى الله عليه وسلم وكشف لحقيقة ما انطوت عليه قلوبهم من الطغيان.

إِنما ينفع إِنذارك يا محمد من آمن بالقرآن وعمل بما فيه وخاف الله دون أن يراه، فبشره يا محمد بمغفرةٍ عظيمة من الله لذنوبه، وأجر كريم في الآخرة في جنات النعيم، قال ابن كثير: الأجر الكريم هو الكثير الواسع، الحسن الجميل وذلك إِنما يكون في الجنة [(٤)].

ولما ذكر تعالى أمر الرسالة ذكر بعدها أمر البعث والنشور، فبين جل شأنه أنه يبعث الموتى من قبورهم بعد موتهم للحساب والجزاء. وقبل البعث كان يحصي عليهم في الدنيا أعمالهم ويكتب ما قدَّموا في الدنيا من خير وشر، ومن صالح الأعمال وسيئها حتى آثار خطاهم بأرجلهم إلى المساجد.

وكل شيء من الأشياء أو أمرٍ من الأمور جمعه الله - جل شأنه - وضبطه في كتاب مسطور، هو صحائف الأعمال كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ ﴾ [الإسراء:٧١]. أي

---

(١) يراجع حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣١٩.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦ / ١١٨.

(٣) التفسير الوسيط، لسيد طنطاوي ١/ ٣٥٢٦.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٥٦.

بكتاب أعمالهم، الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر، وقال مجاهد وقتادة: هو اللوح المحفوظ. [١] وقال أبو حيان: «ونكتب ما قدَّموا» أي ونحصي، فعبَّر عن إحاطة علمه جل وعلا بأعمالهم بالكتابة التي تُضبط بها الأشياء». [٢]

وإحياء الموتى هو إحدى القضايا التي استغرقت جدلاً طويلاً. وسيرد منه في هذه السورة أمثلة منوعة. وهو ينذرهم أن كل ما قدمت أيديهم من عمل، وكل ما خلفته أعمالهم من آثار، كلها تكتب وتحصى، فلا يند منها شيء ولا ينسى. والله سبحانه هو الذي يحيي الموتى، وهو الذي يكتب ما قدموا وآثارهم، وهو الذي يحصي كل شيء ويثبته. فلا بد إذن من وقوع هذا كله على الوجه الذي يليق بكل ما تتولاه يد الله. [٣]

من هداية الآيات:

* تقرير النبوة المحمدية وتأكيد رسالته صلى الله عليه وسلم.
* بيان الحكمة من إرسال الرسول وإنزال الكتاب الكريم.
* بيان أن الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم بعث على فترة من الرسل.
* بيان أن حب الدنيا والإقبال عليها والإعراض عن الآخرة وعدم الالتفات إليها يضعان الإنسان بين حاجزين لا يستطيع تجاوزهما والتخلص منهما.
* بيان أن الذنوب تقيد صاحبها وتحول بينه وبين فعل الخير وقبول الحق.
* بيان أن من سن سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده يجزى بها كما يجزى على عمله الذي باشره بيده.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٦٠.

* تقرير عقيدة القضاء والقدر وأن كل شيء في كتاب المقادير المعبر عنه بالإمام.[١]

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة واضحة، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء في نهاية هذا المقطع تأكيد الله جل شأنه على إحياء الموتى وبعثهم، ليُجازوا بما قدموا من عمل أُحصي عليهم في الدنيا بكل دقة، ودُوِّن في كتاب جامع وواضح.

قصة أصحاب القرية

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

بعد عرض قضية الوحي والرسالة، وقضية البعث والحساب، في هذه الصورة التقريرية يعود السياق ليعرضها في صورة قصصية. تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإيمان وعواقبهما معروضة كالعيان.[٢]

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٥٠ بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٦٠.



التفسير الإجمالي

تسوق الآيات الكريمة هنا قصة أهل القرية الذين كذبوا رسل الله إليهم، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار.

« ولم يذكر القرآن الكريم من هم أصحاب القرية، ولا ما هي القرية. وقد اختلفت فيها الروايات. التي لا طائل من تتبعها. وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة وإيحائها. ومن ثم أغفل التحديد، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها.» (١)

والمعنى: واضرب -أيها الرسول- لمشركي قومك الرادِّين لدعوتك مثلا يعتبرون به وهو قصة أهل القرية، حين ذهب إليهم المرسلون، إذ أرسلنا إليهم رسولين لدعوتهم إلى الإيمان بالله وترك عبادة غيره، فكذَّب أهل القرية الرسولين، فعزَّزناهما وقويناهما برسول ثالث، فقال الثلاثة لأهل القرية: إنا رسل الله مرسلون لهدايتكم؛ فرد عليهم أهل القرية بأنه ليس لكم فضلٌ علينا، وما أنتم إلا بشر مثلنا، فكيف أوحى الله إليكم دوننا ؟ بل الله لم ينزل شيئاً من الوحي والرسالة، وما أنتم إلا قوم تكذبون في دعوى النبوة.

فأجابهم الرسل بقولهم: الله يعلم أننا رسله إليكم، ولو كنا كذبة لانتقم منا أشدَّ الانتقام وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله بلاغاً واضحاً جلياً لا غموض فيه، فإِن آمنتم فلكم السعادة، وإِن كذبتم فلكم الشقاوة. (٢)

قال أبو حيان: وفي هذا وعيدٌ لهم، ووصف البلاغ بـ﴿ ٱلْمُبِينُ ﴾ لأنه الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإِرسال، كما روي في هذه القصة من المعجزات الدالة على صدق الرسل، من إبراء الأكمه والأبرص وإِحياء الميت. (٣)

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٠ بتصرف يسير.

(٢) يراجع: التفسير الميسر ٧ / ٤٧٧.

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٣٢٧.

قال لهم أهل القرية: إنّا تشاءمنا بكم وبدعوتكم القبيحة لنا إلى الإيمان، وترك عبادة آلهتنا. قال المفسرون: ووجه تشاؤمهم بالرسل أنهم دعوهم إلى دينٍ غير ما يدينون به، فاستغربوه واستقبحوه، ونفرت عنه طبيعتهم المعوجة، فتشاءموا بمن دعا إليه، كأنهم قالوا: أعاذنا الله مما تدعوننا إليه. ثم توعَّدُوا الرسل بالرجم والعذاب الأليم[١].

وهكذا أسفر الباطل عن غشمه؛ وأطلق على الهداة تهديده؛ وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة، وعربد في التعبير والتفكير ! ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسل يقضي عليهم بالمضي في الطريق: [٢]

قالت الرسل لهم: ليس شؤمكم بسببنا، وإنما شؤمكم بسببكم، وبكفركم، وعصيانكم، وسوء أعمالكم، ألأنا ذكّرناكم ووعظناكم ودعوناكم إلى توحيد الله، تشاءمتم بنا، وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب ؟ ليس الأمر كما زعمتم، بل أنتم قومٌ عادتكم الإسرافُ في العصيان والإجرام. وهو توبيخٌ لهم مع الزجر والتقريع. [٣]

من هداية الآيات:

* استحسان ضرب المثل. وهو تصوير حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما هنا في قصة أصحاب القرية.
* تشابه حال الكفار في التكذيب والإصرار في كل زمان ومكان.
* لجوء أهل الكفر بعد إقامة الحجة عليهم إلى التهديد والوعيد.
* حرمة التطير والتشاؤم في الإسلام. [٤]

---

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ١٢٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٢.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٠.

(٤) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٣٥١.

الرجل المؤمن يدعو قومه لاتباع المرسلين

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا رجل سمع دعوة رسل الله، فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه. وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره، فلم يطق عليها سكوتاً؛ ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور؛ ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره، وتحرك في شعوره.

سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون. وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين.[1]

قال ابن كثير: إن أهل القرية همُّوا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه، وطلب من قومه أن يتبعوا الرسل الكرام الداعين إلى توحيد الله جل شأنه،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٣.

والذين لا يطلبون أجرة على دعوتهم، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه من توحيد الله. [١]

وقد تلطفٌ هذا الرجل المؤمن في الإرشاد لقومه كأنه ينصح نفسه، ويختار لهم ما يختار لنفسه ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وفي هذا الكلام نوع تقريع على ترك عبادة خالقهم. والمعنى: أيُ شيء يمنعني من أن أعبد خالقي الذي أبدع خلقي ؟ وإِليه مرجعكم بعد الموت فيجازي كلاً بعمله.

وكيف أتخذ من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئاً؟ بل هي في المهانة والحقارة بحيث لو أراد الله أن يُنزل بي شيئاً من الضر والأذى وشفعت لي لم تنفع شفاعتهم، ولم يقدروا على إنقاذي، فكيف وهي أحجار لا تسمع ولا تنفع ولا تشفع؟. إني إن عبدت غير الله واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي.

وبعد النصح والتذكير أعلن إسلامه، وأشهر إيمانه، فقال: إني آمنت بربكم الذي خلقكم، فاسمعوا قولي، واعملوا بنصيحتي. [٢]

ويوحي سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه. وإن كان لا يذكر شيئاً من هذا صراحة. إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها، وعلى القوم وما هم فيه؛ ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمة الحق، متبعاً صوت الفطرة، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل. نراه في العالم الآخر. ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة. تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد:

قيل: ادخل الجنة. قال: يا ليت قومي يعلمون. بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين..

وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة. ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء. وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة. ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٩.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١١.



الحق. ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم. ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين.

ونرى الرجل المؤمن. وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة والكرامة، يذكر قومه طيب القلب رضي النفس، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة، ليعرفوا الحق، معرفة اليقين. [(١)]

قال أبو السعود: وإنما تمنَّى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان، جرياً على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء. [(٢)]

هذا حال الرجل المؤمن ومصيره، فماذا عن مصير المكذبين الجاحدين ؟ « ما كانت عقوبتهم إلا صيحةً واحدة صاح بهم جبريل، فإذا هم ميتون لا حراك بهم، قد أُخمدت أنفاسهم حتَّى صاروا كالنار الخامدة. ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم، تهويناً لشأنهم، وتصغيراً لقدرهم. ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل ! » [(٣)]

ويا أسفاً على هولاء المكذبين لرسل الله المنكرين لآياته، ويا حسرةً عليهم، ما جاءهم رسولٌ إلا كذبوه واستهزؤوا به، وهكذا عادة المجرمين في كل زمان ومكان، وهؤلاء المكذبين الهالكين أحقاء بان يتحسروا على أنفسهم أو يُتحسر عليهم، فإن الأمر لفخامته وشدته، بلغ بهم مبلغاً عظيماً حيث إنّ كل من يتأتى منه التلهف إذا نظر إلى حال استهزائهم بالرسل تحسَّر عليهم، وقال: يا لها من حسرةٍ وخيبة على هؤلاء المحرومين، حيث بدَّلوا الإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاوة.

يا حسرة على العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها. ويفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم الحين بعد

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٤.

(٢) إرشاد العقل السليم ٤/ ٢٥٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٤.

الحين؛ ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة ويسيئون الأدب مع الله: ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون. [(١)] وفي الآية تعريضٌ بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين.

فما لهؤلاء لا يتعظون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم.

« ولقد كان في هلاك الأولين الذاهبين لا يرجعون، على مدار السنين وتطاول القرون.. لقد كان في هذا عظة لمن يتدبر. ولكن العباد البائسين لا يتدبرون. وهم صائرون إلى ذات المصير. فأية حالة تدعو إلى الحسرة كهذا الحال الأسيف ؟!. » [(٢)].

هذا وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب والجزاء يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها. **قال أبو حيان**: وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبييناً إلى أن الله تعالى لا يترك المهلكين، بل بعد الهلاك جمعٌ وحساب، وثواب وعقاب». [(٣)]

من هداية الآيات:

* بيان كرامة الرجل المؤمن الذي أدى ما عليه في نصيحة قومه.
* بيان ما يلاقي دعاة التوحيد والدين الحق في كل زمان ومكان من شدائد وأهوال.
* وجوب إبلاغ دعوة الحق مهما كان حجم التضحيات.
* بشرى المؤمن عند الموت، لا سيما الشهيد، فإنه يرى الجنة رأي العين.
* مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك أهل القرية بصيحة واحدة.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٦.

(٢) المرجع السابق ٥ / ٢٩٦٧.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٣٥.

* طلب العبرة من أخبار الماضين وأحوالهم، والعاقل من اعتبر بغيره.
* تقرير المعاد والحساب والجزاء.[١]

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة في غاية القوة، وتمام الوضوح، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء في هذا المقطع التأكيد على هذا المعنى، من خلال سوق نموذج الرجل المؤمن، وإكرام الله له بدخول الجنة مثوبة وجزاء. ومن خلال التأكيد على أن كل العباد يوم القيامة مجموعون لميقات يوم معلوم، حيث قال جل شأنه هنا: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

بعض آيات من قدرة الله عز وجل

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٥٣ - ٣٥٤ بتصرف.

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما تقدم في الآيات قبل هذه تقرير عقيدة البعث والجزاء في قوله ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ذكر هنا الدليل العقلي على صحة إمكان البعث فقال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ أي على صحة البعث. [١]

التفسير الإجمالي

تسوق الآيات الكريمة هنا طرفا من آيات الله تعالى في كونه، لتكون دلالة لهؤلاء المشركين على وحدانية الله تعالى وقدرته سبحانه على البعث والنشور، وهذه الأدلة منها ما هو أرضي ومنها ما هو سماوي، ومنه ما هو بحري، وكلها تدل - أيضا - على فضله ورحمته.

وأول هذه الآيات: إحياء الأرض الميتة التي لا نبات فيها، أحياها الله بإنزال الماء، وأخرج منها أنواع النبات مما يأكل الناس والأنعام، ومن أحيا الأرض بالنبات أحيا الخلق بعد الممات. [٢]

قال القرطبي: نبَّههم تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكَّرهم على توحيده وكمال قدرته، بالأرض الميتة أحياها بالنبات، وإخراج الحب منها، فمن الحبِّ يأكلون وبه يتغذون وجعل - سبحانه - في الأرض بساتين ناضرة فيها من أنواع النخيل والعنب وجعل فيها ينابيع من الماء العذب، والأنهار السارحة في بلدان كثيرة. [٣]

« والحياة معجزة لا تملك يد البشر أن تجريها؛ إنما هي يد الله التي تجري المعجزات، وتبث روح الحياة في الموات. وإن رؤية الزرع النامي، والجنان الوارفة، والثمر اليانع، لتفتح العين والقلب على يد الله المبدعة، وهي تشق التربة عن النبتة المتطلعة للحرية والنور، وتنضر العود المستشرف للشمس والضياء، وتزين الغصن اللدن بالورق والثمار، وتفتح الزهرة وتنضج

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٥٥.
(٢) التفسير الميسر ٧/ ٤٩٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٢٥.



الثمرة، وتهيئها للجني والقطاف. »[١].

ولما امتنَّ سبحانه على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وأنواعها وأصنافها ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم، لا بسعيهم وكدِّهم، ولا بحولهم وقوتهم، فهلا شكروا الله على ما أنعم به عليهم ؟[٢]

تنزّه وتقدَّس الله العلي الجليل الذي خلق الأصناف كلها، المختلفة الألوان والطعوم والأشكال، من جميع الأشياء ممَّا تُخرج الأرضُ من النخيل والأشجار، والزروع والثمار، ومن أنفسهم من الذكور والإناث، ومما لا يعلمون من المخلوقات العجيبة والأشياء الغريبة كما قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وعلامةٌ أخرى لهم على كمال قدرة الله: الليلُ يزيل عنه الضوء، ويفصله عن النهار، فإذا هم داخلون في الظلام، وفي الآية رمزٌ إلى أن الأصل في الكون هو الظلام، والنور عارض وهذا ما أكّده العلم الحديث، فإذا غربت الشمس ينسلخ النهار من الليل ويُكشف ويزول، فيظهر الأصل وهو الظلمة.[٣]

ومشهد قدوم الليل، والنور يختفي والظلمة تغشى.. مشهد مكرور، يراه الناس في كل بقعة في خلال أربع وعشرين ساعة [فيما عدا بعض المواقع التي يدوم فيها النهار كما يدوم فيها الليل أسابيع وأشهراً، قرب القطبين في الشمال والجنوب] وهو مع تكراره اليومي عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكير.

والتعبير القرآني عن هذه الظاهرة - في هذا الموضع - تعبير فريد. فهو يصور النهار متلبساً بالليل؛ ثم ينزع الله النهار من الليل، فإذا هم مظلمون. ولعلنا ندرك شيئاً من سر هذا التعبير

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٧.

(٢) يراجع: مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٦٢.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٤.

الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته. فالأرض الكروية في دورتها حول نفسها في مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس؛ فإذا هذه النقطة نهار؛ حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس، انسلخ منها النهار ولفها الظلام، وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام، وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام. فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير. [١]

وآيةٌ أخرى لهم الشمس تسير بقدرة الله في فَلَك لا تتجاوزه ولا تتخطَّاه لزمنٍ تستقر فيه، ولوقتٍ تنتهي إليه وهو يوم القيامة حيث ينقطع جريانها عند خراب العالم.

قال ابن كثير: وفي قوله تعالى:﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ﴾قولان: أحدهما: أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض لحديث البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يا أبا ذرٍ أتدري أين تغرب الشمس ؟ قلت: اللهُ ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش..) الحديث. [٢]

والثاني: أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة، حيث يبطل سيرها، وتسكن حركتها، وتُكور وينتهي هذا العالم إلى غايته، وذلك الجري والدوران بانتظام وبحساب دقيق هو تقدير الإله العزيز في ملكه، العليم بخلقه. [٣]

والقمرَ قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في ثمانية وعشرين ليلة، ينزل كل ليلةٍ في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعداها، فإذا كان في آخر منازله دقَّ واستقوس، وصار كغصن النخل اليابس، وهو عنقود التمر حين يجف ويصفر ويتقوس. [٤]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٨.

(٢) رواه البخاري ٣/ ١١٧٠ رقم ٣٠٢٧.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير٣/ ١٦٢.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥.

قال ابن كثير: جعل الله القمر لمعرفة الشهور، كما جعل الشمس لمعرفة الليل والنهار وفاوت بين سير الشمس وسير القمر، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره، وتنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاءً، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وهي كوكبٍ نهاري.

وأما القمر فقدَّره منازل يطلع في أول ليلةٍ من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير كالعرجون القديم، قال مجاهد: أي العذق اليابس وهو عنقود الرطب إذا عتق ويبس وانحنى، ثم يبدأ جديداً في أول الشهر الآخر. [١]

ولا يمكن للشمس ولا يصح لها أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره، لأن ذلك يُخلُّ بتلوين النبات، ومصلحة العباد، قال الطبري: أي لا الشمس يصلح لها إِدراك القمر فيُذهب ضوءها نوره فتكون الأوقات كلها نهاراً لا ليل فيها، ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فيذهب بضيائه فتكون الأوقات كلها ليلاً. وكلٌّ من الشمس والقمر والنجوم تدور في فلك السماء. [٢]

قال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فَلك بين السماء والأرض، غير ملصقة بشيء ولو كانت ملصقة ما جرت. والغرضُ من الآية: بيانُ قدرة الله في تسيير هذا الكون بنظام دقيق، فالشمس لها مدار، والقمر له مدار، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه، ولا يطغى أحدهما على الآخر، كما قال قتادة: « لكل حدٌّ وعلمٌ لا يعدوه، ولا يقصر دونه » حتى يأتي الأجل المعلوم بخراب العالم، فيجمع الله بين الشمس والقمر كما قال تعالى: ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ ﴾ [القيامة: ٩]. فيختل نظام الكون، وتقوم القيامة، وتنتهي حياة البشرية عن سطح هذا الكوكب الأرضي. [٣]

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٦٣.

(٢) يراجع: تفسير الطبري ٢٣/ ٦.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٦.

وعلامة أخرى واضحة للناس على كمال قدرتنا أننا حملنا آباءهم الأقدمين - وهم ذرية آدم - في سفينة نوح ﷺ، التي أمره الله أن يحمل فيها من كلٍ زوجين اثنين. قال في التسهيل: وإنما خصَّ ذريتهم بالذكر، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة.[1]

« والسفينة في الخضم كالريشة في مهب الريح، مهما ثقلت وضخمت وأتقن صنعها، وإلا تدركها رحمة الله فهي هالكة هالكة في لحظة من ليل أو نهار. والذين ركبوا البحار سواء عبروها في قارب ذي شراع أو في عابرة ضخمة للمحيط، يدركون هول البحر المخيف؛ وضآلة العصمة من خطره الهائل وغضبه الجبار. ويحسون معنى رحمة الله؛ وأنها وحدها العاصم بين العواصف والتيارات في هذا الخلق الهائل الذي تمسك يد الرحمة الإلهية عنانه الجامح، ولا تمسكه يد سواها في أرض أو سماء. وذلك حتى يقضي الكتاب أجله، ويحل الموعد المقدور في حينه، وفق ما قدره الحكيم الخبير: ومتاعاً إلى حين.[2]

وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح السفن العظيمة التي يركبونها ويبلغون عليها أقصى البلدان، وإنما نسب الخلق إليه لأنها بتعليم الله جل وعلا للإنسان. ولو أردنا لأغرقناهم في البحر فلا مغيث لهم، ولا أحد يستطيع أن ينقذهم من الغرق، ولا ينقذهم إلا نحن لأجل رحمتنا إياهم، وتمتيعنا لهم إلى انقضاء آجالهم..[3]

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء التي هي القوة الدافعة للإنسان على فعل الخيرات وترك الشرور والمنكرات.

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٦٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٠.

(٣) صفوة التفاسير ٣/ ١٦ بتصرف يسير.

* وجوب شكر الله تعالى على نعمه، ومنها نعمة الإِيجاد ونعمة الإِمداد بالغذاء والماء والهواء.

* ذكر القرآن لأمور الفلك التي لم يعرف عنها الناس اليوم إلا النذر اليسير آية عظمى على أنه وحي الله وأن من أوحي إليه هو رسول الله قطعا.

* بيان فضل الله على البشرية في إنجاء ذريّة قوم نوح الكافرين ومنهم كان البشر وإلا لو أغرق الله الجميع المؤمنين الذريّة والكافرين الآباء لم يبق في الأرض أحد.

* حماية الله تعالى للعباد ورعايته لهم وإلاّ لهلكوا أجمعين.. ولكن أين شكرهم ؟[1]

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة واضحة، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء في صدر هذا المقطع التأكيد على هذه العقيدة من خلال لفت الأنظار إلى آية إحياء الله تعالى للأرض الميتة، والتنويه بذلك على أن من يقدر على إحياء موات الأرض فهو كذلك يقدر على إحياء موات الإنسان.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٥٥ - ٣٥٨.

إعراض الكفار عن الحق وتعاميهم عن الهدى

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكَّرهم الله تعالى بدلائل قدرته، وآثار رحمته، أخبر هنا عن تعاميهم عن الحق وإعراضهم عن الهدى والإيمان، مع كثرة الآيات الواضحات، والشواهد الباهرات.

التفسير الإجمالي

إن هؤلاء الكفار أمرهم عجيب: لقد ساق الله لهم الآيات الظاهرة التي يعرفها كل مخلوق، في الليل والنهار، والشمس والقمر، والأرض الميتة، وحمل ذرياتهم في ظهور آبائهم فما اتعظوا وما تذكروا.

والآن يخوفهم الله عاقبة أمرهم بعد عرض الآيات عليهم لعلهم يتوبون فيرحمون ولكنهم مع كل ذلك معرضون ! [(١)]

بل إنهم إذا قيل لهم: احذروا سخط الله وغضبه، واعتبروا بما حلَّ بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة لكي تُرحموا وجواب الشرط محذوف تقديره: أعرضوا واستكبروا ودلّ عليه قوله تعالى:﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ قال القرطبي: والجواب محذوف والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، ودليله الآية التي بعدها:﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ ﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك. [(٢)]

ولقد بلغ الجحود والجهل والعناد عند هؤلاء المشركين، أنهم ما تأتيهم آية من الآيات

---

(١) التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ٣ / ٧.

(٢) تفسير القرطبي ١٥ / ٣٦.

التى تدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته، وعلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فى دعوته، إلا كانوا عن كل ذلك معرضين إعراضاً تاماً، شأنهم فى ذلك شأن الجاحدين من قبلهم. (١)

وإضافة الآيات إلى اسم الرب جل وعلا لتفخيم شأنها، المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه في حقها. (٢)

والمراد بالآيات إما الآيات التنزيلية، التي من جملتها الآيات الناطقة ببدائع صنع الله وسوابغ آلائه، أو الآيات التكوينية، الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات، التي من جملتها ما ذُكر من شئونه الشاهدة بوحدانيته تعالى، وتفرده بالألوهية. (٣)

وإذا قيل لهؤلاء الكفار بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله من فضله على الفقراء والمساكين قالوا للمؤمنين تهكماً بهم: أننفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين أفقرهم الله ؟ ما أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال ظاهر واضح حيث تأمروننا أن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله. فكأنهم يقولون: لو كان الأمر كما تزعمون أن الله قادر، وأن الله رازق، لأطعم هؤلاء الفقراء، فما بالكم تطلبون إطعامهم منا ؟

وما علم هؤلاء السفهاء أن خزائن الأرزاق بيد الخلاق، وأنه تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعض الخلق ابتلاءً، لينظر كيف عطف الغني، وكيف صبر الفقير، فقد منع الدنيا عن الفقير لا بخلاً، وأمر الغنيَّ بالإنفاق عليه لا حاجة إلى ماله، ولكن للابتلاء. والله يفعل ما يشاء، لا اعتراض لأحدٍ في مشيئته ولا في حكمه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

(١) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٤١.
(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٢٥٥.
(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٢٥٥.

من هداية الآيات:

* بيان عتو الكافرين وسخريتهم من المؤمنين، وذلك لظلمة الكفر على قلوبهم.[(١)]
* إعراض الجاحدين عن كل آيات الله تعالى الدالة علية والناطقة بوحدانيته.
* حرص الكافرين الدائم على إلقاء الشبه المضللة تبريرا لعنادهم واستكبارهم.

إنكار المشركين البعث واستبعادهم قيام الساعة

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

هذا المقطع من الآيات مناسب لما قبله، إذ هو بيان لاستمرار حال الكافرين المتقدم من الإعراض والجحود والعناد.

التفسير الإجمالي

تخبر الآيات الكريمة هنا عن إنكار المشركين للآخرة، واستبعادهم لقيام الساعة، فهم يرددون: متى يوم القيامة الذي تتوعدوننا به ؟ ومتى هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين في دعواكم أن هناك بعثاً ونشوراً وحساباً وعذاباً ؟

---

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٣/ ٣٦٠.

«ووعد الله تعالى لا يستقدم لاستعجال البشر؛ ولا يستأخر لرجائهم في تأخيره. فكل شيء عند الله بمقدار. وكل أمر مرهون بوقته المرسوم. إنما تقع الأمور في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التي تضع كل شيء في مكانه، وكل حادث في إبانه، وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدر المرسوم في إمام مبين.»[(١)].

واسمع الجواب – على طلبهم العذاب واستعجالهم له – من جهته تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ ﴾ وهي النفخة الأولى التي يموت بها أهل الأرض، ولكن:هل هم ينتظرون ذلك، لا ينتظرون، بل هم مكذبون، ولكن لما كان لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها[(٢)] فتأخذهم مفاجأة من حيث لا يشعرون وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم، فلا يشعرون إلا بالصيحة قد أخذتهم، فيموتون في أماكنهم.

وفي الحديث: (لتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنَّ الساعةُ وهو يُليط حوضه -أي يصلحه بالطين- فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفع أُكلته إلى فيه فلا يطعمها) .[(٣)]

ثم يُنفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور. ويمضون سراعاً، وهم في دهش وذعر يتساءلون: من بعثنا من مرقدنا ؟. قال ابن كثير: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد .[(٤)]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٠.

(٢) التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ٣ / ٨.

(٣) رواه البخاري ٥/ ٢٣٨٦ برقم ٤٣٥٩. ومسلم ك: الفتن وأشراط الساعة ب: قرب الساعة رقم ٢٩٥٤. و(لقحته) هي الناقة الحلوب. (يليط) يصلح ويطين. (أكلته) لقمته. (فلا يطعمها) فلا يأكلها ويحول بينه وبين أكلها قيام الساعة فجأة وبأسرع من دفع اللقمة إلى الفم.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير٣ / ١٦٥.

ثم تزول عنهم الدهشة قليلاً، فيدركون ويعرفون: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون!

ثم إذا الصيحة الأخيرة. صيحة واحدة. فإذا هذا الشتيت الحائر المذهول المسارع في خطاه المدهوش. يثوب: فإذا هم جميع لدينا محضرون.. وتنتظم الصفوف، ويتهيأ الاستعراض في مثل لمح البصر ورجع الصدى. وإذا القرار العلوي في طبيعة الموقف، وطبيعة الحساب والجزاء يعلن على الجميع:

فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون..[1].

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مبادئها ونهاياتها.
* الساعة لا تأتي إلا بغتة.
* تقرير العدل الإِلهي يوم الحساب والجزاء ليطمئن كل عامل على أنه يجزى بعمله لا غير[2].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة في غاية القوة، وتمام الوضوح واضحة، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء هذا المقطع بأكمله لتأكيد هذه الحقيقة، وبيان أن أمر البعث والجزاء هين على الله القدير سبحانه، فالأمر لا يتعدى إلا نفخة في الصور، يُبعث بها كل الخلق من قبورهم، ثم يحشرون إلى ساحة العدل والجزاء، حيث لا يظلم أحد شيئا، ولا يجزى إلا بما كسبت يداه.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٢.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٣٦٠.

جزاء الأبرار المتقين

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما أخبر سبحانه عن مآل المجرمين، أخبر عن حال الأبرار المتقين، فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾...

التفسير الإجمالي

بعد الحديث المتنوع عن أحوال الكافرين يوم القيامة، جاء الحديث عما أعده الله تعالى بفضله وكرمه للمؤمنين.

وتصور هذه الآيات الكريمة حال أصحاب الجنة يوم القيامة؛ فهم في ذلك اليوم مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن التفكير بأهل النار، يتفكهون ويتلذذون بالحور العين، وبالأكل والشرب والسماع للأوتار.

يقول أبو حيان: والظاهر أن الشغل هو النعيم الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال.[1]

هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة، حيث لا شمس فيها ولا زمهرير، متكئون على السرر المزيَّنة بالثياب والستور، لهم في الجنة فاكهة كثيرة من كل أنواع الفواكه، ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون كقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١]. ولهم سلامٌ كريم من ربهم الرحيم. وفي الحديث الشريف: (بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع عليهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه،

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ٧/ ٣٤٢.

فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم) [(١)].

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها تشير إلى أن أصحاب الجنة ليسوا فى تعب، كما تشير إلى وحدتهم، وإلى حسن المكان، وإلى إعطائهم كل ما يحتاجونه، وإلى تلذذهم بالنعيم، وإلى تلقيهم لأجمل تحية.. هذا هو حال المؤمنين، وهذا بعض ما يقال لهم من ألفاظ التكريم.

من هداية الآيات:

* تقرير المعاد.
* بيان نعيم الجنة.
* سلام الله تعالى على أهل الجنة، ونظرهم إلى وجهه الكريم. [(٢)]

جزاء المجرمين الأشقياء

﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(١) رواه ابن ماجة في سننه ب: فيما أنكرت الجهمية ١/ ٢١٦.
(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٦١.



مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

بعد أن بين سبحانه حال السعداء في الآيات السابقة ذكر هنا حال الأشقياء، للمقابلة بين الصورتين، والمفارقة بين الحالين.

التفسير الإجمالي

يصدر الله جل شأنه أمره القاطع لأهل النار أن ينزاحوا بعيدا عن أهل الإيمان، لينالوا نصيبهم من الخزي والإهانة والعذاب. قال القرطبي: يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال، وحين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة. [١]

ثم يوبخ الكفرة المجرمين ويقرعهم حين يسألهم: ألم أوصكم وآمركم يا بني آدم على ألسنة رسلي ألاّ تطيعوا الشيطان فيما دعاكم إليه من معصيتي ؟ وأن لا تستمعوا لوسوسته، وأن لا تتبعوا خطواته، لأنه عدوٌ لكم ظاهر العداوة، لا تخفى عداوته على أحد من العقلاء، فكيف يطيع الإِنسان عدوه ؟ وأمرتكم بأن تعبدوني وحدي، بتوحيدي وطاعتي وامتثال أمري.. هذا هو الدين الصحيح. والطريق الحقُّ المستقيم. [٢]

ولقد أضلَّ الشيطان خلقاً منكم كثيرين، وأغواهم عن سلوك طريق الحقِّ. قال الطبري: أي صدَّ الشيطان منكم خلقاً كثيراً عن طاعتي حتى عبدوه أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمر ربكم ؟ وهو توبيخ آخر للكفرة الفجار.. [٣]

ثم بشرهم بما ينتظرهم من العذاب، فقال هذه نار جهنم التي أوعدكم بها الرسل وكذبتم بها، قال الصاوي: هذا خطاب لهم وهم على شفير جهنم، والمقصود منه زيادة التبكيت والتقريع. أي ذوقوا حرارتها وقاسوا أنواع عذابها اليوم بسبب كفركم في الدنيا، وهو أمر إهانةٍ وتحقير

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٤٦.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٢١، الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٤٧.

(٣) تفسير الطبري ٢٣ / ١٦.

مثل قول الله جل شأنه: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان: ٤٩][(١)].

ثم أخبر تعالى عن فضيحتهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، فقال في هذا اليوم - يوم القيامة - نختم على أفواه الكفار ختماً يمنعها عن الكلام، وتنطق عليهم جوارحهم أيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة.

روى الطبري عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أنه قال: «يُدعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب، فيعرض عليه ربه عمله فيجحده، ويقول: أي ربِّ وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا، فيقول: لا وعزتك أي رب ما عملته، فإذا فعل ذلك خُتم على فيه، وتكلمت أعضاؤه ثم تلا: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾[(٢)].

وفي الحديث عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال: هل تدرون مما أضحك ؟ قال قلنا: الله ورسوله أعلم. قال من مخاطبة العبد ربه.. يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم ؟ قال يقول: بلى. قال فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني. قال فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام الكاتبين شهودا. قال: فيختم على فيه؛ فيقال لأركانه: انطقي. قال: فتنطق بأعماله. قال: ثم يُخلى بينه وبين الكلام. قال فيقول: بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل.[(٣)]

وجعل - سبحانه ما تنطق به الأيدي كلاما، وما تنطق به الأرجل شهادة، لأن مباشرة المعاصي - غالباً - تكون بالأيدي، أما الأرجل فهي حاضرة لما ارتكب بالأيدي من سيئات، وقول الحاضر على غيره شهادة بما له، أما قول الفاعل فهو إقرار ونطق بما فعله.[(٤)]

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٢٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ١٧.

(٣) رواه مسلم ك: الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٨. رقم ٢٩٦٩.

(٤) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٤٨.

قال الجمل: أسند سبحانه فعل الختم إلى نفسه، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل، لئلا يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبرا، أو قهراً، والإقرار مع الإجبار غير مقبول. فقال: تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم، أى باختيارها بعد إقدار الله لها على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم.(١)

ولو شئنا لأعميناهم فابتدروا طريقهم ذاهبين كعادتهم فكيف يبصرون حينئذٍ ؟ قال ابن عباس: المعنى لو نشاء لأعميناهم عن الهدى فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحقِّ، وهو تهديد لقريش. ولو نشاء لمسخناهم مسخاً يُقعدهم في مكانهم إذا مسخوا في مكانهم لم يقدروا أن يذهبوا ولا أن يرجعوا.

فالمقصود بالآيتين الكريمتين تهديد الجاحدين على استمرارهم فى كفرهم، وبيان أنهم تحت قدرة الله - تعالى - وفى قبضته، وأنه - سبحانه - قادر على أن يفعل بهم ما يشاء من طمس للأبصار، ومن مسخ للصور، ومن غير ذلك مما يريده - سبحانه (٢).

ثم ذكر تعالى دلائل قدرته على مسخ الكفار بتطاول الأعمار، فقال: ومن نُطِل عمره نقلبه في أطوار منتكساً في الخلق، فيصير كالطفل لا يعلم شيئا. قال قتادة: يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا، فطولُ العمر يصيِّر الشباب هَرَماً، والقوة ضعفاً، والزيادة نقصاً.

أفلا يعقلون أن من قدر على ذلك قادر على إِعمائهم أو مسخهم ؟ قال ابن جزي: والقصدُ من ذلك الاستدلال على قدرته تعالى على مسخ الكفار، كما قدر على تنكيس الإِنسان إذا هرم(٣).

« والشيخوخة نكسة إلى الطفولة. بغير ملاحة الطفولة وبراءتها المحبوبة ! وما يزال

(١) الفتوحات الإلهية ٣ / ٥٢٢.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٤٩، بتصرف يسير جدا.

(٣) () التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٦٦.

الشيخ يتراجع، وينسى ما علم، وتضعف أعصابه، ويضعف فكره، ويضعف احتماله، حتى يرتد طفلاً. ولكن الطفل محبوب اللثغة، تبسم له القلوب والوجوه عند كل حماقة. والشيخ مجتوى لا تقال له عثرة إلا من عطف ورحمة »[1].

من هداية الآيات:

* تقرير المعاد وبيان موقف الجاحدين منه.
* تأكيد عداوة الشيطان للإنسان.
* عجز الإنسان يوم القيامة عن كتمان شيء من سيء أعماله وفاسدها.
* التحذير من عقوبة الله في الدنيا بالمسخ ونحوه.
* مظاهر قدرة الله تعالى في رد الإنسان بعد القوة إلى حالة الضعف الأولى.[2]

إثبات وجود الله ووحدانيته

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٣.
(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٦٣.

التفسير الإجمالي

ينفي الله – سبحانه – هنا أنه علم رسوله ﷺ الشعر. وإذا كان الله لم يعلمه فلن يعلم. فما يعلم أحد شيئاً إلا ما يعلمه الله.. ثم ينفي لياقة الشعر بالرسول ﷺ: وما ينبغي له فللشعر منهج غير منهج النبوة. الشعر انفعال. وتعبير عن هذا الانفعال. والانفعال يتقلب من حال إلى حال. والنبوة وحي. على منهج ثابت. على صراط مستقيم. يتبع ناموس الله الثابت الذي يحكم الوجود كله. ولا يتبدل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة، تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التي لا تثبت على حال.

والنبوة اتصال دائم بالله، وتلق مباشر عن وحي الله، ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى الله. بينما الشعر – في أعلى صوره – أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته. فأما حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتى تكون صراخ جسد، وفورة لحم ودم! فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس. هذه – في أعلى صورها – أشواق تصعد من الأرض. وتلك في صميمها هداية تتنزل من السماء[1].

قال القرطبي: هذا ردٌّ على الكفار في قولهم إِنه شاعر، وإِن ما أتى به من قبيل الشعر فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر، والقرآن الكريم ليس بشعر، لأن الشعر كلام مزخرف موزون، مبني على خيالات وأوهام واهية، حتى قيل: « أعذبه أكذبه» فأين ذلك من القرآن العزيز الذي تنزَّه عن مماثلة كلام البشر ؟!.[2]

وما هذا الذي يتلوه محمد إلا عظة وتذكيرٌ من الله جل وعلا لعباده، وقرآن واضح ساطع لا يلتبس به الشعر بحالٍ من الأحوال، لينذر بهذا القرآن من كان حي القلب مستنير البصيرة،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٥.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٥٠.

وهم المؤمنون لأنهم المنتفعون به، وتجب كلمة العذاب على الكافرين لأنهم كالأموات لا يعقلون ما يخاطبون به. (١)

قال البيضاوي: وجعلهم في مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم - لكفرهم، وسقوط حجتهم، وعدم تأملهم، - أمواتٌ في الحقيقة.. (٢)

ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية ليستدلوا على وجوده جلَّ وعلا من آثاره، فحثهم - جل شأنه - أن ينظروا نظر اعتبار، ويتفكروا فيما أبدعته يد القدرة الإلهية - من غير واسطة، وبلا شريك ولا معين - مما خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ؟!

وأسند - سبحانه - العمل إلى الأيدي، للإشارة إلى أن خلق هذه الأنعام كان بقدرته - تعالى - وحده دون أن يشاركه فى ذلك مشارك، أو يعاونه معاون. كما يقول القائل: هذا الشيء فعلته بيدي وحدي، للدلالة على تفرده بفعله. (٣)

وهذه الأنعام هم متصرفون فيها كيف يشاءون تصرف المالك بماله وهي ذليلةٌ لهم لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعيرٍ لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه وهو ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعير لسار الجميع بسير الصغير، فسبحان من سخر هذا لعباده !! (٤)

ومن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال كالإبل التي هي سفن البر، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم ولهم فيها منافع عديدة - غير الأكل والركوب - كالجلود والأصواف والأوبار، ولهم فيها مشارب أيضاً يشربون من ألبانها ﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦]. أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة ؟

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٢٣.
(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٣٦.
(٣) الوسيط، لسيد طنطاوي ١/ ٣٥٥٢.
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٧٠.

والغرضُ من الآيات تعديدُ النعم وإِقامةُ الحجة عليهم..

يقول صاحب الظلال - عليه رحمة الله -: آية الله هنا مشهودة منظورة بين أيديهم، ليست غائبة ولا بعيدة، ولا غامضة تحتاج إلى تدبر أو تفكير.. إنها هذه الأنعام التي خلقها الله لهم وملكهم إياها. وذللها لهم يركبونها ويأكلون منها ويشربون ألبانها، وينتفعون بها منافع شتى.. وكل ذلك من قدرة الله وتدبيره؛ ومن إيداعه ما أودع من الخصائص في الناس وفي الأنعام، فجعلهم قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها. وجعلها مذللة نافعة ملبية لشتى حاجات الإنسان.

وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئاً. وما يملكون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له. وما يملكون أن يذللوا ذبابة لم يركب الله في خصائصها أن تكون ذلولاً لهم ! أفلا يشكرون؟[(١)]

ثم وبخهم وعنفهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام، وذلك نهاية الغيّ والضلال حيث عبد المشركون آلهة من الأحجار رجاء أن يُنصروا بها وهي صماء بكماء، لا تسمع الدعاء ولا تستجيب للنداء، ولا تستطيع هذه الآلهة المزعومة نصرهم بحالٍ من الأحوال، لا بشفاعة ولا بنصرةٍ أو إعانة، بل هؤلاء المشركون كالجند والخدم لأصنامهم في التعصب لهم، والذبِّ عنهم، وفدائهم بالروح والمال، مع أنهم لا ينفعونهم أيَّ نفع.

قال القرطبي: المعنى إنهم قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا، ثم اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل شيء أصلاً، والكفار يغضبون لهذه الأصنام، ويدفعون عنهم، فهم لهم بمنزلة الجند، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم.[(٢)]

فلا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، واتهامهم بأنك شاعرٌ أو ساحر، فنحن أعلم بما يخفونه في صدورهم، وما يظهرونه من أقوالهم وأفعالهم، فنجازيهم عليه، وكفى بربك أنه على

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٥ وما بعدها.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٥٦ بتصرف يسير.

كل شيء شهيد.

من هداية الآيات:

* تقرير النبوة المحمدية، وأن القرآن ذكر، وليس شعراً كما يقول المبطلون.
* الحكمة من نزول القرآن هي أن ينذر به الرسول الأحياء من أهل الإيمان.
* بيان خطأ الذين يقرؤون القرآن على الأموات ويتركون الأحياء لا يقرؤونه عيهم، وعظاً لهم وإرشاداً وتعليماً وتذكيراً.
* وجوب ذكر النعم وشكرها بالاعتراف بها، وصرفها في مرضاة واهبها وحمده عليها
* بيان سخف المشركين في عبادتهم أصناماً يرجون نصرها وهم جند معبأ لنصرتها من أن يمسها أحد بسوء. [1]

إقامة الدليل القاطع على عقيدة البعث والنشور

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

ارتباط هذه الآيات بما قبلها واضح؛ ففي الآيات السابقة يسلي الله تعالى نبيه ﷺ وينهاه عن الحزن بسبب قول الجاحدين الكذب على الله ونبيه وكتابه. وهنا يسوق له نموذجا من هؤلاء

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٦٥.

المنكرين للبعث، القائلين على الله بغير حق؛ وكأن الله تعالى يسليه ويصبره، ويقوي قلبه ويثبته سابقا ولاحقا.

سبب النزول:

جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل، ففتّه، فقال: يا محمد: أيُبعث هذا بعد ما أرَمَّ ؟ قال: نعم، يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم، فنزلت الآيات: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إلى آخر السورة. [1]

التفسير الإجمالي

تقيم الآيات الكريمة هنا الدليل القاطع، والبرهان الساطع، على البعث والنشور الذي هو قضية السورة الأساسية:

وتبدأ الآيات بالاستفهام الإنكاري الذي يحمل معنى التوبيخ والتقريع: أولم ير الإنسان المنكر للبعث ابتداء خلقه فيستدل به على معاده، أنا خلقناه من شيءٍ مهينٍ حقيرٍ هو النطفة «المني» الخارج من مخرج النجاسة ؟ ثم مرَّت بأطوار عجيبة متعددة حتى كَبِر، فإذا هو كثير الخصام، واضح الجدال ؟ يخاصم ربه وينكر قدرته، ويكذب بالبعث والنشور !

وضرب لنا المنكر للبعث مثلا لا ينبغي ضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، ونسي ابتداء خلقه، قال: مَن يحيي العظام البالية المتفتتة ؟

قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين المنكرين لإعادة الحياة إلى الأجساد بعد موتها، قل لهم: يحيى هذه الأجسام والأجساد البالية، الله - تعالى - الذى أوجدها من العدم دون أن تكون شيئاً مذكوراً، ومن قدر على إيجاد الشيء من العدم قادر من باب أولى على إعادته

---

(١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث. الحارث بن أبي أسامة / الحافظ نور الدين الهيثمي. تحقيق: د. حسين أحمد صالح الباكري. ٢/ ٧٢٧. رقم الحديث ٧١٩. والحديث صححه الألباني رحمه الله انظر: صحيح السيرة النبوية للألباني ١/ ٢٠١.

بعد هلاكه. وهو - سبحانه - بكل شيء فى هذا الوجود عليم علماً تاماً، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، سواء أكان هذا الشيء صغيراً أم كبيراً، مجموعاً أم مفرقا.[١]

الذي أخرج لكم من الشجر الأخضر الرطب نارًا محرقة، فإذا أنتم من الشجر توقدون النار، فهو سبحانه القادر على إخراج الضد من الضد. وفي ذلك دليل على وحدانية الله جل شأنه، وكمال قدرته، ومن ذلك إخراج الموتى من قبورهم أحياء.

قال أبو حيان – رحمه الله –: ذكر تعالى لهم ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة، وهو إبراز الشيء من ضده، وذلك أبدع شيء، وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر، ألا ترى الماء يطفئ النار، ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء[٢] ولقد أحسن القائل:

جمعُ النقيضين من أسرار قدرته		هذا السَّحابُ به ماءٌ به نارُ

أوليس الذي خلق السموات والأرض وما فيهما بقادر على أن يخلق مثلهم، فيعيدهم كما بدأهم ؟ بلى، إنه قادر على ذلك، وهو الخلاق لجميع المخلوقات، العليم بكل ما خلق ويَخْلُقُ لا يخفى عليه شيء.

إنما أمره سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا أن يقول له: « كن » فيكون، ومن ذلك الإماتة والإحياء، والبعث والنشور. فتنزه الإلهُ العظيم الجليل، وتقدس عن العجز والشرك، فهو المالك لكل شيء، المتصرف في شؤون خلقه بلا منازع أو ممانع، وقد ظهرت دلائل قدرته، وتمام نعمته، وإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء..[٣]

وهكذا يختم الله جل شأنه السورة الكريمة بهذا الختم الرائع، الدال على كمال قدرته وعظمةِ ملكه وسلطانه.

---

(١) التفسير الوسيط لسيد طنطاوي ١/ ٣٥٥٥.

(٢) البحر المحيط ٧ / ٣٤٨.

(٣) يراجع: التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ٣٥- ٤١.

من هداية الآيـات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء بإيراد أربعة براهين قاطعة.
* مشروعية استعمال العقليات في الحجج والمجادلة.
* تنزيه الله تعالى عن العجز والنقص وعن الشريك والولد وسائر النقائص.
* تقرير أن الله تعالى بيده وفي تصرفه وتحت قهره كل الملكوت فلذا لا يصح طلب شيء من غيره إذ هو المالك الحق وغيره لا ملك له.[1]

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة في غاية القوة، وتمام الوضوح واضحة، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء هذا المقطع بأكمله لتأكيد هذه العقيدة، والتدليل عليها بعدة أدلة وهي:

- خلق الإنسان من نطفة.
- خلق النار من الشجر الأخضر.
- خلق السموات والأرض.

وأخيرا.. فهذه سورة يس، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٦٧.

أهم الدروس المستفادة من سورة يس

احتوت سورة يس على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:

- الرسول هو خاتم الأنبياء أرسله الله بالدين الحق على الصراط المستقيم.
- الإسلام نهج واضح، وطريق مستقيم. وما سواه اعوجاج وتفرق.
- العناد والجحود يقيدان صاحبهما، ويحولان بينه وبين فعل الخير وقبول الحق.
- الإحصاء الدقيق من الله تعالى لكل صغيرة وكبيرة في حياة الإنسان.
- القرآن الكريم هو منهج الرسول الذي يجب اتباعه.
- وجوب إبلاغ دعوة الحق مهما كان حجم التضحيات.
- بشرى المؤمن عند الموت، لاسيما الشهيد فإنه يرى الجنة رأي العين.
- طلب العبرة من أخبار الماضين وأحوالهم، والعاقل من اتعظ بغيره.
- الإيمان بالبعث والجزاء يعطي الإنسان قوة دافعة لفعل الخير وترك الشر.
- الله تعالى يعرفنا نعمه لنشكره عليها، ونصرفها في مرضاته وطاعته.
- التأكيد على عداوة الشيطان للإنسان.
- بعث الخلق وحسابهم هين على الله تعالى وأدلته شاخصة للناظرين.



سورة الصافات

بين يدي السورة:

١ـ أسماؤها:

سُمِّيت سورة (الصافات) بهذا الاسم من باب تسمية الشيء باسم بعضه، على حكم عادته سبحانه في كتابه الكريم، ولافتتاحها بالقَسَم بالصافات، وهي الملائكة التي تقف صفوفاً للعبادة، أو تصفُّ أجنحتها في الهواء امتثالاً للطاعة، وانتظاراً لوصول أمر الله تعالى إليها. كما تسمى سورة (الزينة)، ونقل السيوطي عن الجعبري تسميتها بسورة (الذبيح)، غير أنه يحتاج إلى مستند من الأثر[١].

٢ـ فضائل السورة:

عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال: إنْ كان رسول الله ﷺ ليأمرنا بالتخفيف، وإنْ كان ليؤمُّنا بالصافات. قال يزيد: في الصبح[٢]. كما وردت عدة أحاديث في فضل سورة (الصافات)، وفي فضل بعض آياتها؛ كالعشر الأوَل منها[٣]، وفي آخر آية فيها، لكنها ضعيفة الإسناد، وهذا شأن كثير من أحاديث الفضائل، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (مَن قرأ يس والصافات ليلة الجمعة، ثم سأل الله تعالى أعطاه سؤله)[٤]. وعن عبد الله بن أرقم ﷺ عن النبي ﷺ قال: (مَن قال دبر كل صلاة:﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ

---

(١) الإتقان ،السيوطي١ :/ ،١٧٨ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ،البقاعي٢ :/ .٤٠٨

(٢) إسناده حسن .الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد :رقم الحديث ،٤٩٨٩ :وسنن النسائي: كتاب الإمامة، باب الرخصة للإمام في التطويل، رقم الحديث: ٨١٧.

(٣) عمل اليوم والليلة، ابن السنِّي: ص: ٢٣٦، رقم الحديث: ٦٣٧.

(٤) عزاه في الدر المنثور لابن أبي داود في فضائل القرآن ،وابن البخاري في تاريخه عن نهشل بن سعيد الورداني عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا .كتاب فردوس الأخبار، رقم الحديث: ٥٦٠٥ ٤/ ٣٧.

عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر[1].
وروى ابن أبي حاتم في تفسيره بسند صحيح إلى الشعبي مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه أو حين يريد أن يقوم: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾[2].

ومما ينبَّه إليه أن ورود أحاديث ضعيفة في فضائل سورة (الصافات) وغيرها لا يدعو إلى تركها، إذ من المعلوم أن الحديث الضعيف أنواع ودرجات، ومنه ما يكون بسبب الإسناد، كما أن من المعلوم جواز العمل بالضعيف إذا كان في فضائل الأعمال، ومن المسلَّم به جواز العمل بما أُثِر عن السلف خاصة إذا كان مما تواردت عليه الأخبار، وأثبتت التجربة أثره ونتائجه. وقد تكاثرت الأخبار في قراءة سورة (الصافات) على الممسوس، وتحقَّق النفع بفضل الله تعالى وزال الأذى بتمام تلاوتها، مما يبشر بفضلها، ويؤكِّد أهميتها، ويدلل على اختصاصها بهذا الأثر الباهر، والاعتماد في مثل هذا على التجربة لا على الإسناد، كما نبَّه لذلك الحافظ المنذري في ترغيبه، تعليقاً على حديث ابن مسعود في صلاة الحاجة، الذي رواه الحاكم، ونَقل عنه وعن عدد من السلف تجربتَهم فيها فوجدوها حقاً[3].

كما نبَّه العلماء أيضاً إلى أحاديث موضوعة في فضل هذه السورة[4].

---

(١) الجريب: مكيال قديم. والحديث ضعيف، قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه عبد المنعم بن بشير، وهو ضعيف جداً. انظر: مجمع الزوائد: ١٠/ ١٠٣، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ٢٥، والترغيب والترهيب، المنذري: ٢/ ٤٤٩، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي: ٢/ ٤١١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ٢٥.

(٣) الترغيب والترهيب، المنذري: باب الترغيب في صلاة الحاجة ودعائها١/ ٥٣٧، رقم الحديث: ١٠١١.

(٤) تفسير البيضاوي٥ :/ ١٣٠،وبصائر ذوي التمييز ،الفيروزأبادي١ :/ ٣٩٨،وتفسير أبي السعود: ٧/ ٢١٢.

٣.عدد آيات سورة (الصافات):

عدد آياتها إحدى وثمانون ومئة آية عند البصري وأبي جعفر، واثنتان وثمانون ومئة آية في عدِّ الباقين. وعدد كلماتها اثنتان وستون وثمانمئة كلمة، وعدد حروفها ست وعشرون وثمانمئة وثلاثة آلاف حرف. والمختلف فيها آيتان؛ الأولى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [الآية: ٢٢] لم يعدَّها البصري، وعدَّها الباقون، والثانية: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الآية: ١٦٧] لم يعدَّها أبو جعفر، وعدَّها الباقون[١].

٤.أسباب نزولها:

لقد تعددت أسباب النزول لعدد من الآيات، وسيشار إلى كل سبب في موضعه من المقطع الخاص به.

٥.مرحلة النزول:

مكيَّة بإجماع المفسرين[٢]، وهي السورة السابعة والثلاثون حسب تسلسل المصحف العثماني، والسادسة والخمسون في تعداد نزول السور المكية، نزلت بعد سورة الأنعام في آخر العهد المكي، وقبيل الهجرة إلى المدينة، ثم نزلت بعدها سورة لقمان[٣].

٦.محور سورة (الصافات):

يعالج موضوع هذه السورة بيان أصول العقيدة والتوحيد، والرسالة والوحي، والبعث والجزاء.

---

(١) البيان في عدِّ آي القرآن، الداني: ص: ٢١٢، وبصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٣٩٣، وجمال القرَّاء، السخاوي: ١/ ٣٠٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزأباي: ١/ ٣٩٣، وزاد المسير، ابن الجوزي: ٦/ ٢٩٦.

(٣) الإتقان، السيوطي: ١/ ٨١، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/ ٨١، ونظم الدرر، البقاعي: ١٦/ ١٨٦.

٧. المناسبات في سورة (الصافات):

أ. المناسبة في افتتاحية سورة (الصافات) بالقَسَم:

أما عن مناسبة هذا القَسَم فهو تلك الأسطورة التي كانت شائعة في جاهلية العرب من نسبة الملائكة إلى الله تعالى، واتخاذهم آلهة، بما أنهم - بزعمهم - بنات الله! إذ تروي تلك الأسطورة زعم القرابة بين الله سبحانه وبين الجن، وتستطرد الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله تعالى وبين الجِنَّة وُلِدت الملائكة، ثم تزعم أن الملائكة إناث، وأنهن بنات الله تعالى[١].

ب. المناسبة بين افتتاحية سورة (الصافات) وخاتمتها:

اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله تعالى ونسبوه إليه، مما هو منزَّه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خولوه في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامع ذلك؛ من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون مما لا يليق به، مع وصف نفسه بصفات الكمال، ومدحِه، وتسليمِه على الرسل الكرام، والحمدِ لله رب العالمين على ما قيَّض لهم من حسن العواقب. والمراد تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يُخِلُّوا به، ولا يغفلوا عن مضمَّنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد. عن علي ﷺ: (من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخرُ كلامه إذا قام من مجلسه:﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[٢].

ج. المناسبة بين افتتاحية سورة (الصافات) وخاتمة ما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه ثلاثة:

أولاً: وجود الشبَه بين أول هذه السورة وآخر سابقتها سورة (يس) في بيان قدرة الله تعالى الشاملة لكل شيء في السماوات والأرض، ومنه المعاد، وإحياء الموتى، فلما ذكر سبحانه في سورة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ٢٩٨١.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٣٢، ومعالم التنزيل، البغوي: ٤/ ٥٢.

(يس) قدرتَه على المعاد، وإحياء الموتى، علل ذلك بأنه هو منشئهم، وأنه إذا تعلقت إرادته بشيء كان، ذكر عزَّ وجلَّ هنا ما هو كالدليل على ذلك، وهو القَسَم على وحدانيته سبحانه، إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة إيجاداً وإعداماً إلا إذا كان المريد واحداً، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء: ٢٢].

ثانياً: هذه السورة بعد (يس) كالأعراف بعد الأنعام، وكالشعراء بعد الفرقان في تفصيل أحوال القرون الماضية، المشار إليهم وإلى إهلاكهم إجمالاً في سورة (يس) المتقدمة في قوله سبحانه:﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[يس: ٣١].

ثالثاً: تفصيل هذه السورة ما أُجمِل في السورة السابقة (يس) من أحوال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة[1].

د ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الصافات) ومحورها:

إذا تتبعنا مقاطع السورة نجد أنها قد فصَّلت في محورها آيات سورة (البقرة) الأولى في حديثها عن التوحيد، وخاصة في قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[البقرة: ٣]، فجاءت سورة (الصافات) تفصِّل في أركان الإيمان، حتى لم يبق ركن من هذه الأركان إلا وقد أصابه نوع تفصيل، وكل ذلك ضمن سياق السورة الرئيس، الذي انصبَّ الكلام فيه على التوحيد[2].

هـ ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الصافات) بعضها مع بعض:

تعرَّض صاحب الظلال لهذه المناسبة في تقديمه لسورة (الصافات)، حيث قال: هذه السورة المكية كسابقتها؛ قصيرة الفواصل، سريعة الإيقاع، كثيرة المشاهد والمواقف، متنوِّعة الصور والظلال، عميقة المؤثرات، وبعضها عنيف الوقع، عنيف التأثير. وهي تستهدف كسائر السور المكية بناءَ العقيدة في النفوس، وتخليصَها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله.

---

(١) البحر المحيط ،أبو حيان٩ :/ ،٨٩والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٣/ ٦٠، وتفسير المراغي: ٢٣/ ٤١.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٨/ ٤٧٤٨.

ولكنها ـ بصفة خاصة ـ تعالج صورة معينة من صور الشرك التي كانت سائدة في البيئة العربية الأولى. وتقف أمام هذه الصورة طويلاً؛ وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى.. تلك هي الصورة التي كانت جاهلية العرب تستسيغها، وهي تزعم أن هناك قرابة بين الله سبحانه وبين الجن. وتستطرد في تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله تعالى وبين الجِنَّة وُلِدَت الملائكة. ثم تزعم أن الملائكة إناث، وأنهن بنات الله!

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية في هذه السورة؛ تكشف عن تهافتها وسخفها. ونظراً لأنها هي الموضوع البارز الذي تعالجه السورة، فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة.. ويتلوها حديث عن الشياطين المردة، وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة كي لا يقربوا من الملأ الأعلى. ولا يتسمَّعوا لما يدور فيه؛ ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة! كذلك يشبِّه ثمار شجرة الزقوم التي يعذَّب بها الظالمون في جهنم بأنها كرؤوس الشياطين في معرض التقبيح والتفظيع!

وفي نهاية السورة تأتي الحملة المباشرة على تلك الأسطورة المتهافتة...

وإلى جانب علاج هذه الصورة الخاصة من صور الشرك الجاهلية تتناول السورة جوانب العقيدة الأخرى التي تتناولها السور المكيَّة. فتثبت فكرة التوحيد مستدلة بالكون المشهود.. وتنص على أن الشرك هو السبب في عذاب المعذَّبين في ثنايا مشهد من مشاهد القيامة.. كذلك تتناول قضية البعث والحساب والجزاء.. ثم تعرض بهذه المناسبة مشهداً مطولاً فريداً من مشاهد القيامة الحافلة بالمناظر والحركات والانفعالات والمفاجآت!..

وتعرض لقضية الوحي والرسالة الذي ورد من قولهم: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾، والرد عليهم: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[الصافات: ٣٦ـ٣٧].

وبمناسبة ضلالهم وتكذيبهم. تعرض سلسلة من قصص الرسل: نوح، وإبراهيم وبنيه وموسى وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس. تتكشَّف فيها رحمة الله تعالى، ونصره لرسله وأخذه للمكذبين بالعذاب والتنكيل..

وتبرز في هذا القصص قصة إبراهيم خاصة مع ابنه إسماعيل. قصة الذبح والفداء، وتبرز فيها الطاعة والاستسلام لله تعالى في أروع صورها وأعمقها وأرفعها؛ وتبلغ الذروة التي لا يبلغها إلا الإيمان الخالص الذي يرفع النفوس إلى ذلك الأفق السامق الوضيء..

والمؤثرات الموحية التي تصاحب عرض موضوعات السور وقضاياها، تتمثَّل بشكل واضح في:

مشهد السماء وكواكبها وشهبها ورجومها.. وفي مشاهد القيامة ومواقفها المثيرة ومفاجآتها الفريدة، وانفعالاتها القوية. والمشاهد التي تحويها هذه السورة ذات طابع فريد حقاً، سنلمسه عند استعراضه تفصيلاً في مكانه من السورة، وفي القصص ومواقفه وإيحاءاته. وبخاصة في قصة إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل عليهما السلام، وترتفع المؤثرات الموحية هنا إلى الذروة التي تهزُّ القلوب هزّاً عميقاً عنيفاً...، وهو ذو طابع مميَّز يتَّفق مع صورها وظلالها ومشاهدها ومواقفها وإيحاءاتها المتلاحقة العميقة[1].

و. المناسبة بين افتتاحية سورة (الصافات) وافتتاحية سابقتها:

لأول مرة في السياق القرآني نجد سورة (الصافات) افتُتِحت بقَسَم مباشر، وقد سبقتها سورة (يس) بقَسَم لكنه مسبوق بشيء مثل (يس)، إذ مطلعها:﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ ﴾ [يس: ١-٢]، وسوف تتوالى السور بعد (الصافات) مبتدأة بالقَسَم المباشر، بل ربما توالت مجموعة من السور على هذا النمط في الافتتاح؛ كالذاريات، والطور، والنجم، والفجر والبلد، والشمس، والليل، والضحى[2].

ز. المناسبة بين سورة (الصافات) وما بعدها:

جاءت المناسبة تحمل معنى التكامل والتداخل بين سورة (الصافات) وتاليتها سورة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ٢٩٨٠.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٨/ ٤٦٨٠.



(ص)؛ مع احتفاظ كل منهما بدوره في تفصيل محوره الرئيس.

فقد تابعت سورة (ص) من بدايتها محورَ التوحيد ذاته الذي تضمَّنته سورة (الصافات): ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

ويتجلى الأمر أكثر إذا لاحظنا أن كلتا السورتين تفصِّلان ما ورد في مقدمة سورة (البقرة) حيث الحديث عن المتقين والكافرين والمنافقين؛ فسورة (الصافات) تستعرض صفات الكافرين في معرض الكلام عن التوحيد، وسورة (ص) تتناول صفات المتقين في سياق الإنذار.

وكما فصَّلت سورة (الصافات) في الآيات الأولى من سورة (البقرة) مع امتداد معانيها في سورة (البقرة) كلها، كذلك فإن سورة (ص) تفصِّل آيتي سورة (البقرة) في وصف الكافرين مع امتداد معانيها في سورة (البقرة) أيضاً.

ويظهر التناسب والتكامل أكثر حين يتجلى الخصوص والعموم بين السورتين؛ فحين تتحدث سورة (الصافات) عن (إلياس)، فإن سورة (ص) تذكر اسم خليفته (اليسع).

كذلك حين تتكرر كلمة ﴿ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ مراتٍ في سورة (الصافات)، تأتي سورة (ص) لتذكِّرنا بالطريق الذي أُخلِصوا فيه: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾[ص: ٤٦][1].

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٨/ ٤٧٥٥.

المقطع الأول: (إعلان وحدانية الله تعالى) الآيات: (١-١٠)

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

أقسم الله تعالى بطوائف من مخلوقاته، واختلف المفسرون في معناها؛ فجمهور السلف على أنها أصناف من الملائكة يتصفون بصفات ثلاث: فهم الملائكة يتمُّون صفوفهم للعبادة ويصفُّون أجنحتهم في الهواء انتظاراً لأمر الله تعالى عبادة وطاعة وذكراً له، والملائكة تسوق السحاب وتحرِّكه، والملائكة تتلو القرآن وتذكر. وذهب بعضهم إلى أن المراد بالصافَّات نفوس الغزاة تصفُّ الصفوف في سبيل الله تعالى، أو في الصلاة، وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر. وقيل: الزاجرات: آيات القرآن المتضمنة للنواهي الشرعية، والتاليات: القارئات، أراد بني آدم يتلون الكتب ويسبِّحونه ويكبِّرونه، ولا يضير التأنيث اللفظي هنا، فيجوز تأنيث المفرد باعتبار أنه ذات ونفس، فيطلق ويراد به الطائفة والجماعة. والتأنيث المعنوي هو الذي لا يحسن أن يطلق عليهم. واللفظ يحتمل التعميم، ومذهب الجمهور أرجح، حيث أن الملائكة أسوة في الطاعة وقدوة في التأسِّي، يؤيِّد ذلك حديث حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعِلَتْ صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعِلَتْ لنا الأرض كلها مسجداً، وجُعِلَتْ تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء)[1]. وحديث جابر بن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربهم؟ قلنا: وكيف تصفُّ الملائكة عند ربهم؟ قال: يتمُّون الصفوف المتقدمة ويتراصّون في الصف)[2].

وجواب القسم أن الله تعالى واحد لا شريك له، وهو المعبود بحق، فيجب إخلاص

(١) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٥٢٢.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد، رقم الحديث: ٤٣٠.

العبادة إليه. وإنما أقسم الله تعالى جواباً لكفار مكة الذين قالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ وكيف يسع هذا الخلق؟ فهو خالق السماوات والأرض وما بينهما من مخلوقات، ومالك ذلك كله، وهو ربُّ مشارق الشمس ومغاربها. وخصَّ المشارق هنا بالذكر واكتفى بها عن المغارب لدلالتها عليها. وقد صرح بها في مواضع أخرى، فقال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المعارج: ٤٠]، أي مطالع الشمس ومغاربها. وقال تعالى أيضاً:﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرحمن: ١٧]، على اعتبار مشرقَي الصيف والشتاء ومغربَيهما. وأما قوله تعالى:﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ [المزمل: ٩]. فالمراد به الجهة؛ فالمشرق جهة، والمغرب جهة. وخصَّ الجمع بهذه السورة لمناسبة جموع أولها.

ثم بين سبحانه بعضاً من مظاهر خلقه تأكيداً لوحدانيته، وإثباتاً لقدرته؛ فقد جمَّل الدنيا وزيَّنها[1] بالكواكب تبدو في السماء متلألئة كالجواهر المنيرة، كما يتجلَّى فيها قوة الحفظ والحرز من الشيطان العاتي الخارج عن الطاعة المتجرد للشر. وإنما خصَّ السماء الدنيا بالذكر لأنها التي تباشر أبصارنا، كما أن الحفظ من الشياطين إنما هو فيها وحدها، فلا يمكَّنون من التسمُّع إلى الملائكة في السماء إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره مبالغة في نفي السماع[2]. وظاهر الأحاديث أنهم يستمعون إلى الآن لكنهم لا يسمعون شيئاً منذ بعثة النبي ﷺ لأنهم يُرمَون بالكواكب، ويُرجَمون بالشهب من كل جهة يصعدون إلى السماء منها إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع، فيُمنعون من الوصول إلى ذلك، ولهم في الآخرة عذاب مستمر موجع.

---

(١) قرأ الجمهور:﴿ بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾؛ بالكسر على الإضافة، وقرأ حمزة وحفص عن عاصم بتنوين الجر على البدل، وكلاهما بمعنى واحد. المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/ ٣٣٦.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ يَسَّمَّعُونَ ﴾بالتشديد، وقرأ الجمهور بالتخفيف (يسْمَعون). والتسمُّع طلب السماع. فنفى طلب السماع على قراءة التشديد، ونفى السماع على قراءة التخفيف. والثاني أرجح، لقوله تعالى:﴿ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾[الشعراء: ٢١٢]. المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/ ٣٣٦، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ٦٥.

وطرد الشياطين هو الغالب عليهم، إلا من شذَّ فخطف نبأً، أو اختلس كلمة يسمعها من السماء، فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب المنتفض من السماء قبل أن يلقيها، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب؛ وهو شعلة ساطعة من النار تكاد تثقب لشدة ضوئها، فتتبع الشيطان فتحرقه أو تقتله أو تخبله، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: إن نبي الله ﷺ قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال الحق وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، ووصف سفيان بكفِّه فحرفها، وبدَّد بين أصابعه، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَن تحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَن تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء)(١).

قال صاحب الظلال: والمهم أن هذه الشياطين التي تمنع من الوصول إلى الملأ الأعلى ومن التسمُّع لما يدور فيه هي التي يدَّعي المدَّعون أن بينها وبين الله نسباً، ولو كان شيء من هذا صحيحاً لتغيَّر وجه المعاملة. ولَمَا كان مصير الأنسباء والأصهار ـ بزعمهم ـ هو المطاردة والرجم والحرق أبداً!(٢).

ويقول الإمام الرازي في تفسيره: دلَّت التواريخ على أن حدوث الشهب كان حاصلاً قبل مجيء النبي ﷺ، فإن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي ﷺ بزمان طويل، ذكروا ذلك، وتكلموا في سبب حدوثه، وإذا ثبت أن ذلك كان موجوداً قبل مجيء النبي ﷺ، امتنع على مجيء النبي ﷺ، والأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي ﷺ، لكنها كثرت في زمان

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة سبأ، رقم الحديث: ٤٨٠٠.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ٢٩٨٤.

النبي ﷺ، فصارت بسبب الكثرة معجزة[(١)].

وإنما يعودون إلى استراق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون إليه أملاً في نيل المراد، كراكب البحر يشاهد الغرق المرة بعد المرة، ثم يعود طمعاً في السلامة.

ولعل سائلاً يسأل كيف يحرق الشهاب الشيطان، وقد خُلق من نار؟ ويُجاب أنه ليس من النار الصرف، كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص، كذلك فالأقوى يحرق الأضعف فالنار القوية إذا استولت على الضعيفة أهلكتها، كالحديد يحرق بعضه بعضاً.

المناسبة بين افتتاحية سورة (الصافات) ومحورها:

تتألف السورة بشكل واضح من مقدمة تستمر حتى نهاية الآية العاشرة، تتحدث عن التوحيد، وأدلته، وعن حفظ الوحي.

ثم يأتي مقطعان كل منهما مبدوء بقوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾.

المقطع الأول: ويبدأ من قوله تعالى:﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ ﴾ ويستمر حتى نهاية [الآية: ١٤٨].

والمقطع الثاني: ويبدأ من قوله تعالى:﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ ويستمر إلى نهاية السورة.

ويندمج الكلام في المقطع الأول عن التوحيد، واليوم الآخر، والرسل، كمواضيع متلازمة، إذ يرتبط الإيمان بالله تعالى بالإيمان باليوم الآخر، بل إن أكثر كفر الكافرين سببه الكفر باليوم الآخر، ويرتبط الإيمان بالله تعالى بالإيمان بالرسل، إذ هم الذين يعرفونه حق المعرفة ويعرِّفون عليه حق التعريف، ومن ثَمَّ يقول تعالى في السورة:﴿ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: ٧/ ١٢٤.



ويندمج الكلام في المقطع الثاني عن الله عزَّ وجلَّ والملائكة والرسل والمؤمنين.

ومن ثمَّ فإن السورة إذ تعرض التوحيد تعرض معه قضايا الإيمان كلها، لأن التصور السليم عن موضوع التوحيد مرتبط بالتصور السليم عن قضايا الإيمان كلها[١].

دروس وعبر من المقطع الأول

* لا يجوز للمسلم الحلف إلا بالله تعالى، أو باسم من أسمائه، أو بصفة من صفاته، لقول النبي ﷺ: (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)[٢]. ولله تعالى أن يقسم بما يشاء، على ما يشاء، في أي وقت يشاء، وقد أقسم هنا بالملائكة، وقَسَمُ الله تعالى بمخلوقاته يومئ إما إلى التنويه بشأن المقسم به وعظمته المقرر ضمناً لعظمة قدرة الخالق. وإما لكونه مشرَّفاً عند الله تعالى، وإما بياناً لفضله، وإما لفتاً لنظر العباد إلى ما فيه من فوائد.

* تفيد الآيات فضيلة الصف لله تعالى أو في سبيل الله تعالى، وفضيلة الأجر في الله تعالى، أو في سبيل الله تعالى، وفضيلة تلاوة القرآن والذكر.

* يحمل جواب القسم معنى إثبات توحيد الله تعالى، وأنه لا إله إلا هو سبحانه، ولا ربَّ سواه، ولا معبود بحق غيره، وقد تضمن هذا الجواب الدليل والبرهان الذي يثبت هذه الوحدانية، فهو ربُّ المشارق والمغارب، خالقٌ لها بقدرته، مالكٌ لها بإرادته، قادرٌ على إيجادها وتسييرها بعظمته وسلطانه. وحريٌّ بهذه الصفات أن تدعم معنى الوحدانية التي جاء القَسَم يؤكدها: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾.

* بيان الحكمة الإلهية من خلق الكواكب في السماء الدنيا، وأنها زُيِّنت بها لمنفعتين هما: تحصيل الزينة والتجميل، والحفظ من أذى الشيطان العاتي المارد.

* تقرير أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء لاستراق السمع، فتُرمى وقتاً ولا ترمى وقتاً،

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٨/ ٤٦٧٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، رقم الحديث: ٢٦٧٩.

وتُقذَف من جانب ولا تُقذَف من جانب، وحين يتلقَّى الشيطان الكلمة اختلاساً من أهل السماء، ويلقيها إلى الذي يليه، وهكذا دواليك، لتصل إلى الكاهن فيضيف إليها تسعاً وتسعين كلمة كذباً وافتراءً، فيصدقها الجاهلون. فلما كانت بعثة النبي ﷺ صاروا يُرمَون دائماً واصباً من كل جانب، حيث مُلِئت السماء بالحرس والشهب والنيازك الراجمة، ولم يعد مجال للشياطين تكذب على الناس في ادِّعاء استراق السمع، واختلاس الكلام، كما كان يحدث قبل البعثة.

* ذكرُ أصناف الملائكة يدعو المسلم للتمثُّل بأخلاقهم، والتحلِّي بخصالهم في الدأب على الطاعة، والصف والانتظام للعبادة، والذكر والتلاوة.
* ذكرُ صفات الشياطين يدعو المسلم للتحرُّز من أذاهم، والتحصُّن ضدَّ شرهم، وتجنُّب مسالكهم.

المقطع الثاني: (إثبات المعاد؛ الحشر والنشر والقيامة) الآيات: (١١-٢١)

قال الله تعالى:﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقة:

جاءت افتتاحية السورة في المقطع الأول تتناول الحديث عن إثبات ما يدل على وجود الخالق وقدرته وحكمته في خلق طوائف من مخلوقاته، وما يدل على وحدانيته في خلق السماوات والأرض وما بينهما، مما يدعو إلى التطرُّق لقضية إنكار البعث التي يثيرها المشركون، وقد جاء

الردُّ القرآني هنا على منكري البعث، بالدليل العقلي والنقلي يثبت هذه الحقيقة ويؤكِّدها، حيث أنه لا يقاس خلق الإنسان في العظمة والقدرة إلى خلق العوالم المختلفة من سماوات ومجرات وأكوان وعوالم مختلفة، فهي لا شكَّ أكبرُ وأعظمُ من خلق الإنسان، كما أن إعادة خلق الإنسان ثانيةً أيسرُ من الخلق الأول الذي يحمل معنى الإبداع والإيجاد من عدم.

التفسير:

الاستفتاء: طلب الفتوى، وهي إخبارٌ عن أمر يخفى عن غير الخواص في غرض ما. وهي: إما إخبارٌ عن علم يختص به المخبر، أو إخبارٌ عن رأي يُطلب من ذي رأي موثوق به. والمعنى: فاسألهم عن رأيهم. فلما كان المسؤول عنه أمراً محتاجاً إلى إعمال نظر أطلق على الاستفهام عنه فعل الاستفتاء[١]. وجِيء بـ: (مَن) تغليباً للعقلاء من المخلوقات، ويُحتمَل: مَن خلقنا من الأمم السابقة الهالكة.

والاستفتاء نوع من السؤال، وهو هنا للتوبيخ والتقريع، والمحاجَّة والتغليظ. ومما لا جدل فيه أنهم يقرُّون بالجواب في أن تلك المخلوقات أشدُّ خلقاً، وأصعب إيجاداً منهم، فكيف ينكرون البعث وهم يعايشون ما هو أعظم منه؟ ثم بيَّن الحق سبحانه مدى هذا التفاوت في بيان أصل خلقهم لأبيهم آدم من طين لزج رخو يلتصق باليد لِضَعْفِه.

قال الطبري: إنما وصفه باللزوب لأنه تراب مخلوط بماء، وكذلك خلق ابن آدم من تراب وماء ونار وهواء، والتراب إذا خلط بماء صار طيناً لازباً[٢].

ثم تكاثروا تناسلاً؛ فإذا كانوا في خلقهم على هذه الهيئة من الضعف فكيف يستبعدون المعاد؟

ثم ينتقل في الخطاب القرآني من أسلوب السؤال إلى أسلوب التقرير بذكر (بل) للإضراب

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/ ٩٤.

(٢) جامع البيان ،الطبري: ٢٣/ ٢٨.



الانتقالي من التقرير التوبيخي إلى أن حالهم العجب[1]. أي لا حاجة لاستفتائهم، فهم أهل

---

(١) في قوله تعالى:﴿ عَجِبْتَ ﴾ قراءتان سبعيَّتان. قرأ الجمهور بفتح التاء، على أن المخاطَب رسول الله ﷺ، وقد حصل العجب منه لَمَّا رأى إعراضهم، فيكون الخبر مستعملاً في حقيقته، أو على استعمال الخبر في معنى الطلب للمبالغة، والمعنى: اعجب لهم، أو على تقرير همزة الاستفهام، أي: بل أعجبت. وعلى العموم، فالمعنى: أن حالهم هذه حرِيَّةٌ بالتعجب، كقوله تعالى:﴿ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ ﴾ [الرعد: ٥]. وقرأ حمزة والكسائي بضمها على أن الله تعالى هو المتعجِّب، ومعناه من الله تعالى أنه صفة فعل، فيكون المراد أن الله تعالى أسند العجب إلى نفسه، ويُعرف أنه ليس المراد حقيقة العجب المستلزمة للروع والمفاجأة بأمر غير مترقَّب، بل المراد التعجب على معنى: المجازاة على عجبهم، فأُطلِق على ذلك العقاب فعلُ (عجبتُ)، كما أُطلق على عقاب مكرهم المكرُ في قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾[آل عمران: ٥٤]. والعجب من الله قد يكون بمعنى الإنكار والذم والغضب والمؤاخذة، كما في هذا الموقف، وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضا، كناية عن لازمه، وهو استعظام الأمر المتعجب منه، لأنه أبلغ من التصريح. وقد تكرر في كلام النبوة؛ فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إن الله عزَّ وجلَّ يعجب من رجلين يقتل أحدهما صاحبه، وقال مرة أخرى: ليضحك من رجلين يقتل أحدهما صاحبه، ثم يدخلان الجنة)، يعني ثم يُسلِم القاتلُ الذي كان كافراً، فيقاتل فيستشهد في سبيل الله. رواه النسائي في كتاب الجهاد، باب اجتماع القاتل والمقتول في سبيل الله في الجنة، رقم الحديث: ٣١١٤، وعن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: (من يضم أو يضيف هذا؟ فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيِّئي طعامك، وأصبِحي سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيَّأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: ضحك الله الليلة، أو عجب من فعالكما: فأنزل الله:﴿ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]. البخاري: كتاب المناقب، باب:﴿ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ ﴾، رقم الحديث: ٣٥١٤. وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل). البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الأسارى في السلاسل، رقم الحديث: ٢٧٨٨. قال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأَة الأمصار، فبأيَّتِهما قرأ القارئ فمصيب. ثم علَّل ذلك بقوله: إنهما وإن اختلف معنياهما، فكل واحد من معنييه صحيح؛ قد عجب محمد مما أعطاه الله من الفضل، وسخر منه أهل الشرك بالله، وقد عجب=

عناد، وأنت يا محمد تتعجَّب من قدرته تعالى على هذه الخلائق العظيمة، وإنكارهم للبعث وهم يسخرون من تعجُّبك وتقريرك للبعث. تتعجَّب من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث لأنك موقن بقدرة الله تعالى فيما أخبر عنه من البعث بعد الفناء، وهم على النقيض من ذلك يهزؤون من إمكانية البعث، أو أنهم يسخرون من عجبك فيما تريهم من معجزات، ومن آثار قدرة الله تعالى على البعث، ويبالغون في السخرية والاستهزاء.

وقد نزلت الآية في أبي الأشدِّ بن كَلدة وأمثاله، وكُنِّي بأبي الأشدِّ لشدَّة بطشه وقوَّته[1].

وإذا وعظوا بالقرآن لا يتَّعظون لاستكبارهم، وإذا عاينوا معجزة تدل على صدقك كانشقاق القمر، وتكليم الحجر والشجر، بالغوا في السخرية، وتنادَوا للتهكُّم والاستهزاء.

وقد نزلت الآية في ركانة، وهو من مشركي مكة، لقيه الرسول ﷺ في جبل خالٍ يرعى غنماً له، وكان من أقوى الناس، فقال له: ياركانة! أرأيتَ إن صرعتُك أتؤمن بي؟ قال: نعم، فصرعه ثلاثاً، ثم عرض عليه آياتٍ من دعاء شجرة وإقبالها، فلم يؤمن، وجاء إلى مكة قائلاً: يا بني هاشم! ساحِروا بصاحبكم هذا أهل الأرض[2]، فنزلت فيه وفي نظرائه.

وقالوا: ما هذا الذي يأتينا به من الدلائل إلا سحر واضح ظاهر فلا يؤبه له، ولا ننخدع به، ثم تساءلوا منكرين: أنُبعث أحياءً بعد أن متنا وصرنا تراباً وعظاماً بالية؟ وهل يُبعَث أيضاً أسلافنا الأقدمون؟ وهو أشدُّ غرابة، فأجابهم الله تعالى بقوله: قل لهم أيها الرسول: نعم تُبعثون

= ربنا من عظيم ما قاله المشركون في الله، وسخر المشركون بما قالوه. جامع البيان، الطبري: ٢٣/ ٢٨. وللألوسي تأويل لطيف في قراءة الضم، فيقول: وعندي لو قدّر القول بـ: (بل) كان أحسن أي: بل قد عجبتُ، والذي يقتضيه كلام السلف أن العجب فينا انفعال يحصل للنفس عند الجهل بالسبب، ولذا قيل: إذا ظهر السبب بطل العجب، وهو في الله بمعنى يليق لذاته عزَّ وجلَّ، هو سبحانه أعلم به، فلا يعيِّنون المراد، والخلَف يعيِّنون. روح المعاني، الألوسي: ٢٣/ ٧٧.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ٦٨، وروح المعاني، الألوسي: ٢٣/ ٧٥.

(٢) سنن الترمذي، كتاب اللباس: باب العمائم على القلانس، رقم الحديث: ١٧٠٦، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وسنن أبي داود، كتاب اللباس، باب اللباس في العمائم، رقم الحديث: ٣٥٥٦.

أحياءً مرة أخرى، بعد أن تصيروا تراباً، وأنتم ذليلون حقيرون، والأمر سهل جداً في قدرة الله تعالى، فلا يتطلب أكثر من نفخ إسرافيل في الصور بأمر الله تعالى للخروج من الأرض، فإذا هم قيام من قبورهم أحياء، وحين ينظرون إلى أهوال يوم القيامة يقولون: يا ويلنا[1]، أي: لنا الويل والهلاك.

قال الزجاج: الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة[2]. فيقرُّون بالويل والهلاك، حيث حلَّ موعد الجزاء والعقاب على ما قدَّموا من كفر بالله تعالى وتكذيب بالرسل، فتجيبهم الملائكة توبيخاً وتقريعاً: هذا يوم الحكم والقضاء المبرم بين الناس، الذي يفصل فيه بين المحسن والمسيء.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

علِمْنا من خلال بيان محور هذه السورة حديثَها عن أصول العقيدة والرسالة والبعث في يوم القيامة. وقد أردف في هذه الآيات الحديثَ عن قضية إنكار البعث التي يثيرها المشركون وذلك بالردِّ القرآني على منكري البعث، وباستفهام إنكاري يوصل إلى حقيقة أن البعث أمر لا شبهة فيه، ليثبت بالبرهان والحجة القولَ بالحشر والنشر والقيامة، ببيان أن الذي خلق هذه العوالم والتي هي أصعب في الخلق من الناس قادر على إعادة الحياة فيهم بالأَوْلَى، كما ذكر ذلك في قوله تعالى في السورة السابقة: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ ﴾ [يس: ٨١]، وكما بيَّن في قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر: ٥٧]. وإذا كانت هذه الخلائق أشدَّ وأقوى ففيم يدهشون لقضية البعث ويسخرون منها، ويستبعدون وقوعها، وهي لا تقاس إلى خلق تلك الخلائق الكبرى؟.

---

(١) رأى أبو حاتم الوقف هاهنا، وجعل ما بعده من قول الله أو الملائكة. المحرر الوجيز: ابن عطية: ١٢/ ٣٤٣.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج: ٤/ ٣٠١.

دروس وعبر من المقطع الثاني

* الإيمان باليوم الآخر ركن أساس من أركان الإيمان، يستلزم التسليم بقدرة الله تعالى على البعث والنشر والحشر. وفي الاستدلال على إمكانية البعث تذكر الأمور التالية:

أ ـ قدرة الله تعالى المطلقة في خلق ما يشاء، فقد خلق الإنسان، وخلق ما هو أصعب منه وأشقُّ؛ كالجبال، والسماء، والكواكب، والبحار، فخالق هذه الكائنات العظيمة لا يعجزه إعادة خلق الإنسان. قال تعالى:﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر: ٥٧].

ب ـ صفة الخلق لازمة للخالق، وهي قديمة أزلية أبدية، لا تنفك عنه، فهو سبحانه كان ولا يزال قادراً على كل شيء، ولا يعجزه شيء، والآيات القرآنية تقرِّب لأذهاننا هذا المعنى:﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[لقمان: ٢٨].

ج ـ مِن المسلَّم به عقلاً أن الخلق بمعنى الإيجاد من العدم هو الذي يحمل معنى التحدي والإعجاز، والصنع والإبداع، وهو الذي يُشار إليه في الخلق الأول للإنسان، وتأتي مرحلة إعادة الخلق ثانية يوم القيامة أمراً ميسوراً مقبولاً متوافقاً مع المسلَّمات والبدهيات.

د ـ عدم الانتفاع بالإيمان عند معاينة العذاب، فالدنيا دار سعي وعمل، والآخرة دار جزاء وحساب. قال تعالى:﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[غافر: ٨٥].

هـ ـ تقرير البعث، وبيان طريقة وقوعه.

* تعبَّد الله تعالى عباده بهذا الشرع الحكيم من خلال الدعوة إليه على بصيرة وعلم، مصداقاً لقوله:﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[يوسف: ١٠٨]. وبناءً عليه فطلب العلم النافع فريضة، والجهل في الدين مرفوض، خاصة فيما يتعلق بمعرفة الأحكام الشرعية تحريماً وتحليلاً. ومن هنا يجب سؤال

أهل الذكر، واستفتاؤهم فيما يجهله الإنسان من قضايا شرعية، لقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: ٤٣].

* خلَقَ الله تعالى آدم من تراب (طين لازب ـ لاصق باليد ـ) بصريح النص القرآني، وفي خلْق ابن آدم من الطين دلالاتٌ وإشارات، إذ هو امتداد لهذا السَّنَن الإلهي في مردِّ أصل الخِلْقَة إلى التراب، حين يعلم أن تكوينه من الدم المتولِّد من الغذاء، والغذاء بنوعَيه الحيواني والنباتي ينتمي إلى تراب الأرض في مصدر تكوينه. إذ من الأرض ينبع الماء، وتخرج الثمار والحبوب والأعشاب ـ مصدر بقاء الحيوان والنبات ـ، فكأنَّ مردَّ الإنسان إلى جذره ونشأته من تلك الأرض ـ التي يُعتبر الترابُ والطينُ أساسَ تكوينها ـ، فيه إشارةٌ إلى أهمية تواضع الإنسان وعدم غروره، حين يعلم أن أصله من التراب، ومصيرَه الحتميَّ في النهاية إليه. قال تعالى: ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥].

* الإنسان عدوٌّ ما يجهل، ولكن العاقل هو من يُقيم المحاورة والمحاكاة للأشياء، ويبتعد عن السخرية بالحقائق، والاستهزاء بالمسلَّمات، خاصةً إذا ظهرت له الأدلة والبينات، بمعنى أنه لا يبقى الإنسان أسيرَ هواه، يتعنَّت في قبول الحق والإذعان إليه، بل هو حرٌّ في أفكاره منصفٌ في آرائه، محايدٌ في مواقفه.

* في تسمية يوم القيامة بيوم الفصل إشارة إلى أنه يوم الحُكم والقضاء المبرم بين الناس، حيث فيه يُفصل بين المحسن والمسيء، والمؤمن والكافر. وكلٌّ يُجازَى على عمله؛ ففريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير. وهذا منتهى العدل الإلهي، حين يُفصَل بين العباد بالحق، ويُعطَى كلُّ ذي حق حقَّه بلا بخس، وإلا لما كان لهذه الحياة الدنيا معنىً إذا انتهت بدون حساب ولا جزاء. فمِن مستلزمات عدل الله تعالى ـ وهو سبحانه الذي حرَّم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرَّماً ـ أن ينشر الميزانَ بالعدل، ويُقيمَ الحسابَ بالقسط. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

المقطع الثالث: (مسؤولية المشركين في الآخرة وأسبابها) الآيات: (٢٢-٣٧)

قال الله تعالى: ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن أثبتت الآيات السابقة الدلالة على وجود الله وعلمه وقدرته، وذكّرت بمشاهد ليوم القيامة، تُتابع في سياقها الحديثَ عن أحوال المشركين، وكيف يُساقون إلى النار في ذلٍّ وهوان، لا يجدون النصير ولا المعين، ثم تُصوِّر مشاهد من تخاصمهم فيها، وتلاومِ الأتباع والمتبوعين، كلٌّ يُلقي التبِعَةَ على الآخر.

التفسير:

ينتقل السياق من الخبر إلى خطاب الله تعالى الموجَّه للملائكة الموكَّلين بالتنفيذ في موقف الحشر أن يَجمعوا للحساب المكذبين بيوم الدين، وهم الأصناف الثلاثة: الظالمون المشركون وأشباههم، وقرناؤهم من الشياطين، فيُضَمُّ كل شكل إلى شكله، وكل صاحب من الكفرة إلى صاحبه، أو نساؤهم الكافرات، ومعبوداتهم من الأصنام والأوثان. ووجه حشرها مع عابديها مع كونها جمادات لا تعقل زيادة في تبكيت عابديها، وحسرتهم وتخجيلهم، وإظهارِ أنها لا تنفع ولا تضر.

وتُؤمر الملائكة أن يعرِّفوهم طريق النار ويدلّوهم عليها، زيادة في التهكُّم والازدراء.

والجحيم طبقة من طبقات جهنم يقال إنها الرابعة. كما تؤمر أيضاً بحبسهم في الموقف للحساب والسؤال عن الأقوال والأفعال من الخطايا، وإنكار كلمة التوحيد، وظلم الخلق. وفي الآية تقديم وتأخير على قول بعضهم؛ فالوقوف قبل السَّوق إلى الجحيم، أي: قفوهم للحساب، ثم سوقوهم إلى الجحيم، وقيل: يُساقون إلى النار أولاً، ثم يُحشرون للسؤال.

واختُلِف في مضمون السؤال؛ فقيل: عن شرب الماء البارد على طريق الهزء، أو عن لا إله إلا الله، أو عن أعمالهم. قال ابن عطية: السؤال متَّجه عام في الكفر وغيره، لحديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من داعٍ دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به لا يفارقه، وإن دعا رجل رجلاً، ثم قرأ قولَ الله عزَّ وجلَّ:﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1]). وحديث أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)[2].

ثم يُساءَلون توبيخاً وتقريعاً: ما بالكم لا ينصر بعضكم بعضاً، فيمنعه من عذاب الله كما كنتم في الدنيا متناصرين؟ وفيه إشارة إلى جواب أبي جهل، حيث قال يوم بدر: ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾[القمر: ٤٤]، بل هم اليوم جميعاً منقادون لا حيلة لهم.

وتشهد ساحة القيامة تلاومَهم وخصامَهم، فيتساءلون تأنيباً وسخطاً وتقريعاً، كلٌّ يُلقي التبعة على الآخر، فيسأل الأتباعُ رؤساءَهم عن سبب إغرائهم، وحملِهم على الضلال، وقسرهم عليه، وذلك حين يأتونهم من جهة الخير فيصدونهم عنه.

وفي لفظ اليمين استعارةٌ لمعانٍ خمسة:

---

(١) سنن الترمذي ،كتاب تفسير القرآن ،باب سورة الصافات ، رقم الحديث٣١٥٢ :. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب.

(٢) سنن الترمذي ،كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ،باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص ،رقم الحديث ،٢٣٤١ :قال أبو عيسى :حديث حسن صحيح .والمحرر الوجيز ،ابن عطية١٢ :/ ٣٤٤.

١ـ أنها استعيرت مجازاً لجهة الحق والدين والخير، فعبَّر عنها باليمين، إذ هي الجهة التي يُتيمَّن بها، وبكل ما فيها ومَن فيها. فاليد اليمنى أشرف العضوين، وبها تُباشَر أفضلُ الأشياء؛ من مصافحة، ومناولة، وكتابة، وغيرها. والمعنى: أنكم تأتوننا من قبل الدِّيْن وناحية الخير فتصدوننا عنه، وتَلبسون الحق علينا. وقد رجّحه الطبري، واستحسنه القرطبي[1].

٢ـ ومنها أنها استعيرت مجازاً لجهة القوة والشدة، حيث يقع بها البطش والقهر. والمعنى أنكم كنتم تغووننا بقوتكم بحكم السيطرة والرئاسة، وتحملوننا على طريق الضلال، وتقسروننا عليه.

٣ـ ومنها أنها استعيرت مجازاً لجهة التمويه والإغواء، وهي جهة الرشد والصواب، فكأنهم شبهوا أقوال المغوين بالسوانح التي هي عندهم محمودة، فكأن التمويه في هذه الغوايات قد أظهر فيها ما يوشك أن يُحمَد به. والمعنى: أنكم كنتم تموهون في هذه الغوايات.

٤ـ ومنها أنها استعيرت مجازاً بالحلف، فاليمين هنا بمعنى القَسَم. والمعنى: يَحلفون لنا ويأتوننا إتيان مَن إذا حلف لنا صدقناه[2].

فيردُّ الرؤساء يذكرونهم رفْضَهم الإيمان وإعراضَهم عنه، وأن اختياركم للطغيان طواعية منكم لا جبراً، ولم نتعدَّ أمر الدعوة إليه لنجبركم عليه، بل كانت استجابتكم رغبة منكم لا قسراً.

فلزِمَنا جميعاً وعيدُ الله تعالى بذوق العذاب، فدعوناكم إلى الغيِّ والضلال، فاستجبتم لنا.

ثم بعد هذا الجدل بين الطرفين يقرِّر الحق تبارك وتعالى مآلَهم، وأنه حتمٌ لكل مجرم، تابعاً

---

(١) جامع البيان ،الطبري٢٣ :/ ،٤٩والجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥ :/ ٧٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥ :/ ،٧٥والمحرر الوجيز ،ابن عطية١٢ :/ ،٣٤٨والبحر المحيط، أبو حيان٤ :/ ٩٨.

كان أو متبوعاً أن يُلقَى في النار.

ثم يخبر المولى سبحانه عن سبب عذابهم، وهو أنهم كانوا إذا دعوا إلى كلمة التوحيد أنكروها، وأبَوا إلا الشرك. كذلك أنكروا الرسالة حين اتهموا النبي ﷺ بالسحر والجنون. ولا يخفى ما في اتهامهم ذاتِه من الخلط، إذ كيف يُسوَّى بين الشاعر في حذقه وفهمه، والمجنون في غيِّه وإطباقه؟ فيكذِّبهم بإثبات الحق في شهادة التوحيد، وصدق النبي ﷺ في رسالته التي جاءت خاتمةَ الرسالات، مؤكدةً لمضامينها، ومؤيدةً لأصولها، نافياً عنه أيَّ هيئةٍ من الشعر، أو صفةٍ من الجنون.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المحور الرئيس للسورة يصب في موضوع واحد هو موضوع التوحيد، والمواضيع الأخرى التي تتحدث عنها السورة كلها تتفرع عن هذا الأصل، وفي هذا المقطع يتفرع الحديث عن قضيتين اثنتين من قضايا التوحيد هما: قضية اليوم الآخر، وقضية بعثة الرسل.

فحين دعي الكافرون إلى إعلان التوحيد استكبروا، وتمسكوا بشركهم وكفرهم بدعوة الرسل واتهامهم لهم بالجنون، وهذا يؤكد أن أصل البلاء ومشكلته الأساس الشرك، حيث ينبثق عنه الكفر باليوم الآخر، والكفر بالرسل.

دروس وعبر من المقطع الثالث

* اليمين أشرف العضوين وأمتنهما، وكانوا يتيمنون بها، وبها يصافحون ويماسحون ويناولون ويزاولون أكثر الأمور، ويتشاءمون بالشمال، ولذلك سمَّوها الشؤمى، كما سمَّوا أختها اليمنى. وتيمَّنوا بالسانح؛ وهو المارُّ من اليسار إلى اليمين، وتطيَّروا بالبارح، وهو عكسه. وكان الأعسر معيباً عندهم، وعضدت الشريعة ذلك؛ فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمين، وأراذلَها بالشمال. وكان رسول الله ﷺ يحب التيامن في كل شيء[1]. وجُعِلت

(١) عن عائشة رضي الله عنها ذكرت: (أن رسول الله ﷺ كان يحب التيامن ما استطاع في طهوره ونعله=

اليمينُ لكاتب الحسنات، والشمالُ لكاتب السيئات، ووُعِدَ المحسنُ أن يُؤتى كتابَه بيمينه، والمسيءُ أن يؤتاه بشماله. وفي الآية استعيرت لجهة الخير وجانبه، فقيل: أتاه عن اليمين أي: مِن قِبَل الخير وناحيته، فصدَّه عنه وأضلَّه.

وجاء في بعض التفاسير: مَن أتاه الشيطان مِن جهة اليمين أتاه مِن قِبَل الدِّيْن، فلبَّس عليه الحق، ومَن أتاه مِن جهة الشمال أتاه مِن قِبَل الشهوات، ومَن أتاه مِن بين يديه أتاه مِن قِبَل التكذيب بالقيامة وبالثواب والعقاب. ومَن أتاه مِن خلْفه خوَّفه الفقرَ على نفسه، وعلى مَن يخلفُ بعده، فلم يَصلْ رحِماً، ولم يُؤدِّ زكاة[١].

* مهمة الداعية تبليغ الدعوة، وعرضُ كلمة التوحيد على الناس، ويدلل لذلك أن رسول الله ﷺ عرض كلمة التوحيد على عمه أبي طالب، كما في حديث البخاري[٢].

* ذهب ابن عطية إلى أن النبي ﷺ في عَرْضِه قولَ لا إله إلا الله على عمه أبي طالب جرت السنَّة في تلقين الموتى المحتضرين، ليخالفوا الكفرة ويخضعوا لها. ويُستدَلُّ له بما أخرجه مسلم في الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لقِّنوا موتاكم لا إله

=وترجله. قال شعبة: ثم سمعت الأشعث بواسط يقول: يحب التيامن؛ فذكر شأنه كله، ثم سمعته بالكوفة يقول: يحب التيامن ما استطاع). سنن النسائي، كتاب الطهارة، باب بأي الرِّجْلين يبدأ بالغسل، رقم الحديث: ١١١.

(١) الكشاف ،الزمخشري٤ :/ ٤٣.

(٢) عن ابن المسيب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: (أي عم! قل: لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلِّمانه حتى قال آخر شيء كلَّمهم به: على ملَّة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عنه، فنزلت:﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم الحديث: ٣٥٩٥.

إلا الله)[١][٢].

* كل إنسان مسؤول عن عمله. قال تعالى:﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[الأنعام: ١٦٤] والمسؤولية فردية تكليفية، لا يُعفى منها أحد يوم الحساب، في وقفة فردية بين يدي الله تعالى ليس بينهما ترجمان، مروراً على الصراط، وهو الجسر الممدود فوق نار جهنم، لا يتجاوزه إلا بعد إكمال مراحل الحساب. قال تعالى:﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾[مريم: ٧١-٧٢]. وفي الصحيح أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: (مَن حوسب عُذِّب). قالت عائشة: فقلت: أوَليس يقول الله تعالى:﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾؟ قالت: فقال: (إنما ذلك العَرْض، ولكن مَن نوقش الحساب يهلك)[٣].

* كلمة التوحيد نادت بها جميع الرسالات السماوية، وأكَّدتها رسالة الإسلام. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وبالتالي فأصول الدين واحدة عند جميع الأنبياء، تتجلى في الدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والشرائع متعددة متنوعة، وينحصر تباين الشرائع السماوية في أمور العبادة والمعاملة، حيث تميز دعوة كل نبي بخصائص تنفرد بها. قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[المائدة: ٤٨].

* الشرك بالله أشدُّ أنواع الظلم. قال تعالى:﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان: ١٣]. ولما قال النبي ﷺ لأبي طالب عند موته واجتماع قريش: (إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم

(١) صحيح مسلم ،كتاب الجنائز ،باب تلقين الموتى لا إله إلا الله ،رقم الحديث١٥٢٤ :.
(٢) المحرر الوجيز ،ابن عطية١٢ :/ ٣٤٤.
(٣) صحيح البخاري ،كتاب الرقاق ،باب مَن نوقش الحساب عُذِّب ،رقم الحديث٦٠٥٥ :.

بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية) أبَوا وأنِفُوا من ذلك[1]. كذلك استكبر المشركون عن هذه الكلمة يوم الحديبية، وفي كل مناسبة يعرض النبي ﷺ عليهم قبولَ هذه الكلمة فإنهم يأبون قبولها ظلماً وعناداً. وذلك منتهى الظلم وأقبحُه[2].

المقطع الرابع: (جزاء الكافرين، وجزاء المؤمنين) الآيات: (٣٨-٦١)

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

يتتابع الحديث هنا في نُقلة بلاغية من الغيبة إلى الحضور، موضحاً عدم الفائدة من حوار دعاة الضلال وأتباعهم، فقد شملهم العذاب جميعاً بمقتضى قانون العدل الإلهي المطلق فالجزاء من جنس العمل، والعدل هو أساس الجزاء يوم الحساب، فلا تجاوزات ولا اعتبارات، فمن آمن وعمل صالحاً فهو ناجٍ من السعداء في نعيم خالد، ومن جحد وأشرك فهو خاسر من

---

(١) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومِن سورة (ص)، رقم الحديث: ٣١٥٦. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥ :/ ٧٦.

الأشقياء في جحيم دائم، والآخرة هي الفيصل في ذلك، والحجة فيها على الفريقين. ووعْدُ الله تعالى لا يُخلَف.

التفسير:

يخاطب الحق تبارك وتعالى عمومَ البشر بإعلان عهده ووعده في حق الكفار الجاحدين أن العذاب مصيرهم، والجحيم وعيدهم، جزاءً عادلاً على كفرهم ومعاصيهم، وعقوبة مماثلة لشرهم، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٩]. بخلاف المؤمنين الصادقين؛ فجزاؤهم أضعاف ما أخلصوا وأحسنوا؛ فهم ناجون لا يذوقون العذاب، ولا يُناقَشون الحساب، بل يتجاوز المولى عنهم ويكرمهم برزق معلوم الخصائص؛ من حُسْن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة. وخَصَّ الفواكه بالذكر لأن كل ما يؤكل في الجنة إنما هو سبيل التفكُّه والتلذذ، لا للتغذِّي والتقوُّت، لاستغنائهم عن الحاجة لذلك بمقتضى خلودهم في الجنة. وهم ينعّمون في غاية من الإكرام، فيتكئون على سرر متقابلين تواصلاً وتحبباً، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض. وفي أحيان ترفع عنهم ستور، فينظر بعضهم إلى بعض، ولا محالة أن أعظم أحيانهم فيها متحيزون في قصورهم[1].

ويبين أبو حيان في (بحره) مظاهرَ الرزق والإكرام، فيقول: ذكر أولاً الرزق، وهو ما تتلذذ به الأجسام، وثانياً الإكرام، وهو ما تتلذذ به النفوس، ورزقٌ بإهانةٍ تنكيدٌ، ثم ذكر المحل الذي هم فيه وهو جنات النعيم، ثم أشرف المحل وهو السرر، ثم لذة التآنس بأن بعضهم يقابل بعضاً، وهو أتم السرور وآنسه، ثم المشروب وأنهم لا يتناولون ذلك بأنفسهم، بل يُطاف عليهم بالكؤوس، ثم وصف ما يُطاف عليهم به من الطيب وانتفاء المفاسد، ثم ذكر تمامَ اللذة الجسمانية وختم بها كما بدأ باللذة الجسمانية من الرزق، وهي أبلغُ الملاذ، وهي التآنس بالنساء[2].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/ ٣٥٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ١٠٠.

وبعد بيانه صفة الطعام وتعريفه بهيئة المسكن وحالهم فيه، ذكر صفة الشراب؛ فهو يقدم لهم في آنية من عيون تجري[١] بالخمر التي لا تُسكِر، وهي شديدة البياض، لذيذة الطعم، طيبة الرائحة، لا تَذهب بالعقول، ولا تُسبب صداع الرأس، ولا وجع البطن، كما هي صفة خمر الدنيا. وفي ذلك إيماء إلى مفاسد الأخيرة مما اتصفت به من الغَول؛ وهو اسم عام في الأذى، واشتهرت بالإسكار، وذهاب العقل، والاعتصار، والاختزان.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ: (كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومَن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو مدمنها لم يتب، لم يشربها في الآخرة)[٢].

ثم يتم وصف حالهم في النعيم ببيان صفة زوجاتهم؛ فهنَّ عفيفاتٌ لا ينظرن إلى غير أزواجهن، ولا يُردن غيرهم عفةً وحياءً، ذواتُ عيون واسعة حسان. قال الطبري: يعني بالعِيْن: النُجَلَ من العيون عظامها. وهي جمع عيناء. والعيناء المرأة الواسعة العين عظيمتها وهي أحسن ما تكون من العيون، وشبَّههن في بياضهن بياض البَيض داخل القشر قبل أن تمسه الأيدي. وتشبه العرب الشيء بالحسن والنظافة ببيض النعام المغطى بالريش، كما تشبه النساء بها فيسمَّيْن ببيضات الخدور[٣]. وفسر المكنون بالمصون عن الكسر كناية عن أنهن عذارى.

ثم يجيء الخطاب بصيغة الماضي لصدق الإخبار به، فكأنه قد وقع. والقرينة هي التفريع على الأخبار المتعلقة بالآخرة، فتمضي الآيات تتحدث عن أهل الجنة يتجاذبون أطراف الحديث في مُتَعٍ نفسية، بعد بيان ألوان من المُتَعِ المادية في الجنة، فيسأل بعضهم بعضاً متذاكرين ما مرَّ بهم

---

(١) اختلف القَرَأة في قراءة قوله: ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة وبعضُ قَرَأة الكوفة: (يُنْزَفُونَ) بفتح الزاي، بمعنى: (ولا هم عن شربها تنزف عقولهم)، وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة: (ينزِفون) بكسر الزاي، بمعنى: (ولا هم عن شربها يَنْفَد شرابهم). جامع البيان، الطبري: ٢٣/ ٥٤-٥٥.

(٢) إسناده صحيح على شرط الشيخين .الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد :رقم الحديث: ٥٧٣٠.

(٣) تفسير النسفي ٤ :/ ٢٠.

من أحداث في الدنيا، وما عانوا فيها، فيقول مؤمن منهم متذكراً أحد أصحابه من قرناء السوء في الدنيا من المستهزئين بالبعث والمنكرين له، محتجاً على إعادة الحياة والحساب والجزاء مستخفاً به. ثم يطلب من جلسائه مطالعتَه في النار ورؤيتَه في عذابه يُجازى عليه. ثم يخاطبه بعد أن عاينه يتلظى في عذابه، ورآه في وسط الجحيم[(١)]، فيذكره موبخاً بمحاولاته في إغوائه في الدنيا وسعيه في إهلاكه، حين كان ينكر الإيمان بالبعث ويسخر منه مقراً بفضل ربه عليه في ثباته على الإيمان الذي حماه وعصمه من حضوره معه في هذا المآل الذي لا يُحسَد عليه. ـ و(أحضر) لا تستعمل مطلقاً إلا في الشر ـ. ثم يعود المؤمن يسائل جلساءه من أهل الجنة مبتهجاً مسروراً، وباستفهام تقريري يعبر عن ابتهاجه وسروره، وتحدثاً بنعمة الله تعالى عليه، وبمَسمع من قرينه ليكون توبيخاً له، وزيادة في العذاب: أنحن مخلَّدون منعَّمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟ والحال أن هذه حال المؤمنين أن لا يذوقوا إلا الموتة الأولى[(٢)]. بخلاف الكفار في النار، فإنهم يتمنون فيها الموت كل ساعة. وقيل لحكيم: ما شرٌّ مِن الموت؟ قال الذي يُتمنى فيه الموت[(٣)].

ثم تأتي خاتمة الموقف الحواري بتقرير قاعدة العدل الإلهي؛ وهي أن الخلود في دار النعيم والنجاة من النار، هي حقيقة الفوز العظيم. فليُعِدَّ العقلاءُ العاملون عدَّتهم بمواصلة عملهم

(١) ورد في الآثار أن لأهل الجنة كوى وطاقات يشرفون منها على أهل النار إذا شاءوا على جهة النعمة والعبرة، لأن لهم في عذاب أهل النار وتوبيخهم سروراً وراحة. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ٨٣، وروح المعاني، الألوسي: ٢٣/ ٩٣.

(٢) عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة! فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار! فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة! خلود فلا موت، ويا أهل النار! خلود فلا موت، ثم قرأ:﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ [مريم: ٣٩]. وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا، وهم لا يؤمنون). صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله:﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾، رقم الحديث: ٤٣٦١.

(٣) تفسير النسفي ٤ :/ ٢١، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/ ١١٩.

وإخلاصِهم لله تعالى فيه بكثرة الصالحات، واجتناب السيئات لتحقيق هذا الفوز العظيم، فهو الخير الحقيقي. وأما خير الدنيا فنسبي مؤقت، لا يرقى إلى الكمال والتمام مهما تنامى وتسامى.

ويحتمل أن يكون تقرير هذه القاعدة خلاصةَ حوار هذا المؤمن مع جلسائه، أو أن يكون ردّ الله تعالى على هذا الموقف، وخطابه للنبي ﷺ وأمته، فالدنيا دار عمل بلا جزاء، والآخرة دار جزاء بلا عمل، كأنه يقول: لمثل هذا كان ينبغي أن يعمل العاملون[1].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

الحديث عن جزاء المؤمنين والكافرين في الآخرة جزء أساس في العقيدة، يرتبط بالمحور العام للسورة في تناول قضية التوحيد الكبرى، قضية الإيمان بالله تعالى، وما يتصل بها من الإيمان بيوم القيامة ومشاهده وأحواله. وفي هذا المقطع يتجلى المشهد في وصف حال أهل الجنة وإكرامهم، من خلال تحقق صفة العبودية والإخلاص فيهم، ثم يتتابع الحديث ليبين لنا جزاء المنكرين للبعث، فينقل حواراً لهم حول المآل الذي صاروا إليه، ليقرر حقيقة ترتبط بالمحور الأساس للسورة، مؤكداً قانون العدل الإلهي القائم على أن الجزاء من جنس العمل.

دروس وعبر من المقطع الرابع

* في وصف خصال خمر الآخرة تنزيهٌ لها عن صفات خمر الدنيا، وتلميح وإيماء إلى مفاسدها فتتصف خمر الدنيا بالغَول، وذهاب العقل، وتسبب الصداع والفساد والسُّكْر، وتؤدي إلى العربدة والهذيان، وتوجع البطن، وتفسد الدم وجهاز الهضم، فهي بحقٍّ أمُّ الخبائث[2].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/ ٣٦٤.

(٢) عن عثمان رضي الله عنه يقول: اجتنبوا الخمر فإنها أمُّ الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبَّد، فعلقته امرأة غويَّة، فأرسلت إليه جاريتها، فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي، أو تشرب من هذه الخمرة كأساً، أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذا الخمر كأساً، فسقته كأساً، قال: زيدوني، فلم يَرِمْ حتى وقع عليها، وقتل النفس. فاجتنبوا =

* الحذر من رفاق السوء، والتحفظ من قرناء الشر، ووجوب الاحتراس مما يدعون إليه ويزينونه من المهالك المادية والمعنوية، فالصاحب ساحب، والصديق عنوان صديقه وعلامة عليه، ورحم الله مَن قال: قل لي مَن تُصاحب أقل لك مَن أنت.

* لا حرج من التحدث بنعمة الله تعالى، إظهاراً لفضل الله تعالى، وشكراً له عليها. يقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١]. ولا شك أن لذكر الأشياء المحبوبة لذة.

* الكفار مخاطبون بأصول الدين، ومكلفون بإعلان التوحيد، ومجازَون على أعمالهم السيئة المناقضة لأصول التوحيد؛ من تمجيد وتعظيم آلهتهم، وتكذيب الرسول ﷺ.

* من فضل الله تعالى على عباده أن الحسنة تضاعف عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف مضاعفة، وأن السيئة لا تُجازى إلا بمثلها وقدرها، وهو باب مفتوح للعبد للتزود من الخير.

* نعيم الجنة وعذاب النار حقٌّ محتَّم، وعدل محقَّق، ومؤكَّدُ الوقوع، ولا ينافي عذابُ الكافرين رحمةَ الله تعالى وعفوه وكرمه، إذ قضت حكمته سبحانه أن عفوَه سبق غضبَه، وأن عذابه لا محالة على مَن كذَّب وتولَّى، والجزاء من جنس العمل، فهو شديد العقاب على مَن تحدَّى أمرَه، غفورٌ رحيم لِمَن تاب وأناب.

* الحياة في الآخرة أبدية خالدة في الجنة والنار، والناس في الآخرة ثلاثُ فئات؛ مؤمنٌ حقاً يدخل الجنة فلا يخرج منها أبداً، وكافرٌ حقاً يدخل النار فلا يخرج منها أبداً، وفاسقٌ عاص يدخل النار فيعذَّب على ذنوبه، ويمكث فيها مدة عذابه، ثم يخرج منها، ليخلد في الجنة أبداً.

* الحوار بين أصحاب الجنة والنار ثابت بالنص في سورة الأعراف[1]، كلاهما يطَّلع على حال

= الخمر، فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه. سنن النسائي، كتاب الأشربة، باب ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر: رقم الحديث: ٥٥٧٢.

(١) قال الله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ =

الآخر، وقد بلغ العلم في تقنيته الحديثة اليوم مبلغَه في تحقيق ذلك، من خلال الفضائيات ووسائل الاتصال المختلفة وهي من صنع البشر، فكيف بقدرة الله تعالى القادر على كل شيء؟

* الوفاة مرحلتان؛ معنوية مؤقتة، وتتمثل بالنوم، وحقيقية دائمة، وتتمثل بالموت، وهو انتقال من نهاية مرحلة دار الممرِّ وهي الحياة الدنيا، إلى مرحلة دار المستقرِّ وهي الحياة الآخرة، وهي التي لا موت فيها[1]، حيث يُمثَّل للموت فيها بكبش يُذبَح على بابَي الجنة والنار، في إشارة إلى نهاية الموت، كما سبق في حديث البخاري.

= قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٤-٥٠].

(١) في إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر: ٤٢].

المقطع الخامس: (جزاء الظالمين، وألوان عذاب جهنم) الآيات: (٦٢-٧٤)

قال الله تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد هذا العرض لقصة المؤمن مع قرينه، وما آل إليه حاله من استحقاقٍ جزاءَ إنكاره وجحوده، يجري التعقيب القرآني على هذا الحدث بالإشارة إلى مغزاه عظة واعتباراً، ليظهر التمييز بين نعيم المؤمن وجزاء الكافر، وكما تنوعت ألوان نعيم المؤمنين في الجنة فيما سبق، تتنوع هنا ألوان العذاب في الجحيم، ليقيم الله تعالى الحجة على خلقه حين أهملوا عقولهم، وجحدوا بربِّهم، وأنكروا الحساب، فها هو الجزاء من جنس العمل، ولا يظلم ربك أحداً.

التفسير:

تساؤلاتٌ تحمل في طيِّها التقريرَ لا الاستفهام، تهدف في مضمونها إلى التنبيه على فضل حال المؤمن وفوزه، ومآل الكافر وخسارته، وتقرر لقريش وكفار مكة المستهدَفين بالخطاب حقيقةً لا بد من إدراكهم لها، وهي أن عطاء الله تعالى للمؤمنين في الجنة لا يحدُّ، وإكرامه في وفادتهم حقٌّ وصدق، وقد جاء التفضيل بين شيئين ليس بينهما اشتراك على سبيل التقرير والتوبيخ، فهو حين يقارن بهذا العطاء عذابَ الكافرين، فإنما يهدف إلى التهكُّم والسخرية بهم إذ المعادلةُ بين النزُلَين مقارنةٌ للثرى بالثريا، فأنَّى لطعام الزقوم أن يُعدَّ إكراماً؟ واعتبر النزُلُ ـ وهو الطعام المهيَّأ للضيف ـ إكرامَ أهل الجنة، وأشار إليه باسم الإشارة المفرد البعيد، ليدل على بُعد المرتبة وسموِّها، حيث الشيء النفيس الشريف يُتخيَّل عالياً، والعالي يلازمه البُعدُ عن

المكان المعتاد، وهو السفل.

والزقُّوم طعام أهل النار، جعله الله تعالى فتنةً وابتلاءً لأهل الضلال. فحين سمع الكفار ذِكْرَ شجرة الزقُّوم قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر؟ وكان أبو جهل يقول لأصحابه: أتدرون ما الزقُّوم؟ إنه الزبد والتمر، ثم يأتيهم به ويقول: تزقَّموا، هذا الذي يخوِّفنا به محمد ﷺ[١].

والزقُّوم في الدنيا شجر من أخبث الشجر في الصحاري، خشنٌ، منكَرُ الصورة، كريهُ الرائحة، صغير الورق، مسمومٌ، فيه لبن، إذا أصاب جلد الإنسان تورَّم ومات منه في الغالب، وكأنه مشتق من الزُقمة، وهو اسم الطاعون.

أما زقُّوم الآخرة في النار فهو شجرة تنبت في قعر جهنم، تتفرع أغصانها بين دركاتها وعبَّر عن ثمرها بالطلْع، تشبيهاً بطلْع النخلة، وشبَّهه برؤوس الشياطين في تناهي القبح والبشاعة، فهي وإن لم تكن معروفة عند المخاطَبين، إلا أنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر[٢]، والعرب تشبِّه القبيحَ بالشيطان، وجميلَ الصورة بالملَك، فقد قال تعالى مخبراً عن صواحب يوسف:﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١]. وفي الحديث الصحيح: (ولكأنَّ نخلها رؤوس الشياطين)[٣].

---

(١) جامع البيان، الطبري: ٢٣/ ٤١.

(٢) في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية:﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾، قال رسول الله ﷺ: (لو أن قطرة من الزقُّوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي: كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، رقم الحديث: ٢٥١٠.

(٣) إشارة إلى حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (سُحِرَ النبي ﷺ، حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي، دعا الله ودعاه، ثم قال: أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومَن طبَّه؟ قال: لبيد بن=

ومن معاني التزقُّم البَلْعُ على جهد لكراهتها ونتنها، فتزيد العقوبة حين يشتد جوعهم فلا يجدون مفراً من أكلها كرهاً واضطراراً، ثم بعد ملْءِ البطون منها تزداد الحاجة للريِّ بعد أن يغلبهم العطش، فلا يجدون بُدّاً من شرب الماء الحار، فيكون حال المشروب في البشاعة أعظمَ من حال المأكول، فيصبُّ لهم الماء الحار في الحميم، ويمزج لهم، ليجمع بين مرارة الزقُّوم وحرارة الحميم تغليظاً لعذابهم، وتجديداً لبلائهم، ويكون موضع الأكل والشرب في الحميم خارج الجحيم، فيرِدُون الحميم لشربه كما تردُ الإبل إلى الماء، ثم يعودون إلى الجحيم.

ومبرِّر لون هذا العذاب أنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاقتدوا بهم، وقلَّدوهم دون تعقُّل وتدبُّر، بل كانوا يتسابقون في التقليد مسرعين في رعدة دون حجة أو برهان.

وهذا يؤكد أن ظاهرة الكفر قديمة، وأتباعه كثيرون، رغم إرسال الرسل، وإنذار الكافرين إلا أنها سنَّة الله تعالى في خلقه أن يُعرض الكفار عن دعوة المرسلين عناداً واستكباراً، ولا يتبعهم إلا الخُلَّص من المؤمنين، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ مما كان يلاقيه من صدِّ قريش عن دعوته. فله في قصص الأنبياء من قبل في دعواتهم لأقوامهم الأسوةُ والقدوةُ في الصبر والتحمل، ولقريشٍ العبرةُ والعظة فيما حلَّ بالكفار والمكذبين بالرسل من هلاك ودمار وعقاب.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يتصل الحديث في هذا المقطع بمحور السورة في تناول قضية التوحيد، والحديث عن مشاهد الآخرة، من خلال تتابع الكلام عن جزاء الكافرين في جهنم، وما أعد الله تعالى لهم من عقوبةٍ جزاء كفرهم وشركهم، لكنه يعلل ذلك المآل بسبب تقليدهم للآباء والأجداد في مسيرة

=الأعصم اليهودي من بني زريق، قال: فيما ذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان، قال: فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: والله لكأن ماءها نقاعة الحنَّاء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله أفأخرجته؟ قال: لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أثور على الناس منه شراً، وأمر بها فدفنت). صحيح البخاري، كتاب الطب، باب السحر، رقم الحديث: ٥٣٢٤.

الكفر والإلحاد، فلم يفتحوا قلوبهم، كما لم يعملوا عقولهم لتجنب ضلال السابقين، واتباع الحق الذي جاءت به الرسل في دعواتهم، ففي النهاية قامت الحجة عليهم، واستحقوا العقاب بما كسبت أيديهم، دون اعتبار بمن سبق، أو اتعاظ بما وقع.

دروس وعبر من المقطع الخامس

* قياس عالم الآخرة على عالم الدنيا قياس مع الفارق، فالدنيا عالم الشهادة والمحسوس، وكل ما جاء في الآخرة من أخبار إنما ترجع إلى عالم الغيب الذي تعبَّدنا اللهُ تعالى بالإيمان به، وجعله الفيصلَ بين المؤمن والكافر. وبالتالي فكل أحوال الآخرة يعتقد المؤمن بصدقها، ويؤمن بوقوعها، ويسلِّم بحدوثها، إذا أيقن أن الله تعالى قادر على كل شيء، وأنه سبحانه لا يخلف الميعاد، وأنه عزَّ وجلَّ عدل لا يظلم أحداً، حين ذلك يجد في كل أهوال النار وألوان عذابها ما يُطمْئِنُ قلبَه، ويُسكِن فؤادَه في عدل الله تعالى وحكمته، ويستشعر قدره بقدرة الله تعالى في جميع ذلك، وإمكانية حدوثه.

* التقليد الأعمى شؤم على المقلَّد وعلى مَن يتبعه، وقد عابه القرآن على المشركين مراراً، وذمَّهم حين عطَّلوا عقولهم، وحجَّروها في الاتباع الأعمى، فلا سعادة للإنسان إلا بالنظر والتفكير والبحث عن الحقيقة، ليصلها عن قناعة وتدبر ويقين.

* الترهيب والترغيب أسلوبان ناجعان من أساليب الدعوة، والمقارنة والموازنة ضربان مهمَّان لكل ذي عقل يميز بين أمرين، ليتخذ اختياره عن حكمة ومعالجة، إذ بضدِّها تتميَّز الأشياء، ولا تدرك الحقائق إلا بمقارنتها بأضدادها. ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[يونس: ٣٢].

* لا ينبغي للعاقل أن يغترَّ بكثرة المشركين، فكثرة العدد لا تبرر ضلال الضالين، ولا خطأ الخاطئين، والهدى والضلال ليسا من آثار العدد كثرة وقلة، ولكنهما حقيقتان ثابتتان مستقلتان متباينتان في الوجهة والغاية، والخير والشر، والحسن والقبح، والحق والباطل. ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]. فلا حجة ولا اعتبار للقلَّة والكثرة فيهما.

* ضرب الأمثلة بقصص الأمم السابقة فيه تذكير وسلوان للنبي ﷺ، وتهوين وتخفيف مما كان يعانيه ويلاقيه من تكذيب قومه، وصدِّهم عن دعوته. وفيه درس ومثال له وللدعاة من بعده في أخذ العظة والعبرة بما حلَّ بالأمم الماضية حين كذَّبوا أنبياءهم، وما حلَّ بهم من الهلاك والدمار، وهو لون من ألوان التوجيه والتربية في الصبر والتحمل والتجلُّد. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

* تشبيه المحسوس بالمتخيَّل أسلوب قرآني بليغ في الدلالة على المشبَّه به.

* الحسن والقبح ضدَّان يتقلبَّان في الأشياء والمخلوقات لحكمة، وقد خلقهما الله تعالى فتنة وابتلاءً للإنسان، كي يتخير الحسن المليح، ويتجنب السيء القبيح. فالزقُّوم شجرة خبيثة، ذكرها الله تعالى في القرآن مقرونةً بالفتنة واللعن، وهي في الدنيا والآخرة من المستقبح الكريه[1]، بخلاف طوبى فهي من الألفاظ الطيبة، وقد استعملها القرآن في التودد والتجمل، وأشار إليها النبي ﷺ في مقام الحمد والثناء[2]، وهي شجرة الإنعام والإكرام لأهل الجنة[3].

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: (هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، قال: والشجرة الملعونة في القرآن؟ قال: هي شجرة الزقُّوم). صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب المعراج، رقم الحديث: ٣٥٩٩.

(٢) عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه، رقم الحديث: ٢٢٧٢.

(٣) عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ (أن رجلاً قال له: يا رسول الله! طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني، قال له رجل: وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها). إسناده ضعيف دون قوله: (طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني) فحسن لغيره. الموسوعة الحديثية =

المقطع السادس: (قصة نوح عليه السلام ودعاؤه) الآيات: (٧٥-٨٢)

قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

لما ذكر الله تعالى إرسالَ المنذِرين في الأمم الخالية، وسوءَ عاقبة المنذَرين على سبيل الإجمال أتبع التذكيرَ من جانب النظر في آثار ما حلَّ بالأمم المرسَل إليهم، وما أخبر عنه من عاقبتهم في الآخرة بتذكيرٍ من جانب الإخبار عن الرسل الذين كذَّبهم قومهم وآذوهم، وكيف انتصر الله تعالى لهم، ليزيدَ رسوله ﷺ تثبيتاً، ويُلقِمَ المشركين تبكيتاً، وفي تقديم قصة نوح عليه السلام على غيره من الرسل إشارةٌ إلى أنه أول رسول بعثه الله تعالى إلى الناس، وهو الأسوة الأولى، والقدوة المثلى، وفيه نوع تفصيل لما أُجمِل فيما قبْل، يتضمن سوء عاقبة بعض المنذَرين كقوم نوح، ثم يعقب ذلك الوجهُ الآخرُ في الاستجابة للمرسلين، كما في بيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصوا لله تعالى كقوم يونس[1].

مناسبة هذا المقطع لما بعده من المقاطع:

ذكر في هذه السورة ست قصص من قصص الرسل مع أقوامهم، لأن في كل قصة منها خاصية لها شبَهٌ بحال الرسول ﷺ مع قومه، وبحاله الأكمل في دعوته، ففي القصص كلها عبرٌ بالغة، وأسوة وإنذار، وتهديد وتحذير لمن كفر من أمته، وتسلية للرسول ﷺ، ويجمعها كلها مقاومةُ الشرك ومقاومةُ أهله.

وقد اختير هؤلاء الرسل الستة لأن نوحاً القدوة الأولى، وإبراهيم هو رسول الملة الحنيفية،

=لمسند الإمام أحمد: رقم الحديث: ١١٦٧٣.

(١) تفسير النسفي٤ :/ ٢٤، وتفسير التحرير والتنوير :ابن عاشور٢٣ :/ ١٢٩.

التي هي نواة الشجرة الطيبة ـ شجرة الإسلام ـ، وموسى لشَبَهِ شريعته بالشريعة الإسلامية في التفصيل والجمع بين الدين والسلطان. فهؤلاء الرسل الثلاثة أصول، ثم ذكر ثلاثة رسل تفرَّعوا عنهم، وثلاثتهم على ملَّة رسلٍ مِن قَبلهم؛ فأما لوط فهو على ملَّة إبراهيم، وأما إلياس ويونس فعلى ملَّة موسى عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

التفسير:

جاء دعاء نوح عليه السلام حين أيس من إيمان قومه، بعد أن دعاهم أحقاباً ودهوراً فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً. ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ ﴾ [نوح: ٥ـ٦]. وقد تضمن هذا النداء المبارك لنوح عليه السلام الاستغاثةَ بالله تعالى، والدعاءَ على قومه، وسؤالَ النجاة، وطلبَ النصرة. قال تعالى على لسانه:﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[نوح: ٢٦]، وقال أيضاً: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ ﴾ [القمر: ١٠]، وقال أيضاً: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون: ٢٦]. وفي جميعها وقعت الإجابة على أكمل ما أراد نوح عليه السلام، وأَهلك قومَه بالطوفان.

أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي ﷺ إذا صلَّى في بيتي فمرَّ بهذه الآية: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠] ، قال: صدقت ربنا، أنت أقرب من دعا، وأقرب من دُعي، وأقرب من بُغي، فنعم المدعو، ونعم المعطي، ونعم المسؤول، ونعم المولى أنت ربنا ونعم النصير)[1].

ويشير فعل المدح (نِعْمَ) إلى جملة من مظاهر الإنعام، وصيغة الجمع في ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون: ٢٦] ، دليل العظمة والكبرياء. ثم يأتي بيان هذا الإنعام في الإجابة مفصلاً بعد أن ذُكِر مجملاً؛

فابتدأه بإنجاء الله تعالى إياه، ثم إنجاء أهل دينه، وهم مَن آمن معه وهم ثمانون، نجَّاهم

---

(١) روح المعاني ،الألوسي٢٣ :/ ٩٨.



الله تعالى من الكرب العظيم؛ وهو الغرق، وتكذيب الكفرة، وأذى قومه، وركوب الماء وهوله، والخبر الثقيل على القلب، والحزن، والغمّ الشديد. والمعني به الطوفان، وهو كرب عظيم على الذين وقعوا فيه، وإنجاء نوح منه هو سلامته من الوقوع فيه، لأنه هول في المنظر، وخوف في العاقبة، والواقع فيه موقِنٌ بالهلاك، ولا يزال الخوف يزداد به حتى يغمره الماء، ثم لا يزال في آلام من ضيق النفس، ورِعدة القرِّ، والخوف، وتحقق الهلاك حتى يغرق في الماء.

أما النعمة الثانية: فهي جعل ذريته أصولَ البشر والأعراق والأجناس، وجعل عمران الأرض بها، وهي نعمة دائمة لأنهم يدعون له، ويذكر بينهم، وهم وحدهم دون غيرهم الباقون على قيد الحياة. والآية تفيد الحصر، وهو أن كل مَن سواه وسوى ذريته ممن كفر بدعوته قد فنوا؛ ومنهم زوجته وولده الرابع كنعان الذي أبى الاستجابة لأمره، وقد أشار القرآن الكريم إليهما في آيات معروفة[1].

قال ابن عباس: ذرِّيتُه بنوه الثلاثة: سام وحام ويافث. فسام أبو العرب وفارس والروم، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك والصقلب والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك. وعن سمرة بن جندب ﷺ عن النبي ﷺ قال: (سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش)[2].

فنوح آدم الأصغر، والأب الثاني للبشر، لأن ذرِّيته هم ركّاب السفينة، وهم الأحياء فقط، والذين بقَوا من نسله بعد هلاك قومه. قال ابن عباس: أهل الأرض كلهم من ذرية نوح. وهو شيخ الأنبياء، بل أول الرسل إلى الأرض، كما في حديث الشفاعة: (اذهبوا إلى غيري، اذهبوا

---

(١) قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم: ١٠]، وقال تعالى:﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[هود: ٤٥-٤٦].

(٢) سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومِن سورة الصافات، رقم الحديث: ٣٨٦٦. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

إلى نوح، فيأتون نوحاً ﷺ، فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمَّاك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا عند ربك؟)[1].

وأما النعمة الثالثة: فهي إبقاء الثناء الجميل والذكر الحسن فيمن يأتي بعده من الأمم، فقد ذُكر لنبي إسرائيل في معرض الاقتداء به، في قوله تعالى:﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[الإسراء: ٣]. بل إنه لم يبعث نبيٌّ بعده إلا أمر بالاقتداء به، كما في قوله سبحانه:﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[الشورى: ١٣]. أما تعيين هذا الثناء فيحمل معنى التحية والتعظيم والسلام الدائم في أوساط العالمين؛ من إنس، وملائكة، وجن غابر الدهر. قال الطبري عن هذا السلام: هذه أَمَنَة من الله تعالى لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء[2]. وقال ابن عطية: هذا جزاء ما صبر طويلاً على أقوال الكفرة الفجرة[3].

أما مبررات هذه الإنعامات السابقة فتتمثَّل في:

١ـ مجازاته على إحسانه، فهكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى. وثناء الله تعالى على نوح بالإحسان لصبره على أذى قومه.

٢ـ وبسبب كونه محسناً، هو كونه من عباد الله المؤمنين، وفيه دلالة على أن الإيمان بالله تعالى وطاعته أعظم الدرجات، وأشرف المقامات، وفي ذلك إشارة إلى عظمة رتبة الإيمان وفضله، ومكانته ومنزلته.

٣ـ إغراق كفار قومه بالطوفان، وإهلاكهم، وفي ذلك عظة وعبرة، وهذا يقتضي أنه تعالى أغرق قوم نوح وأمَّته ومكذِّبيه، فلم تبق منهم عين تطرف، ولا ذِكْرٌ، ولا أثر، ولا يُعرفون إلا

(١) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله، ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾، رقم الحديث: ٣٠٩٢

(٢) جامع البيان ،الطبري٢٣ :/ ٦٨.

(٣) المحرر الوجيز ،ابن عطية١٢ :/ ٣٧١.

بهذه الصفة القبيحة.

وليس في الآيات نص على أن الغرق عمَّ جميع أهل الأرض، لكن قال به جماعة من العلماء وأسندت به أحاديث أنه لم يبق إلا مَن كان معه في السفينة، وعلى هذا يكون الناس اليوم من ذريته.

ومن المعلوم أنه لم يكن الناس في عهد نوح بهذه الكثرة، وكانت دعوة نوح ﵇ ونبوَّته قد بلغَت جميعهم، لطول المدة واللبث فيهم. وكان الجميع عبدةَ أوثان وكفرة لم ينسبهم الحق إلى نفسه، فلذلك أغرق جميعهم.

قال الزمخشري: فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ؟

قلت: معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً، وأن لا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح، وأدامه في الملائكة والثقلين يسلِّمون عليه عن آخرهم. علَّل مجازاة نوح ﵇ بتلك التكرمة السنية مِن تبقية ذكره، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسناً، ثم علَّل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً، ليريَك جلالةَ محلِّ الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم، ويرغبك في تحصيله والازدياد منه[1].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تأتي قصة نوح هذه لتخدم في سياقها محور السورة العام من خلال دعوته ﵇ قومه إلى التوحيد، فقد أظهر من الجهد ما تَمَيَّز به في الدعوة؛ من خلال طول المدة والمكث في قومه إضافة إلى صبره على أذاهم وإعراضهم عنه، فهو مثال عالٍ لمن يليه من الرسل في الدعوة إلى الإيمان ونبذ الشرك، كما أنه نموذج رائع في أمانة حمل الرسالة، وقدوة حسنة في الدعوة، والصبر على أذى الأتباع، وحيث كان مستحقاً لرتبة الظفر والإنجاء، لذلك نال هذا الإكرام الجميل والثناء الحسن في العالمين.

---

(١) الكشاف ،الزمخشري ٤ :/ ٥٠.

دروس وعبر من المقطع السادس

* من مقتضيات الإيمان الصحيح بالله تعالى الإنجاءُ من المهالك، والإسعادُ في الدنيا والآخرة، وبقاءُ الأثر والسمعة الطيبة والذكر الجميل أبدَ الدهر، وعلى عكس ذلك فمن مقتضيات الكفر بالله تعالى الإيقاعُ في أنواع العذاب الأليم، والشقاءُ في الدنيا والآخرة، وسوءُ السمعة، ومحل العظة والعبرة. والسعيد من اتعظ بغيره. والشقي من كان عبرة وأثراً يذكر لغيره.

* الدعاء مخُّ العبادة، وللدعاء آداب وأحكام فصَّلها العلماء، ومما ينبَّه إليه أهميةُ الدعاء، والحذرُ من دعوة المظلوم. فقد أثبتت الآثار أنه ليس بينها وبين الله حجاب، يرفعها الله تعالى إلى سابع سماء، ويقول الحق تبارك وتعالى: وعزَّتي وجلالي لأ نصرنَّك، ولو بعد حين[1].

* الإيمان بالله تعالى والانقياد لطاعته أعظمُ الدرجات، وأشرفُ المقامات، وفي هذا إيماء لفضل الإيمان والإحسان، وإكرام الله تعالى لأوليائه المؤمنين، وحسنِ عاقبة أهله المحسنين. وبالمقابل الإشارة إلى خطر الكفر، وسوء عاقبة أهله، وإهانتهم وإهلاكهم.

وذكر القرطبي في تفسيره عن سعيد بن المسيب قال: وبلغني أنه مَن قال حين يمسي: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧]، لم تلدغه عقرب. ذكره أبو عمر في التمهيد[2].

وفي الموطأ: عن خولة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ قال: (من نزل نُزُلاً فليقل: أعوذ بكلمات

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا تردُّ دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الربُّ وعزتي لأنصرنَّك ولو بعد حين). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب في العفو والعافية، رقم الحديث: ٣٥٢٢، وسنن ابن ماجه، كتاب الصيام، باب الصائم لا ترد دعوته، رقم الحديث: ١٧٤٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي ١٥ :/ ٩٠.

الله التامَّات من شرِّ ما خلق، فإنه لم يضرُّه شيء حتى يرتحل)[١].

وفيه عن أبي هريرة ﷺ: (أن رجلاً من أسلم قال: ما نمت هذه الليلة، فقال له رسول الله ﷺ: من أي شيء؟ قال: لدغتني عقرب. فقال رسول الله ﷺ: أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شرِّ ما خلق، لم تضرُّك)[٢].

المقطع السابع: (قصة إبراهيم عليه السلام ـ١ـ) الآيات: (٨٣ـ١٠١)

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

تأتي قصة إبراهيم هذه عقب قصة نوح عليهما السلام، يربط بينهما الحديث عن وحدة الهدف والرسالة؛ فكلاهما رسول دعا قومه إلى التوحيد ونبذ الشرك، وفي ذلك بيان للصلة الوثيقة بين الأنبياء في رسالاتهم، فكلهم يؤوبون إلى أسرة واحدة، وطريقهم واحد يفيض بالحق من مشكاة واحدة ـ مشكاة النبوة ـ، كما تجمع بينهما وحدة المآل الواحد، وهو الحماية

(١) الموطأ ،كتاب الاستئذان ،باب ما يؤمر به من الكلام في السفر، رقم الحديث: ٣٤.

(٢) الموطأ ،كتاب الشعر ،باب ما يؤمر به من التعوذ، رقم الحديث: ١١. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ٩٠.

والإنجاء، فحين تتحدث القصة الأولى عن إنجاء الله تعالى لنوح من الغرق، تأتي هذه الثانية لتخبر عن إنجاء الله تعالى لإبراهيم من النار.

التفسير:

في الآيات تذكير للنبي ﷺ بإخوانه من الأنبياء والمرسلين، وكيف أنهم سلسلة واحدة متتالية في حمل الرسالة وأداء الأمانة، يشايع بعضهم بعضاً، ويشابهه في التصلُّب للدين ومصابرة المكذبين. فإبراهيم ممن سار على ملَّة نوح في أصول الدين والتوحيد، وإن اختلفت شرائعهما، أو اتفق أكثرهما. وقد كان بينهما ألفان وستمئة وأربعون سنة تعاقب خلالها نبيَّان؛ هما هود وصالح عليهما السلام. وقد أقبل إبراهيم على ربِّه بقلب مخلص موحِّد، خالٍ من شوائب الشك، نافرٍ من الشرك وجميع النقائص؛ كالغلِّ، والحسد، والكبر، فلم يلعن شيئاً قطُّ. كما أنه جمع مكارم الأخلاق:﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[هود: ٧٥]، وهو منزَّه عن كل خلق ذميم، واعتقاد باطل. يقول النبي ﷺ: (بعثت بالحنيفية السمحة)[١].

وقد حاور أباه وقومه في دعوتهم ومنهجهم، وأقام عليهم الحجة حين أنكر عليهم ما يعبدون من الأصنام، وبيَّن لهم وجه الإفك ـ وهو أسوأ الكذب الذي لا يثبت ويضطرب ـ في اتخاذ تلك الأوثان آلهة من دون الله، وحاججهم بأسلوب استفهام توبيخي تقريري يحمل معنى التحذير والوعيد، أي: أكذباً ومحالاً تريدون آلهةً غيرَ الله، حيث جعلتموها بكذبكم

---

(١) عن أبي أمامة ﷺ قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في سريَّة من سراياه، قال: فمرَّ رجل بغار فيه شيء من ماء، قال: فحدَّث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء، ويصيب ما حوله من البقل، ويتخلَّى من الدنيا، ثم قال: لو أني أتيت نبي الله ﷺ فذكرت ذلك له، فإن أذن لي فعلت، وإلا لم أفعل، فأتاه فقال: يا نبي الله! إني مررت بغار فيه ما يقُوتُني من الماء والبقل، فحدَّثتني نفسي بأن أقيم فيه، وأتخلَّى من الدنيا، قال: فقال النبي ﷺ إني لم أُبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بُعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف خيرٌ من صلاته ستين سنة). إسناده حسن في المتابعات والشواهد. الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد: رقم الحديث: ٢٢٢٩١.

بألسنتكم آلهة، وهي أحجار وأصنام؟ وما ظنُّكم حين تلقون ربكم أنه فاعل بكم، وقد عبدتم معه غيره؟

ثم أراد إبراهيم أن يقيم عليهم الحجة في أصنامهم التي لا تضر ولا تنفع، فاختار طريقة التفكر والنظر في النجوم، إذ هم يستعملونها في رعيهم وفلاحتهم، ليوهمهم من خلالها أنه عليل، كي يخلّوا بينه وبينها، والحق أن نظر إبراهيم في النجوم إنما كان من قبيل التورية، فإنه أراد شيئاً وفهموا منه شيئاً آخر، تمهيداً لخطته التي بيّتها في أن يكايد أصنامهم حين يخرجون لعيدهم غداً، فيتخلَّف عن الخروج، دون أن يطَّلعوا على ما بيَّت عليه النية. وبه يتبين أن إبراهيم عليه السلام لم يقدم على النظر إلى النجوم كما يفعل عبدتها فذلك غير جائز، ولم يكن كاذباً في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

واختلف في قوله:﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ فقالت فرقة: هي كذبة في ذات الله تعالى، أخبرهم عن نفسه أنه مريض، وأن الكوكب أعطاه ذلك، وعلى هذا التأويل يجيء الحديث عنه ﷺ قال: (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات؛ قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله في سارة: هذه أختي)[1].

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات؛ ثنتين منهن في ذات الله عزَّ وجلَّ، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة، قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخِذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلِق، ثم تناولها الثانية فأُخِذ مثلها أو أشدّ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأُطلِق، فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده مهيا، قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره، وأخدم هاجر). قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، رقم الحديث: ٣١٠٨.

وقالت فرقة: ليست بكذبة، ولا يجوز الكذب عليه، ولكنها من المعاريض الجائزة. وفي الحديث: (إن في المعاريض لمندوحه عن الكذب)[١]. فهو حين أخبرهم أنه سقيم أراد أنه سقيم النفس من أموركم وكفركم، وهذا يدل على أنه لم يكن سقيماً، وإنما عرَّض لهم، وهكذا هي المعاريض.

وهذا التأويل لا يردُّه الحديثُ وذِكْرُ الكذبات، لأنه قد يقال لهذا كذب على الاتساع بحسب اعتقاد المخبر، وقد رُخِّص بالكذب تعريضاً في المكيدة في الحرب، وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين. والكذبُ الذي هو قصد قول الباطل والإخبار بضدٍّ ما في النفس بغير منفعة شرعية هو الذي لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وتسميته بالكذب في الحديث الصحيح إنما هو بالنظر إلى ما فهم القوم منه، لا بالنظر إلى قصده ﷺ كما أن جعله ذنباً في حديث الشفاعة لما يتبين له أنه كان خلاف الأَولى. وكذا يقال في: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ ﴾. والصحيح أن الكذب حرام إلا إذا عُرِّض به، وورِّي عنه.

قال ابن كثير: ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يُذمُّ فاعله، حاشا وكلا ولا، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً. وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي، لحديث: (إن لكم في المعاريض لمندوحة عن الكذب)[٢].

وقال القرطبي: فإبراهيم صادق، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم واصطفائهم، عُدَّ هذا ذنباً، ولهذا قال:﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢][٣].

ثم إن إبراهيم ﷺ بحجته هذه استطاع الانفراد بالآلهة ليحقق هدفه فيها، وقد تركوا

---

(١) بوَّب البخاري له في كتاب الأدب من صحيحه ،كما أخرجه أيضاً في كتاب الأدب المفرد من حديث مطرف ،قال :صحبت عمران بن حصين إلى البصرة ،فما أتى علينا يوم إلا أنشدنا فيه الشعر ،وقال :إن في معاريض الكلام لمندوحة عن الكذب. الأدب المفرد: باب المعاريض، رقم الحديث: ٨٨٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥ :/ ٩٣.



عندها طعاماً لتُبَارِكَه، فبادرها السؤال تهكُّماً واستهزاءً، مستفهماً المانع من عدم أكلها الطعام، وهو بهذا يعزز وجه الاحتقار لها، لأنها منحطة عن رتبة عابديها، إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها، وليقينه في أنها جمادات لا تعقل، لكنه يتابع خطته فيميل عليها خفية بقوة وشدة فيحطمها إلا كبيرها، حيث تركه، لعل لسان حال المشهد يعيدهم لرشدهم إن هم أنصفوا التفكير، وعقدوا المقارنات.

وحين عادوا من عيدهم فوجئوا بالخبر، فأتوا مسرعين[1] يسألون عمَّن كسرها، وحين أيقنوا الفاعل عاتبوه، فقالوا: نحن نعبدها وأنت تكسرها!. فردَّ عليهم عتابهم بتلويمهم وتأنيبهم بسؤالهم عن عبادتهم لما يصنعونه وينحتونه بأيديهم. والنحت حقيقة في الخشب، مجاز في الحجر. والله تعالى المستحق للعبادة وحده، لأنه خلقكم، وخلق ما تعملون وتصنعون.

وتحتمل (ما) إعرابين؛ المصدرية، والصلة. بمعنى: (والله خلقكم وعملكم)، أو (والله خلقكم والذي تعملون). وفي كليهما دليل على أن الله تعالى خلق الإنسان، وخلق أفعال العباد وأعمالهم المكتسبة. وهذا يؤيِّد مذهب أهل السنَّة، وفيه ردٌّ على القدرية والجبرية، وإبطالٌ لقولهم: أن الإنسان خالقٌ لأفعال نفسه.

روى البخاري عن حذيفة ﷺ مرفوعاً قال: (إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته فهو الخالق وهو الصانع سبحانه)[2]، وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إن الله خالق كل صانع وصنعته)[3].

---

(١) في قوله تعالى: ﴿يَزِفُّونَ﴾ قراءتان سبعيَّتان: قرأ الجمهور: ﴿يَزِفُّونَ﴾من زفَّ، أي: أسرع، وقرأ حمزة: (يُزِفُّون) مِن أزفَّ، بمعنى: دخل، أي: شرعوا في الزفيف. المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/ ٣٧٨، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/ ١٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب خلق أفعال العباد .انظر :فتح الباري ،العسقلاني ،كتاب التوحيد ،باب قول الله تعالى﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾: ١٣/ ٥٤٠.

(٣) ذكره الثعلبي ،وأخرجه البيهقي من حديث حذيفة. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ٩٦.

ولما غلبهم إبراهيم في الحجة، وأقامها عليهم، مالوا إلى الغلَبة بقوة البطش والشدة وتواطؤوا على قتله، فتشاوروا فيما بينهم، ثم قرروا أن يبنوا له مكاناً واسعاً، ويضرموا فيه النار المستعرة، ويطرحوه فيها انتصاراً لأصنامهم. فأرادوا به سوءاً بحيلهم ومكرهم، فأنجاه الله تعالى، وجعلها برداً وسلاماً عليه، وجعلهم أذلة مقهورين في إبطال كيدهم.

ولما نجَّا الله تعالى إبراهيم من إحراق النار، وأيس من إيمان قومه، قرَّر هجرهم ومفارقتهم وأعلن هجرته من بلد قومه الذين آذَوه إلى حيث أمره ربه بالمهاجرة إليه، كي يتمكن من عبادته وطمعاً في أن يهديه الله تعالى لما فيه صلاح الدين والدنيا. وإبراهيم أول مَن سنَّ مبدأ الهجرة في سبيل الله، فكانت الهجرة من بلاد بابل إلى بلاد الشام المباركة.

وفي أثناء الهجرة دعا ربه أن يرزقه الذرية الصالحة لتكون عوناً على الطاعة، وأنساً في الغربة، وعوضاً عن قومه، وكان وقتئذٍ وحيداً، فكانت البشارة بغلام انطوت فيه ثلاث خصال: أنه غلام ذَكَر، وأنه سيبلغ أوان الحلم وسن الرشد، وأنه يكون حليماً، أي في كِبَره، لأن الصغير لا يوصف بذلك، والحليم من لا يتسرع في الأمور ويتحمل المشاق. وأيُّ حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح، فقال:﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

وجمهور المفسرين على أن الغلام إسماعيل، فإنه أول ولد بُشِّر به إبراهيم، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نصِّ كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم ستٌّ وثمانون سنة، ووُلِدَ إسحاق وعمر إبراهيم تسعٌ وتسعون، كما أن قصة الذبح جرت بمكة وإسماعيل هو غلامه الذي هاجر معه إليها صحبة أمه، ويؤيد ذلك حديث رسول الله ﷺ: (أنا ابن الذبيحين)[1]. ويعزِّزُ ذلك أن البشارة التالية بعد تمام قصة الذبح كانت لإسحاق في قوله

(١) فتح الباري ،العسقلاني ،كتاب التعبير ،باب رؤيا إبراهيم عليه السلام١٢ :/ ٣٩٥. ورواه الحاكم في المستدرك عن معاوية بن أبي سفيان أن أحد الأعراب قال للنبي ﷺ: (يا ابن الذبيحين، فتبسَّم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه). قال الحاكم: وقد ذكر الواقدي هذا القول بأسانيده، وعدَّدهم، ثم قال: وقد كنت أرى مشائخ الحديث قبلنا، وفي سائر المدن التي طلبنا الحديث فيه، وهم لا يختلفون أن الذبيح إسماعيل،=

تعالى:﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

ومال جماعة من أهل العلم ومنهم الطبري إلى أن الذبيح المبشَّر به إسحاق، ونقل ذلك عن طائفة من السلف وبعض الصحابة، ولا دليل لذلك من كتاب ولا سنة، إنما هو تلقٍ عن أخبار أهل الكتاب من غير حجة، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم في ذلك، وحرَّفوا كتابهم الذي فيه أن الله تعالى أمر ذبح ابنه الوحيد البِكْر، فاعتبروا إسحاق وحيداً حين ذهب إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى مكة. ولا يخفى ما فيه من تحريف. وقد ردّ ابن كثير ذلك بأدلة وآثار عن السلف، واستنتاجات عدَّة، وأخذاً بما في نصوص التوراة[1].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

من خلال استعراض قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، ودعوته إياهم إلى التوحيد وإقامة الحجة والبرهان عليهم، حين مجادلتهم في أمر الأوثان التي يعبدونها، وتغلُّبهم عليه بإلقائه في النار انتصاراً للآلهة، يظهر لنا مدى الصراع الطويل بين الحق والباطل، وهو مما يؤكد أن قصة إبراهيم هذه لها ارتباط وثيق بمحور السورة الأساس، المتعلق بالدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك، وهي امتداد وتأصيل لأركان الإيمان ومستلزماتها. وتعميق وتثبيت لبنود العقيدة الصحيحة. كما أنها مثال وأسوة لحال النبي ﷺ في ثباته على دعوة التوحيد، وإبطال الشرك وفيما لقي من المشركين، وإيماء إلى أنه يهاجر من أرض الشرك، وأن الله تعالى يهديه في هجرته ويهب له أمة عظيمة، كما وهب إبراهيم أتباعاً فقال:﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[النحل: ١٢٠].

=وقاعدتهم فيه قول النبي ﷺ: (أنا ابن الذبيحين)، إذ لا خلاف أنه من ولد إسماعيل، وأن الذبيح الآخر أبوه الأدنى عبد الله بن عبد المطلب، والآن فإني أجد مصنفي هذه الأدلة يختارون قول مَن قال: أنه إسحاق. المستدرك، الحاكم: ٢/ ٦٠٤ـ٦٠٩.

(١) تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير ٤ :/ ١٩.

دروس وعبر من المقطع السابع

* مشروعية الدعاء بالولد، واستحباب الدعاء لمن رُزِق بالمولود، كما اشتُهر عن الحسن البصري رحمه الله تعالى تهنئته بكلام حسن، حين دخل عليه رجل وعنده رجل وُلِدَ له غلام، فعلَّمه أن يقول: (بُورِك لك في الموهوب، وشكرت الواهب، وبلغ رُشده، ورُزِقت برّه)[١].

* وجوب الهجرة على المؤمن إذا لم يتمكن من إقامة شعائر دينه على الوجه المرضي في أرضه فيجب عليه الهجرة منها إلى أرض أخرى يتمكن فيها من إقامة هذه المشاعر، ولا يخفى ما للهجرة في سبيل الله تعالى من أجر وفضل ومثوبة، وقد توافرت النصوص تحثُّ عليها وتباهي بها. وإن أول هجرة كانت في الأرض هي هجرة إبراهيم الخليل ﵇ من العراق إلى الشام.

* أصل الدين واحد، وهو دين الإسلام الذي نادت به الرسالات السماوية كلها، في دعوتها إلى الإيمانِ بالله تعالى وتوحيده، والإيمانِ بالرسل واليوم الآخر، والحضِّ على أصول الأخلاق والفضائل، ونبذِ الشرك والضلال، إلا أن الأنبياء أُرسِلوا بهذه الدعوة إلى أقوامهم خاصة، وكانت رسالة النبي ﷺ عامة لجميع بني البشر.

* التعريض والتورية والإيهام جائز، إذا كان في ذلك مصلحة شرعية؛ كما في الحرب والإصلاح بين المتخاصمين وغيره من الحالات التي نصَّ عليها الفقهاء. ومنه الحديث: (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب)[٢]. أما تعمُّد الكذب وتقصُّده فهو الممنوع والحرام وقد توعَّد الله الكاذبين باللعن والويل والعذاب الأليم[٣].

---

(١) قال علي لابن عباس رضي الله عنهم حين وُلِدَ له غلام: شكرت الواهب، وبُورِك لك في الموهوب. الكشاف، الزمخشري: ٤/ ٥٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) قال الله تعالى: ﴿ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النور: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ =

* وجوب تغيير المنكر عند القدرة عليه، لقوله ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[1].

* طلب البلاء لا يجوز، والواجب سؤال الله تعالى العافيةَ منه، لكن إن قُدِّر ذلك للمسلم فعليه الصبر، واحتساب أجره على الله تعالى، والرضا بأمره سبحانه.

* إبراهيم الخليل كان أمة مستقلة في فكره، ودعوته، ومنهجه، وصبره، وعبادته، وطاعته وسلامة قلبه، وخشوعه، وأبوَّته، يؤيد ذلك قول الحق تعالى:﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[النحل: ١٢٠]. وهو أبو الأنبياء، وصاحب الملة الحنيفية السمحة، وخليل الرحمن، وإمام كل مهاجِر، وقدوة كل مؤمن، وأسوة كل مسلم، في الإيمان والتوكل والرضا والصبر، والاستسلام لأمر الله تعالى.

* استدل أهل السنَّة والجماعة على أن أفعالَ العباد خَلْقٌ لله عزَّ وجلَّ، واكتسابٌ للعباد والله تعالى هو الخالق للإنسان وخالقٌ لأفعاله، وفي هذا إبطال لمذاهب القدرية والجبرية القائلين بأن الإنسان خالق لأفعال نفسه. قال ﷺ: (إن الله خالق كل صانع وصنعته)[2].

=[المطففين: ١٠]، وقال أيضاً:﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً. كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم الحديث: ٧٠.

(٢) سبق تخريجه.

المقطع الثامن: (قصة إبراهيم ـ قصة الذبيح) الآيات: (١٠٢ـ١١٣)

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

تأتي هذه الآيات تقصُّ محنة الذبح والفداء، امتداداً لنظيراتها في المقطع السابق، والتي تناولت محنة الإلقاء في النار، وكلتاهما غاية في الشدة والابتلاء. وحيث كوفئ إبراهيم الخليل عند اجتيازه المحنةَ الأولى البشارةَ بالغلام الحليم، أتبعه هنا بما يدل على حصول ما بُشِّر به، وبلوغه سنَّ القدرة والعمل، ثم أتبعه بقصة الذبيح إسماعيل والفداء، ثم بشَّره بإسحاق نبياً من الصالحين.

التفسير:

تتجلَّى هذه القصة بأروع مثال في التضحية والفداء، وذلك حين كبر إسماعيل، وبلغ سنَّ مَن يمشي ويقدر على الكسب، أخبره أبوه بما رآه في المنام من أنه يذبحه، ورؤيا الأنبياء حق. وقد أخبره بذلك ليستعدَّ لتنفيذ أمر الله تعالى، ويكسبَ المثوبة بالانقياد لأمره، وليعلمَ صبره لأمر ربه، فلم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته، ولكن ليعلم أيجزع أم يصبر؟ فدعاه إلى نظر العقل لا البصر، وإعمال الرأي ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾. حيث أمْرُ الذبح أمْرُ ابتلاءٍ لإظهار عزمه، وعلوِّ مرتبته. وكان قد سأل ربه أن يهبه مَن يرثه، فبعد الإجابة أمره بذبحه بيده، وهو أحب النفوس إليه مقابل ذلك الامتثال، وهو معنى البلاء المبين. ويأتي جواب الابن ﴿ ٱفْعَلْ مَا

﴿تُؤۡمَرُ﴾، فلم يقل: اذبحني، للجمع بين الإذن وتعليله، أي: أذنت لك أن تذبحني لأن الله تعالى أمرك بذلك، ففيه تصديق أبيه، وامتثال أمر الله تعالى فيه.

وفي تحديد ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مبالغة في اتصافه بالصبر، يفيد أنه سيجده في عِدادِ الذين اشتُهروا بالصبر وعُرفوا به. وهو تأكيد لوصفه السابق بالحلم، ولِمَا أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾﴾[مريم: ٥٤-٥٥].

فلما سلَّما أمرهما إلى الله تعالى، انقياداً لحكمه، وتفويضاً إليه في قضائه، ـ وكان استسلام إبراهيم بالتهيؤ للذبح، واستسلام إسماعيل بطاعة أبيه فيما بلغه عن ربه ـ ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي وضعه بقوة على وجهه، ووجَّهه إلى القبلة حتى لا تأخذه العاطفة. وفي الحديث: (فتلَّه رسول الله في يده)[1] تشبيه شدة التمكين، كأنه ألقاه في يده. والجبين ما اكتنف الجبهة، وهو أحد جانبيها. ويتناقل المفسرون أخباراً تحتاج لتمحيص في طلب إسماعيل من أبيه شدَّ الرباط، وصرف النظر عن وجهه..

وحين أضجعه للذبح جاءه النداء أنْ قد حصل المقصود من رؤياك، وتحقق المطلوب، فقد صدَّقت الرؤيا بقلبك معتقداً، وعملت بحسبها حين آمنت بها، فوفيتها حقها من العمل. وفي الحديث: (إذا اقترب الزمان لم تكد تكذب رؤيا المؤمن)[2].

والرؤيا اسم لما يُرى من قِبَل الله تعالى في المنام، والحلم اسم لما يُرى من قِبَل الشيطان، كما

---

(١) عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ (أن رسول الله ﷺ أُتِيَ بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحداً، قال: فتلَّه رسول الله ﷺ في يده). صحيح البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب إذا أذن له أو أحلَّه ولم يبيِّن كم هو، رقم الحديث: ٢٢٧١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب القيد في المنام، رقم الحديث: ٦٤٩٩.

في الصحيحين: (الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان)(١).

وفي الآيات تعداد لنِعَم خمسة أنعم الله تعالى بها على إبراهيم؛

أولها: الإحسان إليه، فقد جازاه بالعفو عن الذبح حين صبر محتسباً الأجر من الله تعالى وكذلك يجزي كل محسن على طاعته، ويفرِّج همَّه وكربه ومحنته.

ثانيها: افتداء الذبح، وذلك بتقديم الكبش العظيم السمين، ووصفه بالعِظَم لأنه متقبَّل يقيناً، وفي وصفه أقوال وأخبار تحتاج لتمحيص أيضاً.

ثالثها: الثناء الحسن عليه، فقد بقي له في الأمم المتلاحقة ذِكْراً جميلاً، فأحبَّه أتباع المِلل كلها من يهود ونصارى ومسلمين ومشركين، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٤ـ٨٥].

رابعها: البشارة بإسحاق، فقد وهبه الله تعالى إياه بعد إسماعيل، وجعله نبياً صالحاً، وفي ذِكْرِ هذه البشارة بعد قصة الذبح ما يؤكِّد أن الذبيح إسماعيل.

خامسها: مباركة إبراهيم وإسحاق، فقد أمدَّهما بالنعم والبركات الدنيوية والأخروية من كثرة الولد والذرية، وجعل أكثر الأنبياء من نسلهما ونسل إسماعيل، وإنَّ من ذرِّيتهما محسن فاعل للخير، وظالم لنفسه بالمعاصي.

وفي هذا دليل على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال، وأن النفع ليس بالوراثة والنسب والانتماء، وإنما الانتفاع بالأعمال، وأن لا يعيب الأصولَ ولا ينقصَهم سوءُ بعض ذرِّيتهم، لقوله تعالى:﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. فالظلم في أعقاب إبراهيم

(١) عن أبي سلمة أن أبا قتادة الأنصاري وكان من أصحاب النبي ﷺ وفرسانه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم الحلم يكرهه فليبصق عن يساره، وليستعذ بالله منه، فلن يضرَّه). صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب الحلم من الشيطان، رقم الحديث: ٦٤٨٨.

وإسحاق لا يعود عليهما بنقيصة وعيب.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تُجسِّدُ قصةُ الذبح والفداء هذه مثالَ التضحية والانقياد لله تعالى في أمره ونهيه، والذي تجلّى في موقف إبراهيم الخليل من أمر ربه في الرؤيا، حيث قام يلبي الأمر وينفِّذه امتثالاً والتزاماً، وهذا عنوان الطاعة لله تعالى والاستسلام لأمره، وهو حال المؤمن مع ربه حين أعلن الإيمان بالله تعالى، وتوحيده، ونفي الشرك عنه، فإن من مقتضى الإيمان الطاعةَ لله تعالى فيما أمر ونهى. وهذا ما يبرز قيمةَ معنى التوحيد لله تعالى، والذي تمحورت السورة حوله في الدعوة إلى العبودية الحقَّة لله الواحد الأحد، ونبذ الشرك. وهو الذي هتفت به دعوة إبراهيم، وتميَّزت به ملَّته: ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ ﴾ [البقرة: ١٣٥]. والأنبياء هم الأسوة لكل مسلم في هذه الطاعة قولاً ودعوة وسلوكاً ومنهجاً. وهكذا كان إبراهيم الخليل مثالَ الطاعة والولاء، وكان ولده إسماعيل الذبيح رمزَ التضحية والفداء.

دروس وعبر من المقطع الثامن:

* الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العِرْق والعنصر، فقد يَلِدُ البَرُّ الفاجرَ، والفاجرُ البَرَّ، وفسادُ الأعقاب لا يعدُّ غضاضةً على الآباء، ومناطُ الفصل هو خصال الذات، وما اكتسب المرء من الصالحات. أما كرامة الآباء فتكملة للكمال، وباعث على الاتسام بفضائل الخِلال. وإنما يُعاب المرءُ بسوء فعله، ويعاقب على ما اجترحت يداه، لا على ما وجد من أصله أو فرعه.

* لا يقال إن أمر إبراهيم بذبح ولده معصية، والمعصية لا تجوز، لأن المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للإيمان، إنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال، والمعاصي عبارة عما تعلق به النهي من الأفعال، فلما تعلق الأمر بذبح لإبراهيم لابنه صار طاعة وابتلاءً في حقِّه، لذا قال تعالى:﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾، ولما تعلق بنا في ذبح أبنائنا صار معصية.

* الأضحية سنَّةٌ ومعروف عند جمهور الفقهاء، واجبة عند الحنفية؛ على المقيم الواجد، وهي في فحول الغنم من الضأن أفضل من الإبل والبقر.

* رؤيا الأنبياء وحي[١]، وكان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة[٢] لكن الشريعة لم تُوحَ إلى رسول الله ﷺ إلا في اليقظة ورؤية جبريل، دون المنام، وهي وحي له دون التشريع؛ كالكشف له على ما يقع، وما أعدَّ له ﷺ ولبعض أمته؛ كالإذن بالهجرة وتأويل البقرة بشهداء أحد، وهو ما يؤكد أن الإسراء والمعراج يقظة بالروح والجسد، إذ فيه شريعة الصلاة.

* من نذر ذبح ولده لزمه الفداء بكبش عند الحنفية.

* الحكمة من القصة أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، فلما سأل ربه الولد وهبه له، فتعلَّقت شعبة من قلبه بمحبته لولده، فأمر بذبح المحبوب ليظهر صفاء الخِلَّة، فامتثل أمر ربه وقدَّم محبته على محبة ولده[٣].

* سبب تسمية الأيام بالتروية وعرفة والنحر أن إبراهيم الخليل حين رأى في المنام أنه يذبح

---

(١) أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس أن النبي ﷺ نام حتى نفخ ثم صلَّى، وربما قال: اضطجع حتى نفخ، ثم قام فصلَّى، ثم حدثنا به سفيان مرة بعد مرة عن عمرو عن كريب عن ابن عباس قال: بِتُّ عند خالتي ميمونة ليلة فقام النبي ﷺ من الليل، فلما كان في بعض الليل قام النبي ﷺ فتوضأ من شنٍ معلَّق وضوءاً خفيفاً، يخفِّفه عمرو ويقلِّله، وقام يصلي، فتوضأت نحواً مما توضأ، ثم جئت فقمت عن يساره، وربما قال سفيان عن شماله فحوَّلني فجعلني عن يمينه، ثم صلَّى ما شاء الله، ثم اضطجع فنام حتى نفخ، ثم أتاه المنادي فآذنه بالصلاة، فقام معه إلى الصلاة، فصلَّى ولم يتوضأ، قلنا لعمرو: إن ناساً يقولون: إن رسول الله ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه، قال عمرو: سمعت عبيد بن عمير يقول: رؤيا الأنبياء وحي، ثم قرأ:﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾. صحيح البخاري: كتاب الوضوء، باب التخفيف في الوضوء، رقم الحديث: ١٣٥.

(٢) صحيح البخاري :كتاب التعبير ،باب أول ما بُدِئ به رسول ُالله ،رقم الحديث٦٤٦٧ :.

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين٣ :/ ٣٤٣.

ولده روَّى في نفسه ـ أي فكَّر ـ أهذا الحلم من الله، أم من الشيطان؟ فسمِّي يوم التروية لكنه رأى مثْلَه في الليلة الثانية، فلما أصبح عرف أنه من الله تعالى، فسمِّي يوم عرفة، ثم رأى مثْلَه في الليلة الثالثة فهَمَّ بنحره، فسمِّي يوم النحر[1].

* اختلف أهل السنَّة والجماعة والمعتزلة في نسخ حكم الذبح؛ فذهب أهل السنَّة إلى أن القصة نُسِخَ فيها العزمُ على الفعل، وذهب المعتزلة إلى عدم النسخ، إذ لا يصح النسخ إلا بعد وقوع الفعل[2].

* الله تعالى يخلق الآثار عند المسببات بمشيئته وقدرته، والمؤثر الفاعل هو الله تعالى وحده، ولكن جعل بين الأسباب والمسببات تلازماً عادياً، بحيث يصحُّ تخلُّفها، فلم يشأ للمدْيَة أن تذبح وتفرم، ومن خاصيتها ذلك، كما لم يأذن للنار قبلها أن تحرق، ومن خاصِّيتها ذلك. وهذا مذهب أهل السنة والجماعة[3].

المقطع التاسع: (قصة موسى وهارون عليهما السلام) الآيات: (١١٤-١٢٢)

قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

لَمَّا ذكر الله تعالى ما مَنَّ به على إبراهيم مِن فداء ولده، وما مَنَّ به على إسماعيل مِن نجاته

(١) البحر المحيط ،ابن حيان٩ :/ ١١٦،وحاشية الصاوي على الجلالين٤ :/ ٣٤٢.
(٢) مفاتيح الغيب ،الرازي٧ :/ ١٥١،والمحرر الوجيز ،ابن عطية١٢ :/ ٣٨٩.
(٣) عون المريد لشرح جوهرة التوحيد ، تتّان وكيلاني ١ :/ ٥٥٧.



مِن الذبح، وما مَنَّ به على إسحاق مِن بشارته بالنبوَّة، أتبعه هنا بذكر ما مَنَّ به أيضاً على موسى وهارون بنجاتهما وقومهما من الكرب العظيم. وفي ذلك إشارة إلى أن الله تعالى ينصر رسله ويغضب لهم؛ إما باستجابة دعوة، أو جزاءً على سلامة طويةٍ قلبٍ سليم، كما في دعوة إبراهيم وإما رحمةً منه ومِنَّة على عباده المستضعفين. وقد تجلَّت المَنَّة الكبرى على موسى وهارون بالنبوَّة فهي أعظم درجة يُرفع إليها الإنسان، وتتمثَّل في إيصال المنافع، فإن الله تعالى أرسل موسى لإنقاذ بني إسرائيل من استعباد القبط لإبراهيم وإسرائيل، كما كان في إنجاء موسى وهارون وقومِهما كرامةً أخرى لهما ولقومهما بسببهما، وهذه نعمةُ إزالةِ الضرِّ، فحصل لموسى وهارون نوعا الإنعام؛ وهما إعطاء المنافع، ودفع المضار.

التفسير:

يقسم الله تعالى تحدُّثاً بنعمته على عباده، وامتناناً بفضله. وتحدُّث الله بالامتنان على عباده من عظيم الشرف لهم؛ فقد امتنَّ على موسى وهارون بوجوه إنعام كثيرة تنحصر في نوعين: إيصال المنافع، ودفع المضار. أما إيصال المنافع فعلى قسمين: منافع الدنيا؛ وتتمثل في الوجود، والحياة، والعقل، والتربية، والصحة، وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منهما. وأما منافع الدين فالعلم والطاعة. وأعلى هذه الدرجات النبوَّة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة. وقد فصَّلها في مواطن عديدة من باقي السور، واكتفى هنا بالرمز إليها[1].

وأما دفع المضار فهو المراد من قوله تعالى:﴿ وَنَجَّيۡنَـٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ ﴾ وفي تفسير (النجاة من الكرب) معانٍ؛ منها:

١ـ النجاة من الغرق، فقد أغرق الله تعالى فرعونَ وقومه وأهلكَه، ونجَّى موسى وهارون ومَن معهما من بني إسرائيل، وذلك حين تراءى الجمعان، فقال أصحاب موسى: إنا لمدركون، فأوحى الله تعالى إليه أن يضرب بعصاه البحر، فضربه فانفلق، فاجتازه وبنو إسرائيل، ثم مدَّ

(١) مفاتيح الغيب ،الرازي٧ :/ ١٥٥.

البحرُ أمواجَه على فرعون وجندِه حتى هلكوا.

٢ـ نجاتهم من إيذاء فرعون وتعذيبه لهم، فقد كان يستذُّلهم بسلطانه عليهم، ويسترقُّهم باستعباده لهم، فيقتل الآباء، ويذبح الأبناء، ويستحيي النساء، ويُشغِّلهم في أخَسِّ الأشياء والصناعات والمهن.

٣ـ خلاصهم من استعباد القبط لهم، بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين.

ثم فصَّل أقسام تلك المِنَّة وعدّدها، فهي:

١ـ النصر والغلبة، فكانوا هم الغالبين عليهم في كل الأحوال بظهور الحجة، وفي آخر الأمر بالدولة الرفيعة.

٢ـ أنزل عليهم الكتاب العظيم وهو التوراة، حيث شملت جميع العلوم التي يُحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا، كما وصفها الله تعالى بقوله:﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله:﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨ ﴾ [الأنبياء: ٤٨]. وقد أوتي موسى الكتابَ أصالة، وهارونُ بالتبعيَّة لأخيه موسى.

٣ـ أرشدهما إلى الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام وشرع الله تعالى الذي بعث به كافة رسله. وقد كانت شريعة التوراة زمن موسى هي الصراطَ المستقيم، وطريقَ الشرعِ والنبوَّةِ الواضحَ الجليَّ المؤديَ إلى الله تعالى. وقد نُسِخَتْ بالقرآن الكريم، فأصبح القرآن صراطاً مستقيماً إلى يوم الدين ناسخاً لجميع الشرائع قبله.

كما لا يمنع من جواز المقصود بالصراط المستقيم أن يُرادَ به أصولُ الديانة التي لا تختلف فيها الشرائع؛ من دعوة التوحيد، وكليات الشرائع، التي أشار إليها قول الحق سبحانه:﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [الشورى: ٤٣].

٤ـ أبقينا عليهما من بعدهما في الأمم المتلاحقة ذِكْراً حسناً، وثناءً جميلاً عطراً دائماً مستمراً

إلى يوم الدين.

٥ـ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾، يحتمل العطفَ على ما سبق، على أنه تفسير وتفصيل لما ترك في الآخرين، فهم يسلِّمون، أو أنه كلام مستقل؛ أي سلام من الله والملائكة والإنس والجنِّ أبداً خالداً على موسى وهارون.

ثم يختم القصة ببيان سبب هذه المِنَّة والإنعام، أي: مِثْلُ هذا الجزاءِ نجزي بالخلاص من الشدائد والمحن كلَّ من أحسن عمله، فأطاع الله تعالى، وانقاد إليه.

ثم بيَّن علة الإحسان أنهما من زمرة عباد الله تعالى المؤمنين إيماناً صالحاً كاملاً. فالفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأكمل الفضائل، ولولا ذلك لما حَسُنَ ختْمُ فضائل موسى وهارون بكونهما من المؤمنين[1].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تتناول هذه القصة ثلاثَ قضايا ترتبط بمحور السورة؛

أولاها وأهمها: وحدةُ الرسالات، حيث إن الدين عند الله الإسلام، الذي أرسله الله تعالى إلى الأمم جميعاً، يدعو إلى التوحيد والهدى والإيمان به سبحانه، وينهى عن الشرك والضلال والكفر، ويقيم دعوة الحق، ويأمر بالخير والمعروف، وينهى عن الشر والمنكر.

وثانيها: نجاة عباد الله المخلصين من العذاب في الدنيا والآخرة،

وثالثها: إن الإيمان بالله تعالى أصل كل حسن وخير، وهذا ما نلحظه في التعقيب المتكرر لتقرير نوع الجزاء الذي يلقاه المحسنون، وقيمة الإيمان الذي يُكرَم من أجله المؤمنون[2].

---

(١) مفاتيح الغيب ،الرازي٧ :/ ١٥٥.

(٢) في ظلال القرآن ،سيد قطب٥ :/ ،٢٩٩٧والأساس في التفسير ،سعيد حوى٨ :/ ٤٧٢٧.



دروس وعبر من المقطع التاسع

* بيان إكرام الله تعالى لأنبيائه ورسله عليهم السلام، وأعظمُ هذا الإكرام درجةُ النبوَّة والرسالة.
* بيان فضل الله تعالى على بني إسرائيل بنجاتهم من فرعون، ونصرِهم عليه، وخلاصِهم من الرقِّ الذي لحق بهم، واستعبادِ فرعون لهم.
* الإسلام هو دين الله تعالى القويم الذي لا اعوجاج فيه، جاءت به الرسل جميعاً، وهو الدعوة إلى التوحيد، والإرشاد إلى طريق الحق والصواب. ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].
* التوراة كتاب سماوي نزل على موسى يدعو بني إسرائيل إلى طريق منير، وهو بليغ في بيانه الشامل لمصالح الدنيا والآخرة، إلا أنه نُسِخَ وسائرُ الكتب السماوية الأخرى بالقرآن الكريم.
* قضت حكمة الله تعالى وسنته في خلقه أن يَجزي المخلصين في العبادة، المحسنين في العمل بخلاصهم من الشدائد، وسلامتهم من المِحن، فالجزاءُ من جنس العمل، ولا يظلم ربُّك أحداً.
* في قصة موسى وهارون عبرةٌ حيَّةٌ ومَثَلٌ كامل للنبي ﷺ في رسالته، وإنزالِ القرآن عليه، وهدايته وانتشار دينه وسلطانه بعد خروجه من دياره وهجرته، وتكبُّده المشاقَّ في سبيل الدعوة ونصرةِ هذا الدين، وفي هذا تثبيت وتصديق له في طريق الدعوة، وتأكيد للمنهج الرباني الذي كتبه الله تعالى، وجعلَه سنَّته في خلقه، ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة: ٢١]. فالقصص القرآني غايةٌ في الأهمية لأخذ العظة والاعتبار لإنارةِ الدرب، وشقِّ السبيل، وإزاحةِ العقبات، وشحذِ الهمم. ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١].

المقطع العاشر: (قصة إلياس ﵇) الآيات: (١٢٣-١٣٢)

قال الله تعالى:﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

قدَّم الحقُّ سبحانه وتعالى الكلامَ عن ثلاثة رسلٍ هم في الأصل أصحابُ شرائع؛ وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، ثم أتبعَهم الخبر عن ثلاثة أنبياء، وما لقوه من قومهم، وذلك كله شواهدُ لتسلية الرسول محمد ﷺ، وزواجرُ من الموعظة لكفار قريش. وابتدأ ذِكْرَ هؤلاء الثلاثة بإلياس ﵇ في بيان جهده في الدعوة إلى توحيد الله تعالى، ومقاومة الشركِ وعبادةِ الأصنام ثم أتبعَه بلوط ويونس عليهما السلام، وهم سواءٌ في مرتبة الدعوة إلى دين الله تعالى، وفي أنهم لا شرائع مستقلة لهم. وتأكيدُ إرسالهم بحرف التأكيد ﴿ وَإِنَّ ﴾ للاهتمام بالخبر، لأنه قد يُغفَل عنه، إذ لم تكن لهؤلاء الثلاثة شريعة خاصة[1].

التفسير:

اتفق المفسرون على أن إلياس[2] ﵇ نبي من بني إسرائيل التابعين لشريعة التوراة، ومِن سبطِ هارون ﵇، لكنهم اختلفوا في اسمه لاختلاف الروايات في تعيينه؛ فروي عن ابن مسعود ﵁: إسرائيل هو يعقوب، وإلياس هو إدريس. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو عم

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ،ابن عاشور: ٢٣ / ١٦٦.

(٢) قرأ جمهور القراء ﴿ إِلْيَاسَ ﴾ بهمزة قطع، وقرأه ابن عامر بهمزة وصل، فحذفها في الوصل مع (إن)، وسببه أنه اسم أعجمي استعملته العرب، فلم تضبط فيه همزة قطع ولا وصل. حاشية الصاوي على الجلالين: ٤/ ٣٤٤.

اليَسَع. وذهب الطبري إلى أنه إلياس بن ياسين. وقالت فرقة: هو من ولد هارون عليه السلام. وقال وهب بن منبِّه: هو إلياس بن نسي بن فنحاص، بعثه الله تعالى في بني إسرائيل بعد حزقيل عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له: (بعل) معبود الكنعانيين، بسبب مصاهرة بعض ملوك يهوذا للكنعانيين، لذلك قام يخوِّفهم عقابَ الله تعالى، فدعاهم إلى إفراد الله تعالى بالعبودية، ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم، ثم ارتد واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد، فدعا الله تعالى عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه بالإيمان به إن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى لهم، فجاء الغيث، فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله تعالى أن يقبضه إليه. وكان قد نشأ على يديه اليَسَعُ بن أخطوب عليهما السلام[1].

وذهب ابن عاشور إلى أن إطلاق وصف الرسول على إلياس لأنه أُمِرَ من جانب الله تعالى بتبليغ ملوكِ إسرائيل أن الله تعالى غضب عليهم من أجل عبادة الأصنام. فإطلاق وصف الرسول عليه مثلُ إطلاقه على وصف رُسُل عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية المذكورين في سورة (يس)﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ١٣][2].

والمقصود بقومه بنو إسرائيل. واختُلِفَ في تحديد البعل إلى ثلاثة أقوال؛ **أقواها**: أنه صنم الكنعانيين، وهو أعظم أصنامهم، ويقال له: بعل بك، وإليه نسبت مدينة (بعلبك) المشهورة في بلاد الشام (وهي اليوم بلدة في لبنان). **والثاني**: أتدعون بعلاً يعني: رباً، وهي لغة أهل اليمن، قاله عكرمة وقتادة. وسمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلاً ينشد ضالة، فقال له آخر: مَن بعل هذه؟ أي: مَن ربها؟ فقال له آخر: أنا بعلها، فقال ابن عباس: الله أكبر، أتدعون بعلاً؟ ومنه سُمِّيَ الرجل بعلاً، قال تعالى على لسان امرأة إبراهيم عليه السلام:﴿ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾[هود: ٧٢]. قال النحاس: القولان صحيحان، أتدعون صنماً عملتموه ربًّا؟. **والثالث**: أنه اسم امرأة كانت

---

(١) تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير: ٤/ ٢١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ،ابن عاشور: ٢٣ / ١٦٦.

أتتهم بضلالة، فكانوا يعبدونها، ذكره ابن إسحاق.

﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ من حيث قيل للإنسان على التجوّز أنه يخلق وجب أن يكون تعالى أحسن الخالقين، إذ خلْقُه اختراعٌ وإيجادٌ من عدم، وخلْقُ الإنسان مجاز. وجِيء هنا بذكر صفة الله تعالى دون اسمه العلَم تعريضاً بتسفيه عقول الذين عبدوا بعلاً، بأنهم تركوا عبادة الربِّ المتصف بأحسن الصفات وأكملِها، وعبدوا صنماً، فكأنه قال: أتدعون صنماً بشعاً جمع عنصري الضعف؛ وهما المخلوقيةُ، وقبحُ الصورة، وتطلبون الخير منه، وتتركون مَن له صفةُ الخالقيَّة، والصفاتُ الحسنى[(١)]؟

﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾فهو سبحانه وتعالى المستحق للعبادة، وحده لا شريك له، وهو الذي صوركم وأنشأكم ويربيكم بنعمه بعد أن أوجدكم من العدم،﴿ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ إسحاق ويعقوب وإبراهيم[(٢)].

وكان تكذيبه مِن قِبَل قومه المشركين فيما جاء به من عند الله تعالى، من الأمر بالتوحيد وترك الأصنام، والإيمانِ بما جاءت به الرسل، وهم بسبب هذا التكذيب لمجموعون لعذاب الله تعالى، ومجازون على ما قدَّموا من سوء الأعمال.﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أطلق الإحضار اكتفاءً منه بالقرينة، ولأن الإحضار المطلق مخصوصٌ بالشر عرفاً، أو حيث استعمل في القرآن، لإشعاره بالجبر[(٣)].

---

(١) المحرر الوجيز ،ابن عطية: ١٢/ ٣٩٤ ، وتفسير التحرير والتنوير ،ابن عاشور: ٢٣ / ١٦٧.

(٢) في الآية﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ قراءتان سبعيَّتان؛ قرأ الجمهور بالرفع في الأسماء الثلاثة على الابتداء، والاستئناف، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالنصب على البدل، أو عطف البيان. وعلى القراءتين الوصل أولى من الوقف على﴿ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾، لأن ما بعده مترجم عنه. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ١١٧.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ٥/ ١٠ ، وتفسير أبي السعود: ٧/ ٥٥٠ ، وروح المعاني، الألوسي: ٢٣ / ١٤١.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾الموحدين من قومه فإنهم نجوا من العذاب.

وتركنا على إلياس الثناء الحسن الجميل إلى يوم الدين، فقد استحق التكريم والجزاء الحسن لأنه من عبادنا المؤمنين.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ أي: سلام على إلياس وذويه من آل بيته وأنصاره الذين اتَّبعوه وأعانوه، وهم أهل جبل الكرمل الذين استنجدهم إلياس على سدنة (بعل) فأطاعوه وأنجدوه.

وفي تحليل كلمة﴿ إِلْ يَاسِينَ ﴾ لغات شتى وأقوال كثيرة وروايات عديدة لأهل اللغة والتفسير والقراءة، لا تخرج عن الإطار العام في تحديد المراد من وقوع السلام على إلياس ﷺ، وهو اسم أعجمي، والعرب تضطرب في الأسماء الأعجمية، ويكثر تغييرهم لها، لأنها ليست من لغتهم، فهم يتصرفون في النطق بها على ما يناسب أبنية كلامهم[١].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تناول هذا المقطع الحديثَ عن إلياس ﷺ بما يخدم محور السورة ويرتبط به؛ من حيث كون إلياس من الأنبياء الذين صدَّقهم رسول الله ﷺ، وفي كونه دعا إلى التوحيد، وذلك دعوة جميع الأنبياء والرسل، وفي كونه من المؤمنين، فهو نموذج إيماني يقتدي به المؤمنون في كل زمان ومكان، كما يرتبط استنكارُه عبادةَ البعلِ وترْكَهم أحسنَ الخالقين باستنكار إبراهيم ﷺ عبادةَ أبيه وقومه الأصنامَ، واستنكارِ كلِّ رسول عبادةَ قومه الوثنيين[٢].

دروس وعبر من المقطع العاشر

* بيان فضل الإحسان، ومجازاة أهله بحسن الجزاء.
* بيان فضل الإيمان، وأنه سبب كل خير وكمال.

---

(١) فتح القدير ،الشوكاني: ٤ / ٤٠٩ ، والجامع لأحكام القرآن ،القرطبي: ١٥ / ١١٨.

(٢) في ظلال القرآن ،سيد قطب: ٥ / ٢٩٩٨، والأساس في التفسير، سعيد حوي: ٨ / ٤٧٢٧.

* في تأخير عذاب قوم إلياس إلى يوم القيامة بيانٌ أن مهمة النبي تقتصر على الدعوة والتبليغ ولا يلزمه أن يشاهد عقابَ المكذبين، ولا أن يأتي قومَه بالعذاب، ولو طالب به المدعوون قال تعالى:﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾[المؤمنون: ٩٣-٩٥]. فقوم إلياس لم يعذبْهم الله تعالى في الدنيا، بل ترك عذابهم إلى يوم القيامة.

* خُصَّ إلياس ﷺ بالسلام في هذه القصة لأنها ختام القصص المسلَّم فيها على أهلها ولتكريم رسل الله تعالى، فالسلام عليهم من قِبَله، ولبيانِ جزاءِ المحسنين، وقيمةِ إيمانِ المؤمنين، وأنَّ هؤلاء الرسل الكرام كانوا جميعاً من المتصفين بهذه الصفات، لذلك استحقوا التحية والسلام، والذكر الحسن بين الأنام[1].

* تناقلَ بعضُ المفسرين خبرَ رفع إلياس إلى السماء كالمسيح عليهما السلام، وهذا يحتاج إلى توثيق، والحقُّ إنما هو نقل عما في التوراة ولا نصَّ فيه، إذ الرفع إلى السماء للمسيح عيسى بن مريم ﷺ حصراً، بنصِّ القرآن الصريح:﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء ١٥٧-١٥٨].

* احتجَّ المعتزلة بقوله تعالى:﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾على أن العبد خالق لأفعال نفسه فقالوا: لو لم يكن غيرُ الله خالقاً لما جاز وصفُ الله بأنه أحسنُ الخالقين، كما في قول الله تعالى:﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ وقد فصَّل العلماء في المسألة، وأثبتوا مذهب أهل السنَّة فيها[2].

* أسلوب إلياس ﷺ في اتِّباع الحكمة في الدعوة، فقد عاب قومه على عبادة غير الله تعالى، ثم

---

(١) في ظلال القرآن ،سيد قطب: ٥ / ٢٩٩٨ ، ونظم الدرر ،البقاعي: ١٦ / ٢٨٦.

(٢) سبق البحث فيها ،وانظر :عون المريد لشرح جوهرة التوحيد ،تتان وكيلاني: ١ / ٥٧٨.

صرَّح بالتوحيد، ونفي جميع الشركاء عنه، وهذا درس لكل داعية أن يدرك أمراض المدعوين ويستوعبَها، ثم يقدِّم العلاجَ الناجعَ بما يُلائم طبيعتهم، ويحقق هدفَ الدعوة فيهم، فربَّما يفلح في أسلوب مع فئة ولا يجدي ذاتُ الأسلوب مع فئة أخرى، فلكل قوم خاصيَّة وطبيعة ومزاج يختلف عن غيرهم، وهذا يؤكِّد أهميةَ تعرُّفِ الداعيةِ على طبائع المدعوين.

* ذكر المفسرون أن إلياس أُعطِيَ معجزاتٍ جَمَّةً؛ منها: تسخير الجبال، وإعطاؤه قوة سبعين نبياً، وكان على صفة موسى عليهما السلام في الغضب والقوة[1].

المقطع الحادي عشر: (قصة لوط عليه السلام) الآيات: (١٣٣-١٣٨)

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

لا يزال السياق العام للقصص القرآني في هذه السورة يتتالى، فهذه قصة لوط هي الخامسة تلي قصة إلياس عليهما السلام في ذكر إنعام الله تعالى على مَن اصطفى من عباده، وكيف أن دعوات الأنبياء جميعاً تلتقي في وحدة الهدف والمنهج، فكلهم دعَوا إلى توحيد الله تعالى، ونبذ الشرك، إلا أن موقف المدعوين يكاد يتشابه في الردِّ والصدِّ والأذى، فكما أن قوم إلياس كذَّبوه كذلك قوم لوط كذَّبوه، والنتيجة واحدة، وهي عذاب الله تعالى وانتقامه، بيد أنه في قوم إلياس تأخر إلى يوم القيامة، فهم في الآخرة محضرون للعذاب بسبب تكذيبهم، وما قدَّموه من سوء الأعمال، أما قوم لوط فكان العذاب والردُّ في الدنيا، فقد عاجلهم الله تعالى العقوبة، ودمَّرهم عن بَكرة أبيهم، وجعل عالي أرضهم سافلها، وأمطرهم حجارة من سجيل، وفي ذلك عبرة لمشركي العرب ممن يكذِّب دعوة النبي محمد ﷺ.

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين: ٣/ ٣٤٥.

التفسير:

اختُلِف في صلة قرابة لوط بإبراهيم عليهما السلام؛ فذهب بعضهم إلى أنه ابن أخيه، وهو الأرجح، وذهب آخرون إلى أنه ابن أخته، وكان قد هاجر معه إلى العراق، ومن المسلَّم به أن قوم لوط كانوا أقرب زمناً لقوم إبراهيم، إذ كان لوط معاصراً لإبراهيم، لذا يغلب ورود قصة لوط عقب قصة إبراهيم في القرآن.

واختُصَّ لوط بإرساله إلى القرى التي كان يسكن إحداها في أرض سدوم، ولم يكن له في قومه نسب، لأنه ليس من القبيلة، بخلاف صالح وهود، حيث تربطهما بقبيلتهما رابطة الأخوة والنسب، كما لم تكن له شريعة سوى أنه جاء ينهى الأقوام الذين حلَّت بهم فاحشة اللواط، وكانوا قد تناهَوا في الخبث والمنكر، ولم يسبق النهي عنها في شريعة إبراهيم. فاجتهد في نصحهم وتحذيرهم، لكنهم لم يستجيبوا له، بل استمروا في منكرهم، فهدَّدهم بعقاب الله تعالى، فهدَّدوه بالطرد من الأرض، والإخراج من القرية، فأهلكهم الله تعالى، ونجَّاه وابنتيه وأهله.

ويمثِّل إهلاك ودمار المكذبين من قومه أشدَّ إهلاك وأفظعَه، حيث قلب قراهم، وجعل عالي أرضهم سافلها، وأرسل عليهم صيحة، وقذفهم بالحجارة من فوقهم، فأهلكهم بذلك[1] وخسف بهم الأرض، وأصبح مكان الخسف بحراً ميتاً لا حياة فيه، كما جعل محلهم من الأرض بحيرة منتنة اشتهرت بـ: (بحيرة لوط)، وهي قريبة من شرقي الأردن، فغدت قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم، يمرُّ بها المسافرون ليلاً ونهاراً ليتعظوا ويعتبروا بهم كيف دمَّر الله عليهم، ويعلمون أن للكافرين أمثالها[2].

وأُلحِقت زوجته العجوز بالكافرين، إذ كانت كافرة، وهي: إما مستترة بالكفر، وإما معلنة له، وكان نكاح الوثنيات عندهم جائزاً. ويحتمل لفظ: ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ معنى الماضين والباقين

(١) جامع البيان ،الطبري: ٢٣/ ٩٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير ٤ / ٢٢.

وكلاهما قائم فيها، فهي في الباقين في العذاب، ومن الماضين الذين قد هلكوا[١]. وإنما بقيت في العذاب لرضاها بفعل القوم، وتواطؤها معهم على ضيوف لوط.

ثم يأتي الخطاب لقريش وأهل مكة من العرب، والهدف من القصة عظتهم وتبليغهم واعتبارهم، حيث إنَّ مِن عادتهم المرور والعودة بالليل والنهار في طريق سفرهم، وكانت متاجرهم إلى الشام على مدائن قوم لوط في سدوم، فيمرون على منازلهم في الطريق ويرجعون، فدعاهم القرآن للعبرة والعظة بما يرونه من آثار العذاب ومظاهر الهلاك في سدوم.

ويأتي الاستفهام الإنكاري التوبيخي والتقريعي، أي: أفليس لكم عقول تتدبرون بها؟ وتتفكرون فتعلمون أن مَن سلك من عباد الله في الكفر به، وتكذيب رسله مسلكَ هؤلاء الذين وصف صفتهم من قوم لوط نازلٌ بهم من عقوبة الله تعالى مثلُ الذي نزل بهم على كفرهم بالله تعالى وتكذيب رسله، فيزجركم ذلك عما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى وتكذيب محمد ﷺ[٢]. أتشاهدون ذلك ثم لا تعتبرون؟ ألا تخافون أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم[٣]؟

وإنما لم يختم قصة لوط ويونس من بعدها بالسلام كما ختم به مَن قبلهم، لأن الله تعالى سلَّم على جميع المرسلين في آخر السورة، فاكتفى بذلك عن ذكر كل واحد منفرداً بالسلام[٤].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تلتقي مناسبة هذا المقطع مع محور السورة في قضية التوحيد، من حيث أنها تخدم هذا المحور في مجالين؛ أمْر إنجاء عباد الله تعالى المخلصين من العذاب في الدنيا، وأمْر إهلاك المكذبين للرسل، فالرسل الذين بُعِثوا بالتوحيد أيَّدهم الله تعالى بنصره، فقد نجَّاهم ومَن

(١) فتح القدير ،الشوكاني: ٤ / ٤١٠.
(٢) جامع البيان ،الطبري: ٢٣ / ٩٧.
(٣) البحر المحيط ،أبو حيان: ٩/ ١٢٣، وروح المعاني ،الألوسي: ٢٣ / ١٤٢، وصفوة التفاسير ،الصابوني: ٣/ ٤٣.
(٤) تفسير النسفي ٤ / ٢٨.



تبعهم من عذاب الدنيا، ثم عذَّب مَن خالفهم في الدنيا قبل الآخرة، ليكون إهلاكُهم عبرةً وعظةً لمَن بعدهم بل ليبقى هذا الهلاك باقياً إلى قيام الساعة، شاهداً على انتقام الله تعالى منهم، ونصرِه لعباده المؤمنين. وقد سُبقت هذه القصة بنماذج متكررة، كلها تدعو إلى العبرة والعظة، في الإشارة إلى هذين الأمرين:﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[الصافات: ٧٣ـ٧٤].

دروس وعبر من المقطع الحادي عشر

* وجوب النظر والتفكر والتأمل والتدبر في الأحداث الكونية، وقصص الأمم السابقة للاهتداء إلى معرفة سُنن الله تعالى في الكون والحياة، وللعظة والعبرة بما حلَّ بالأمم الماضية.

* الكفر قاطع للسبب القريب، والإيمان واصل للسبب البعيد، والشفاعة لا تنفع إلا إذا أذن الله تعالى بها، ورضي عن المشفوع له، حتى لو كان الشافع أقرب قريب. وهذا لوط لم يشفع لزوجته في النجاة من الهلاك الذي أصاب المفسدين، وذلك لكفرها وفسادها، حيث حجبها طغيانها عن الدخول في حكم أهله، فكانت باقية في العذاب، ماضية فيه.

* ذهب جمهور السلف والخلف إلى أن امرأة النبي لا يمكن أن تخون أبداً، وما بغت امرأة نبيٍّ قطُّ، والمراد بالخيانة التي أشارت إليها الآية في امرأتي نوح ولوط:﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ إنما هي في الدين، وحاشا أن تكونا على فاحشة. فالكفر قد يقع وهو خيانة، وهي هنا في امرأة لوط، ومثلها في امرأة نوح، حيث لم تؤمنا بالله تعالى فلم تتبعاهما، فكان مصيرهما النار. قال تعالى:﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[التحريم: ١٠].

* في رسالة لوط ونجاته مع أهله إلا امرأته، وفي تدمير المكذبين الضالين إشارةٌ تنتهي بلمسة لقلوب العرب الذين يمرون على دار قوم لوط صباح مساء، ولا تستيقظ قلوبهم، ولا

تستمع لحديث الديار الخاوية، ولا تخاف عاقبةً كعاقبتها الحزينة[١].

* هلاك قوم لوط ودمارهم لأنهم كذَّبوه ولم يؤمنوا به، ونجاته وأهله منهم دليل باهر على نبوَّته، وأنه من المرسلين الذين دعَوا إلى التوحيد، والذين بُعِث النبي محمد ﷺ مصدقاً لهم في دعوته. كما أنه بيان يؤكد أن النصر والغلبة للرسل وأتباعهم المؤمنين وإن كانوا قلَّة، والدمار والهلاك والخسران للمكذبين والكافرين مهما كانوا عليه من الكثرة والقوَّة، وتلك سنَّة الله تعالى في خلقه. قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾[غافر: ٥١].

* عاقبة قوم لوط تحذير لقريش ولأهل مكة، ودعوة لهم أن يصدِّقوا رسولهم، فهم أجدر من قوم لوط بالأخذ، لأنه منهم، ويعرفون شرف أصله، وكريم قوله وفعله، ما لا يعرفه أولئك من رسولهم[٢].

* شأن قصة لوط شأن بقية القصص التي سبقت، فيها شَبَهٌ بحال الرسول محمد ﷺ مع قومه، وبحاله الأكمل في دعوته. ففي القصص كلها عبرة وأسوة وتحذير، ويجمعها كلها مقاومة الشرك، ومقاومة أهله[٣].

---

(١) في ظلال القرآن ،سيد قطب: ٥ / ٢٩٩٨.

(٢) نظم الدرر ،البقاعي: ١٦/ ٢٩٠.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ،ابن عاشور: ٢٣ / ١٢٩.

المقطع الثاني عشر: (قصة يونس عليه السلام) الآيات: (١٣٩-١٤٨)

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

تأتي قصة يونس عليه السلام بسياقها تبين لنا عاقبة الذين آمنوا بربهم، وصدَّقوا نبيَّهم، وذلك في خاتمة مطاف قصص خلَت، جمعتها وحدة المآل في الحديث عن عاقبة الذين كفروا بربهم وكذَّبوا رسلهم، ليكون أمام المسلمين مثالَين حيَّين لعاقبتين متباينتين، فيختاروا أيّاً شاؤوا فقد سبق البيان لنهايات أمم خالفت أمر ربها، وعصت أنبياءها؛ فمنهم من عاجله العذاب في الدنيا، ومنهم من ينتظره في الآخرة، أما هنا فإن قوم يونس قد متَّعهم الله تعالى بحياتهم وآجالهم بعفوه وغفرانه، حين آمنوا، واستغفروا، وأعلنوا توبتهم. قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

التفسير:

يونس بن متى نبي من بني إسرائيل ينسب إلى أمه، ذكره القرآن باسمه، كما وصفه بذي النون وصاحب الحوت. واختُلِفَ في رسالته؛ هل كانت قبل التقام الحوت إياه، أو بعده؟ والراجح أنه أرسل قبل ذلك إلى قومه في نينوى، وبقي مستمراً على الرسالة. وتختلف الروايات في قصة أبقه، وتذهب مذاهب شتى، والحق أن القرآن لم يبين ممَّ أبق، ولو كان فيه فائدة لذكرها، إلا أن مقام الأنبياء في العصمة والتبليغ يستلزم تخيُّر الاستنتاج الأقرب لمنزلتهم والأليق برتبتهم، وهو ما رجَّحه الرازي وغيره من المفسرين؛ من أن يونس عليه السلام كان قد وعد

قومه بالعذاب حين لم يؤمنوا، فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم، فعُدَّ آبقاً، فكان فعلُه خلافَ الأَولى، على مبدأ: حسنات الأبرار سيئات المقربين، لكنهم لما رأوا مخايل العذاب تابوا، فتاب الله تعالى عليهم، وصرف عنهم العذاب، فلحقت بيونس غضبة من قومه، وخافهم أن يقتلوه إذ لم تقم له بيِّنة، فهرب إلى السفينة، وعُبِّر عن ذهابه بالإباق من حيث هو عبد لله، فرَّ من غير إذن مولاه، وسُمِّي إباقاً مجازاً[١].

ثم إن السفينة لم تجْرِ، فقالوا: إن فينا صاحب ذنب فاقترعوا، فوقعت عليه ثلاثاً، فرموه في البحر فالتقمه الحوت، وأوحى الله تعالى إليه أن خذه ولا تخدش لحماً، ولا تكسر عظماً.

ثم إن الله تعالى استنقذه من بطن الحوت بعد مدة اختُلِفَ فيها، ولا مرجح لرواية، سوى أنَّ أمْر المكوث في ذاته معجزةٌ لهذا النبي طالت مدته أم قصُرت، حين كتبت له السلامة والنجاة والحفظ في هذا الالتقام. لكن مما يؤكد طول المدة أنه خرج منه سقيماً. وجعل علَّة استنقاذه تسبيحَه، وعليه فإن ركوبه السفينة كان باجتهاد منه، وليس بمعصية لربه، لظنِّه إن بقي معهم قتلوه، كما أن مؤاخذتَه بحبسه في بطن الحوت على مخالفة الأَولى، فإن الأَولى له انتظار الإذن من الله تعالى.

ويرغَب الألوسي عن معنى النبذ الذي فسَّره الراغب في مفرداته بمعنى: الإلقاء والطرح لقلة الاعتداد به، معللاً أن الله تعالى رحيم بأنبيائه، وله سبحانه في كل شيء اعتداد بهم عظيم فيبقى المعنى على عمومه من الطرح والرمي أماماً أو وراءً[٢].

واختلفوا في التسبيح إلى معانٍ؛ سبحان الله، أو صلاة التطوع، أو الصلاة وقت الرخاء لكن يجمعها معاً الدعاء الذي صرَّحت الآية به، وهو الذي أخبر به النبي ﷺ بقوله: (دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت:﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(١) مفاتيح الغيب ،الرازي٧ / ١٥٨، والكشاف ،الزمخشري: ٤ / ٦٣، وفتح القدير ،الشوكاني٤ :/ ٤١١.
(٢) روح المعاني ،الألوسي: ٢٣ / ١٤٥.



فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له)[1].

وقد أوحى الله تعالى إلى الحوت أن يلقيه في البر، ولولا ذلك لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة. فألقاه في مكان خالٍ ليس فيه شجر ولا نبت ولا بناء، وكان عليلَ الجسم ضعيفَ البدن، كهيئة الصبي حين يولد، أو الفرخ الذي ليس له ريش، يؤذيه أي شيء يمرُّ عليه. لكن عناية الله تعالى أنقذته بشجرة اليقطين (القرع، أو الدباء)؛ فهو أسرع الأشجار امتداداً ونباتاً وارتفاعاً، تتمثَّل فيه خصال مميَّزة؛ من برد الظلِّ، ونعومة الملمس، وعِظَم الورق، وأن الذباب لا يقربُه، كما أنه يتميَّز بجودةِ تغذيةِ ثمرِه؛ فيؤكل نيئاً ومطبوخاً، بلبِّه وقشره. وقد كان رسول الله ﷺ يحبُّه ويتتبَّعه من حواشي الصحفة[2]، وحين سئل: إنك تحبُّ القرع؟ قال: (أجل، هي شجرة أخي يونس). كما كان في ظِلٍّ ساقه معجزة له على خلاف العادة في القرع، كما كانت تأتيه وَعْلَةٌ صباح مساء يشرب من لبنها حتى قوي[3].

ثم لما استكمل عافيته، ردَّه الله تعالى إلى قومه الذين تركهم مغاضباً، وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب، فآمنوا واستغفروا، وطلبوا العفو من الله تعالى، فسمع لهم، ولم ينزل بهم العذاب، وكانوا مائة ألف أو يزيدون، وظاهر التخيير يفيد الشك، وهو محال على الله تعالى وأمثلته كثيرة في القرآن الكريم، وأقرب الوجوه: أو يزيدون في تقديركم، أي: في مرأى الناظر بمعنى: أنهم إذا رآهم الرائي قال: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة. كما يكون: (أو) بمعنى: (بل). وعن أبيٍّ بن كعب ﷺ قال: (سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ

---

(١) سنن الترمذي ،كتاب الدعوات ،باب ما جاء في عقد التسبيح باليد ،رقم الحديث: ٣٤٢٧ .

(٢) عن مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك ﷺ يقول: (إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ فرأيته يتتبَّع الدباء من حوالي القصعة، قال: فلم أزل أحبُّ الدباء من يومئذ). صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب مَن تتبع حوالي القصعة، رقم الحديث: ٤٩٦٠.

(٣) البحر المحيط ،أبو حيان: ٩ / ١٢٤، وتفسير النسفي: ٤ / ٢٩، وحاشية الصاوي على الجلالين: ٣/ ٣٤٧.

أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾، قال: عشرون ألفاً)[1].

قال أبو حيان: وإذا صحَّ بطل ما سواه[2].

وقد دعاهم إلى ربه ثانية بعدما شاهدوا أمارات نبوته، وعلامات العذاب، فكشف الله تعالى عنهم العذاب الذي أظلَّهم، ومتَّعهم بالحياة إلى حين انقضاء آجالهم.

ولأنه حَدَثٌ لم يُعهَد مثيلُه من الرسل، ولأجله يقول النبي ﷺ: (ما ينبغي لأحد أن يكون خيراً من ابن متَّى)[3]، وهنا يحتمل أن يكون المرادُ العبدَ القائل، أو أنه يريد رسولُ الله ﷺ نفسَه. وفي رواية أخرى: (ما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى)، كما قال ﷺ أيضاً: (مَن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب)[4].

والمعنى: نفيُ الأخيريَّة في وصف النبوَّة، أي: لا يظننَّ أحدٌ أن فعلة يونس تسلب عنه النبوة[5].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

سرد الحدث في قصة يونس ؏ يخدم محور السورة، مِن حيث أن يونس نبي مرسل، وقد بُعِث النبي محمد ﷺ لتصديقه في الدعوة إلى التوحيد، كما أن فيها درساً من دروس التوحيد

---

(١) قال أبو عيسى :هذا حديث غريب .سنن الترمذي ،كتاب تفسير القرآن ،باب ومن سورة الصافات، رقم الحديث.٣١٥٣ :

(٢) مفاتيح الغيب ،الرازي: ٧/ ١٦٠ وفي ظلال القرآن ،سيد قطب: ٥/ ٢٩٩٩، والبحر المحيط ،أبو حيان: ٩/ ١٢٥.

(٣) صحيح البخاري ،كتاب تفسير القرآن ،باب قوله :﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾، رقم الحديث: ٤٤٣٠.

(٤) صحيح البخاري ،كتاب تفسير القرآن ،باب قوله :﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ ﴾، رقم الحديث: ٤٢٣٧، وفتح الباري، العسقلاني: ٨/ ١١٦، ٤٠٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير:٢٢/ ٤ ، وتفسير التحرير والتنوير ،ابن عاشور ٢٣/ ١٧٨.

الخالص، في أن الإيمان وحده هو سبيل النجاة من عذاب الله تعالى، فلا ينجو أحد من محاسبة الله تعالى، إلا أن الله سبحانه يكتب لرسله النصر والتأييد، فيونس عليه السلام لم يصبر على أذى قومه، وأبق إلى الفلك، فوقع في تلك الشدائد، مما يجسِّد العزيمة والإصرار للسير في طريق الدعوة بجدِّيَة وثبات، والتشبث بثوابت المنهج بمصداقية وإخلاص، لتتحول المبادئ والقيم إلى نتائج وحقائق ملموسة، ولتترجم الأفكار والأقوال إلى حقائق وأفعال، تتمثَّل في صبر النبي ﷺ على أذى قومه، والثقة التامة بمطلق موعود الله سبحانه وتعالى في نصره وتأييده. قال تعالى:﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]. كما أن فيها تسليةً للنبي ﷺ فيما يلقاه من ثِقَل الرسالة، وأثراً من موعظة التحذير من الوقوع فيما وقع فيه يونس. قال تعالى:﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القلم: ٤٨-٥٠].

دروس وعبر من المقطع الثاني عشر

* في الآيات حثٌّ على إكثارِ المؤمن من ذكر الله تعالى بما هو أهله، وإقبالهِ على عبادته، وجمعِ همِّه لتقييد نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة، لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايقِ والشدائد. وفيها تعظيمٌ لشأن الالتجاء إليه، في إشارة إلى حديث: (تعرَّفْ إليه في الرخاء يعرفْك في الشدة)[1]. فمَن أقبل على الله تعالى في السرَّاء أخذ بيده في الضرَّاء.

* في مقارنة قوم يونس بفرعون نجد أن قوم يونس آمنوا لما عاينوا العذاب، لذا نفعَهم

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (كنت رديف رسول الله ﷺ فقال: يا غلام، أو يا غُلَيم! ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فقلت: بلى، فقال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جفَّ القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضرُّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً. وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً). حديث صحيح. الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد: رقم الحديث: ٢٨٠٣.

إيمانهم، أما فرعون فلم يؤمن إلا بعد حصول العذاب بالفعل، فلم ينفعْه إيمانه، كذلك قوم يونس أخلصوا في الإيمان، وفرعون لم يخلص، إنما كان عند الغرغرة لدفع الشدة، ولو رُدُّوا لعادوا. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١ ﴾ [يونس: ٩٠-٩١][١].

* القرعة طريق من طرق القضاء عند التباس الحق، أو استواء عدد في استحقاق شيء، وهي اقناع لفصل التنازع، ويصار إليها عند التساوي في الحق وفقدان المرجِّح، وإنما جُعِلَتْ تطييباً لأنفس المتخاصمين، ورفعاً للإشكال، وقد كانت في شرع مَن قبلنا، فجاء الشرع وعمَّمها في كل مشكل تستوي فيه الحقوق، ويعسرُ التعيين، دفعاً للضغائن، وحسماً لداء التشهِّي؛ فتشرع بين الزوجات في السفر، والقسمة، والعتق، وبين الخلفاء وغيرهم إذا استوت فيهم الأهلية للولاية، والحاضنات، وسائر ما يشاكله. ولا تجوز على إلقاء الآدمي في البحر، إنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته[٢].

* عدمُ ختم قصة يونس ومِن قَبْلِه قصة لوط عليهما السلام بما ختم به سائر القصص من السلام تفرقةً بينهما وبين أرباب الشرائع الكبرى، وأولي العزم من الرسل، أو اكتفاءً بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين آخر السورة[٣].

* في قصة يونس عليه السلام درس ربانيٌّ في التربية، محفوفٌ بالمعجزة، حصل له بسبب استعجاله وخروجه عن قومه مغاضباً، بدون إذن صريح من الله تعالى له، يحدِّد له فيه وقت الخروج وإن كان له فيه اجتهاد مقبول، ولكن مثل هذا الاجتهاد إنْ قُبِلَ من الصالحين العاديين فإنه لا يُقبَل من المرسلين المقربين، فهو بخروجه واستعجاله قد فعل ما يستحق عليه اللومَ

(١) حاشية الصاوي على الجلالين: ٣ / ٣٤٧.
(٢) تفسير التحرير والتنوير ،ابن عاشور: ٢٣ / ١٧٥، والجامع لأحكام القرآن ،القرطبي: ١٥/ ١٢٦.
(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ،البيضاوي: ٥ / ١١، وتفسير أبي السعود: ٧ / ٥٥٢.

والتأديب الرباني[١].

* سبب نجاة يونس أنه كان من المسبِّحين الذاكرين، كما أنه أعلن توبته في بطن الحوت الذي جعله الله تعالى مقرّاً لحمايته، فحين ناداه في أعماق ظلمات ثلاث؛ ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت مسبِّحاً تائباً، جاءته الإجابة بقبول التوبة والنجاة، قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧ـ٨٨]، وهذا يؤكد أن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، قال الحسن البصري: ما كان له صلاة في بطن الحوت، ولكنه قدَّم عملاً صالحاً في حال الرخاء، فذكَّره الله تعالى به في حال البلاء، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه، وإذا عثر وجد متكأً. وإليه يشير الحديث الذي رواه الضياء عن الزبير بن العوام ﷺ موقوفاً: (من استطاع منكم أن يكون له خِبءٌ من عمل صالح فليفعل)[٢]. فيجتهد العبد ويحرص على خصلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدَّخرها ليوم فاقته وفقره، ويسترها عن خلقه ليصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه[٣].

---

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها ،حبنكة ص: ٤٩٢.

(٢) حديث صحيح ،أخرجه السيوطي في الجامع الصغير رقم الحديث:٨٤٠٥ . والخبء :الشيء المخبوء أو المدَّخر .فيض القدير شرح الجامع الصغير ،المناوي: ٦ / ٥٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥/ ١٢٦، والتفسير المنير ،الزحيلي: ٢٣ / ١٤٣.

المقطع الثالث عشر: (مناقشة عقائد المشركين) الآيات: (١٤٩-١٧٠)

قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

سبب النزول:

١- قوله تعالى:﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٥٨]:

أخرج جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أنزلت هذه الآيات في ثلاثة أحياء من قريش: سُلَيم وخزاعة وجُهينة:﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ ﴾.

ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا: إن قريشاً وأجناس العرب: جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا: الملائكة بنات الله.

وعن مجاهد قال: قال كبار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق ﷺ: فمن أمهاتهم؟ قالوا: بنات سَرَاةِ الجن، فأنزل الله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾[1].

٢- قوله تعالى:﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الصافات: ١٦٥]:

---

(١) تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير:٤ / ٢٤، والمحرر الوجيز ،ابن عطية: ١٢ / ٤٠٦، وزاد المسير ،ابن الجوزي: ٦ / ٣٢٥، ومعالم التنزيل ،البغوي: ٤/ ٤٩.

أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك قال: كان الناس يصلُّون متبدِّدين، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾، فأمرهم النبي ﷺ أن يصفُّوا[١].

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

تعتبر قصة لوط عليه السلام خاتمةَ قصص الأنبياء عليهم السلام في السورة، والتي كانت في مجملها توطئةً لمناقشة المشركين في افتراءاتهم الباطلة. فلما انتهى من الحديث عن الرسل الكرام رجع إلى الحديث عن المكذبين من كفار مكة، فكان في استفتاح الخطاب لهم خير مثال لقريش، أنهم إن آمَنوا كما آمن قومُ يونس أَمِنوا من عذاب الله تعالى، كما جرى لهؤلاء. ومن هنا حسُن انتقال القول والمحاورة إليهم بقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾.

مناسبة الاستفتاء هنا لسابقه في بداية السورة:

يأتي طلب الاستفتاء هنا في مناقشة عقائد المشركين وتفنيدها وتقبيحها؛ مِن زعمهم أن لله تعالى ولداً، ووصفهم الملائكة بالأنوثة، ونسْبتها إليه سبحانه، وغيره من الشركيَّات، مما هو مخِلٌّ بقضية التوحيد الكبرى، يشابه تماماً طلب الاستفتاء الذي تقدَّم بداية السورة من إبراز حقيقة الإيمان بالله تعالى، وتحديد الصلة بين الله سبحانه وعباده، ومن أخذه المكذبين بهذه الحقيقة.

كما أن في استفتاح المقطع هنا بالاستفتاء في طلب الرد على مثبتي الولد، يناسب الردَّ على منكري البعث في الاستفتاء الأول بداية السورة؛ من حيث اتحاد الجملتين في: السائل والمسؤول، والأمر[٢].

---

(١) التفسير المنير،الزحيلي ٢٣ :/ ١٤٧.

(٢) المحرر الوجيز،ابن عطية١٢ :/ ٤٠٥،وروح المعاني،الألوسي ٢٣ :/ ١٤٩،وصفوة التفاسير،الصابوني: ٣/ ٤٥.

التفسير:

تناولت الآيات الكريمة أسطورتين وادِّعائين للمشركين على غاية من الخطورة والقبح تتعارضان مع تنزيه ذات الله تعالى وتعظيمه وتمجيده؛

أما الأسطورة الأولى: فهي ادِّعاء أن لله تعالى البنات، ولهم البنون. ويتكرر طلب الاستفتاء هنا على جهة التوبيخ والتقريع، والإنكار والتأنيب لهؤلاء المشركين على بهتانهم هذا، وافترائهم على الله تعالى، وقسمتهم الجائرة، وتسفيه عقولهم في جعْلِهم لأنفسهم البنينَ وهو النوع الجيد الذي يستحبُّونه، وجعْلِهم لله تعالى البناتِ التي يكرهونها، ويستنكرون ذكرها، ويئدونها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]. ويحاورهم في صحة هذا الادِّعاء، وأنَّى لهم أن يحكموا على الملائكة بالأنوثة، وهو مما لا يثبت إلا بالدليل العقلي القائم على الحسِّ والمشاهدة، أو النقلي المستند إلى النص الثابت القاطع وكلاهما مستحيل الثبوت، فلما افتقروا إلى إثبات ادِّعائهم بالمنطق والبرهان قامت عليهم الحجة، وثبت في ادِّعائهم هذا وقوعهم في الكفر من زوايا ثلاث؛

الأولى: حين أثبتوا التجسيم لله تعالى، فالولادة مختصة بالأجسام، وهي من أحوالها.

والثانية: حين آثروا أنفسهم بالأفضل، وجعلوا لله تعالى الأقل. فقد استحوذوا أرفع الجنسين لهم، ونسبوا دونَه لله تعالى.

والثالثة: حين وصفوا الملائكة المقربين بالأنوثة، وقد كانوا يتعيرون بأبي الإناث. فاستهانوا بمَن هو مكرَّم عند الله تعالى، حين أنَّثوهم.

لذا كرر الله تعالى هذا النوع من كفرهم في كتابه غير مرة، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾[النجم: ٢٧]، وقال تعالى أيضاً: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال تعالى أيضاً: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ

وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾[النجم: ٢١-٢٢].

ويتكرر الإنكار على حكمهم الجائر هنا حين يسألهم المبرر لاختصاص الله تعالى بالبنات وتفضيلهم بالبنين، وهذا يستدعي إعمالَ العقول ومحاورتَها في تدبر ما يفترونه، والنظر والتفكر فيما يدَّعونه، ثم يسائلهم إن كان لديهم حجة واضحة وبرهان ساطع، يستند إلى وحي السماء فليذكروه، وليأتوا به.

ونخلص إلى أن تعدد هذه الأسئلة إنما يحمل معنى التوبيخ والتقريع، والتبكيت والإنكار تسفيهاً لآرائهم، واستخفافاً بأحكامهم، حين لا تستند إلى مصداقية عقل، ولا منهجية فكر ولا حجية دليل، فضلاً عن أنها تتسم بالإفك الشديد، والبهتان العظيم، والافتراء الشنيع.

أما **الأسطورة الثانية**: فهي ادِّعاء صلة النسب بين الله تعالى وبين الجِنَّة، وهو افتراء نادت به فرقة من زنادقة قريش حين قالوا: إن الله وإبليس أخوان، فالله إله الخير، وإبليس إله الشر فادَّعَوا أن الله نكح سروات الجن، ـ أي أشرافهم ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

واستحسن القرطبي قول الحسن: أنهم أشركوا الشيطان في عبادة الله، فهو النسب الذي جعلوه[1].

وفي تعيين الجِنَّة قولان: الملائكة أو الجن، وإنما سُمِّيت الملائكة بالجِنَّة لاجتنابهم واستتارهم عن الأبصار، وهو ما يرجحه الرازي، لأنه أبطلَ قولَهم: الملائكةُ بناتُ الله، ثم عطف عليه فوجب أن يكون مغايراً[2]. وعلى أيٍّ من القولين؛ فالشياطين تعلم ضدَّ ذلك، وأنها ستحضر أمر الله تعالى وثوابه وعقابه، كما أن الملائكة تعلم أن هؤلاء الكفرة سيحضرون عذاب الله تعالى وعقابه.

ثم نزَّه الله تعالى نفسه عما يصفه الظالمون الملحدون مما لا يليق به، لكن عباد الله المخلصين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥ :/ ١٣٥.

(٢) مفاتيح الغيب ،الرازي٧ :/ ١٦١.



المتَّبعين للحق المنزل على الرسل ناجون، فلا يحضرون إلى العذاب، ولا يُساقون إليه، والاستثناء هنا منقطع.

ثم تحدَّى الله تعالى المشركين، وأثبت مدى عجزهم عن إضلال أحد أو فتنته، فقال لهم: إنكم وآلهتكم التي تعبدونها من دون الله تعالى لا تقدرون على فتنة أحد عن دينه أو إضلاله، إلا من هو أضلُّ مكنم ممن هو داخل في أهل الجحيم، ممن سبق في علم الله تعالى، وهم المصرُّون على الكفر.

قال الزجاج: أهل التفسير مجمعون على أن المعنى: ما أنتم بمضلين أحداً إلا من قدَّر الله عزَّ وجلَّ عليه أن يَضِلّ[1].

ثم يأتي ردُّ الملائكة على هذه الأسطورة بإقرارهم أن لكلٍ منا مقامَه لا يتعدَّاه، وهو ما يُشار إليه من بيان درجتهم في الطاعة، ورتبتهم في العبودية لله تعالى، يبيِّنه حديث أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء، وحُقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابعَ إلا عليه ملَك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولا تلذَّذتم بالنساء على الفرُشات، ولخرجتم على أو إلى الصعدات تجأرون إلى الله، قال: فقال أبو ذر ﷺ: والله لوددت أني شجرة تعضد)[2].

كما أنهم عباد لهم وظائف؛ فهم يصفُّون للصلاة، ويعظِّمون ربهم ويسبِّحونه، وينزِّهونه عن اتخاذ الولد، أو أن يكون له صهر، أو زوجة.

يؤيد هذا المعنى ما روي في حديث الإسراء من استقبال الملائكة للنبي ﷺ وجبريل في استئذان دخول السماوات، وفي تأخر جبريل عند سدرة المنتهى، حيث لا يستطيع التقدم عن

(١) البحر المحيط ،أبو حيان: ٩ / ١٢٦، وفتح القدير ،الشوكاني: ٤ / ٤١٤.
(٢) حسن لغيره .الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد :رقم الحديث: ٢١٥١٦.



مكانه، حيث لكلٍ مقام معلوم[١].

ويحتمل أن يكون هذا قولَ المسلمين الذين يصفُّون للعبادة، واقفين إليه صفوفاً بالصلاة وإنما وصف وقوفهم بالصلاة تشبهاً بنظام الملائكة. يؤيد ذلك حديث حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعِلَت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعِلَت لنا الأرض كلها مسجداً، وجُعِلَت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء)[٢]، وحديث جابر بن سمرة ﷺ قال: (خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد، فقال: ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربهم؟ قلنا: وكيف تصفُّ الملائكة عند ربهم؟ قال: يتمُّون الصفوف المتقدمة، ويتراصّون في الصف)[٣]. قال أبو نضرة: كان عمر ﷺ إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، إنما يريد الله تعالى بكم هَدْيَ الملائكة عند ربها، ثم يقرأ: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ تأخَّرْ يا فلان، تقدَّمْ يا فلان، ثم يتقدَّم فيكبر[٤].

قال الزهراوي: إن المسلمين إنما اصطفُّوا في الصلاة مذ نزلت هذه الآية، ولا يصطفُّ أحد من أهل الملل غير المسلمين[٥].

ثم تختم آيات المقطع بذكر مقالة بعض المشركين قبل البعثة النبوية، حينما يُعَيَّرون بجهلهم فكانوا يتمنَّون وجود كتاب مقروء بينهم، يذكِّر الناس بما يجب عليهم؛ كالتوراة والإنجيل كي يُخلصوا فيه العبادة، ويؤمنوا، لكنهم لم يوفوا بتمنِّيهم إذ تحقَّق، فقد كفروا بنبيِّهم المرسل وبكتابه المنزل، وسوف يرون عاقبة كفرهم، حين تمنَّوا أمراً، فلما جاءهم كفروا بربهم، وكذَّبوا

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/ ١٩١، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ١٣٨.

(٢) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٥٢٢.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد، رقم الحديث: ٤٣٠.

(٤) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير٤ :/ ٢٥.

(٥) المحرر الوجيز ،ابن عطية١٢ :/ ٤٠٩،والبحر المحيط ،أبو حيان٩ :/ ١٣٠،وكتاب التسهيل لعلوم التنزيل ،ابن جزي٣ :/ ٣٨٦.

رسوله، واستهواهم الحسد. وهذا وعيد أكيد، وتهديد شديد.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يخدم هذا المقطع محورَ السورة من حيث أنه يناقش المشركين في قضايا التوحيد الكبرى والتى تنال أصول العقيدة والدين، فيقرر بعد الحوار والمناقشة تنزيهَ الله تعالى عن كلٍّ ما لا يليق بذاته سبحانه من ألوان الشرك والكفر؛ كنسبة الولد إليه، ووصف الملائكة بناته، مطالباً إياهم بالدليل العقلي والمنهجي المطلوب في قضايا العقيدة، وذلك بالنظر والتفكير، وإعمال العقل لا إهماله، ولمَّا استحال وقوع ذلك عرفاً وعقلاً وشرعاً، ثبت يقيناً تنزيهُ ذاتِ الحقِّ سبحانه عن كل نقيصة وحاجة، واستحق التسبيح والثناء، والعبادة والولاء، وهو مقتضى محور السورة العام الداعي إلى التوحيد والإيمان.

دروس وعبر من المقطع الثالث عشر

* الحق والباطل ضدَّان أزليان، وصراعهما باقٍ أبد الدهر، والباطل مهما تعالى فهو لا ريب زاهق، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١]، إلا أن إبطاله لا يكون بالتشهي ولا التمني، إنما بالدليل الواضح، والآية البيِّنة، لذا كانت مشروعية دحض الباطل بأقوى الحجج، وأصحِّ البراهين.
* تنزيه الله تعالى عن كل ما لايليق بذاته العلية من صفات النقص والعجز مما يتصف به المخلوقون، وإبطال كل فرية نادى بها المشركون من حاجتِه للولد والزوجة، أو فكرةِ أن الملائكة بنات الله، ووجودِ نسب بين الله تعالى والجن، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.
* لا يُقَرُّ الكفَّار على حمل أحدٍ على الضلال، إلا إذا سبق في علم الله تعالى أنه من أهل النار لإصراره على الكفر، وعدم استعداده للإيمان، وفي ذلك تقرير لعقيدة القضاء والقدر في أن مَن كتب الله تعالى عليه النار فسوف يصلاها. وفيه أيضاً ردٌّ على القدَرية القائلين بالجبر في حكم الله تعالى وقدَره. قال الرازي: وهذا دليل لأهل السنة على أنه لا تأثير لإغواء

الشيطان ووسوسته، وإنما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره، لأن قوله تعالى:﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾تصريح بأنه لا تأثير لقولهم، ولا تأثير لأحوال معبوديهم في وقوع الفتنة والضلال. وقوله تعالى:﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ يعني إلا من كان كذلك في حكم الله تعالى وتقديره، وذلك تصريح بأن المقتضي لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى[١].

* تسوية صفِّ الصلاة شعار يميِّز المسلمين في الالتزام والخضوع والانتظام والخشوع، وهو حين يتمثل في ضبط اصطفافهم في الصلاة فإنه رمز وعنوان لتعميم هذا المظهر المنضبط في سائر أحوال المسلمين الاجتماعية، وفي ذلك ردٌّ على كل دعوى يثيرها المشككون حول هذا الدين، مما يبديه بعض أتباعه من مظاهر الفوضى والاضطراب في الأحوال العامة للمجتمع، جهلاً وسفهاً. فالإسلام دين الضبط والنظام، والاستقامة والالتزام. عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: (سوّوا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة)[٢].

* تقرير طبيعة الملائكة، وأنهم عباد لله تعالى خلقوا من نور، ودأبهم الطاعة والتسبيح، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتزاوجون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون مايؤمرون، وقد اختصت الآيات بذكر ثلاث صفات رئيسة لهم؛ فلكل منهم رتبة ودرجة لا يتجاوز حدَّه فيها، كما أنهم يصفُّون للعبادة والطاعة والخدمة وأداء ما كلفوا من وظائف، فهم يؤدونها في حدود رتبهم دونما تقصير أو تجاوز، كما أنهم في تسبيح وتعظيم وتمجيد وتنزيه لله تعالى عما لا يليق به من صفات النقص. وفي هذا دلالة على أن الإنسان مطالب بالتمثل بأخلاق الملائكة في الطاعة والخدمة والتسبيح لله تعالى، وأنه مهما تقدَّم في الرتبة فلن يبلغ درجة الملائكة الذين جبلوا على العصمة، لكن الإنسان في جهاده وصبره يستطيع أن يحقق درجات مميزة في العبودية، وهو الذي رُكِّبَت فيه نوازع الخير والشر.

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: ٧/ ١٦٢.

(٢) صحيح البخاري ،كتاب الأذان ،باب إقامة الصف من تمام الصلاة ،رقم الحديث: ٦٨١.

* يلحظ المتتبع للآيات الكريمة الدعوةَ المتكررة للمسلم في أهمية دور العقل، وإعماله في الملاحظة والحوار الحرّ، والمقارنة واستنتاج الحقائق، وعدم تهميشه بقبول نظريات خرافية أو أفكار ضالة منحرفة، تنزل بمستوى معتنقيها إلى حضيض البهيمية، كما في قول الله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

المقطع الرابع عشر: (نصر جند الله تعالى) الآيات: (١٧١-١٨٢)

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾[الصافات: ١٧٦]:

أخرج جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالوا: يا محمد! أرنا العذاب الذي تخوِّفنا به، عجِّلْه لنا، فنزلت: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾، وهو صحيح على شرط الشيخين[1].

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

التهديد الخفيُّ في نهاية المقطع السابق عند قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هو اللائق بالكفر بعد التمني والوعود، وبمناسبة هذا التهديد يقرر الله تعالى وعده لرسله بالنصر والغلبة، والوعد واقع، والكلمة قائمة.. فقد ذهبت عقائد المشركين وسطوتهم ودولتهم، وبقيت عقائد الرسل

---

(١) التفسير المنير ،الزحيلي٢٣ / ١٥٦.

تسيطر على قلوب الناس.. والوعد سُنَّةٌ كونية ماضية كما تمضي الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان.. ولكنها مرهونة بتقدير الله تعالى، يحقِّقها متى يشاء[١]. ويختم المقطع هذه السورة بتسجيل وعد الله سبحانه لرسله أنهم هم الغالبون، وبتنزيهه تعالى عما يصفون، والتوجُّه بالحمد لله ربِّ العالمين.

التفسير:

لما هدَّد الله سبحانه المشركين بقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾، أردفه بما يقوِّي قلب رسوله ﷺ بوعده بالنصر والتمكين، فجاءت الآيات تحمل المؤانسة والبشرى لنبيِّه ﷺ وأوليائه بأنَّ وعْدَنا وقضاءنا وحكمنا في الأزل قد سبق ومضى في أم الكتاب بنصرِ رسلنا على من ناوأهم، وجحدَ رسالتهم، وظفرِهم بإرادتهم، والمراد بالنصر والغلبة علوُّهم على عدوِّهم؛ سواء كان ذلك في الدنيا بالغلَبة وظهور الحجة والبرهان في مقام الحجاج، والقهر وهزيمة الأعداء بالرمح والسنان في ملاحم القتال، أو في الآخرة بالسعادة والعلوِّ والفوز والنجاح، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٢]. وجندُ الله تعالى في السماء هم الملائكة، وفي الأرض الغزاة.

ومضمون الكلمة هو تحقيق موعود الله تعالى:﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾[المجادلة: ٢١]، وسُمِّيت كلمة وهي كلمات، لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة، وشبَّهها بالكلمة في سرعة الدلالة، وإيجاز اللفظ[٢].

وفي نعْتِ الرسلِ بالنصرة، والجندِ بالغلبة جرْيٌ للكلام مجرى الغالب، في أكثر الأحوال، وباعتبار العاقبة المحمودة لهم على كل حال، لقوله تعالى﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]، ولا ينافي ذلك أنهم يُغلَبون نادراً، ابتلاءً ومحنة، أو بسبب تقصير منهم. قال الحسن: المراد

---

(١) في ظلال القرآن ،سيد قطب٥ / ٣٠٠١.

(٢) تفسير النسفي: ٤ / ٣١، والتحرير والتنوير ،ابن عاشور: ٢٣ / ١٩٥.

النصرة والغلبة في الحرب، فإنه لم يقتل من أصحاب الشرائع أحد قطُّ في الحرب، وإنما قُتِل مَن قُتِل منهم غيلة، أو في غير الحرب[1].

ويكفي في نصرتهم إعلاءُ كلمتهم، وتعجيز الخلق عن معارضتهم، وحفظهم من القتل في الحروب، ومن الفرار منها، ولا ريب أن نصر أهل الحق يقابله هزيمة أهل الكفر والعصيان والضلال.. وقد تكون الغلبة بقوة الحجة والدولة والاستيلاء بالدوام والثبات، فالمؤمن وإن صار مغلوباً أحياناً بسبب ضعف الدنيا فهو الغالب[2].

وجاء الأمر بالتولِّي عنهم تحقيقاً لتأنيسه ﷺ وتسلية له، وهو هنا مجاز في عدم الاهتمام بما يقولون، وترك النكد عن إعراضهم.

واختُلِف في تعيين لفظ:﴿ حِينٍ ﴾ إلى أقوال: حتى تنقضي مدة إمهالهم، أو حتى مجيء عذابنا ونزوله بهم، أو حتى نأمرك بقتالهم، على اعتبار الآية هنا محكمة، أو حتى موتهم، أو حتى يوم القيامة، أو أمْرٌ بالموادعة أو المهادنة إلى حد معلوم، وهو يوم بدر، أو فتح مكة، على اعتبار الآية منسوخة بآية السيف والقتال[3].

﴿ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٩ ﴾تأمل أحوالهم، فهو وعد للنبي ﷺ، كناية عن تحقق وقرب وقوعه، ووعيد للكافرين بما سيحلُّ بهم يوم بدر.

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ١٧٦ ﴾قرر الله تعالى نبيَّه على جهة التوبيخ لهم على استعمال عذاب الله تعالى، وهو استفهام إنكاري للتهديد، وقد مثَّل العذاب النازل بهم بعد ما أُنذِروه فأَنكروه بجيش أنذر بهجومه قومَه بعضُ نُصَّاحهم، فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أخذوا أهبتهم، ولا دبَّروا أمرهم تدبيراً ينجيهم، حتى أناخ بفنائهم بغتة، فشنَّ عليهم الغارة، وقطع دابرهم،

(١) روح المعاني ،الألوسي: ٢٣ / ١٥٦.

(٢) روح المعاني ،الألوسي: ٢٣ / ١٥٦، ومفاتيح الغيب ،الرازي: ٧ / ١٦٤.

(٣) جامع البيان ،الطبري: ٢٣ / ١١٥، ومفاتيح الغيب ،الرازي: ٧ / ١٦٤، ولباب التأويل في معاني التنزيل ،الخازن: ٤ / ٢٩، وزاد المسير ،ابن الجوزي: ٦ / ٣٢٦.

وكانت عادة مغازيهم أن يغيروا صباحاً، فسُمِّيت الغارة صباحاً، وإن وقعت في وقت آخر. وما فصحت هذه الآية، ولا كانت لها الروعة التي تحسُّ بها، ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل. ومنه الحديث: (محمد والخميس)[1][2].

والساحة: الفناء، والعرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم، كما تعبِّر بالنزول بالساحة فيما يرِدُ على الإنسان من خير أو شر، وسوء الصباح يستعمل في ورود الغارات والرزايا[3].

ومقصدُ تكرار الأمر بالتولِّي والإبصار المبالغةُ في التأكيد والتهديد والتهويل، ووقوع الميعاد بعذاب يحلُّ عليهم، بعد أن أُنذِروا فلم ينفعهم الإنذار. ومن المفسرين مَن ذهب إلى أن الأمر بالتولِّي في الآية الأولى ذِكْرٌ لأحوالهم في الدنيا، وفي الثانية ذِكْرُه في الآخرة، فلا تكرار[4].

ولَمَّا اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله تعالى، ونسبوا إليه مما هو منزَّه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خوَّلوه في العاقبة من النصرة عليهم، جاءت الخاتمة بجوامع ذلك؛ من تنزيهِ ذاته تعالى عما وصفه به المشركون، والتسليمِ على المرسلين، والحمدِ لله ربِّ العالمين على ما سبق ذكره من نعمه على المسلمين من هدي ونصرٍ وفوز بالنعيم المقيم، وما قيَّض لهم من حُسْن العواقب[5].

---

(١) عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ خرج إلى خيبر فجاءها ليلاً، وكان إذا جاء قوماً بليل لا يغير عليهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت يهود بمسَّاحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس، رقم الحديث: ٢٧٢٦.

(٢) الكشاف ،الزمخشري: ٤/ ٧٠، والجامع لأحكام القرآن ،القرطبي:١٥ / ١٤٠، والبحر المحيط ،أبو حيان: ٩ / ١٣١.

(٣) المحرر الوجيز ،ابن عطية: ١٢ / ٤١٠، والبحر المحيط ،أبو حيان: ٩ / ١٣١، ومعاني القرآن ،الفراء: ٢/ ٣٤٦.

(٤) البحر المحيط ،أبو حيان: ٩ / ١٣١، ولباب التأويل في معاني التنزيل ،الخازن: ٤ :/ ٢٩.

(٥) الكشاف ،الزمخشري: ٤/ ٧١، وتفسير النسفي: ٤/ ٣٢.



ومعنى ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ تنزيه عن كل سوء، والعزَّة تكون صفةَ ذات، نحو قوله تعالى:﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]، وتكون صفةَ فعل، نحو قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ ربُّ الغلبة والقدرة التي يتعازُّ الخلق فيما بينهم، فهي من خلق الله عزَّ وجلَّ، وفيه إشارة إلى كمال القدرة، وأنه القادر على جميع الحوادث. وفسَّرها بعضهم هنا بالملائكة[١].

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾ ومعنى السلام على المرسلين؛ إما تحيتهم، أو سلامتهم من أعدائهم، فيكون تكميلاً لقوله تعالى:﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[٢].

قال الطبري: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾ أي: وأَمَنَةٌ من الله تعالى للمرسلين الذين أرسلهم إلى أممهم الذين ذكرهم في هذه السورة، وغيرهم من فزع يوم العذاب الأكبر، وغير ذلك من مكروه أن ينالهم من قبل الله تبارك وتعالى. وفي الحديث: (إذا سلَّمتم على المرسلين فسلِّموا عليَّ، فإنما أنا بشرٌ من المرسلين)[٣].

﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ ربّ الثقلين الجن والإنس خالصاً دون سواه، لأن كل نعمة لعباده فمنه، فالحمد له سبحانه، خالص لا شريك له، كما لا شريك له في نعمه[٤].

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: (سمعت رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته، أو حين ينصرف منها:﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي:١٥ / ١٤١، ولباب التأويل في معاني التنزيل ،الخازن: ٤ / ٢٩.
(٢) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ،ابن جزي: ٣/ ٣٨٨.
(٣) أخرجه ابن سعد وابن مردويه من طريق سعيد عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة مرفوعا ،وعن أنس ﷺ قال رسول الله ﷺ: (إذا سلَّمتم عليَّ فسلِّموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين)، وفي رواية: (فإنما أنا أحدهم). المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/ ٤١١، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ١٤٢، وفتح القدير، الشوكاني: ٤/ ٤١٧، والأساس في التفسير، سعيد حوى: / ٤٧٤٧.
(٤) جامع البيان ،الطبري: ٢٣ / ١١٦.

﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[١].

وعن علي رضي الله عنه: (من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخرُ كلامه إذا قام من مجلسه: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[٢].

وعن عبد الله بن أرقم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من قال دبر كل صلاة: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر)[٣].

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره بسند صحيح إلى الشعبي مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه، أو حين يريد أن يقوم: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[٤].

وقد ورد في السنَّة المطهرة حديثُ كفارة المجلس بروايات منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان

---

(١) رواه أبو زكريا يحيى بن يحيى النيسابوري عن هشيم عن أبي مروان العبدي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ١٤١.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٣٢، ومعالم التنزيل، البغوي: ٤/ ٥٢.

(٣) الجريب: مكيال قديم. والحديث ضعيف، قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه عبد المنعم بن بشير، وهو ضعيف جداً. انظر: مجمع الزوائد: ١٠/ ١٠٣، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ٢٥، والترغيب والترهيب، المنذري: ٢/ ٤٤٩، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي: ٢/ ٤١١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ٢٥، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسند صحيح إلى الشعبي مرسلاً، وذكره الثعلبي من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ١٤١.

في مجلسه ذلك)[١].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يعتبر المقطع الأخير الخاتمةَ في السورة، من حيث تعزيز ما بحثت فيه من قضايا تتصل بالمحور العام للسورة، وهو قضية التوحيد الكبرى، فجاءت آيات هذا المقطع تبني على ما مرَّ في السورة، وتؤكِّد ما مضى فيها من معانٍ؛ مختتِمةً ما ابتدأت به من وصف الملائكة بأنهم الصافُّون المسبِّحون، وجاء الختام بوعد قاطع وكلمة قائمة، استهدفت بخطابها جميعَ الرسل تذكِّرهم النصرةَ والغلبَةَ لهذا الدين وأنبيائه وأوليائه، والخذلانَ والهوانَ لأعدائه، وهكذا اكتمل بناء قضية التوحيد والإيمان، كما جاء ختام السورة مناسباً لموضوعاتها، ملخِّصاً للقضايا التي عالجتها؛ فاختتم الكلام بالتنزيه والتسبيح لذات الربِّ العظيم، والمدح والتسليم على جميع الأنبياء والمرسلين، والثناءِ والحمدِ لله ربِّ العالمين.

دروس وعبر من المقطع الرابع عشر

* وعْدُ الله لرسله وأوليائه المؤمنين بالنصر لا يُخلَف، فقد تكفَّل سبحانه به، وأخذه عهداً على نفسه في محكم التنزيل، لكن للنصر شروط ومقدمات، وأسباب وعلامات، فلا يُنال بالتمنِّي، وإنما بالإيمان الصحيح بالله تعالى، والعمل بالتنزيل، والتزام دين الإسلام في الحياة سلوكاً ونظاماً، دستوراً ومنهاجاً، عندها يتحقَّق النصر الذي وعد الله تعالى به عباده المؤمنين. قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال أيضاً:﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[محمد ﷺ: ٧]، وقال أيضاً:﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[غافر: ٥١]. وقد أنجز الله وعده.
* للنصر أحوال؛ فقد يكون بالغلبة في قوة الحجة والبرهان في ميادين الجدال، وقد يكون

---

(١) وفي الباب عن أبي برزة وعائشة، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس، رقم الحديث: ٣٣٥٥.

بالغلبة على الأعداء في قهرهم وهزيمتهم، أو بالدولة والاستيلاء، أو بالدوام والثبات. هذا في الدنيا، وقد يكون في الآخرة بتحقيق السعادة والفلاح، والفوز برضوان الله تعالى في الجنان.

* الغرضُ من ذِكْرِ التسبيح والسلام والثناء في ختام السورة تعليمٌ للمؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يُخِلُّوا به، ولا يغفلوا عن مضمِّنات كتابه الكريم، ومودعات قرآنه المجيد.

* فصَّل الفقهاء الحكمَ فيمن حلف بعزَّة الله تعالى؛ فإن أراد صفته الذاتية فحنث فعليه الكفارة، لأنها يمين، وإن أراد العزَّة التي خلقها الله تعالى، وجعلها بين عباده فلا كفارة عليه إن حنث، لأنها ليست بيمين[1].

* يستحب ذِكْرُ كفارة المجلس عند انتهائه بالتسبيح والدعاء المشهور، لحديث أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. فقال رجل: يا رسول الله! إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى، فقال: كفارة لما يكون في المجلس)[2].

* تقرير النبوة المحمدية.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥ :/ ١٤١.

(٢) سنن أبي داود ،كتاب الأدب ،باب في كفارة المجلس ،رقم الحديث.٤٢١٧ :

الخاتمة

مجمل ما حوته السورة من موضوعات:

١ـ التوحيد ودليله في الآفاق والأنفس.

٢ـ خلق السماوات والأرض، ووصفه سبحانه لذلك.

٣ـ إنكار المشركين للبعث، وما يتبع ذلك من محاورة أهل الجنة لأهل النار، وهم يطَّلعون عليهم.

٤ـ وصف الجنة ونعيمها.

٥ـ قصص بعض الأنبياء كنوح وإبراهيم وإسماعيل.

٦ـ دفع فرية قالها المشركون وتوبيخهم عليها إذ قالوا: الملائكة بنات الله.

٧ـ تنزيه الله تعالى عن ذلك.

٨ـ بيان أن المشركين لا يفتنون إلا ذوي العقول الضعيفة المستعدة للإضلال.

٩ـ وصف الملائكة بأنهم صافُّون مسبِّحون.

١٠ـ مدح المرسلين وسلام عليهم.

١١ـ حمد الله وثناؤه على نفسه بأنه رب العزة ورب الخلق أجمعين، وفي هذا تعليم لنا كي نختم مجالسنا وأعمالنا بـ: سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.



سورة ص

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

تسمى السورة الكريمة «سورة ص»، وهو حرف من حروف الهجاء، للإشادة بالكتاب المعجز الذي تحدى الله به الأولين والآخرين، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية .

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواهُ الإمام أحمد وغيره، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ)[1].

ج - مكية السورة:

سورة ص مكية، وترتيبها في المصحف الشريف الثامنة والثلاثون (٣٨). نزلت بعد سورة القمر. من الجزء «٢٣»، الحزب «٤٦».

عدد آيات السورة. عدد آياتها ٨٨. [2]

محور السورة: سورة «ص» مكية، وهدفها نفس هدف السورة المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داوود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/ ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى، ص: ٢٢٤.

(٢) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٨٥.

المناسبات في السورة الكريمة:

١. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع سورة ص وخاتمتها واضحة جداً، ففي بداية السورة. حديث عن القرآن ذي الذكر﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾، وفي نهايتها تأكيد على أن القرآن الكريم ما هو إلا ذكر للعالمين﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة ص، وخاتمة السورة التي قبلها: (الصافات)؛ ففي نهاية سورة الصافات تهديد للكفار بالهزيمة في الدنيا، وبعذاب الله تعالى في الآخرة، ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾، وفي أول (ص) حديث عن إهلاك القرون السابقة المكذبة، ولم ينفعهم ندمهم حين ندموا ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾.

٣. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

هناك ارتباط بين مضمون سورة (ص) والسورة التي قبلها (الصافات)،

فمجيىء (ص) بعد الصافات كـ (النمل) بعد الشعراء، وكـ (طه والأنبياء) بعد (مريم) وكـ (يوسف) بعد (هود) في كونها متممة لها، بذكر من بقى من الأنبياء، ممن لم يُذكروا فيها؛ فإنه سبحانه ذكر في الصافات: نوحا وإبراهيم، والذبيح، وموسى، وهارون، ولوطاً، وإلياس، ويونس. وذكر هنا:داود، وسليمان، وأيوب. وأشار إلى بقية من ذكر. فهي بعدها أشبه شيء بالأنبياء والنمل بعد مريم والشعراء. [1]

---

(١) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي ١/ ١٦، بتصرف يسير.



موقف الكافرين من القرآن وعجبهم من رسالة الإسلام

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾

سبب النزول:

جاء في سبب نزول هذه الآيات، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: مرض أبو طالب، فجاءته قريش، وجاءه النبي ﷺ، فشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تريد من قومك ؟ قال: أريد منهم كلمة، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية، كلمة واحدة، قال: وما هي ؟ قال: لا إله إلا الله، قالوا: إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب، فنزل فيهم: ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ إلى قوله:﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾.[1]

التفسير الإجمالي

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن – المعجز، ذي الشرف الرفيع، وذي الشأن والمكانة السامية، المنزَّل على النبي الأمي، المشتمل على المواعظ البليغة، والأخبار العجيبة، على أن القرآن حق، وأن محمداً نبيٌّ مرسل.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٢٢٧. رقم الحديث ٢٠٠٨. وابن حبان في صحيحه ١٥/ ٧٩ رقم ٦٦٨٦. والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٤٤٢ رقم الحديث ١١٤٣٦. وأخرجه الترمذي في سننه ٥/ ٣٣٦٥. رقم الحديث ٣٢٣٢. وقال الترمذي: حديث حسن. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢ / ٤٦٩ رقم الحديث: ٣٦١٧. وقال الحاكم: حديث صحيح.

ولكن الكافرين في حميةٍ وتكبرٍ عن الإيمان، وفي خلافٍ وعداوة للرسول ﷺ. قال البيضاوي: أي ما كفر من كفر بالقرآن لخَللٍ وجده فيه، بل الذين كفروا به مستكبرين عن الحق، معاندين للهِ ولرسوله، ولذلك كفروا به. (١)

والتعبير بـ« في » في قوله:﴿ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ للإشعار بأن ما هم عليه من عناد ومن مخالفته للحق، قد أحاط بهم من كل جوانبهم، كما يحيط الظرف بالمظروف. (٢)

كم أهلكنا قبل أهل مكة من أمم كثيرة من القرون الخالية، لكبرهم عن الحق ومعاداتهم لرسلهم. والآية وعيد لأهل مكة على كفرهم واستكبارهم، ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين، فاستغاثوا واستجاروا عند نزول العذاب طلباً للنجاة، ولكن ليس الحينُ حينَ فرار أو مهرب ونجاة. (٣)

قال ابن جزي: المعنى أن القرون الذين هلكوا دعوا واستغاثوا حين لم ينفعهم ذلك، إذ ليس الحين الذي دعوا فيه حين مناص، أي مفر ونجاة من ناص ينوص إذا فرّ، ولات بمعنى ليس، وأصلها: لا النافية، زيدت عليها علامة التأنيث. (٤)

وعجب المشركون من بعثة محمد ﷺ، واستبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر، وقال كفار مكة: إن محمداً ساحرٌ فيما يأتي به من المعجزات، مبالغ في الكذب في دعوى أنه رسول الله. وإنما وضع الاسم الظاهر:﴿ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ مكان الضمير: « وقالوا» غضباً عليهم، وذماً لهم، وتسجيلاً لجريمة الكفر عليهم، فإن هذا الاتهام لا يقوله إلا المتوغلون في الكفر والفسوق. (٥)

أزعم أن الربَّ المعبود واحد ؟ لا إله إلا هو ؟ إنَّ هذا الذي يقوله محمد - إنّ الإِله واحد -

---

(١) تفسير البيضاوي ٢ / ١٤٦ بتصرف يسير.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٩٨.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٤ / ٢٨١بتصرف يسير.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/ ١٧٩.

(٥) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٥١.

شي بليغٌ في العجب، قال ابن كثير – رحمه الله –: أنكر المشركون ذلك – قبَّحهم الله – وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقَّوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأُشربته قلوبهم، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلع الأوثان وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ [١].

وقصة العجب من أن يكون الرسول بشراً قصة قديمة، معادة، قالها كل قوم وتعللوا بها منذ بدء الرسالات. وتكرر إرسال الرسل من البشر؛ وظل البشر مع هذا يكررون الاعتراض: وعجبوا أن جاءهم منذر منهم..

وأوجب شيء وأقرب شيء إلى الحكمة والمنطق أن يكون المنذر منهم. بشراً يدرك كيف يفكر البشر وكيف يشعرون؛ ويحس ما يعتلج في نفوسهم، وما يشتجر في كيانهم، وما يعانون من نقص وضعف، وما يجدون من ميول ونزعات، وما يستطيعون أو لا يستطيعون من جهد وعمل، وما يعترضهم من عوائق وعقبات، وما يعتريهم من مؤثرات واستجابات.. بشراً يعيش بين البشر – وهو منهم – فتكون حياته قدوة لهم؛ وتكون لهم فيه أسوة. وهم يحسون أنه واحد منهم، وأن بينهم وبينه شبهاً وصلة. فهم مطالبون إذن بالمنهج الذي يأخذ به نفسه، ويدعوهم لاتباعه. وهم قادرون على الأخذ بهذا المنهج، فقد حققه أمامهم بشر منهم في واقع حياته. [٢]

وانطلق أشراف قريش ورؤساء الضلال فيهم، وخرجوا من عند الرسول ﷺ يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على عبادة آلهتكم، ولا تطيعوا محمداً فيما يدعوكم إليه من عبادة الله الواحد الأحد، فإن هذا أمرٌ مدبِّر، يريد من ورائه محمد أن يصرفكم عن دين آبائكم لتكون له العزة والسيادة عليكم، فاحذروا أن تطيعوه.

ما سمعنا بمثل هذا القول في ملة النصرانية التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٠٨.



بالتوحيد، فكيف يزعم محمد أنَّ الله واحد ؟ قال ابن عباس: يعنون بالملة الآخرة دينَ النصرانية وقال مجاهد وقتادة: يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدركنا عليه آباءنا، وما هذا الذي يدعيه محمد إلا كذب وافتراء. (١)

ويصور التعبير القرآني مدى دهشتهم من هذه الحقيقة الفطرية القريبة.. أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ كأنه الأمر الذي لا يتصوره مُتصور ! إن هذا لشيء عجاب.. حتى البناء اللفظي (عُجاب) يوحي بشدة العجب وضخامته وتضخيمه ! كما يُصور طريقتهم في مقاومة هذه الحقيقة في نفوس الجماهير، وتثبيتهم على ما هم عليه من عقيدة موروثة متهافتة. وإيهامهم أن وراء الدعوة الجديدة خبيئاً غير ظاهرها؛ وأنهم هم الكبراء العليمون ببواطن الأمور، مدركون لما وراء هذه الدعوة من خبيء !

وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد.. فليس هو الدين وليست هي العقيدة، إنما هو شيء آخر يراد من وراء هذه الدعوة. شيء ينبغي أن تدعه الجماهير لأربابه، ولمن يحسنون فهم المخبآت وإدراك المناورات ! وتنصرف هي إلى عادتها الموروثة وآلهتها المعروفة، ولا تعني نفسها بما وراء المناورة الجديدة ! فهناك أربابها الكفيلون بمقاومتها. فلتطمئن الجماهير، فالكبراء ساهرون على مصالحهم وعقائدهم وآلهتهم !

إنها الطريقة المألوفة المكرورة التي يصرف بها الطغاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشؤون العامة، والبحث وراء الحقيقة، وتدبر ما يواجههم من حقائق خطرة. ذلك أن اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق بأنفسهم خطر على الطغاة، وخطر على الكبراء، وكشف للأباطيل التي يغرقون فيها الجماهير. وهم لا يعيشون إلا بإغراق الجماهير في الأباطيل ! (٢)

ثم أنكروا اختصاصه ﷺ بالوحي من بينهم وتساءلوا: هل تنزَّل القرآن على محمد دوننا

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٥١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٠٩.



مع أن فينا من هو أكثر منه مالاً، وأعلى رياسةً ؟. قال الزمخشري: أنكروا أن يختص ﷺ بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم. (١)

وإنكارهم للذكر ليس عن علم، بل هم في شك منه، فلذلك كفروا، وسبب شكهم أنهم لم يذوقوا العذاب إلى الآن، ولو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن وآمنوا به.

وهؤلاء الجاحدون الحاقدون لم يقطعوا برأي في شأنك - أيها الرسول الكريم - وفى شأن ما جئتهم به، ولم يستندوا في أقوالهم إلى دليل أو ما يشبه الدليل، وإنما هم فى شك من هذا القرآن الذى أيدناك به، بدليل أنك تراهم يصفونك تارة بالسحر، وتارة بالكهانة، وتارة بالشعر، ولو عقلوا وأنصفوا لآمنوا بك وصدقوك. (٢)

وهل عند هؤلاء الجاحدين خزائن رحمته تعالى حتى يعطوا النبوة من شاءوا، ويمنعوها من شاءوا ؟

يقول البيضاوي: يريد أن النبوة عطيةٌ من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده، فإنه الغالب الذي لا يغلب، الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء هل لهم شيء من ملك السماوات والأرض ؟ وهو إنكار وتوبيخ إن كان لهم شيء من ذلك فليصعدوا في المراقي التي توصلهم إلى السماء، وليدبروا شؤون الكون ؟ وهو تهكم بهم واستهزاء. (٣)

قال الزمخشري: تهكم بهم غاية التهكم، فقال: إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة، وكان عندهم من الحكمة ما يميزون بها بين من هو حقيقٌ بالنبوة من غيره، فليصعدوا في المعارج التي يتوصلون بها إلى العرش، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم،

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٦.
(٢) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٠٢.
(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤٦.

وينزلوا الوحي على من يختارون، وهو غاية التهكم بهم.[1]

وما هم إلا جندٌ من الكفار، متحزبين على رسل الله، وهم عما قليلٍ يُهزمون ويُولون الأدبار، فلا تبال بما يقولون، ولا تكترث بما يهذون. والآية الكريمة بشارة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم كما قال تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٥].

من هداية الآيات:

* لله تعالى أن يقسم بما يشاء، بخلاف العبد لا يقسم إلا بربّه تعالى.
* بيان ما كان عليه المشركون من كبرياء وعداء للنبي ﷺ.
* بيان جهل المشركين في استنكارهم للتوحيد.
* تحدِّي الله تعالى للمشركين إظهاراً لعجزهم، ودعوته لهم إلى النزول إلى الحقِّ وقَبوله.
* إخبار القرآن الكريم بالغيب وصدقه في ذلك.[2]

تذكير الكفار بما نال أسلافهم من العذاب

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

تسوق الآيات الكريمة هنا جانبا مما أصاب السابقين من دمار، حين كذبوا رسلهم، لكي

(١) الكشاف ٤ / ٥٧.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٩٤.

يعتبر المشركون المعاصرون للنبي ﷺ، ولكي يقلعوا عن شركهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم من المتقدمين عليهم.

فقد كذب قبل كفار قريش أممٌ كثيرون، منهم قوم نوح، وقوم هود، وهم قبيلة « عاد». وفرعون الجبار، ذو الملك الثابت بالأوتاد، أو ذو الجموع الكثيرة، وقد سمي بذي الأوتاد لأنه صاحب الأهرامات والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد. (١)

وكذبت ثمود، وهم قوم صالح، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، أي الشجر الكثير الملتف، وهم قوم شعيب. أولئك هم الكفار الذين تحزبوا على رسلهم، فأهلكهم الله، فليحذر هؤلاء المكذبون لرسول الله أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم.

ما كل من هؤلاء الأحزاب والأمم إلا كذَّب رسوله الذي أُرسل إِليه، فثبت ووجب عليهم عقابي، وما ينتظر هؤلاء المشركون كفار مكة إلا نفخة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور فيصعقون، ليس لها من رجوع ولا توقف ولا تكرار. بل إن هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة، وهي المسافة بين الحلبتين لأنها تجيء في موعدها المحدد، الذي لا يتقدم ولا يتأخر، قال الزمخشري: يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد. (٢)

وقال كفار مكة – على سبيل الاستهزاء والسخرية –: عجّلْ لنا يا ربنا نصيبنا من العذاب الذي وعدته لنا قبل أن يجيء يوم القيامة، إن كان الأمر كما يقول محمد، وإنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

من هداية الآيات:

* تسلية الرسول ﷺ، وحمله على الصبر على أذى قريش وتكذيبها وعنادها.

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٥٢.

(٢) الكشاف ٤/ ٥٩.



* تهديد الجاحدين إذا أصروا على التكذيب بأشد أنواع العقوبات.

* بيان استهزاء المشركين واستخفافهم بأخبار الله تعالى وشرائعه. (١)

قصة داود عليه السلام

﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ (١٨) وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ (١٩) وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ (٢٠) ۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ (٢١) إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ (٢٥) يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ (٢٦) ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما كانت مقالة المشركين تقتضي الاستخفاف بالدين، أمر تعالى نبيه بالصبر على أذاهم، وذكر قصصاً للأنبياء «داود، وسليمان، وأيوب» وغيرهم، وما عرض لهم فصبروا حتى فرج الله عنهم وصارت عاقبتُهم أحسن عاقبة، فكذلك أنت تصبر ويؤول أمرك إلى أحسن مآل. (٢)

التفسير الإجمالي

يأمر الله جل شأنه نبيه الكريم ﷺ بالصبر على أذى قريش وتكذيبهم، ويسليه بما وقع

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٩٦ بتصرف يسير.

(٢) يراجع: البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٣٩٠.

لنبي الله داود، ذلك النبي الشاكر الصابر، ذو القوة في الدين، والقوة في البدن، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يقوم نصف الليل، وكان دائم الرجوع والإنابة إلى الله جل شأنه.

إنا سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصباح، وتسبيحُ الجبال حقيقةٌ وكان معجزةً لداود عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [سبأ: ١٠]. وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبح معه، كلٌ من الجبال والطير رجَّاع إلى طاعته تعالى بالتسبيح والتقديس.

قال ابن كثير- رحمه الله -: كانت الطير تسبّح بتسبيحه، وترجّع بترجيعه، إذا مرَّ به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه يترنم بقراءة الزبور، يقف في الهواء ويسبّح معه، وكذلك الجبال الشامخات كانت تُرجّع معه وتسبّح تبعاً له. (١)

كان مُلك داود عليه السلام قوياً عزيزاً، وكان يسوسه بالحكمة والحزم معاً، ويقطع ويجزم برأي لا تردد فيه مع الحكمة والقوة، وذلك غاية الكمال في الحكم والسلطان. (٢) وقد قوى الله ملكه وثبته بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود، وأعطاه النبوَّة والفهم والإِصابة في الأمور بالكلام البيِّن الذي يفهمه من يُخاطب به.

ويشاء الله تعالى أن يبلو نبيه داود، ليعلمه درساً عملياً في أصول القضاء بين الناس.

« وبيان هذا الابتلاء أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك، وللقضاء بين الناس. ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس.

وفوجئ نبي الله داود ذات يوم بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه. ففزع منهم. فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين ! فبادرا يطمئنانه. قالوا: لا تخف. خصمان بغى بعضنا على بعض. وجئنا للتقاضي أمامك فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط.. وبدأ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٨.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٥٤.



أحدهما فعرض خصومته: إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة. فقال:أكفلنيها [أي اجعلها لي وفي ملكي وكفالتي] وعزني في الخطاب [أي شدد علي في القول وأغلظ].

والقضية - كما عرضها أحد الخصمين - تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتمل التأويل. ومن ثم اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب إليه بياناً، ولم يسمع له حجة. ولكنه مضى يحكم:

قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه. وإن كثيراً من الخلطاء - [أي الأقوياء المخالطين بعضهم لبعض] - ليبغي بعضهم على بعض. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم..

وأدرك داود أن هذا الذي حصل إنما هو اختبار له، فقد كان عليه ألا يستثار، وألا يتعجل. وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته؛ فقد يتغير وجه المسألة كله، أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً!

عند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء: وظن داود أنما فتناه.. وهنا أدركته طبيعته.. إنه أواب.. فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب.. فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب..

وقد خاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضاً كبيراً تتنزه عنه طبيعة النبوة، ولا يتفق إطلاقاً مع حقيقتها، حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطاً، وهي لا تصلح للنظر من الأساس، ولا تتفق مع قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾.[1]

قال أبو حيان: وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء، ضربنا عن ذكرها صفحاً، ونحن نعلم قطعاً أن الأنبياء معصومون من الخطايا، إذ لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون، فما حكى الله في كتابه يُمرُّ على ما أراده

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠١٥ بتصرف.



الله، وما حكى القُصَّاص مما فيه غضٌ من منصب النبوة طرحناه. (١)

وقد غفر الله تعالى لنبيه هذه الهفوة وسامحه وعفا عنه، وإِنَّ له لقربةً وكرامة بعد المغفرة وحسن مرجع في الآخرة.

ويحكي الله تعالى خطابه لنبيه داود ﷺ بما امتن عليه به من النعمة والفضل فيقول: يا داود إنا استخلفناك على الناس لتدبير شئونهم ومصالحهم، فاحكم بينهم بالعدل وبشريعة الله التي أنزلها عليك، ولا تتَّبع هوى النفس في الحكم بين العباد فيضلك اتباع الهوى عن دين الله القويم، وشرعه المستقيم.

إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم وتركهم سلوك سبيل الله، وعدم إِيمانهم بيوم الحساب، لأنهم لو آمنوا به لأعدوا الزاد ليوم المعاد.

وجعلُه تعالى داود خليفةً في الأرض يدلُ على مكانته ﷺ واصطفائه له، ويدفع في صدر من نسب إِليه شيئاً مما لا يليق بمنصب النبوة. (٢)

من هداية الآيات:

* مشروعية الأسوة والاقتداء بالصالحين.
* منة الله تعالى على نبيه داود بالصوت البديع وتسخير الجبال والطير تسبح تسبيحه.
* تقوية قلب الرسول ﷺ وتثبيت فؤاده وحمله على الصبر. بعرض مثل هذه القصص.
* حرمة إصدار القاضي أو الحاكم الحكم قبل أن يسمع الدعوى من الخصمين معاً.

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٩٣ بتصرف يسير.
(٢) المرجع السابق.



* وجوب المسارعة بالتوبة عند الوقوع في الذنب.
* وجوب الحكم بالعدل، ولا عدل في غير الشرع الإلهي.
* حرمة اتباع الهوى لما يفضي بالعبد إلى الهلاك والخسار. [١]

الحكمة من خلق الأكوان وإنزال القرآن

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه إنكار المشركين للقرآن والرسالة والحشر، وأعقبها بذكر قصة داوود تسلية للنبي ﷺ ذكر هنا بعض البراهين على البعث والنشور. [٢]

التفسير الإجمالي

تشير الآيات الكريمة هنا إلى دلائل قدرة الله تعالى ووحدانيته، في هذا الكون المنظور، وما فيه من بدائع الصنعة، للتنبيه على أن هذا الكون لم يخلق عبثاً، وأنه لا بدَّ من دار ثانية يجازى فيها المحسن والمسيء.

فالله جل شأنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا خلقا مشتملا على الحكم الباهرة.. ولكن الذين كفروا هم الذين يظنون ويعتقدون أنه سبحانه خلق هذه الكائنات من أجل الباطل واللهو واللعب.. وسبب هذا الظن والاعتقاد الفاسد منهم، كفرُهم بالحق، وجحودُهم ليوم

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٩٦، بتصرف يسير.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٥٧.



القيامة وما فيه من حساب وثواب وعقاب، وإعراضهم عما جاءهم به الرسول ﷺ من هدايات وإرشادات. [١]

إنّ خَلْقَ الكون عبثاً لا لحكمة هو ظنُّ الكفار الفجار، الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور فويلٌ للكفار من عذاب النار، ثم وبخهم تعالى على هذا الظنِّ السيء فقال: هل نجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين ؟ أم نجعل الأخيار الأبرار كالأشرار الفجار ؟

والغرض: أنه لا يتساوى في حكمته تعالى المحسن مع المسيء، ولا البرُّ مع الفاجر، ففي الآية استدلال على الحشر والجزاء، وفيها أيضاً وعدٌ ووعيد.

قال ابن كثير: بين تعالى أنه ليس من عدله وحكمته أن يساوي بين المؤمنين والكافرين وإذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ من جزاء يُثاب به المطيع، ويعاقب به الفاجر، وقد دلت العقول السليمة على أنه لا بدَّ من جزاء ومعاد، فإنا نرى الظالم والباغي يزداد مالُه وولدُه ونعيمُه ويموت دون عقاب، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بدَّ في حكمة الحكيم العليم إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أُخرى لهذا الجزاء والمواساة وهي الدار الآخرة.. [٢]

ثم بين تعالى الغاية من نزول القرآن الكريم، وهي العمل والتفكر، فقال: هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك يا محمد كتابٌ عظيم جليل، كثير الخيرات والمنافع الدينية والدنيوية، أنزلناه ليتدبروا آياته ويتفكروا بما فيها من الأسرار العجيبة، والحكم الجليلة وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة.

قال الحسن البصري: واللهِ ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: واللهِ لقد قرأتُ القرآن فما أسقطتُ منه حرفاً، وقد أسقطه واللهِ كلَّه، ما يُرى للقرآن عليه

---

(١) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦١٧ بتصرف يسير.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٢.



أثرٌ في خُلُق ولا عمل، اللهم اجعلنا ممن قرأه وتدبَّره وعمل بما فيه.[١]

من هداية الآيات:

* تقرير البعث والجزاء.
* إبطال ظن من يتوهم أن الحياة الدنيا خلقت عبثا وباطلا.
* تنزيه الربّ تعالى عن العبث والظلم.
* فضيلة العقول لمن استعملها في التدبر والتذكر.
* بركة القرآن لا تفارقه أبداً وما طلبها أحد إلا وجدها.[٢]

قصة سليمان عليه السلام

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا شروعٌ في بيان قصة سليمان بن داود عليهما السلام. أي رزقنا عبدنا داود بالولد الصالح سليمان، وأنعمنا به عليه، وأقررنا به عينه، وأعطيناه النبوة، نِعْم العبد سليمان، إنه كان

---

(١) الكشاف ٤ / ٧٠.

(٢) يراجع: أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠٠ بتصرف يسير.

كثير الرجوع إلى الله والإنابة إليه. (١)

واذكر حين عُرض على سليمان عشية يوم من الأيام -أي بعد العصر- الخيل الأصيلة السريعة الجري. التي تقف على ثلاث قوائم وترفع الرابعة؛ لنجابتها وخفتها.

قال الرازي: وُصفت تلك الخيل بوصفين: الأول: الصفون، وهو صفة دالة على فضيلة الفرس، والثاني: الجياد وهي الشديدة الجري، والمراد وصفها بالفضيلة والكمال في حالي الوقوف والحركة، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً في جريها. (٢)

قال المفسرون: عُرضت على نبي الله سليمان آلاف من الخيل تركها له أبوه، فأُجريت بين يديه عشياً، فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها عن ذكر له خاص حتى غابت الشمس واختفت عن الأنظار، فقال سليمان: إنني آثرت حب المال عن ذكر ربي حتى غابت الشمس، رُدُّوا عليَّ الخيل التي عُرضت من قبل، فشرع يمسح سوقها وأعناقها. (٣)

وقد ابتلى الله تعالى نبيه سليمان بابتلاء آخر، ولعلّه ما رُوي في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (قال سليمان: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة، كلٌّ واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله – ولم يقل: إن شاء الله – فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل والذي نفسي بيده: لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون.) (٤)

« وقد أورد بعضُ المفسرين – في بيان فتنة نبي الله سليمان – آثاراً كثيرة عن جماعةٍ من السلف، وأكثرها أو كلُّها متلقاة من الإِسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة». (٥)

---

(١) التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ١٨٦.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٠٤.

(٣) التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ١٨٨. وقيل إن المراد أنه شرع يذبحها. ويقطع أرجلها تقرباً إلى الله، لتكون طعاماً للفقراء لأنها شغلته عن ذكر الله.

(٤) الحديث متفق عليه. رواه البخاري ٣/ ١٠٣٨ رقم ٢٦٦٤، ومسلم ٣/ ١٢٧٥ رقم ١٦٥٤.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٣ بتصرف.

ثم رجع سليمان إلى ربه بالتوبة والندم، وقال رب اغفر لي ما صدر مني وأعطني ملكاً واسعاً لا يكون لأحدٍ غيري، ليكون دلالة على نبوتي، إنك واسع الفضل كثير العطاء.

فذللنا الريح لطاعته، إجابةً لدعوته، أي تسير بأمره لينةً طيبة حيث قصد وأراد.

وسخرنا له الشياطين كذلك تعمل بأمره، منهم من يستخدمه لبناء الأبنية الهائلة العجيبة ومنهم من يغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان. وآخرين من الشياطين - وهم المردة - موثقون في الأغلال، مربوطون بالقيود والسلاسل لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان.

وقلنا له: هذا عطاؤنا الواسع لك، فأعطِ من شئت وامنعْ من شئت، لا حساب عليك في ذلك، لأنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة. وإِنّ له عندنا لمكانة رفيعة في الدنيا، وحسن مرجع في الآخرة.

من هداية الآيات:

* الولد الصالح هبة إلهيّة لوالده، فليشكر الله تعالى من وُهب ذلك.
* من فضل الله تعالى على العبد أن يوفقه إلى التوبة الفوريّة التي تعقب الذنب مباشرة.
* جواز استعراض الحاكم القائد قواته تفقداً لها، وإظهارا لفضل الله ونعمته.
* إطلاق لفظ الخير على الخيل فيه تقرير أن الخيل إذا ربطت في سبيل الله كان طعامها وشرابها حسنات لمن ربطها في سبيل الله.
* مشروعية التوبة من كل ذنب صغيرا كان أو كبيراً.
* مشروعية التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى.
* بيان إنعام الله تعالى على عبده سليمان، وتسخير الله له الريح والجن. وهذا لم يكن لأحد غيره من الناس.[1]

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠١، ٤٠٣ بتصرف.

قصة أيوب عليه السلام

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

جاءت قصة نبي الله أيوب – عليه السلام – تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده بالضراء. وفي عرضها تأسية للرسول ﷺ وللمؤمنين، عما كانوا يلقونه من الضر والبأساء في مكة؛ وتوجيه إلى ما وراء الابتلاء من رحمة، تفيض من خزائن الله على عباده الصابرين.

وقصة أيوب هى القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة، وداود وسيمان كانا ممن أفاض الله عليهما أصناف الآلاء والنعماء، وأيوب كان ممن خصه الله بأنواع البلاء، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار.

فكأن الله – تعالى – يقول لنبيه ﷺ: اصبر على سفاهة قومك، فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا من داود وسليمان، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد، وأن العاقل لابد له من الصبر على المكاره.[1]

والمعنى: اذكر يا محمد عبدنا الصالح أيوب عليه السلام، الذي ابتلي بأنواع البلاء فصبر. حين نادى ربه متضرعاً إليه قائلاً: إني مسني الشيطان بتعبٍ ومشقة، وألمٍ شديد في بدني.

وفي هذا النداء من أيوب لربه، أسمى ألوان الأدب والإجلال، إذا اكتفى فى تضرعه بشرح حاله دون أن يزيد على ذلك، ودون أن يقترح على خالقه – عز وجل – شيئاً معيناً، أو يطلب شيئاً معيناً.

(١) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٢٦ / ٢٠٦.



وإنما نسبَ ذلك إلى الشيطان تأدباً مع الله تعالى، وإنْ كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله تعالى، وكان أيوب قد أُصيب في ماله وأهله وبدنه، وبقي في البلاء عدد سنين.

وقلنا له: اضرب برجلك الأرض، فضربها فنبعت له عين ماءٍ صافية، وقلنا له: هذا ماءٌ تغتسل به، وشراب تشرب منه، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر جسده، وشرب منها فذهب كل مرضٍ كان داخل جسده.

والجمهور على أنه نبعت له عينان، شرب من إحداهما واغتسل من الأُخرى فشفي، أحيا الله من مات من أولاده ورزقه مثلهم. (١)

قال الرازي: الأقرب أن الله تعالى متعه بصحته وبماله وقوَّاه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك، وعن الحسن أنه أحياهم بعد أن هلكوا. (٢)

وقال أبو حيان: الراجح أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شتت منهم، رحمةً من الله به لصبره وإخلاصه، وعبرة لذوي العقول المستنيرة، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج. (٣)

وقلنا له خذْ بيدك حزمة من القضبان الرفيعة فاضرب بها زوجتك لتبرَّ بيمينك ولا تحنث وكان أيوب قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوطٍ إذا برئ من مرضه.

وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتد به البلاء وطالت به المدة وسوس إليها الشيطان: إلى متى تصبرين ؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر فقالت له: إلى متى هذا البلاء ؟ فغضب من هذا الكلام، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ حزمةً من قضبانٍ خفيفة فيها مئة عود ويضربها بها ضربة واحدةً، ويبرَّ في يمينه، وهذا رحمة من

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٤٠١.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢١٥.

(٣) البحر المحيط ٧ / ٤٠١ بتصرف يسير.



الله به وبزوجه التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه. [١]

وهذا المخرج من الفرج لمن اتقى الله وأطاعه كنبي الله داوود ﷺ الذي اختبره الله فوجده صابراً على الضراء. نعم العبد أيوب إِنه كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإِنابة والعبادة.

الإسرائيليات الواردة في قصة أيوب عَلَيهِ السَلام:

نحب أن نشير هنا إلى أن قصة نبي اللَّه أيوب ﷺ ورحلته مع المرض قد حشيت بكم كبير من الإسرائيليات، وهي بعيدة كل البعد عن الهدف الأساسي للقصة، ومجافية لما هو ثابت من عصمة الأنبياء – عليهم السلام – ونشير فيما يلي إلى بعضها:

الإسرائيليات في طبيعة مرض أيوب ﷺ:

قيل: إنه ابتلي بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما اللَّه عزَ وَجَلَ، حتى عافه الجليس، وأُفرد في ناحية من البلد، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره. وقال الحسن وقتادة: كانت الدواب تختلف في جسده كثير. وقال السدي: تساقط لحم أيوب، حتى لم يبق إلا العصب والعظام، فكانت امرأته تقوم عليه، وتأتيه بالرماد يكون فيه. وقيل: إن الناس كانت لا تستطيع أن تدنو من أيوب لنتن ريحه. [٢]

والحقيقة أن هذه الأقوال بعيدة عن الصواب؛ لأن الأنبياء عليهم السلام مع أنهم أشد الناس بلاء معصومون من الأمراض والعيوب المنفرة. كما أن هذه القوال التي أوردها أصحابها ليس لها حظ من الإسناد الصحيح. وغاية ما يمكن أن يقال في مرض نبي اللَّه أيوب عَلَيهِ السَلام: أن اللَّه تعالى ابتلاه في جسده ابتلاء كبيرًا، بعد أن ابتلاه في ماله وأولاده، وأن هذه المحنة طالت عليه حتى جعلته يلجأ إلى اللَّه تعالى في كشف ما نزل به من ضر.

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٦١.

(٢) يراجع تفسير ابن كثير ٣ / ١٨٩.



الإسرائيليات في مدة هذه المحنة:

اجتهد المفسرون كذلك في تحديد قدر الزمن الذي مرضه أيوب.

قال الإمام ابن كثير: مكث أيوب في البلاء ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة. (١)

وقال الإمام النسفي: سبع سنين وأشهرًا، أو ثلاث سنين (٢).

الإسرائيليات في تفاصيل المحنة:

كما جاء في تفاصيل المحنة أخبار كثيرة مستمدة من الإسرائيليات نورد بعضها فيما يلي:

قالت له امرأته لما طال وجعه: يا أيوب، لو دعوت ربك يفرج عنك فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحًا، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة ؟ فجزعت من ذلك. فخرجت فكانت تعمل للناس بالأجر وتأتيه بما تصيب فتطعمه.

وإن إبليس انطلق إلى رجلين من أهل فلسطين، كانا صديقين له وأخوين فأتاهما فقال: أخوكما أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا، فأتياه وزوراه، واحملا معكما من خمر أرضكما، فإنه إن شرب منه برئ. فأتياه، فلما نظرا إليه بكيا، فقال: من أنتما ؟ فقالا: نحن فلان وفلان. فرحب بهما وقال: مرحبا بمن لا يجفوني عند البلاء. فقالا: يا أيوب، لعلك كنت تُسر شيئًا وتظهر غيره فلذلك ابتلاك اللَّه ؟.

فرفع رأسه إلى السماء فقال: هو يعلم، ما أسررت شيئا أظهرت غيره، ولكن ربي ابتلاني لينظر أأصبر أم أجزع. فقالا له: يا أيوب، اشرب من خمرنا فإنك إن شربت منه برأت. قال: فغضب وقال: جاءكما الخبيث فأمركما بهذا. كلامكما وطعامكما وشرابكما عليَّ حرام. فقاما من عنده.

---

(١) المرجع السابق نفس الموضع.

(٢) (٣) تفسير النسفى ٣/ ٨٩.

وخرجت امرأته تعمل للناس، فخبزت لأهل بيت لهم صبي، فجعلت لهم قرصًا، وكان ابنهم نائمًا فكرهوا أن يوقظوه، فوهبوه لها، فأتت به إلى أيوب فأنكره وقال: ما كنت تأتيني بهذا فما بالك اليوم ؟ فأخبرته الخبر. قال: فلعل الصبي قد استيقظ فطلب القرص فلم يجده فهو يبكي عليه، فانطلقي به إليه. فأقبلت حتى بلغت درجة القوم، فنطحتها شاة لهم، فقالت: تعس أيوب الخطاء. فلما صعدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القرص ويبكي عليه لا يقبل من أهله شيئًا غيره، فقالت: رحمه الله يعني أيوب، فدفعت إليه القرص ورجعت. [1]

ثم إن إبليس أتاها في صورة طبيب، فقال لها: إن زوجك قد طال سقمه، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذبابًا فليذبحه باسم صنم بني فلان، فإنه يبرأ، ويتوب بعد ذلك. فقالت ذلك لأيوب فقال: قد أتاكِ الخبيث يعني الشيطان لله عليَّ إن برأتُ أن أجلدكَ مائة جلدة.

فخرجت تسعى عليه، فحُظر عنها الرزق، فجعلت لا تأتي أهل بيت فيريدونها، فلما اشتد عليها ذلك وخافت على أيوب الجوع، حلقت من شعرها قرنًا فباعته من صبية من بنات الأشراف، فأعطوها طعامًا طيبًا كثيرًا، فأتت به أيوب، فلما رآه أنكره، وقال: من أين لك هذا ؟ قالت: عملت لأناس فأطعموني، فأكل منه، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد، فحلقت أيضًا قرنًا فباعته من تلك الجارية، فأعطوها أيضًا من ذلك الطعام، فأتت به أيوب. فقال: والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو، فحسرت عن خمارها، فلما رأى رأسها محلوقًا جزع جزعًا شديدًا، فعند ذلك دعا الله عزَ وَجَلَ فقال: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وفى رواية أخرى ساقها ابن كثير أيضا قال: كان لأيوب عَلَيهِ السَلام أخوان، فجاءا يومًا فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان اللَّه علم من أيوب خيرًا ما ابتلاه بهذا. فجزع أيوب من قولها جزعًا لم يجزع مثله من شيء قط. فقال: اللهم

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٠.

إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدقني، فصُدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميص قط وأنا أعلم مكان عار فصدِّقني. فصُدِّقَ من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم بعزتك، ثم خر ساجدًا فقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبدًا حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف اللهُ عنه. (١)

وهذه الروايات السابقة لا تعدو إلا أن تكون مجرد تصورات وأقاويل، معظمها مستمد من الإسرائيليات والتخيلات والأوهام، وليس وراءها أثر مستيقن. والواجب إزاء هذه الأمور أن نقف عند حدود النصوص القرآنية ولا نتعداها، اللهم إلا إذا كان هناك نص نبوي صحيح. أما غير ذلك فهو في الحقيقة ضرب في التيه، بدون نتيجة تذكر، أو فائدة ترجى.

من هداية الآيات:

* تقرير نبوة محمد ﷺ من طريق هذا القصص الذي لا يتأتى إلا بالوحي الإلهي.
* قد يبتلي الله تعالى من يحبه من عباده ليزيد في علوّ مقامه ورفعة شأنه.
* فضل الصبر وعاقبته الحميدة في الدنيا والآخرة.
* وجوب الكفارة على من حنث في يمينه. (٢)

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٠.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠١.

قصة إبراهيم وذريته:

إسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل عليهم السلام

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

واذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء الأخيار وتأسَّ بهم، الذين جمعوا بين القوة في العبادة، والبصائر في الدين. قال الطبري: أي أهل القوة في عبادة الله، وأهل العقول المبصرة. إنَّا خصصناهم بخصلةٍ خالصة عظيمة الشأن، هي عدم التفاتهم إلى الدنيا وتذكرهم للدار الباقية.[1]

قال مجاهد: جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم همٌّ غيرها، وهم عندنا المختارون المجتبون على سائر الناس، لأنهم أخيار أبرار. واذكر يا محمد هؤلاء الرسل أيضاً: إسماعيل واليسع وكلٌّ من خيرة الله.[2]

فاقتد بهم في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله. هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من سيرة الرسل الكرام ذكرٌ جميلٌ لهم في الدنيا، وشرفٌ يذكرون به أبداً. وإن لكل متقٍ لله، مطيع لرسله، لحسن مرجع ومنقلب، ثم فسره بقوله: جنات إقامة في دار الخلد والنعيم، قد فتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدومهم.

قال الرازي: إن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا المؤمنين فتحوا لهم أبوابها، وحيوهم

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ١٠٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٦.

بالسلام، فيدخلون كذلك محفوفين بالملائكة على أعزِّ حال، وأجمل هيئة متكئين في الجنة على الأرائك وهي السرر الوثيرة وهم متكئون على الأسرَّة يطلبون أنواع الفواكه، وألوان الشراب كعادة الملوك في الدنيا.[١] قال ابن كثير: أي مهما طلبوا وجدوا، ومن أي أنواع النعيم شاءوا أتتهم به الخدام.[٢]

قال الصاوي: والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي لأنه لا جوع في الجنة.[٣]

وعندهم الحور العين اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن. أتراب أي في سنٍّ واحدة. ويقال لهم: هذا جزاؤكم الذي وُعدتم به في الدنيا. وهذا النعيم عطاؤنا لأهل الجنة لا زوال له ولا انقطاع ولا انتهاء أبداً.

يقول صاحب الظلال: يبدأ هذا المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع والأجزاء وفي السِّمات والهيئات: منظر المتقين لهم ﴿ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ ومنظر الطاغين لهم ﴿ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحةً لهم الأبواب، ولهم فيها راحة الاتكاء، ومتعة الطعام والشراب ولهم كذلك متعة الحوريات الشابات، وهنَّ مع شبابهن ﴿ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ لا يتطلعن ولا يمددن بأبصارهن، وكلهن أتراب. وهو متاع دائم، ورزق من عند الله ما له من نفاد.[٤]

من هداية الآيات:

* فضيلة القوة في العبادة والبصيرة في الدين، وفي الحديث: « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير... ».[٥]

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٢١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٧.

(٣) حاشية الصاوي ٣ / ٣٦١.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٣٥.

(٥) رواه الإمام مسلم ٤/ ٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤.

* فضل ذكر الدار الآخرة وتذكرها دائماً، لأنها تساعد على الطاعة.
* فضل التقوى وأهلها، وبيان ما أُعد للمتقين يوم الحساب.
* نعيم الآخرة لا ينفد، وأهلها لا يموتون ولا يهرمون.
* فضيلة الائتساء بالصالحين والاقتداء بهم في الخير فهم أولوا القوة في العبادة والبصيرة في الدين.[١]

عقاب الطاغين الأشقياء

﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا الذي سبق وصفه للمتقين. وأما المتجاوزون الحدَّ في الكفر والمعاصي، فلهم شر مرجع ومصير، وهو النار يُعذَّبون فيها، تغمرهم من جميع جوانبهم، فبئس الفراش فراشهم.[٢]

هذا هو العذاب الأليم، فليذوقوه حميم، وهو الماء الحار المحرق، وغسَّاق وهو ما يسيل من صديد أهل النار. قال الطبري: في الآية تقديم وتأخير، أي هذا حميم وغساق فليذوقوه.[٣]

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠٥ بتصرف يسير.

(٢) يراجع: التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ٢٠٢٠.

(٣) تفسير الطبري ٢٣ / ١١٣.

وليس عذابهم مقصوراً على الحميم والغساق بل لهم أنواع أخرى من العذاب، تشبه في شكلها وفي فظاعتها وفي شدتها الحميم والغساق، كالزمهرير، والسموم، وأكل الزقوم.. لهم من كل ذلك وغيره أنواع وأصناف..

ثم حكى سبحانه ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار، فقال: تقول لهم خزنة جهنم: هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، ودخلوها بصحبتكم كما اقتحموا معكم في الجهل والضلال، لا أهلاً ولا مرحباً بهم إِنهم ذائقو النار، وداخلوها كما دخلتموها أنتم.

قال الرازي: والاقتحامُ ركوبُ الشدة والدخولُ فيها، وهذا من كلام خزنة جهنم لرؤساء الكفرة عن أتباعهم، والعرب تقول لمن يحتفون به: مرحباً، أي أتيتَ رحباً في البلاد لا ضيِّقاً، ثم يدخلون عليها كلمة «لا» في دعاء السوء. [1]

قال الأتباع للرؤساء الطغاة الذين أضلوهم: بل أنتم لا أهلاً بكم ولا مرحباً، قال المفسرون: عندما يدخل الأتباع جهنم تتلقاهم الرؤساء بقولهم: لا مرحبا بكم أي لا تلقون هنا رحباً ولا خيراً - وهذه تحية أهل النار - كما قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

فعند ذلك يقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ وهذا على قول القائل: «تحيةُ بينهم ضربٌ وجيع»، فكذلك أهل النار يتلقون بعضهم باللعنات والشتائم بدل التحيات والسلام ثم يعلِّل الأتباع ذلك بقولهم: أنتم قدمتم لنا هذا العذاب، وكنتم السبب في ضلالنا، فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم.

قال فوج الأتباع: ربنا مَن أضلَّنا في الدنيا عن الهدى فضاعِف عذابه في النار. [2] وهذا

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٢٢.

(٢) التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ٢٠٦.

كقولهم: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ ﴾ [الأعراف: ٣٨]. والضعفُ زيادة المثل. وشبيه بهذه الآية أيضا قوله – تعالى – حكاية عنهم: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

وقال الطغاة من رؤساء الكفر وأئمة الضلال: ما لنا لا نرى في النار هؤلاء الذين كنا نعدُّهم في الدنيا من الأشرار؟ يعنون بهم المؤمنين.

قال ابن كثير: هذا إخبار عن الكفار في النار، أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون، يقول أبو جهل: ما لي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً؟ وهذا ضربُ مثل، وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخلها الكفار افتقدوهم فلم يجدوهم، ثم قالوا يؤنبون أنفسهم قائلين: أجعلنا هؤلاء المؤمنين في الدنيا هزءاً وسخرية ؟ أم هم معنا في النار ولكن لا نراهم ؟ [١]

إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أقوال أهل النار وتخاصمهم، لهو الحقُّ الذي لابدَّ أن يتكلموا به، فنحن نخبرك عن تخاصمهم في جهنم، وعن أقوالهم وهم فيها.

وإنما سمَّى الله تعالى تلك الكلمات تخاصماً لأن قول الرؤساء: ﴿ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ ﴾ وقول الأتباع: ﴿ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ ﴾ من باب الخصومة. [٢]

من هداية الآيات:

* ذم الطغيان وهو مجاوزة الحد في الظلم والكفر وبيان جزاء أهله يوم القيامة.
* بيان ما يجري من خصام بين أهل النار للعظة والاعتبار.
* مخاصمة الأتباع من اتبعوهم في الضلال ومطالبتهم بمضاعفة العذاب لهم.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٧.

(٢) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٢٦ / ٢٢٣.

* تذكر أهل النار فقراء المسلمين الذين كانوا يعدونهم متخلفين ورجعيين لأنهم كانوا لا يأتون الفجور والشرور مثلهم.[(١)]

بيان مهمة الرسول ﷺ، وإثبات الوحدانية

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا شروع في بيان مهمة الرسول ﷺ وفي إثبات الوحدانية، والمعاد والجزاء، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنما أنا رسولٌ من رب العالمين، أُنذركم وأخوفكم من عذابه إن لم تؤمنوا ولستُ بساحرٍ ولا شاعر ولا كاهن، وليس لكم ربٌ ولا معبود إلا الواحد الأحد، الغالب على خلقه، القاهر لكل شيء، خالق جميع ما في الكون من الخلائق والعجائب، والمتصرف فيها بالإِيجاد والإِعدام، الغالب على أمره الذي لا يُغلب، المبالغ في المغفرة لمن شاء من العباد.

قال الرازي: لما ذكر أنه سبحانه (**قهار**) وهذا مشعر بالترهيب والتخويف، أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب، وذكر ثلاث صفات دالة على الرحمة، والفضل والكرم وهي: «الرب، العزيز، الغفار»؛ فكونه رباً مشعر بالتربية والإِحسان، وكونه عزيزاً مشعرٌ بأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، وكونه غفاراً مشعر بالترغيب، وأنه يرجى فضله وثوابه، فلو بقي الإِنسان على الكفر سبعين سنة، ثم تاب فإِن الله سبحانه يغفر له - برحمته - جميع ذنوبه، ويمحو اسمه من ديوان المذنبين، ويوصله إلى درجات الأبرار.[(٢)]

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠٧ بتصرف يسير.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٢٤.



قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن الذي جئتكم به هو نبأ جليل، وأمر عظيم الشأن، أنتم عنه غافلون، لا تلتفتون إليه، ولا تعلمون قدره.

من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم لولا الوحي المنزل عليَّ ؟ قال ابن جزي: والقصدُ الاحتجاج على نبوة محمد ﷺ، لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك والإشارة إلى اختصام الملائكة هو ما جاء في قصة آدم حين قال تعالى لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠]. حسبما تضمنته قصته في مواضع من القرآن الكريم.

ما يوحى إليَّ إلا لأني رسولٌ مرسل إليكم لأنذركم عذاب الله، ومعنى النذير المنذر المخوّف من عذاب الله.

من هداية الآيات:

* تقرير التوحيد بأدلته.
* تقرير النبوة والوحي بشواهده من نبأ الملأ الأعلى.[1]
* تقرير عظمة القرآن الكريم وجلاله مع غفلة الناس عنه.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠٩.

قصة خلق آدم عليه السلام وإكرام الله له

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

شرع تعالى في ذكر قصة آدم عليه السلام فقال: اذكر حين أعلم ربك الملائكة أنه سيخلق إنساناً من طين وهو آدم. ولا تعارض بين وصف آدم هنا بأنه خلق من طين، وبين وصفه في آيات أخرى بأنه خلق من تراب، أو من صلصال من حمأ مسنون، فإن المادة التي خلق منها آدم وإن كانت واحدة، إلا أنها مرت بمراحل متعددة، وكل آية تتحدث عن مرحلة معينة.

فإذا أتممتُ خلقه ونفخت فيه الروح فاسجدوا إكراماً له وإعظاماً، وهذا سجود تحية لا سجود عبادة[1].

وأضاف - سبحانه - الروح إلى ذاته، للإشعار بأن هذه الروح لايملكها إلا هو تعالى، وأن مرد كنهها وكيفية هذا النفخ، مما استأثر - سبحانه - به، ولا سبيل لأحد إلى معرفته.

فسجد جميع الملائكة خضوعاً وتعظيماً لأمر الله بالسجود له، لكن إبليس استكبر عن طاعة الله وأبى السجود لآدم فصار من الكافرين.

(١) تفسير القرطبي ١٥ / ٢٢٧.

قال ابن كثير: امتثل الملائكة كلهم سوى إبليس، ولم يكن منهم جنساً كان من الجن، فخانه طبعه وجبلته فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خيرٌ من آدم، فكفر بذلك وطرده الله عن باب رحمته، ومحل أنسه، وحضرة قدسه. (١)

قال له ربه: ما الذي صرفك وصدَّك عن السجود لمن خلقته بذاتي من غير واسطة أب وأُم ؟ قال القرطبي: أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً لآدم وإِن كان خالق كل شيء، كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، والمساجد، فخاطب - سبحانه - الناس بما يعرفونه.

استكبرتَ الآن عن السجود أم كنت قديماً من المتكبرين على ربك ؟ وهذا على جهة التوبيخ له، لاستنكافه عن السجود. قال اللعينُ: أنا خير من آدم وأشرف وأفضل، لأنني مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار خيرٌ من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟

وقد علل اللعين فعله بأنه مخلوق من النار وهي في ظنه أفضل من الطين. « ولا شك أن هذا التعليل من إبليس فى نهاية سوء الأدب، لأنه بعدم سجوده قد عصى رب العالمين، وفضلا عن ذلك فإن هذه العلة لا تقتضى صحة المدعى، لأن النار ليست خيراً من الطين حتى يكون المخلوق منها أفضل، إذ النار يطفئها الطين. » (٢).

فصدر إليه الأمر الإلهي: اخرج من الجنة فإِنك لعين مطرود من كل خيرٍ وكرامة وأنت مبعدٌ عن رحمتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ثم تلقى ما هو أفظع وأشنع من اللعنة .

قال اللعين: رب أخرني وأمهلني إلى اليوم الذي تبعث فيه الخلائق من القبور. قال أبو السعود: أراد بذلك أن يجد فسحةً لإِغوائهم، ويأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت بالكلية إذ لا موتَ بعد البعث فأجابه الله بأنه مؤخر إلى وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي طلبه

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٩.

(٢) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٣٨.

إنك من المهلين إلى وقت النفخة الأولى حيث يموت الناس وتنتهي مهمتك.[١]

قال اللعين: أُقسم بعزتك لأُضلنَّ بني آدم أجمعين، إلا الذين أخلصتهم لعبادتك وعصمتهم مني.

قال تعالى: أقسم بالحقِّ ولا أقول إلا الحقَّ، لأملأن جهنم منك ومن أتباعك، وهذا قسم أقسم الله به، وجملة « والحقَّ أقول» اعتراضية لتأكيد القسم.[٢]

ثم تختم السورة الكريمة ببيان وظيفة الرسول، ومهمته الأساسية التي هي مهمة جميع الرسل الكرام.

قل لهم يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، ولست من الذين يتصنعون ويتحيلون حتى أنتحل النبوة وأتقوَّل القرآن. ما هذا القرآن إلا عظة وذكرى للإِنس والجن والعقلاء، ولتعلمنَّ خبره وصدقه عن قريب، وهذا وعيدٌ وتهديد.

إنها الدعوة الخالصة للنجاة، بعد كشف المصير وإعلان النذير، الدعوة الخالصة التي لا يطلب صاحبها أجراً وهو الداعية السليم الفطرة، الذي ينطق بلسانه، لا يتكلف ولا يتصنع، ولا يأمر إلا بما يوحي منطق الفطرة القريب. وإنه للتذكير للعالمين أجمعين فقد ينسون ويغفلون.

وإنه للنبأ العظيم الذي لا يلقون بالهم إليه اليوم، وليعلمن نبأه بعد حين. نبأه في الأرض - وقد علموه بعد سنوات من هذا القول - ونبأه في اليوم المعلوم، عندما يحق وعد الله اليقين.[٣]

من هداية الآيات:

* تقرير عداوة إبليس الشديدة لآدم ﷺ وأن الحامل عليها الحسد والكبر وهما من شر الصفات.

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٦٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٢٩.

* ذم الكبر والحسد وحرمتهما.
* بيان أن من كتب الله سعادتهم لا يقوى الشيطان على إغوائهم وإضلالهم.
* لا يجوز أخذ الأجرة على بيان الحق والدين.
* ذم التكلُّف المفضي إلى الكذب والتقول على الله وعلى الرسول والمؤمنين. (١)
* أنباء القرآن تظهر كل حين، يصدقها الواقع، ويراها البر والفاجر.

وأخيرا.. فهذه سورة ص، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة ص

* احتوت سورة ص على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:
* تسلية الرسول ﷺ، وتقوية قلبه، وتثبيت فؤاده، وحمله على الصبر بعرض مثل هذا القصص الوارد في سورة ص.
* بيان استهزاء المشركين واستخفافهم بأخبار الله تعالى وشرائعه. وذلك في كل عصر ومع كل رسول أو مصلح.
* منة الله تعالى على نبيه داود بالصوت البديع، وتسخير الجبال والطير تسبح بتسبيحه
* مشروعية الأسوة والاقتداء بالصالحين.
* حرمة إصدار القاضي الحكم قبل أن يسمع الدعوى من الخصمين معاً.
* وجوب المسارعة بالتوبة عند الوقوع في الذنب صغيرا كان أو كبيراً.

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤١١.

* وجوب الحكم بالعدل، ولا عدل في غير الشرع الإِلهي.
* حرمة اتباع الهوى لما يفضي بالعبد إلى الهلاك والخسار.
* تنزيه الله تعالى عن العبث والظلم.
* تقرير نبوة محمد ﷺ من طريق هذا القصص الذي لا يتأتى إلا بالوحي الإِلهي
* قد يبتلي الله تعالى من يحبه من عباده ليزيد في علوّ مقامه ورفعة شأنه.
* فضل الصبر وعاقبته الحميدة في الدنيا والآخرة.
* نعيم الآخرة لا ينفد، وأهلها لا يموتون ولا يهرمون.
* تقرير عداوة إبليس الشديدة لآدم وأن الحامل عليها الحسد والكبر وهما من شر الصفات.
* تقرير قدر القرآن الكريم وعظمته، مع غفلة العباد عنه.

سورة الزمر

بين يدي السـورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

سُميت سورة الزمر بهذا الاسم لأن الله تعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة وزمرة الأشقياء من أهل النار، أولئك مع الإجلال والإكرام، وهؤلاء مع الهوان والصغار.

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواهُ الإمام أحمد وغيره، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ) [1].

ج - مكية السورة:

سورة الزمر مكية، ماعدا الآيات « ٥٢، ٥٣، ٥٤» فمدنية. وترتيبها في المصحف الشريف التاسعة والثلاثون (٣٩). نزلت بعد سورة سبأ. من الجزء: «٢٤». الحزب: «٤٦، ٤٧».

عدد آيات السورة. عدد آياتها ٧٥. [2]

محور السورة: سورة الزمر مكية وقد تحدثت عن « عقيدة التوحيد» بالإسهاب حتى لتكاد تكون هى المحور الرئيس للسورة الكريمة، لأنها رأس الإيمان، وأساس العقيدة السليمةوأصل كل عمل صالح.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داوود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/ ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى، ص: ٢٢٤.

(٢) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي. / ١٨٦.

المناسبات في السورة الكريمة

١. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع سورة الزمر وخاتمتها واضحة، ففي بداية السورة جاء التأكيد على أن إنزال القرآن الكريم كان بالحق. ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ ﴾وفي الخاتمة تأكيد على أن فصل القضاء بين الخلق يوم الحشر يكون بالحق:﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ وهذه مناسبة بديعة.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

لا يخفى وجه اتصال أول سورة الزمر بآخر ما قبلها « ص » حيث قال - جل شأنه - في آخر « ص »: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ ﴾ [ص: ٨٧] ثم قال في أول الزمر: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ﴾فكأنه قيل : هذا الذكر تنزيل. وهذا تلاؤم شديد، بحيث أنه لو أسقطت البسملة لالتأمت الآيتان كالآية الواحدة. (١)

يقول البقاعي - رحمه الله -: لما بنيت سورة (ص) على ذكر المشركين وعنادهم، واتخاذهم الأنداد والشركاء، ناسب ذلك ما افتُتحت به سورة الزمر من الأمر بالإخلاص الذي هو نقيض حال من تقدم. (٢)

٣. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

هناك ارتباط بين مضمون سورة (الزمر) والسورة التي قبلها (ص)، وذلك في مواضع عديدة منها ما يلي:

* **في السورتين مناقشة لعقيدة الوحدانية** ففي سورة (ص) قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ

---

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ١/ ١٦ بتصرف يسير.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي ٧/ ٢٢١.



﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ ﴾.

وفي سورة الزمر قوله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾.

* في السورتين حديث عن جزاء المتقين ففي سورة (ص) قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

وفي سورة الزمر قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

* في السورتين حديث عن مصير المجرمين: ففي سورة (ص) قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾.

وفي سورة الزمر قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ

ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

وفي المناسبة بين السورتين يقول السيوطي - رحمه الله -: ذكر الله تعالى في آخر (ص) قصة خلق آدم، وذكر في صدر الزمر قصة خلق زوجه، وخلق الناس كلهم منه، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق، ثم ذكر أنهم ميتون، ثم ذكر وفاة النوم والموت، ثم ذكر القيامة، والحساب، والجزاء، والنار، والجنة وقال:﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فذكر أحوال الخلق، من المبدأ إلى المعاد، متصلاً بخلق آدم المذكور في السورة التي قبلها. [1]

القرآن تنزيل الله والعبادة لا تكون لسواه

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الكريم «المعجزة الكبرى» الدائمة الخالدة لمحمد بن عبد الله ﷺ، والتأكيد على أن هذا القرآن مُنَزَّلٌ من الله جل شأنه، الغالب على كل شيء، الحكيم في كل تصرفاته وأفعاله.

وليس هذا القرآن قولا مفترى، كما زعم الجاحدون الذين انطمست بصائرهم، واستحبوا العمى على الهدى.

---

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ١/ ١٦.

وقد أنزله - سبحانه - عليك - يا محمد - تنزيلا ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل أو ما يشبه الباطل، وذلك يوجب قبوله والعمل بكل ما فيه. (١) فاعبد الله وحده مخلصاً له في عبادتك، ولا تقصد بعملك ونيتك غير ربك.

ألا لله - وحده - الدين البريء من كل شائبة. والمشركون الذين اتخذوا من دونه نصراء يقولون: ما نعبد هؤلاء لأنهم خالقون، إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله - تقريباً - بشفاعتهم لنا عنده. إن الله يحكم بين هؤلاء المشركين وبين المؤمنين الموحِّدين فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الشرك والتوحيد. (٢)

وهو جل شأنه لا يوفق للهدى، ولا يرشد للدين الحق من كان كاذباً على ربه، مبالغاً في كفره. وفي الآية إشارة إلى كذبهم وافترائهم في دعوى اتخاذهم الأولياء تقربا بها إلى الله.

لو شاء الله اتخاذ ولد - على سبيل الفرض والتقدير - لاختار من مخلوقاته ما يشاء ولداً على سبيل التبني - إذ يستحيل أن يكون ذلك في حقه تعالى بطريق التوالد المعروف - ولكنه لم يشأ ذلك لقوله سبحانه: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٢].

يقول صاحب الظلال: وهذا فرض جدلي لتصحيح التصور. فالله لو أراد أن يتخذ ولداً لاختار ما يشاء من بين خلقه؛ فإرادته مطلقة غير مقيده. ولكنه - سبحانه - نزه نفسه عن اتخاذ الولد. فليس لأحد أن ينسب إليه ولداً، وهذه إرادته، وهذه مشيئته، وهذا تقديره، وهذا تنزيهه لذاته عن الولد والشريك. (٣)

قال في التسهيل: نزَّه تعالى نفسه من اتخاذ الولد، ثم وصف نفسه بالواحد لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد، لأنه لو كان له ولدٌ لكان من جنسه، ولا جنس له لأنه واحد. ووصف نفسه

(١) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٤٠ بتصرف.
(٢) المنتخب ٢ / ٣٠٤.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٣٧.



بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد، لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى، فكيف يكون شريكاً له. [١]

من هداية الآيات:

* تقرير النبوة المحمدية.
* تقرير التوحيد.
* بطلان الشرك والتنديد بالمشركين.
* تقرير البعث والجزاء يوم القيامة. [٢]

من آيات الله في الآفاق والأنفس

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما أثبت سبحانه هذه الصفات التي نفت أن يكون له شريك أو ولد، وأثبتت له الكمال

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٣ / ١٩١.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤١٢.

المطلق، دل عليها بقوله:﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[(١)].

التفسير الإجمالي

تسوق هذه الآيات الكريمة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، في إبداعه لخلق السماوات والأرض، وفي ظاهرة الليل والنهار، وفي تسييره للشموس والأقمار، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام، وكلُّها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته.

فالله تعالى خلق السَّماوَات والأَرض على أكمل الوجوه وأبدع الصفات، بالحق الواضح والبرهان الساطع، يُغشي الليل على النهار، ويُغشي النهارعلى الليل، وكأنه يلفُّ عليه، لفَّ اللباس على اللابس.

وتكويرُ الليل على النهار تغشيتُه إياه حتى يُذهب ضوءه، ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته، وهو معنى قوله تعالى:﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف: ٥٤]. [(٢)]

وسخر سبحانه الشمس والقمر، أي ذلَّلهما لمصالح العباد، كلٌ منهما يسير إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة، حين تكور الشمس، وتنكدر النجوم. إنه جل شأنه كامل القدرة لا يغلبه شيء، عظيم الرحمة والمغفرة والإحسان.

وقد صُدِّرت الجملة الشريفة:﴿ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ بحرف التنبيه «ألا» للدلالة على كمال الاعتناء بمضمونها كأنه قال: تنبهوا يا عبادي فإني أنا الغالب على أمري، الستَّار لذنوب خلقي، فأخلصوا عبادتكم ولا تشركوا بي أحداً. [(٣)]

ومن تلك اللفتة إلى آفاق الكون الكبير، ينتقل إلى لمسة في أنفس العباد؛ ويشير إلى آية

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٧/ ٢٢٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٣٥.

(٣) حاشية الصاوي ٣/ ٣٦٦.



الحياة القريبة منهم في أنفسهم، وفي الأنعام المسخرة لهم. [١]

فالله تعالى خلقكم أيها الناس من نفسٍ واحدة، هي آدم، وهذا من جملة أدلة وحدانيته، وانفراده بالعزة والقهر، وجميع صفات الألوهية، ثم خلق من آدم حواء ليحصل التجانس والتناسل.

وأوجد لكم سبحانه من الأنعام المأكولة - وهي: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز - ثمانية أزواج، من كل نوعٍ ذكراً وأنثى. قال المفسرون: والإنزالُ عبارةٌ عن نزول أمره وقضائه. [٢]

يخلقكم في بطون أمهاتكم أطواراً، أي: نُطَفاً ثُمَّ عَلَقاً ثم مُضَغاً ثم عَظْماً ثم لَحْماً، ثم أنبت الشَّعر، إلى غير ذلك من تقلُّب الأحوال إلى إخراج الأطفال. [٣]

ذلكم الخالق المبدع المصوّر هو الله ربُّ العالمين، ربكم وربُّ آبائكم الأولين، له الملك والتصرف التام في الإيجاد والإعدام. لا معبود بحقٍ إلا الله، ولا ربَّ لكم سواه، فكيف تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟

ثم بعد أن ذكَّرهم بآياته ونعمه، حذَّرهم من الكفر والجحود لفضله وإحسانه فقال: إن تكفروا أيها الناس بعد ما شاهدتم من آثار قدرته وفنون نعمائه، فإن الله مستغنٍ عنكم، وعن إيمانكم وشكركم وعبادتكم، ولا يرضى الكفر لأحدٍ من البشر.

وقد أشار سبحانه إلى أنه وإن كان لا ينفعه إيمان، ولا يضره كفران، إلا أنه لا يرضى بالكفر، بمعنى أنه لا يمدح صاحبه ولا يثيبه عليه. وإن كان واقعاً بمشيئته وقضائه. وإن تشكروا ربكم يرضى هذا الشكر منكم، لأجلكم ومنفعتكم. لا لانتفاعه بطاعتكم. [٤]

ولا تحمل نفسٌ ذنب نفس أخرى، بل كلٌ يؤاخذ بذنبه، ثم مرجعكم ومصيركم إليه

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٣٩.
(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٧٠.
(٣) زاد المسير، لابن الجوزي ٥/ ٢٥٤.
(٤) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٤٦.



تعالى، فيحاسبكم ويجازيكم على كسبكم وسعيكم. وهو سبحانه يعلم ما تكنه السرائر، وتخفيه الضمائر. وفيه تهديدٌ للجاحدين، وبشارة للمطيعين.

من هداية الآيات:

* بيان آيات الله تعالى في الكون، وإيرادها أدلة على التوحيد.
* بيان إفضال الله سبحانه على العباد في خلقهم ورزقهم.
* بيان أن الكفر أعجب من الإيمان؛ إذ أدلة الإيمان لا تعد كثرة، وأما الكفر فلا دليل عليه البتة، ومع هذا أكثر الناس كافرون.
* بيان غنى الله تعالى عن خلقه وافتقار الخلق إليه.
* بيان عدالة الله تعالى يوم القيامة وتقريرها.
* بيان إحاطة علم الله بالخلق وأحوالهم ظاهراً وباطناً.[1]

مقارنة بين المؤمن والكافر

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه في الآيات السابقة الكافر والشاكر، أتبعه هنا بتفصيل بعض أحوالهما والمقارنة بينهما.

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤١٤ بتصرف يسير.

التفسير الإجمالي

يخبر تعالى هنا أن طبيعة الإنسان - الذي لم يهذبه الإيمان - الكفران لنعم الله؛ فإنه في حال الضر شديد التضرع لله، مع الإنابة إليه، فإذا ذهب الضر وانتهت الشدة وجاء الرخاء أعرض عن ربه، ونسي حاله الأول، وأضاف إلى هذا الجحود الكفران لربه ولي نعمته وكاشف ضره.

وهذه الحالة صورتها آيات عديدة في كتاب الله تعالى نذكر منها ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [هود: ٩-١٠].

* قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [فصلت: ٤٩ - ٥١].

* قوله جل شأنه ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٨].

فالإنسان الكافر إذا أصابته شدة من فقر ومرض وبلاء تضرع إلى ربه في إزالة تلك الشدة مقبلاً إليه مخبتاً مطيعاً، ثم إذا أعطاه نعمةً منه وفرَّج عنه كربته نسي الضر الذي كان يدعو ربه لكشفه، وطغى، وجعل لله شركاء في العبادة، ليصد عن دين الله وطاعته.

فيا أيها الجاحد الكافر تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية، وتلذَّذ فيها وأنت على كفرك، عمراً قليلاً وزمناً يسيراً فمصيرك إلى نار جهنم، وأنت من المخلدين فيها.

يقول صاحب الظلال - رحمه الله -: «إن فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسه الضر

ويسقط عنها الركام؛ وتزول عنها الحجب، وتتكشف عنها الأوهام؛ فتتجه إلى ربها، وتنيب إليه وحده؛ وهي تدرك أنه لا يكشف الضر غيره. وتعلم كذب ما تدعي من شركاء أو شفعاء.

فأما حين يذهب الضر ويأتي الرخاء، ويخوله الله نعمة منه، ويرفع عنه البلاء، فإن هذا الإنسان الذي تعرت فطرته عند مس الضر يعود فيضع عليها الركام، وينسى تضرعه وإنابته وتوحيده لربه. وتطلعه إليه في المحنة وحده، حين لم يكن غيره يملك أن يدفع عنه محنته.. ينسى هذا كله ويذهب يجعل لله أنداداً. »[1]

أهذا الكافر المتمتع بكفره خير، أم من هو عابد لربه طائع له، يقضي ساعات الليل في القيام والسجود لله، يخاف عذاب الآخرة، ويأمُل رحمة ربه ؟ قل - أيها الرسول -: هل يستوي الذين يعلمون ربهم ودينهم الحق والذين لا يعلمون شيئاً من ذلك ؟ لا يستوون. إنما يتذكر ويعرف الفرق أصحاب العقول السليمة.[2]

قال الإمام الرازي: واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، أما العمل فهو القنوت، والسجود، والقيام، وأما العلم ففي قوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؟

وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصورٌ في هذين المقصودين، فالعمل هو البداية، والعلم والمكاشفة هو النهاية. وفي الكلام حذف تقديره: أَمَّنْ هو قانتٌ كغيره؟ وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر. ثم مثَّل بالذين يعلمون، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم.[3]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٤١.

(٢) التفسير الميسر ٨ / ٢٣٤.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٥٠.

من هداية الآيات:

* تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتنديد.
* وعيد الضالين عن سبيل الله المضلين عنه بالنار.
* تقرير أفضلية المؤمن المطيع على الجاحد العاصي.
* فضل العالم على الجاهل لعمله، ولولا العمل بالعلم لاستويا في الخسّة والانحطاط.[(١)]

إرشاد للمؤمنين ووعيد لعبدة الأصنام

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

قل يا محمد لعبادي المؤمنين يجمعوا بين الإيمان وتقوى الله. وأضافهم سبحانه إلى نفسه ﴿يَٰعِبَادِ ﴾ تشريفاً لهم بالإضافة إليه بالضمير الدال على اللطف وشدة الخصوصية، وإعلاماً

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤١٥ بتصرف يسير.



لهم بأنه حاضر لا يغيب عنهم بوجه. [١]

لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة عظيمة في الآخرة، وهي الجنة، دار الأبرار. وأرض الله فسيحة، فهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان، ولا تقيموا في أرضٍ لا تتمكنون فيها من إقامة شعائر الله. إنما يعطى الصابرون جزاءهم بغير حصر، وبدون عدد أو وزن. قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يغرف غرفاً. [٢]

قل يا محمد أُمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له. وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أنَّ غيره بذلك أحق، فهو كالترغيب للغير. وأُمرت أيضاً أن أكون أولَ المسلمين من هذه الأمة.

قال القرطبي: وكذلك كان، فإنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها وأسلم وجهه لله، وآمن به ودعا إليه. [٣]

وأخاف إن عصيت أمره أن يعذبني يوم القيامة بنار جهنم. قال الصاوي: والمقصود منها زجر الغير عن المعاصي، لأنه ﷺ إذا كان خائفاً مع كمال طهارته وعصمته فغيره أولى، وذلك سنة الأنبياء والصالحين حيث يخبرون غيرهم بما اتصفوا به ليكونوا مثلهم. [٤]

قل لهم يا محمد: لا أعبد إلا الله وحده، مخلصاً له طاعتي وعبادتي من كل شائبة، وليس هذا بتكرار، لأن الأول إخبار بأنه ﷺ مأمور بالعبادة، والثاني إخبار بخوفه من عذاب الله إن عصى أمره، والثالث إخبار بامتثاله الأمر مع إفادة الحصر، كأنه يقول: أعبد الله ولا أعبد أحداً سواه. [٥]

---

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٧ / ٢٣٧.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢١٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٢٤٢.
(٤) حاشية الصاوي ٣/ ٣٦٨.
(٥) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٣.

وهذا الإعلان من النبي ﷺ بأنه مأمور أن يعبد الله وحده، ويخلص له الدين وحده؛ وأن يكون بهذا أول المسلمين؛ وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى ربه.. هذا الإعلان ذو قيمة كبرى في تجريد عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام. فالنبي ﷺ في هذا المقام هو عبد لله. هذا مقامه لا يتعداه. وفي مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفاً، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العبـاد، وهذا هو المراد. [١]

فيا أيها الجاحدون اعبدوا ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام، فسوف ترون عاقبة كفركم. وهذه صيغة أمر على جهة التهديد والوعيد.

وإن الخاسرين حقا هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، حيث صاروا إلى نار مؤبدة يصلون سعيرها يوم القيامة، فهؤلاء هم الخاسرون كل الخسران.

قال ابن عباس: إنَّ لكل رجلٍ منزلاً وأهلاً وخدماً في الجنة، فإن أطاع اللهَ أُعطي ذلك، وإن كان من أهل النار حُرم ذلك، فخسر نفسه وأهله ومنزله. [٢] ألا فانتبهوا أيها القوم، فإن ذلك هو الخسرانُ الواضح الذي ليس بعده خسرانٌ!

ثم لما ذكر خسرانهم في الدنيا، ذكر حالهم ومآلهم في الآخرة فقال: تغشاهم نار جهنم من فوقهم ومن تحتهم، وتحيط بهم من جميع جوانبهم. ومعنى الظلل أطباقٌ من نار جهنم وتسميتها ظُللاً تهكمٌ بهم، لأنها محرقة، والظلةُ تقي من الحر.

ذلك العذاب الشديد الفظيع، إنما يقصه تعالى ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم. يا أوليائي خافوا عذابي، ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي. [٣]

ولما ذكر وعيد عبدة الأوثان، ذكر وعد أهل الفضل والإحسان، ممن احترز عن الشرك

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٤٤.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٥٦.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٤.

والعصيان، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد، فيحصل كمال الترغيب والترهيب.

والمعنى: والذين انتهوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان، وتباعدوا عنها كل البعد ورجعوا إلى طاعة الله وعبادته، لهم البشرى السارة من الله تعالى بالفوز العظيم بجنات النعيم.(١)

قال أبو السعود: «الطاغوت» البالغ أقصى غاية الطغيان، والمراد به الشيطان، وُصف به للمبالغة.(٢)

فبشِّر عبادي المتقين، الذين يستمعون الحديث والكلام فيتبعون أحسن ما فيه.

وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال منها: أن المراد بالقول الذي يتبعون أحسنه. ما يشمل تعاليم الإِسلام كلها النابعة من الكتاب والسنة.

والمراد بالأحسن الواجب والأفضل، مع جواز الأخذ بالمندوب والحسن.

فهم يتركون العقاب مع أنه جائز، ويأخذون بالعفو لأنه الأفضل، كما قال تعالى: ﴿ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وكما قال سبحانه: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل: ١٢٦]، فيكون المعنى: الذين يستمعون الأقوال الحسنة والأشد حسنا فيأخذون بما هو أشد حسنا.(٣)

ومنها أن المراد بالقول هنا ما يشمل الأقوال كلها سواء أكانت طيبة أم غير طيبة، فهم يستمعون من الناس إلى أقوال متباينة، فيتبعون الطيب منها، وينبذون غيره.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ ﴾ إنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإِنابة على هذه الصفة.. وأراد أن يكونوا نقادا فى الدين مميزين بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، فإذا اعترضهم أمران: واجب ومندوب

---

(١) المرجع السابق، نفس الموضع.

(٢) إرشاد العقل السليم ٤ / ٣٠٥.

(٣) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٤٧.



اختاروا الواجب... فهم حريصون على فعل ما هو أكثر ثواباً عند الله. (١)

وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل: يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها، نحو القصاص والعفو، والانتصار والإغضاء.

وعن ابن عباس: هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ فيحدث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه.

ويبدو أن هذا القول الأخير المأثور عن ابن عباس - رضى الله عنهما - هو أقرب الأقوال إلى الصواب، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة الكريمة. (٢)

وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم، وتمييزهم الأحسن من الكلام، فإذا سمعوا قولاً تبصَّروه وعملوا بها فيه. وأحسنُ الكلام كلام الله وخير الهدي هديُ محمد ﷺ.

وإنما وضع الظاهر ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ بدل الضمير ﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾ تشريفاً لهم وتكريماً بالإضافة إليه سبحانه. أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين هداهم الله لما يرضاه، ووفقهم لنيل رضاه. وأولئك هم أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة. (٣)

أفمن وجبت عليه كلمة العذاب؛ باستمراره على غيِّه وعناده، فإنه لا حيلة لك -أيها الرسول- في هدايته، أفتقدر أن تنقذ مَن في النار ؟ لست بقادر على ذلك.

لكن الذين اتقوا ربهم- بطاعته وإخلاص عبادته- لهم في الجنة غرف مبنية بعضها فوق بعض، تجري مِن تحت أشجارها الأنهار، وعدها الله عباده المتقين وعداً متحققاً، لا يخلف الله الميعاد. (٤)

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٣.

(٢) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٤٧.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٧٥.

(٤) التفسير الميسر ٨/ ٢٤١ وما ببعدها.

من هداية الآيات:

* بيان عناية الله تعالى برسوله والمؤمنين إذ أرشدهم إلى ما يكملهم ويسعدهم.
* وجوب التقوى والصبر على الأذى في ذلك.
* تقرير التوحيد بأن يعبد الله وحده.
* فضل الإسلام وشرف المسلمين.
* تقرير البعث والجزاء وبيان شيء من أهوال الآخرة وعذاب النار فيها.
* كل خسران في الدنيا إذا قيس بخسران الآخرة لا يعد خسراناً أبداً.
* فضيلة أهل التمييز والوعي والإدراك الذين يميزون بين ما يسمعون فيتبعون الأحسن ويتركون ما دونه.
* إعلام من الله تعالى أن من وجبت له النار أزلاً لا تمكن هدايته مهما بذل الداعي في هدايته وإصلاحه ما بذل.
* بيان ما أعد الله تعالى لأهل الإيمان والتقوى من نعيم الجنة وكرامة الله لأهلها. [1]

من دلائل وحدانية الله وقدرته

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما وصف الله تعالى الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولي الألباب فيها وصف

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤١٧- ٤١٩.

الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها. [١]

التفسير الإجمالي

ألم تر أيها الإنسان العاقل أنَّ الله بقدرته أنزل المطر من السحاب أدخله مسالك وعيوناً في الأرض وأجراه فيها. قال المفسرون: وهذا دليلٌ على أن ماء العيون من المطر، تحبسه الأرض ثم ينبع شيئاً فشيئاً،

قال ابن عباس: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكنْ عروق في الأرض تغيِّره[٢].

ثم يُخرج بهذا الماء النازل من السماء والنابع من الأرض أنواع الزروع، المختلفة الأشكال والألوان، من أحمر وأبيض وأصفر، والمختلفة الأصناف من قمح وأرز وعدس وغير ذلك.[٣] أي في الأصناف والكيفيات والطبائع والطعوم وغير ذلك مع اتحاد الماء الذي جمعه من أعماق الأرض بعد أن تفتت فيها وصار تراباً. [٤]

ثم ييبس هذا الزرع فتراه بعد خضرته مصفراً، ثم يصبح فتاتاً وهشيماً متكسراً. إنَّ فيما ذُكر لعظة وعبرة، ودلالةً على قدرة الله ووحدانيته لذوي العقول المستنيرة.

والآية فيها تمثيلٌ لحياة الإنسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلا بدَّ من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون، متحطم الأعضاء، متكسراً كالزرع بعد نضرته، ثم تكون عاقبته الموت.

والمقصود من هذه الآية الكريمة، التحذير من الانهماك فى الحياة الدنيا ومتعها، حيث

---

(١) تفسير الرازي ١٣/ ٢٤٩.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٧.
(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٧٦.
(٤) نظم الدرر، للبقاعي ٧/ ٢٤٣.

شبهها - سبحانه - في سرعة زوالها وقرب اضمحلالها - بالزرع الذى يبدو مخضرا وناضراً... ثم يعقب ذلك الجفاف والذبول والاضمحلال. [1]

وفي هذا المعنى وردت آيات كثيرة، منها قوله - تعالى -:﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾[الكهف: ٤٥].

وقوله جل شأنه: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾[الحديد: ٢٠].

قال ابن كثير: هكذا الدنيا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، وكذلك الشاب يعود شيخاً هرماً، كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير. [2]

من هداية الآيات:

* أهمية ضرب الأمثال للعظة والتذكير.
* دلائل قدرة الله تعالى ووحدانيته شاخصة وناطقة في خلقه وكونه.
* لا ينتفع بآيات الله الكونية أو المتلوة إلا أصحاب العقول الرشيدة، والفطر المستقيمة.

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٤٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢١٧.



حال المؤمنين مع القرآن، ولمحة من عذاب الكافرين في النيران

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه – فيما تقدم – بعض دلائل وحدانيته وقدرته الموصلة إلى الإيمان به، بين هنا أنه لا ينتفع بهذه الآيات الكونية إلا من شرح الله صدره ويسر له أمر الهدى.

سبب نزول قول الله تعالى:﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾

روى الحاكم وغيره عن سعد بن أبي وقاص قال: نزل على النبي ﷺ القرآن، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا ؟ فنزل: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا ﴾.[1]

التفسير الإجمالي

أفمن وسَّع الله صدره، فسعد بقبول الإسلام والانقياد له والإيمان به، فهو على بصيرة من أمره وهدى من ربه، كمن ليس كذلك ؟ لا يستوون. فويل وهلاك للذين قَسَتْ قلوبهم وأعرضت عن ذكر الله، أولئك في ضلال بيِّن عن الحق.[2]

قال الطبري –رحمه الله–: وتُرك الجوابُ اجتزاءً بمعرفة السامعين وبدلالة ما بعده وتقديره:

---

(١) المستدرك ٢/ ٣٧٦ رقم ٣٣١٩ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه أبو يعلى في مسنده ٢/ ٨٧. والحديث وصححه الذهبي.

(٢) التفسير الميسر ٨/ ٢٤٤.

كمن أقسى اللهُ قلبه وأخلاه من ذكره، حتى ضاق عن استماع الحق، واتباع الهدى؟[١]

فويلٌ للذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع عند ذكر الله، بـ «ذكر الله» القرآن الذي أنزله الله تذكرة لعباده. أولئك الذين قست قلوبهم في بعدٍ عن الحق ظاهر.

ولما بيَّن تعالى ذلك أردفه بما يدل على أنَّ القرآن سبب لحصول النور والهداية والشفاء فقال: ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا ﴾، وهو القرآن العظيم، متشابهاً في حسنه وإحكامه وعدم اختلافه، تثنى فيه القصص والأحكام، والحجج والبينات.

تقشعر من سماعه، وتضطرب جلود الذين يخافون ربهم؛ تأثراً بما فيه مِن ترهيب ووعيد، ثم تلين جلودهم وقلوبهم؛ استبشاراً بما فيه من وعد وترغيب، ذلك التأثر بالقرآن هداية من الله لعباده.

والله يهدي بالقرآن من يشاء مِن عباده. ومن يضلله الله عن الإيمان بهذا القرآن؛ لكفره وعناده، فما له مِن هاد يهديه ويوفقه.[٢]

قال ابن كثير: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، إذا قرؤوا آيات الوعد والوعيد والتخويف والتهديد، تقشعر جلودهم من الخشية والخوف. وإذا قرءوا آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم، لما يرجون ويأملون من رحمته ولطفه.[٣]

قال الجمل: « فإن قلت: لم ذكرت الجلود وحدها أولا ثم قرنت القلوب بها ثانياً ؟.

قلت: ذكر الخشية التي تحملها القلوب مستلزم لذكر القلوب، فكأنه قيل: تقشعر جلودهم وتخشى قلوبهم في أول الأمر، فإذا ذكروا الله تعالى وذكروا رحمته وسعتها، استبدلوا

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ١٣٤.

(٢) التفسير الميسر ٨ / ٢٤٥.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢١٧.

بالخشية رجاء فى قلوبهم، وبالقشعريرة لينـا فى جلودهم». [١]

والخلاصة أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين، أنهم يجمعون عند قراءتهم أو سماعهم للقرآن الكريم بين الخوف والرجاء، الخوف من عذاب الله - تعالى - والرجاء في رحمته ومغفرته، إذ إن اقشعرار الجلود كناية عن الخوف الشديد، ولين الجلود والقلوب كناية عن السرور والارتياح. [٢]

ذلك القرآن الذي تلك صفتُه هو هدى الله يهدي به من شاء من خلقه. ومن يخذلْه اللهُ فيجعل قلبه قاسياً مظلماً، فليس له مرشدٌ ولا هاد بعد الله. [٣]

أفمن يجعل وجهه وقاية من عذاب جهنم الشديد، وخبره محذوف تقديره كمن هو آمنٌ من العذاب ؟

قال المفسرون: الوجه أشرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه، وأيدي الكفار مغلولة يوم القيامة، فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شيئاً يتقونها به إلا وجوههم.

وتقول خزنة جهنم للكافرين: ذوقوا وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا من الكفر والمعاصي.

كذَّب من قبلهم من الأمم السالفة فأتاهم العذاب من جهةٍ لا تخطر ببالهم. فأذاقهم الله الذُلَّ والصغار والهوان في الدنيا. ولعذاب الآخرة الذي أُعدَّ لهم أعظم بكثير من عذاب الدنيا لو كان عندهم علمٌ وفهم ما كذبوا. [٤]

---

(١) الفتوحات الإلهية ٣/ ٥٦٧.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١/ ٣٦٥٢.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٧٧.

(٤) المرجع السابق، ٣/ ٧٨.

من هداية الآيات:

* بيان أن القلوب قلبان قلب قابل للهداية وآخر غير قابل لها.
* بيان أن القرآن أحسن ما يحدث به المؤمن إذ أخباره كلها صدق وأحكامه كلها عدل.
* فضيلة أهل الخشية من الله إذ هم الذين ينفعلون لسماع القرآن فترتعد فرائصهم عند سماع وعيده، وتلين قلوبهم وجلودهم عند سماع وعده.
* تقرير البعث والجزاء بذكر شيء من أحوال يوم القيامة.
* العذاب على التكذيب والمعاصي منه الدنيوي، ومنه الأخروي.
* لو علم الناس عذاب الآخرة علماً يقينا ما كذبوا ولا كفروا ولا ظلموا، فالجهل سبب الهلاك والشقاء دائماً. (١)

ضرب الأمثال للتذكير، وعربية القرآن

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

ولقد ضربنا لهؤلاء المشركين بالله في هذا القرآن من كل مثل من أمثال القرون الخالية تخويفاً وتحذيراً؛ ليتذكروا فينزجروا عما هم عليه مقيمون من الكفر بالله. وجعلنا هذا القرآن عربياً واضح الألفاظ سهل المعاني، لا لَبْس فيه ولا انحراف؛ لعلهم يتقون الله بامتثال أوامره

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٢١ وما بعدها.



واجتناب نواهيه.[١]

ثم ذكر تعالى مثلاً لمن يشرك بالله، ولمن يوحِّده فقال: ضرب الله لكم أيها الناس هذا المثل: رجلٌ من المماليك اشترك فيه ملاكٌ سيئو الأخلاق، بينهم اختلاف وتنازع، يتجاذبونه في حوائجهم، هذا يأمره بأمرٍ وذاك يأمره بمخالفته، وهو متحيِّر موزَّع القلب، لا يدري مَنْ يرضي؟ ورجلاً آخر لا يملكه إلا شخص واحد، حسن الأخلاق، فهو عبد مملوك لسيد واحد، يخدمه بإخلاص ويتفانى في خدمته، ولا يلقى من سيده إلا إحساناً. هل يستوي هذا وهذا في حسن الحال، وراحة البال ؟ فكذلك لا يتساوى المؤمن الموحِّد مع المشرك الذي يعبد آلهة شتى.

قال ابن عباس: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، وقال الرازي: وهذا مثلٌ ضُرب في غاية الحُسن في تقبيح الشرك، وتحسين التوحيد.[٢]

ويقول صاحب الظلال رحمه الله:

« يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه، وهو بينهم موزع؛ ولكل منهم فيه توجيه، ولكل منهم عليه تكليف؛ وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق؛ ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه ! وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه، ويكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح.

هل يستويان مثلاً ؟ إنهما لا يستويان. فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين. وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق. والذي يخضع لسادة متشاكسين معذب مقلقل لا يستقر على حال ولا يرضي واحداً منهم فضلاً على أن يرضي

(١) التفسير الميسر ٨/ ٢٤٨.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٧٧.

الجميع ! وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال. »[١]

ولما كان المثل بيناً واضحاً في غاية الجلاء والوضوح ختم الآية بالحمد. والمعنى: الحمد لله على إقامة الحجة عليهم. بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحق فهم لفرط جهلهم يشركون بالله.

إنك يا محمد ستموت كما يموت هؤلاء، ولا يخلَّد أحد في هذه الدار ثم تجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما بينكم من المظالم وأمر الدنيا والدين ويفصل بينكم أحكم الحاكمين.[٢]

من هداية الآيات:

* مشروعية ضرب الأمثال للمبالغة في الإِفهام والهداية.
* بيان مثل المشرك والموحد، فالمشرك في حيرة وتعب، والموحد في راحة وهدوء بال.
* تقرير أن كل نفس ذائقة الموت.
* بيان أن خصومة ستكون يوم القيامة ويقضي الله تعالى فيها بالحق لأنه هو الحق.[٣]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٤٩.
(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٨ وما بعدها.
(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٢٣.

وعيد للمشركين ووعد للمؤمنين

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر تعالى أن الخلق صائرون إلى الموت، وأن المؤمنين والكافرين سيختصمون عند ربهم في أمر التوحيد والشرك، وأنه تعالى يفصل بينهم، ذكر هنا جزاء كل من الفريقين. [١]

التفسير الإجمالي

يؤكد الله تعالى في هذه الآيات الشريفة على أنه لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والولد، وكذَّب بالقرآن والشريعة وقت مجيئه من غير تدبر ولا تأمل ؟ أي لا أحد أظلم ممن حاله ذلك، فإنه أظلم من كل ظالم.

أليس في جهنم مقام ومأوى لهؤلاء الكافرين المكذبين ؟ والاستفهام هنا تقريري أي بلى لهم مأوى ومكان.

والذي جاء بالصدق في قوله وعمله من الأنبياء وأتباعهم، وصدَّق به إيماناً وعملا، أولئك هم الذين جمعوا خصال التقوى، وفي مقدمة هؤلاء خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ والمؤمنون به، العاملون بشريعته من الصحابة، رضي الله عنهم، فمَن بعدهم إلى يوم الدين. [٢]

لهم كل ما يشتهون في الجنة من الحور، والقصور، والملاذِّ، والنعيم ذلك الذي ينالونه هو

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٧٩.

(٢) التفسير الميسر ٨/ ٢٥.



ثواب كل محسن، أحسن في هذه الحياة.

قال بعض المفسرين: « الذي جاء بالصدق» هو محمد ﷺ «وصدَّق به» هو أبو بكر ﷺ والاختيارُ أن يكون على العموم حتى يشترك في هذه الصفة كل الرسل الكرام، وكل من دعا إلى هذا الصدق عن عقيدة وإيمان من أتباع الرسل، ويدل عليه﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾بصيغة الجمع.[١]

هؤلاء الذين صدَّقوا الأنبياء عليهم السلام سيغفر الله لهم ما أسلفوا من الأعمال السيئة، فلا يعاقبهم بها، ويثيبهم على طاعاتهم في الدنيا بحساب الأحسن الذي عملوه، فضلاً منه وكرماً.

قال المفسرون: العدلُ أن تُحسب الحسنات وتُحسب السيئات، ثم يكون الجزاء. والفضلُ هو الذي يتجلى به الله على عباده المتقين، فيكفر عنهم أسوأ أعمالهم، فلا يبقى لها حساب في ميزانهم، وأن يجزيهم أجرهم بحساب أحسن الأعمال، فتزيد حسناتُهم وتعلو وترجّح كفة الميزان، وهذا من زيادة الكرم والإحسان.

أليس الله كافياً عبده ورسوله محمداً ﷺ من شر من يريده بسوء ؟

قال أبو السعود: هذه تسليةٌ لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش: لتكفن عن شتم آلهتنا، أو ليصيبنك منها خبل أو جنون.[٢]

وقال أبو حيان: قالت قريش: لئن لم ينته محمد عن سبِّ آلهتنا وتعييبنا لنسلِّطنها عليه فتصيبه بخبَل وتعتريه بسوء، فأنزل الله هذه الآية، وإضافته إليه تشريفٌ عظيمٌ لنبيّه ﷺ.[٣]

ويخوفونك يا محمد بهذه الأوثان التي لا تضر ولا تنفع. ومن أشقاه الله وأضلَّه فلن يهديه أحدٌ كائناً من كان.

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٠.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٣١٠.

(٣) البحر المحيط ٧ / ٤٢٩.



ومن أراد الله سعادته فهداه إلى الحق، ووفقه لسلوك طريق المهتدين، فلن يقدر أحدٌ على إضلاله. وهو تعالى منيع الجناب لا يُضام من لجأ إلى بابه. وهو القادر على أن ينتقم من أعدائه لأوليائه، لأنه غالب لا يُغلب، ذو انتقام من أعدائه. وفي الآية وعيدٌ للمشركين، ووعد للمؤمنين.

من هداية الآيات:

* التنديد بالكذب على الله تعالى والتكذيب به، وبما جاء به رسوله ﷺ من الدين.
* بيان جزاء الكاذبين على الله والمكذبين بما جاء به رسول الله عن ربه.
* الترغيب في الصِّدق في الاعتقادات والأقوال والأعمال.
* فضل التقوى والإحسان وبيان جزائهما عند الله تعالى يوم القيامة.
* تقرير كفاية الله وولايته لعباده المؤمنين وخاصة ساداتهم من الأنبياء والأولياء.
* تقرير مقتضى الولاية، وهو النقمة من أعدائه تعالى لأوليائه وإن طال الزمن.[1]

ضلال المشركين وتهديد الله لهم

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ساق الله تعالى فيما سبق البراهين على أنه سبحانه المتصرف في المعاني بتصرفه في القلوب

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٢٤.

بالهداية والإضلال، وكان التقدير: فلئن أقررتم بهذا الاستفهام الإنكاري ليقولن: بلى ! عطف عليه بيان أن الخالق للذات كما أنه المالك للمعاني والصفات، فقال مفسداً لدينهم باعترافهم بأصلين: القدرة التامة له، والعجز الكامل لمعبوداتهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾[1].

التفسير الإجمالي

يقيم الله جل شأنه هنا البرهان على تزييف طريقة عبدة الأوثان. أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين عمَّن خلق السماوات والأرضَ ليقولُنَّ اللهُ خالقهما، لوضوح الدليل على تفرده تعالى بالخالقية.

قال الرازي: إنَّ العلم بوجود الإله القادر الحكيم، لا نزاع فيه بين جمهور الخلائق، وفطرةُ العقل شاهدةٌ بصحة هذا العلم، فإنَّ من تأمل في عجائب أحوال السماوات والأرض، وفي عجائب أحوال النبات والحيوان وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحِكَم الغريبة، والمصالح العجيبة، علم أنه لا بدَّ من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم، ولهذا أقر المشركون بوجود الله.[2]

قل لهم يا محمد توبيخاً وتبكيتاً: أخبروني - بعد أن تحققتم أن خالق العالم هو الله - عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، أخبروني لو أراد الله أن يصيبني بشدة أو بلاء، هل تستطيع هذه الأصنام أن تدفع عني ذلك السوء والضُّرَّ؟

ولو أراد الله بي نفعاً من نعمة ورخاء هل تستطيع أن تمنع عني هذه الرحمة ؟ والجواب محذوفٌ لدلالة الكلام عليه يعني فيسقولون: لا، لا تكشف السوء، ولا تمنع الرحمة[3]، الله سبحانه كافيني فلا ألتفت إلى غيره، وعليه وحده يعتمد المعتمدون.

---

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٧/ ٢٥٧ بتصرف يسير.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٨٢.

(٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٥٩.



والغرضُ الاحتجاجُ على المشركين في عبادة ما لا يضرُّ ولا ينفع، وإِقامة البرهان على الوحدانية.

فاعملوا - أيها الجاحدون - على طريقتكم من المكر والكيد والخداع، إني عاملٌ على طريقتي، من الدعوة إلى الله، وإظهار دينه فسوف تعلمون لمن سيكون العذاب الذي يذل ويخزي الإِنسان وينزل عليه عذاب دائمٌ لا ينقطع، وهو عذاب النار، هل هذا العذاب سيصيبني أو يصيبكم ؟. [(١)]

وفي الآية مبالغة في الوعيد، وإِشعارٌ بأن حاله ﷺ لا تزال تزداد قوةً بنصر الله وتأييده وفي خزي أعدائه دليل غلبته ﷺ، وقد عذبهم الله وأخزاهم يوم بدر. [(٢)]

من هداية الآيات:

* تقرير التوحيد وإبطال التنديد.
* مظاهر ربوبية الله الموجبة لألوهيته.
* وجوب التوكل على الله واعتقاد كفايته لأوليائه.
* تقرير إنجاز الله وعده لرسوله ﷺ والمؤمنين. [(٣)]

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٨١.
(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤/ ٣١٠.
(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٢٦.

مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى فيما سبق فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات وتارة بضرب الأمثال وتارة بذكر الوعد والوعيد، وكان النبي ﷺ يشق عليه كفر قومه أردفه بكلام يرفع عنه هذا الهم.[1]

التفسير الإجمالي

إنا أنزلنا عليك – أيها الرسول – القرآن بالحق هداية للعالمين، إلى طريق الرشاد، فمن اهتدى بنوره، وعمل بما فيه، واستقام على منهجه، فنفعُ ذلك يعود على نفسه، ومَن ضلَّ بعد ما تبين له الهدى، فإنما يعود ضرره على نفسه، ولن يضرَّ الله شيئا، وما أنت – أيها الرسول – عليهم

(١) تفسير الرازي ١٣ / ٢٦٧ بتصرف.

بوكيل تحفظ أعمالهم، وتحاسبهم عليها، وتجبرهم على ما تشاء، ما عليك إلا البلاغ. [١]

قال الصاوي: وفي هذا تسلية له ﷺ والمعنى: ليس هداهم بيدك حتى تقهرهم وتجبرهم عليه، وإنما هو بيدنا، فإن شئنا هديناهم وإن شئنا أبقيناهم على ما هم عليه من الضلال. [٢]

ثم أخبر تعالى بأنه المتصرف في الوجود كما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة - الملائكة - الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام. فيمسك الروح التي قضى على صاحبها الموتَ، فلا يردها إلى البدن. ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى وقت محدود، هو أجل موتها الحقيقي. [٣]

قال في التسهيل: هذه الآية للاعتبار ومعناها أن الله يتوفى النفوس على وجهين: أحدهما: وفاة كاملة حقيقية وهي الموت، والآخر: وفاة النوم لأن النائم كالميت، في كونه لا يُبصر ولا يسمع، ومنه قوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ [الأنعام: ٦٠]. وفي الآية عطف والتقدير: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها. [٤]

قال القرطبي: وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته تعالى، وانفراده بالألوهية، وأنه سبحانه يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء، لا يقدر على ذلك سواه. [٥]

إن في هذه الأفعال العجيبة لعلامات واضحة قاطعة، على كمال قدرة الله وعلمه، لقومٍ يجيلون أفكارهم فيها فيعتبرون.

ولكنهم لم يتفكروا بل اتخذوا لهم شفعاء من الأوثان والأصنام، فانظر إلى فرط جهالتهم، حيث اتخذوا من لا يملك شيئاً أصلاً شفعاء لهم عند الله.

(١) التفسير الميسر ٨/ ٢٥٩.
(٢) حاشية الصاوي ٣/ ٣٧٤.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٢.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/ ١٩٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٢٦٠ بتصرف يسير.

قال ابن كثير: هذا ذمٌّ للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله - وهي الأصنام - والأوثان التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم، بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر وليس لها عقل تعقل به، ولا سمعٌ تسمع به، ولا بصرٌ تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً بكثير من الحيوانات. [1]

قل لهم يا محمد: أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا على هذه الصفة جمادات لا تقدر على شيء، ولا عقل لها ولا شعور؟ والاستفهام هنا توبيخي.

قل لهم: الشفاعة للهِ وحده، لا يملكها أحدٌ إلا الله تعالى، ولا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإِذنه هو المتصرف في المُلك والملكوت.

قال البيضاوي: أي هو تعالى مالك المُلكِ كله، لا يملك أحدٌ أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه. [2]

ثم مصيركم إليه يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجازي كلاً بعمله.

ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من أفعالهم القبيحة وهي أنه إِذا أُفرد الله بالذكر، ولم يذكر معه آلهتهم وقيل أمام المشركين: لا إله إلا اللهُ نفرت وانقبضت من شدة الكراهة قلوب هؤلاء المشركين. وإِذا ذكرت الأوثان والأصنام إِذا هم يفرحون ويُسرون.

قال الإِمام الرازي: هذا نوع آخر من قبائح المشركين، فإِنك إِذا ذكرتَ الله وحده وقلت: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ظهرتْ آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم. وإِذا ذكرتَ الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم.

وذلك يدل على الجهل والحماقة، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات، وذكر الأصنام الجمادات رأسُ الجهالات والحماقات، فنفرتُهم عن ذكر الله واستبشارهم بذكر الأصنام

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٢.
(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥٤.



من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ، والحُمق الشديد. (١)

قل: يا الله يا خالق ومبدع السماوات والأرض يا عالم السرِّ والعلانية، يا من لا تخفى عليه خافية، مما هو غائب عن الأعين أو مشاهد بالأبصار أنت تفصل بين الخلائق بعدلك وقضائك فافصل بيني وبين هؤلاء المشركين.

قال أبو حيّان: لما أخبر عن سخافة عقولهم باشمئزازهم من ذكر الله، واستبشارهم بذكر الأصنام، أمر رسوله أن يدعوه بأسمائه العظمى من القدرة والعلم ليفصل بينه وبين أعدائه. وفي ذلك وعيد للمشركين وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام. (٢)

ولو أنَّ لهؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب القرآن والرسول لو ملكوا كل ما في الأرض من أموال، وملكوا مثل ذلك معه لجعلوا كل ما لديهم من أموال وذخائر، فديةً لأنفسهم من ذلك العقاب الشديد يوم القيامة. وظهر لهم من أنواع العقوبات ما لم يكن في حسابهم. (٣) قال أبو السعود: وهذه غايةٌ من الوعيد لا غاية وراءها. (٤)

وظهر لهم في ذلك اليوم المفزع سيئات أعمالهم التي اكتسبوها، ونزل بهم من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به في الدنيا. (٥)

من هداية الآيات:

* تسلية الرسول ﷺ، وحمله على الصبر والثبات في أصعب الظروف.
* مظاهر قدرة الله في الموت والحياة مما يقتضي الإِيمان به وبلقائه وتوحيده.

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٨٦.
(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٤٣٢.
(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٣.
(٤) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٣١١.
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٤.



* إبطال حجة المشركين في عبادة الأوثان من أجل الشفاعة لهم إذ الشفاعة كلها لله رب العالمين.
* بيان خطأ من يطلب الشفاعة من غير الله، إذْ لا يملك الشفاعة إلا هو سبحانه.
* بيان سفه المشركين وضلالهم في غضبهم عند سماع التوحيد، وفرحهم عند سماع الشرك.
* مشروعية اللجوء إلى الله تعالى عند اشتداد الكرب.
* بيان عظم العذاب وشدته يوم القيامة، وأن المرء لو يقبل منه فداء لافتدى منه بما في الأرض من أموال ومثله معه.
* التحذير من الاستهزاء بأخبار الله تعالى ووعده ووعيده. (١)

الإنسان بين السراء والضراء

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة، وذلك لأنهم عند الوقوع في الضر الذي هو الفقر والمرض يفزعون إلى الله تعالى، ويرون أن دفع ذلك لا يكون إلا منه، ثم إنه تعالى إذا خولهم النعمة، وهي إما السعة في المال أو العافية في النفس، زعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٢٨ وما بعدها بتصرف يسير.

وبسبب جهده وجده، فإن كان مالاً قال إنما حصل بكسبي، وإن كان صحة قال إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني، وهذا تناقض عظيم، لأنه كان في حال العجز والحاجة أضاف الكل إلى الله وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله، وأسنده إلى كسب نفسه، وهذا تناقض قبيح.(١)

وهذه الكلمة القبيحة التي يقولها الكافر: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ قالها الكفار من قبل، كقارون وغيره، حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [القصص: ٧٨]. فما نفعهم ما جمعوه من الأموال، ولا ما كسبوه من الحُطام.

فنالهم جزاء أعمالهم السيئة والذين ظلموا من هؤلاء المشركين - كفار قريش - سينالهم جزاء أعمالهم القبيحة كما أصاب أولئك.(٢)

قال البيضاوي: وقد أصابهم ذلك فإنهم قد قُحطوا سبع سنين حتى أكلوا الجيف وقُتل ببدرٍ صناديدهم.(٣) وليسوا بفائتين من عذابنا، لا يعجزوننا هرباً ولا يفوتوننا طلباً.

ثم ردَّ عليهم زعمهم فيما أوتوا من المال وسعة الحال فقال: أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يوسِّع الرزق على قوم، ويضيّقه على آخرين ؟

فليس أمر الرزق تابعاً لذكاء الإنسان أو غبائه، إنما هو تابعٌ للقسمة والحكمة. إن في الذي ذكر لعبراً وحججاً لقوم يصدِّقون بآيات الله.

قال القرطبي: وخصَّ المؤمن بالذكر، لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون استدراجاً، وأن تقتيره قد يكون إعظاماً.(٤)

---

(١) تفسير الرازي ١٣ / ٢٧٠.

(٢) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٤ بتصرف.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥٦.

(٤) تفسير القرطبي ١٥ / ٢٦٧.



من هداية الآيات:

* بيان تتناقض أهل الكفر والجهل والضلال في كل حياتهم، لأنهم يعيشون على ظلمة الجهل والكفر.
* تقرير ما من مصيبة إلا بذنب جلي أو خفي كبير أو صغير.
* بيان أن بسط الرزق وتضييقه على الأفراد أو الجماعات لا يعود إلى حُب الله للعبد أو كرهه له، وإنما يعود لسنن التربية الإلهية وحكم التدبير لشؤون الخلق.
* أهل الإيمان هم الذين ينتفعون بالآيات والدلائل لأنهم أحياء يبصرون ويعقلون أما أهل الكفر فهم أموات، لا يرون الآيات ولا يعقلونها.
* تهديد الله تعالى للظالمين ووعيده الشديد بأنه سيصيبهم مثل ما أصاب غيرهم جزاء ظلمهم وكسبهم الفاسد.[1]

دعوة للرجوع إلى الله

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٣١ بتصرف يسير.

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما صور الله تعالى - فيما سبق - الحال المفزعة التي يكون عليها الظالمون يوم القيامة. عاد يفتح أبواب رحمته على مصاريعها بالتوبة. ويُطمع في رحمته ومغفرته أهل المعاصي مهما يكونوا قد أسرفوا في المعصية. ويدعوهم إلى الأوبة إليه غير قانطين ولا يائسين. (١)

سبب نزول الآيات:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تدعوا إليه لحسن، ولو تخبرنا أن لما عملناه كفارة؛ فنزلت هذه الآيـة: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾(٢).

التفسير الإجمالي

قل -أيها الرسول- لعبادي الذين تمادَوا في المعاصي، وأفرطوا في الجناية على أنفسهم بالمعاصي والآثام: لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته، لكثرة ذنوبكم. إنه تعالى يعفو عن جميع الذنوب لمن شاء، وإن كانت مثل زبد البحر؛ إنه سبحانه عظيم المغفرة واسع الرحمة.

وظاهر الآية أنها دعوة للمؤمنين إلى عدم اليأس من رحمة الله لقوله:﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ﴾(٣).

وقال ابن كثير: هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبارٌ بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً، لمن تاب منها، ورجع عنها، مهما كثرت. (٤)

ارجعوا إلى الله واستسلموا له بالطاعة والخضوع والعمل الصالح، من قبل حلول نقمته تعالى بكم، ثم لا تجدون من يمنعكم من عذابه.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٥٨.
(٢) رواه البخاري ١/ ١١٣ رقم ١٢٢.
(٣) التفسير الميسر ٨ / ٢٧١، صفوة التفاسير ٣/ ٨٥ بتصرف.
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٧.



والزموا أحسن كتاب أنزل إليكم وهو القرآن الكريم، فيه سعادتكم وفلاحكم، من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وأنتم غافلون، لا تدرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا.

لئلا تقول بعض النفوس التي أسرفت في العصيان: يا حسرتي وندامتي على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقه.

قال الإمام الشوكاني: واعلم أن هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله، لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولا: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي.. ثم عقب على ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة.. ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ ﴾

فالألف واللام قد صيرت الجمع الذى دخلت عليه للجنس الذى يستلزم استغراق أفراده فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان، إلا ما أخرجه النص القرآني وهو الشرك.

ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: ﴿ جَمِيعًا ﴾ فيالها من بشارة ترتاح لها النفوس.. وما أحسن تعليل هذا الكلام بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.[١]

وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه:

فى هذه الآية من أنواع المعانى والبيان أشياء حسنة: منها إقباله عليهم، ونداؤهم، ومنها: إضافتهم إليه إضافة تشريف، ومنها: الالتفات من التكلم إلى الغيبة، فى قوله: ﴿ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ ﴾، ومنها: إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى، ومنه: إعادة الظاهر بلفظه فى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ﴾ ومنها: إبراز الجملة من قوله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ مؤكدة بإن، والفصل، وبإعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الجملة السابقة.[٢]

قال مجاهد: يا حسرتا على ما ضيعت من أمر الله، وإنَّ الحال والشأن أنني كنت من

(١) فتح القدير ٤ / ٣١٠.

(٢) الفتوحات الإلهية ٣ / ٦١٢.



المستهزئين بشريعة الله ودينه.

لو أن الله هداني لاهتديت إلى الحق، وأطعت الله، وكنت من عباده الصالحين.

قال ابن كثير: يتحسر المجرم ويودُّ لو كان من المحسنين المخلصين، المطيعين لله عزَّ وجل[١].

أو تقول تلك النفس الفاجرة حين مشاهدتها العذاب: لو أنَّ لي رجعةً إلى الدنيا لأعمل بطاعة الله، وأُحسن سيرتي وعملي.

بلى قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل، وإنزاله الكتب فكذبت بالآيات، وتكبرت عن الإيمان، وكنت من الجاحدين[٢]. قال الصاوي: إن الكافر أولاً يتحسر، ثم يحتج بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا[٣]. ولو رُدَّ لعاد إلى ضلاله كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وهكذا يصور القرآن الكريم أحوال النفوس فى الآخرة، تصوير مؤثرا بليغاً، يحمل كل عاقل على الإيمان الصالح الذي ينفعه فى ذلك اليوم الهائل الشديد.

من هداية الآيات:

* بيان فضل الله ورحمته على عباده بقبول توبة العبد إن تاب مهما كانت ذنوبه.
* دعوة الله الرحيم إلى عباده المذنبين - بالإنابة إليه والإسلام الخالص له.
* تقرير البعث والجزاء بذكر ما يحدث فيه وما يجري في ساحته من أهوال.
* وجوب تعجيل التوبة والمبادرة بها قبل حلول العذاب في الدنيا أو الموت.
* الترغيب في الأخذ بالعزائم وترك الرخص لغير ضرورة.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٧.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٦.

(٣) حاشية الصاوي ٣/ ٣٣٧.

* إبطال مذهب الجبرية الذين يرون أنهم مجبورون على فعل المعاصي وغشيان الذنوب كقول أحدهم: لو أن الله هداني لفعلت كذا أو تركت كذا. (١)

* رحمة الله تعالى بالخلق، حيث أعذر إليهم وحذرهم.

أحوال الناس يوم القيامة، ودلائل ألوهية الله ووحدانيته

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة وعن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن تلقين الله - تعالى - لنبيه ﷺ الجواب الذى يرد به على المشركين.

ويوم القيامة ترى أيها المخاطب الذين كذبوا على الله - بنسبة الشريك له والولد- وجوههم سوداء مظلمة بكذبهم وافترائهم. أي أليس في جهنم مقام ومأوى للمستكبرين عن الإيمان، وعن طاعة الرحمن ؟ بلى إنَّ لهم منزلاً ومأوى في دار الجحيم. (٢)

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٣٣.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٦.



ولما ذكر حال الكاذبين على الله، ذكر حال المتقين لله فقال: وينجي الله المتقين بسبب سعادتهم وفوزهم بمطلوبهم، وهو الجنة دار الأبرار، لا ينالهم هلعٌ ولا جزع، ولا هم يحزنون في الآخرة، بل هم آمنون.

ثم عاد إلى دلائل الألوهية والتوحيد، بعد أن أفاض في الوعد والوعيد فقال: الله جل وعلا خالق جميع الأشياء وموجد جميع المخلوقات، والمتصرف فيها كيف يشاء، لا إله غيره ولا ربَّ سواه هو القائم بتدبير كل شيء بيده جل وعلا مفاتيح خزائن كل الأشياء، لا يملك أمرها ولا يتصرف فيها غيره.

والذين كذَّبوا بآيات القرآن الظاهرة، والمعجزات الباهرة، أولئك هم الخاسرون أشدَّ الخسران.

قل يا محمد أتأمرونني أن أعبد غير الله بعد سطوع الآيات والدلائل على وحدانيته يا أيها الجاهلون ؟

قال ابن كثير: إن المشركين من جهلهم دعوا رسولَ الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه فنزلت الآية. [١]

ولقد أوحى إليك ربك وإلى الأنبياء قبلك لئن أشركت يا محمد ليبطلنَّ ويفسدنَّ عملك الصالح، ولتكونَنَّ في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك.

وهذا على سبيل الفرض والتقدير. وإلاّ فالرسول ﷺ قد عصمه الله، وحاشا له أن يشرك بالله، وهو الذي جاء لإقامة صرح الإيمان والتوحيد. [٢]

قال أبو السعود: والكلام واردٌ على طريقة الفرض لتهييج الرسل، وإقناط الكفرة،

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٨.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٨٧.



والإِيذان بغاية شناعة الإِشراك وقبحه.[١]

أخلص العبادة لله وحده، ولا تعبد أحداً سواه. وكن من الشاكرين لإِنعام ربك.

وما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه، قال أبو حيان: أي ما عظموه حق تعظيمه، وما قدروه في أنفسهم حق تقديره، إذ أشركوا معه غيره، وساووا بينه وبين الحجر والخشب في العبادة. !

وما عظَّموا الله حقَّ تعظيمه، والحال أنه موصوف بهذه القدرة الباهرة، التي هي غاية العظمة والجلال. فالأرضُ مع سعتها وبسطتها يوم القيامة تحت قبضته وسلطانه، والسماوات مضمومات ومجموعات بقدرته تعالى.

أخرج الترمذي وصححه، عن ابن عباس قال: مرّ يهودي بالنبي ﷺ فقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه- أي على إصبع -، والأرضين على ذه - أي على إصبع -، والماء على ذه - أي على إصبع - والجبال على ذه - أي على إصبع -، فأنزل الله:﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ الآية.[٢]

والسلف يقولون: إن الكلام هنا تنبيه على مزيد جلالته - تعالى -. إلا أنهم لا يقولون إن القبضة مجاز عن الملك أو التصرف، ولا اليمين مجاز عن القدرة، بل ينزهون الله - تعالى - عن الأعضاء والجوارح، ويؤمنون بما نسبه - تعالى -: إلى ذاته بالمعنى اللائق به الذى أراده - سبحانه - وكذا يفعلون فى الأخبار الواردة فى هذا المقام.

وفي الصحيح عن ابن مسعود قال: جَاءَ حَبْرٌ مِنْ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالثَّرَى

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٣١٤.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٣٧١. رقم ٣٢٤٠. وقال الألباني: صحيح. يراجع: صحيح الترمذي ٣/ ٩٩ رقم ٢٥٨٤.



عَلَى إِصْبَع وَسَائِرَ الْخَلَائِق عَلَى إِصْبَع فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الْحَبْرِ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾»[1].

وعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ»[2].

من هداية الآيات:

* اسوداد الوجه يوم القيامة علامة الكفر والخلود في جهنم.
* ابيضاض الوجوه يوم القيامة علامة الإيمان والخلود في الجنة.
* تقرير البعث والجزاء بوصف أحواله وما يدور فيه.
* بيد الله كل شيء فلا يصح أن يُطلب شيء من غيره أبدا، ومن طلب شيئاً من غير الله فهو من أجهل الخلق.
* التنديد بالشرك وبيان خطورته إذْ هو محبط للأعمال بالكلية.
* وجوب عبادة الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ووجوب حمده وشكره إذ كل إنعام منه وكل إفضال له. فلله الحمد والمنة. [3]

---

(١) صحيح البخاري ١٥ / ١٤.
(٢) صحيح البخاري ١٥ / ١٦.
(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٣٥.

نفختا الصور وأهوال الآخرة

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما جاء الحديث فيما سبق عن قدرة الله تعالى وعظيم قدره، أتبعه هنا ببيان كمال هذه القدرة، وتمام هذه العظمة.

التفسير الإجمالي

تذكر الآيات الكريمة هنا بعض أهوال الآخرة وأحوالها، كما تعرض لبعض مظاهر القدرة التي يتنافى معها عقلاً وجود من يستحق العبادة معه سبحانه وتعالى.

والنافخ في الصور أي البوق إسرافيل قطعا إذْ هو الموكل بالنفخ في الصور فإذا نَفخ هذه النفخة صعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فهذا استثناء دال على أن بعضا من المخلوقات لم يصعق في هذه النفخة، ثم نفخ في الصور نفخة ﴿ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ وهذه النفخة تسمى نفخة القيام لله رب العالمين لأجل الحساب. [(١)]

وأضاءت أرض المحشر بنور الله يوم القيامة، حين تجلى الباري جل وعلا لفصل القضاء بين العباد، وأحضرت صحائف أعمال الخلائق للحساب، وجيء بالأنبياء ليسألهم رب العزة عما أجابتهم به أممهم وبالشهداء وهم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم. وقال السدي: هم الذين استشهدوا في سبيل الله. [(٢)]

وقُضي بين العباد جميعاً بالقسط والعدل وهم في الآخرة لا يُظلمون شيئاً من أعمالهم، لا

(١) أيسر التفاسير للجزائري ٣/ ٤٣٦.

(٢) يراجع: مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٩.



بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب.

قال ابن جبير: لا يُنقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم، بل جوزي كل إنسانٍ بما عمل من خيرٍ أو شر. وهو تعالى أعلم بما عمل كل إنسان، ولا حاجة به إلى كتاب ولا إلى شاهد، ومع ذلك تشهد الكتب إلزاماً للحجة. (١)

من هداية الآيات:

* تقرير البعث والجزاء بيان أحواله.
* بيان عدالة الله في قضائه بين عباده في عرصات القيامة.
* فضيلة هذه الأمة بقبولها شاهدة على الأمم التي سبقتها. (٢)

مآل الأشقياء والسعداء

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى - فيما سبق - أحوال أهل القيامة على سبيل الإجمال فقال:﴿ وَوُفِّيَتۡ

---

(١) صفوة التفاسير، للصابوني ٣/ ٨٨.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٣٧.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ بين بعده كيفية أحوال أهل العقاب، ثم كيفية أحوال أهل الثواب، وختم السورة. (١)

التفسير الإجمالي

بعد الفراغ من الحكم على أهل الموقف، وذلك بأن حكم تعالى فيهم بحسب عملهم فوفّى كل عامل بعمله، من كفر ومعاصٍ، أو إيمان وطاعة، قال تعالى مخبراً عن مصير الفريقين:

وسيق الذين كفروا بالله ورسله إلى جهنم جماعات، حتى إذا جاؤوها فتح الخزنة الموكَّلون بها أبوابها السبعة، وزجروهم قائلين: كيف تعصون الله وتجحدون أنه الإله الحق وحده ؟ ألم يرسل إليكم رسلا منكم يتلون عليكم آيات ربكم، ويحذِّرونكم أهوال هذا اليوم ؟ قالوا مقرين بذنبهم: بلى قد جاءت رسل ربنا بالحق، وحذَّرونا هذا اليوم، ولكن وجبت كلمة الله أن عذابه لأهل الكفر به. (٢)

قال القرطبي: وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم، والمراد بكلمة العذاب قوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩]. (٣)

قيل لهم ادخلوا جهنَّم لتصلوا سعيرها ماكثين فيها أبداً، بلا زوال ولا انتقال فبئس المقام والمأوى جهنم للمتكبرين عن الإيمان بالله وتصديق رسله.

وسيق الأبرار المتقون لله إلى الجنة جماعاتٍ جماعات راكبين على النجائب، قال القرطبي: سوقُ أهل النار طردُهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالمجرمين الخارجين على السلطان، وسوقُ أهل الجنان سوقُ مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان، لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين،

---

(١) تفسير الرازي ١٣ / ٢٩٠.
(٢) يراجع: التفسير الميسر ٨ / ٢٨٩، أيسر التفاسير للجزائري ٣ / ٤٣٨.
(٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٨٥.



كما يفعل بالوافدين على الملوك، فشتَّان ما بين السوقين. [١]

حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابُها كقوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ ﴾ [ص: ٥٠]. قال الصاوي: والحكمةُ في زيادة الواو هنا « وفُتحت » دون التي قبلها، أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم، فتفتح لهم ثم تُغلق عليهم، بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها. [٢]

وقال لهم حراس الجنة: سلامٌ عليكم أيها المتقون الأبرار طهرتم من دنس المعاصي والذنوب، فادخلوا الجنة دار الخلود.

قال البيضاوي: وجواب « إذا » محذوف، للدلالة على أنَّ لهم من الكرامة والتعظيم، ما لا يحيط به الوصف والبيان. [٣]

قال ابن كثير: وتقديره إذا كان هذا سُعِدوا، وطابوا، وسُرّوا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من النعيم. وقالوا عند دخولهم الجنة واستقرارهم فيها: الحمد لله الذي حقَّق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة. [٤]

قال المفسرون: والإشارة إلى وعده تعالى لهم بقوله: ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ۝٦٣ ﴾ [مريم: ٦٣].

وملَّكنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في ملكه، وننزل فيها حيث نشاء، لا ينازعنا فيها أحد، فنعم أجر العاملين بطاعة الله الجنة.

وترى الملائكة محيطين بعرش الرحمن، محدقين به من كل جانب، يسبحون الله ويمجدونه،

---

(١) المرجع السابق، نفس الموضع.

(٢) حاشية الصاوي ١٣ / ٣٨١.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤٧.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٣٢.



تلذذاً لا تعبداً. وقُضي بين العباد بالعدل. وقيل: الحمد لله على عدله وقضائه. [١]

قال ابن كثير: نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل، بل أطلقه؛ فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له سبحانه بالحمد. [٢]

وهكذا تنتهي جولات هذه السورة الكريمة ومقاطعها وآياتها بهذا الختم الرائع المؤثر، وبهذه الكلمات القوية المعبرة. وتنتهي القضية الكبرى بالقضاء العادل. وتختم السورة الكريمة بالحمد لله رب العالمين.

من هداية الآيات:

* بيان إهانة أهل النار بسوقهم إليها بعنف وإذلال.
* التنديد بالاستكبار عن عبادة الله تعالى.
* بيان إكرام الله تعالى لأوليائه، إذ يُحملون على نجائب رحالها من ذهب إلى الجنة، ويلقون فيها تحية وسلاما. تحية احترام وإكرام، وسلام أمان من كل مكروه.
* بيان نهاية الموقف باستقرار أهل النار من الكفار والفجار في النار، واستقرار أهل الجنة من المؤمنين الأتقياء الأبرار في الجنة دار الأبرار.
* ختم كل عمل بالحمد فقد ابتدأ الله الخالق بالحمد فقال الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وختم القضاء بين خلقه بالحمد، وقيل الحمد لله رب العالمين. [٣]

وأخيرا.. فهذه سورة الزمر، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان. ولكن حسبي أني حاولت

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٨٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٢.

(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٣٩ بتصرف يسير.

واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة الزمر

احتوت سورة الزمر على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:

* بيان إفضال الله تعالى على العباد في خلقهم ورزقهم.
* بيان غنى الله تعالى عن خلقه وافتقار الخلق إليه.
* بيان عدالة الله تعالى يوم القيامة وتقريرها.
* بيان إحاطة علم الله بالخلق، وعلمه بأفعالهم وأحوالهم ظاهراً وباطناً.
* الكشف عن طبيعة الإنسان قبل أن يهذبه الإيمان وهو أنه إنسان متناقض لا خير فيه ولا رشد له، فلا يرشد ولا يكمل إلا بمعرفة الله.
* فضل العالم على الجاهل لعمله، ولولا العمل بالعلم لاستويا في الخسّة والانحطاط.
* بيان عناية الله تعالى برسوله والمؤمنين إذ أرشدهم إلى ما يكملهم ويسعدهم أكبر المصائب الحرمان من الجنة. وأعظم الخسران خسران النفس والأهل يوم القيامة.
* فضيلة أهل التمييز والوعي والإدراك الذين يميزون بين ما يسمعون فيتبعون الأحسن ويتركون ما دونه.
* بيان أن القرآن أحسن ما يحدث به المؤمن إذ أخباره كلها صدق وأحكامه كلها عدل.
* فضيلة أهل الخشية من الله؛ إذ هم الذين ينفعلون لسماع القرآن فترتعد فرائصهم عند سماع وعيده، وتلين قلوبهم وجلودهم عند سماع وعده.
* تقرير كفاية الله وولايته لعباده المؤمنين، وخاصة ساداتهم من الأنبياء والأولياء.
* بيان أن بسط الرزق وتضييقه على الناس لا يعود إلى حُب الله للعبد أو كرهه له، وإنما يعود

لسنن التربية الإِلهية وحكم التدبير لشؤون الخلق.

* أهل الإِيمان هم الذين ينتفعون بالآيات والدلائل، لأنهم أحياء يبصرون ويعقلون أما أهل الكفر فهم أموات لا يرون الآيات ولا يعقلونها.

* بيان فضل الله ورحمته على عباده بقبول توبة العبد إن تاب مهما كانت ذنوبه.

* دعوة الله الرحيم إلى عباده المذنبين - بالإنابة إليه والإِسلام الخالص له. تقرير البعث والجزاء بذكر ما يحدث فيه وما يجرى في ساحته من أهوال وجوب تعجيل التوبة والمبادرة بها قبل حلول العذاب في الدنيا أو الموت والموت أدهى وأمر حيث لا تقبل توبة بعد الموت أبداً.

* فضيلة هذه الأمة بقبولها شاهدة على الأمم التي سبقتها.



سورة غافر

بين يدي السورة

أسمها وفضائلها.. محور السورة

الحمد لله رب العالمين.. والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه ومن دعا بدعوته وسار على نهجه واتبع هداه إلى يوم الدين.

أسماء السورة

وسورة غافر وتسمى كذلك سورة المؤمن، (فقد روى الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ حم المؤمن إلى إليه المصير وآية الكرسي حفظ بهما - وكذا ترجمها البخاري)[1].

عدد آيات السورة

وهي من السور المكية وقيل: إن بعض آياتها مدنية وضعفه أغلب القراء، وآياتها (٨٥) خمس وثمانون آية في الكوفي، وعند البصريين اثنتان وثمانون آية، وفي الحجازي أربع وثمانون آية، وكذا في المصحف الشامي[2].

واختلاف عدد آيات السور بين القراء ناجم عن أن بعض القراء يصل الحروف المستقلة بالآية التي تليها من حيث أن آخرين يعتبرونها آية مستقلة، كما أن في ثنايا بعض السور تعتبر بعض الوقفات آيات مستقلة عند بعض القراء.

قلت أن سورة غافر من السور المكية، والسور المكية لها صفات تميزها عن السور المدنية إن كان في البناء اللغوي أو الموضوعات.

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ١٧٥ برقم ٢٨٧٩.

(٢) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ص: ١٤٤٥.



وإن أجملنا القول فإن السور المكية سور دعوة لتكوين مجتمع ليس له مثال في الواقع فيلزم أن ترسم صورة ذهنية واضحة المعالم في عقل المدعو لذلك المجتمع، في بنائه الفكري، في عقيدته، في أهدافه، في المنهج الذي يعتمدونه في حياتهم ويسيرون عليه في تحقيق أهدافهم، في علاقة أفراده ببعضهم وفي علاقتهم أفراداً ومجتمع بمن يخالفهم في الفكر والعقيدة.

كما أن الخطاب في السور المكية موجه للمشركين بغية هدايتهم وفي اعتبار الداعية أن بعضهم يحكمه العقل والمنطق وآخرين يخالفون عناداً ومغالطة وتكبراً، فتكون عبارة القرآن المكي قصيرة وتحمل معان كبيرة مهمة ومجملة.

فيكون هذا هو واقع السور المكية فنجد بعض الذين اسلموا أو كلهم يتجه إلى الدعوة ويُقبل عن عقل سليم ودراية، والذي يرفض غالباً ما يكون مغالطاً يدفعه التكبر وما هو فيه من مركز اجتماعي يحقق له مصالح اجتماعية واقتصادية وشهوات نفسية لا يريد التفريط بها.

ولذا فإن السور المكية تؤكد على وحدانية الله رباً وإلهاً وخالقاً وفاعلاً في الكون وأن هناك حياة بعد الموت، وأن الله أرسل رسلاً يعلمون الناس مالهم وما عليهم بما يريد الله منهم، وسيحاسب من أرسل إليهم الرسل فيعاقب عاصيهم ويكافئ بالحسنى طائعهم فيما أعد لهم في الحياة الآخرة. وهذه هي الأسس الرئيسية للعقيدة.

مرحلة نزولها

وسورة غافر المكية هي أول سبع سور تبدأ بحرفي﴿ حمٓ ﴾ فتسمى ذوات الحاميم أو آل الحاميم أو الحواميم وقد وردت هذه الأسماء في أحاديث وأخبار عن الرسول ﷺ وعن الصحابة رضي الله عنهم فلا عبرة لمن كره هذه الأسماء أو بعضها. وكان ترتيبها في النزول ٦٠، فتكون قد نزلت بعد ٥٩ سورة، وقد قرأ بعضها أبو بكر الصديق ؓ حينما آذى المشركون رسول الله ﷺ بأن خنقه ابن أبي معيط خنقاً شديداً فقال ؓ وهو يكفهم عن الرسول ﷺ ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨]. وهذه الحادثة بعد وفاة ابي طالب أي يقرب من السنة الثامنة للبعثة أو قبل الهجرة بثلاث سنين تقريباً.

وقد وردت أحاديث في فضائل الحواميم جملة، ومنها في حديث طويل عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله أعطاني..... وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي)[1].

وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (الحواميم ديباج القرآن)[2].

وروى أبو داود والترمذي عن المهلب بن أبي صفرة قال حدثني من سمع النبي ﷺ يقول: (إن بيتم الليلة فليكن شعاركم: حاميم لا ينصرون)[3].

وهناك أحاديث غير ما ذكرنا في فضائل الحواميم جملة أما الأحاديث الخاصة في سورة غافر فلم يصح الا ما روي ان عمر بن الخطاب ﷺ استعان بمطلعها على هداية شخص وهو:

روى ابن أبي حاتم عن يزيد قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب ﷺ ففقده عمر فقال: ما فعل فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب فقال فدعا عمر كاتبه فقال: اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ ثم قال لأصحابه ادعو الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه، فلما بلغ الرجل كلام عمر بن الخطاب ﷺ، جعل يقرأه ويردده ويقول: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي. ورواه أبو نعيم وزاد فلم يزل يردده على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع فلما بلغ عمر خبره قال هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زل زلة فسددوا ووثقوه وادعوا الله أن يتوب عليه ولا تكونوا عوناً للشيطان عليه)[4].

---

(١) أخرجه محمد بن نصير وابن مردويه – فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، ج:٤، ص: ٦٢٦.

(٢) فتح القدير ج ٤/ ص٦٢٦.

(٣) فتح الجواد الكريم في اختصار تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير.

(٤) فتح الجواد الكريم ج٤/ ص٧٦ عن الدر المنثور والحلية.

ذكر سيد قطب رحمه الله أن السورة تمثل الصراع بين الحق والباطل وأيده الصابوني وأضيف أنه الصراع العقلي ففي مكة ليس لديهم سلاح إلا العقل والمنطق.

والذي اراه أنها يتمثل بها السند العقلي الذي يعتمده المسلمون في الدفاع عن عقيدتهم كما أنها تذكر حجج المشركين أو واقعهم.

ولذا فإن محور السورة هو السند العقلي الذي يعتمده كل من الفريقين المتخاصمين في الدفاع عن عقيدته، وأدب الحوار بين المختلفين.

فكما سنرى أن جميع آيات السورة تدور حول هذا المحور وتتجلى بها حجج المتجادلين. وعليه فإن محور السورة هو:

الصراع العقلي بين الحق والباطل وأدب الحوار

واستدلال المؤمنين بالسنن الكونية والتاريخ الإنساني في مصارع الطغاة ومصير الظلمة أمماً وأفراداً وإبراز نصر الله لدعاته والمؤمنين بشريعته وعقيدته المدافعين عنها أن في المحاججة أو الوسائل المتاحة في كل عصر. وفي كل مجتمع بما يناسبه، وفي السورة يبرز دعاء الملائكة للمؤمنين وتوسلهم إلى ربهم بغفران ذنوب مؤمني البشر وإدخالهم الجنة مع أزواجهم وذريتهم الصالحين.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

أن المسلم يتحرى رضاء الله وغفرانه عنه في الدفاع عن عقيدته والدعوة لها فيأتي بالحجج والبراهين التي بيّنها الله عز وجل في القرآن الكريم.

فيخاصم ويحاجج في سبيل رضاء الله وابتغاء غفرانه. فسميت سورة غافر أو سورة المؤمن إذ تتجلى صورة المؤمن وأدبه في حوار المشركين أو الذين يبتغي هدايتهم.

علاقة السورة (سورة غافر) بما قبلها

آخر سورة الزمر وعلاقتها بسورة غافر

والتي تليها سورة غافر والعلاقة بينهما واضحة حيث الكلام على أهل الجنة وكيف يدخلونها وصورة غافر تبين أن الله غفر ذنبهم وقبل توبتهم فقوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

يتلائم مع مقدمة سورة غافر كما أن الحديث قبل هذه الآيات عن الذين سيقوا إلى جهنم.

فيكون الحديث ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ **فكأنه يفرض سؤالاً عن سورة الزمر وهو: كيف كان؟ فيجاب هذا هو مصيرهم الذي أدى إليه عملهم والذي قرره الله لهم، وفي سورة غافر الدفاع العقلي عن عقيدة المسلمين ضد حجج المشركين فيكون آخر سورة الزمر أو موضوع سورة الزمر نتيجة لما قدمه المؤمنون من مقابلة المشركين بالحجج فهذه السورة تبين ما أوصل المؤمنين إلى الجنة وما أوصل المشركين إلى النار.**

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها

أنها بدأت بقوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

وفي خاتمتها يذكر الله عز وجل أنهم لما رأو بأسه قالوا: آمنا وهذه في الآخرة وهذا الايمان لاينفع لأن الله عزوجل جاءهم بكل ما يؤدي إلى الايمان والتوبة في الحياة الدنيا فلما أصروا على كفرهم كان مصيرهم إلى العذاب والنار فلاتنفع عندئذ التوبة ولا الإيمان.

المقدمـــة

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

ولقد ذكر في المقدمة أن الله قسم الناس إلى قسمين بناء على موقفهم من الدعوة؛ ذكر الله جل وعلا أنه قابل التوب وغافر الذنب لأن كل ابن آدم خطاء فمن عرف خطأه وعاد إلى الطريق المستقيم الذي رسمه له فيتجاوز عن خطئه ويقبل عودته وهو شديد العقاب للذين يصرون على كفرهم وعنادهم.

وهذه المقدمة للمتجادلين فالذي يظهر له الحق ويتوب إليه والذي يصر مستكبرا معاندا مغالطاً.

التفسير الاجمالي

تبدأ سورة غافر بمقدمة هي بمثابة مقدمة الكتاب فاختصر وصف ما في السورة ومنهجه وغايته.

﴿ حمٓ ﴾ أرجح الآراء على أنها والحروف التي في أوائل السور دليل إعجاز أو صورة تحدي للمشركين أن يأتوا بمثل هذا القرآن المتكون من هذه الحروف والذي حمله نبي أمي عن ربه عز وجل.

هذا المنهج تنزيل من الله الذي لا يصل إليه مخلوق بقوة ولا بعقل ولا يمتنع عنه مخلوق بأي وسيلة، هذا الكتاب الذي يحوي هذا المنهج وهذا الطريق الحق الواضح نزله من يعرف ماذا يريد خلقه وما يصلح لهم وما يصلحهم.﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

هو الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما يريد وهو الذي ركب به ما يطيع به وما يعصى به فهو الذي كلفه ويعلم أن أغلب أفراده لن يقوموا قياماً صحيحاً فيما كلفوا به ولا يؤدونه كما ينبغي فجعل لهم طريقاً يعودون به إليه ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ لمن استغفروا وقابل التوبة التي يعودون بها

إلى الله وإلى الطريق الذي يوصلهم إليه والتوبة: الرجوع من الفعل القبيح إلى الفعل الجميل ومن أركانها الندم على الفعل والإقلاع عنه والعزم على عدم العود والعمل الصالح وهو مع قبوله التوبة عن عباده النادمين على خطئهم هو شديد العقاب لمن أصر على ذنبه وعاند في أمر ربه وتمادى في طغيانه ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾.

وأنه قادر على معاقبتهم فهو ذو النعم وذو المقدرة على المجازاة التي من جنس عمل العباد ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ صاحب المن والفضل والغنى والقادر عليها.

فلا متصرف بالكون سواه ولا تجب طاعة غيره ولا مقدرة لأحد أن يضع طريقاً يصلح للعباد ويصلحون به سواه عز وجل فهو ذي الطول (النعم والمقدرة) ولا إله غيره.

وسيؤول الناس إليه حتماً يوم القيامة فلا مفر لهم من الحساب ولا طريق لهم عن المساءلة والوقوف بين يديه. (إليه المصير).

علاقة المقطع بمحور السورة:

فالسورة كلها تتكلم عن طريقين وعن فريقين كل يدافع عن طريقه ومنهجه وهذان المنهجان يؤديان إلى وجوب العقوبة واستجلاب الغفران.

فقد أجملت هذه المقدمة هذين الطريقين وغايتيهما والسبيل إلى أي منهما ومصير متبعي الطريقين.

فمن هداية الآيات:

* إن الله جل وعلا هو المصدر الوحيد للقرآن الكريم فيكون تصديقاً لنبوة الرسول ﷺ.
* وأنه تعالى رسم طريقين للإنسان أيهما شاء وأعطاه الحرية في إتباع أحدهما وهذان الطريقان هما الصلاح والفساد ودلل عليهما بنتائجهما وهو غافر الذنب لمن أراد لنفسه الصلاح وهو يقبل عودة عباده إلى الطريق السليم إن أسرفوا على أنفسهم وظلموها بالعصيان ثم استغفروا وهو شديد العقاب لمن تمادى في غيه حتى نهايته فمات كافراً.

* هذا التقرير من لطف الله عز وجل بعباده لأنه لم يغلق أمامهم طريق الصلاح إن تركوه فترة في حياتهم ثم عادوا إليه تائبين.

نشاط المشركين العقلي ضد الرسل

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾

علاقة المقطع بما قبله

آيات المقدمة قسمت الناس إلى قسمين وهذه الآيات بينت عقيدة أحد هذين الفريقين وكيف ينظرون إلى الدلائل التي تبين العقيدة الصحيحة ولقد وضع الله عزوجل في هذه الآيات قاعدة ثابتة وهي أن الذين يتصدون لنقاش آيات الله ومحاولة تكذيبها والتشكيك بها هم الكفار أصلاً والذين أغلقو قلوبهم وعقولهم عن الحق وأنهم ليسو بدعاً في البشر فإن جميع الرسل واجهوا هذا النوع من البشر، وقد بين الله للمسلمين أن تنعم هؤلاء ليس تكريماً لهم.

التفسير الإجمالي

يبدأ الصراع والمحاجة بذكر موقف المشركين وجدلهم الذي يريدون فيه التكذيب والمماحكة ولا يريدون فيه محاولة فهم الطرف الآخر والانصياع إلى حقه إن كان عنده حق وتصحيح توجهه إن كان عنده خطأ ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾.. فيستخدمون مراكزهم الاجتماعية ونفوذهم وثرواتهم في صد الناس عن الإيمان، فنبه الله نبيه ﷺ إلى هذه الناحية ﴿ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ فإن تمتعهم بالدنيا وحيازتهم أسبابها أو أسباب التمتع بها لن يعفيهم من سوء المنقلب وسوء المصير، وهذه المراكز وهذه الحيثيات لا تجعلهم على الحق

ولا تؤهل باطلهم ليغلب الحق الذي جئت به. ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

سبب نزول هذه الآية: انها نزلت في الحارث ابن قيس السهمي لانه كثيراً ما كان يحاول رد دعوى المؤمنين.

فقد مضت سنة الله في الذين كذبوا الرسل وعاندوا الحق وغالطوا في جدالهم وتكذيبهم ثم حينما أعيتهم الحيل ولم يجدوا ما يدفعون به الحق حاولوا قتل رسلهم ومنهم من قتل الرسل الذين جاؤوا بالحق، فبني إسرائيل قتلوا يحيى وزكريا، فإن من معاني الأخذ (الإهلاك) فهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه أي ليقتلوه.

ولكن الله يدافع عن رسله فأخذهم أخذ عزيز مقتدر وأهلكهم ولم يصلوا إلى رسلهم الذين منعهم الله منهم. ولم يقصر إهلاكهم أو عذابهم على الدنيا ولكن الله أعد لهم عذاب الآخرة ومن الأحزاب هم الذين تضافروا لمحاربة أهل الحق وتحزبوا لباطلهم.

وقد أخذهم الله وعذبهم وأهلكهم بما يستحقونه ولم يظلمهم فقد حقت﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ والحق هو الثابت الواجب الصحيح. فقد وجب لهم العذاب وهم أهل له، فهم أصحاب العذاب في الدنيا بأيدي المؤمنين وهم أصحاب النار في الآخرة.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك ﷺ في قوله ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ نزلت في الحرث بن قيس السلمي[١]. كما بينا عن أبي هريرة ﷺ: (الجدال في القرآن كفر)[٢]. وعنه قال ﷺ: (مراء في القرآن كفر)[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق: من

(١) [الدر المنثور في التفسير المأثور]جلال الدين السيوطي ج٧/ ص٢٧٢

(٢) الدر المنثور ج٧/ ص٢٧٢

(٣) الدر المنثور ج٧/ ص٢٧٢



أعان باطلاً ليدحض بباطله حقاً فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله ﷺ).

علاقة المقطع بمحور السورة

ان هؤلاء المصرين على الباطل يحاولون دعم باطلهم بالمنطق الأفلج والجدل العقيم وقد حرم الله هذا النوع من الجدل.

ومن الهداية في الآيات:

* إن الصراع بين الحق والباطل بين الصلاح والفساد محتدم منذ أن خلق الله الأرض وأنزل عليها آدم ونزل معه إبليس.
* فتذكر الآية أن نوح عليه السلام وهو أول رسول إلى قومه وإلى المجموعة الإنسانية فإنهم كذبوه وجادلوه بالباطل وقالوا ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ التي تعبدونها من دون الله.
* فلا يضيق صدر المؤمن الداعية إن واجه دعاة الشر أو وقف أمامه دعاة الفساد. وحاربوه بكل الطرق وبجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة فإنهم سرعان ما يتنكروا للمبادئ التي يعلنون تمسكهم بها إذا تعارضت مع مصالحهم أو جاءت لصالح المسلمين.

إعانة المسلمين على التصدي للمشركين

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

علاقة المقطع بسابقه

بعد أن بين الله سبحانه جدل المشركين ودفاعهم عن باطلهم طمأن المسلمين أن الملائكة تكون لهم عوناً في تصديهم للباطل وتفنيد دعواته وأدعيائه.

وهم يستغفرون للمؤمنين ويطلبون لهم العون من الله ويطلبون لهم الجنة وهم ليسوا أي من الملائكة وإنما هم من الملائكة المقربين ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ ﴾

التفسير الاجمالي

الذين يحملون العرش هم الملائكة وهم من خلق الله المؤمنين به والذين ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦] - والعرش خلق من خلق الله (ونحن لا نعرف ما العرش ولا نملك صورة له ولا نعرف كيف يحمله حملته ولا كيف يكون من حوله حوله. ولا يمكن أن يدخل في تصورنا وخيالاتنا.. ولا جدوى من الجري وراء صورة ليس من طبيعة الإدراك البشري أن يلم بها، ولا من الجدل حول غيبيات لم يطلع الله احداً من المتجادلين عليها)[1].

ولكننا نعلم أن هناك خلق من خلق الله يحملون العرش، هؤلاء مؤمنون ويرجون الله إمداد مؤمني البشر وإعانتهم ويتقربون إلى الله لهذه الإعانة بالثناء عليه بقدرته وعلمه ورحمته

(١) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج٥/ ص٣٠٧٠



هذه التي وسعت كل شيء واحتوته وعلمت ما يصلح له ويصلح به. وهي صورة من صور أدب الدعاء بتقديم الثناء لله بما هو أهله، فيا ربنا إن هؤلاء عبادك وقد كلفتهم بالدعوة إلى دينك وإعلاء كلمتك فلابد للعامل من الخطأ فاغفر له ولا تؤاخذه على خطئه وأعنه على سلوك الطريق المستقيم واهده إلى أقرب الطرق إلى النصر والشهادة التي ينالون بها أعلى الدرجات في الآخرة لأنهم (اتبعوا سبيلك).

ويا ربنا أدخلهم جناتك التي بها مستقرهم واجمعهم مع صالحي أهلهم فهي سعادة أخرى مع سعادتهم بجناتك. فإنك أنت الذي لا ينال أحد ما يريد لعباده ولا يصل إلى إرادته غيره وأنت الذي تضع الأمور بمواضعها التي هي أهلاً لها فإنك ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

ربنا وجنبهم ما يغضبك ووفقهم لفعل الخير وتجنب الشر فإن أعنتهم على طاعتك واجتناب معاصيك فإنهم نجوا مما يؤذيهم وأدركوا أمانيهم﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

فإن رحمتك وسعت كل شيء وعلمك أحاط بعملهم وبنيتهم فإنهم اتبعوا سبيلك وساروا على نهجك وجاهدوا لإعلاء كلمتك ورفع رايتك وأنت أعلم بما في قلوبهم وبما يريدون، وهو انتصار الفريق المؤمن وإعانتهم على التغلب على الفريق الآخر وهو فريق المشركين المعاندين وتبقى السورة حول محورها والانقسام الواضح بين المتحاورين.

علاقة المقطع بمحور السورة

في هذه الآيات يشير الله عز وجل إلى أحد الفريقين وهم الذين يدافعون عن عقيدتهم التي رسمها لهم القرآن الكريم وإعانة الملائكة لهم في حوارهم ومنافحتهم عن عقيدتهم

ومن الهداية في الآيات:

* وحدة المؤمنين واتحاد مشاعرهم ودفاع بعضهم عن بعض واعتبارها من دواعي الإيمان أومن دلائله مصداقاً لقوله ﷺ: (**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**).

* كما أن الآية تبشر المؤمنين في الأرض أن الملائكة تستغفر لهم وتكون لهم عوناً على اتباع الطريق السليم وتجنب ما نهى الله عنه.

مصير المشركين وندمهم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾.

علاقة المقطع بما قبله

بعد أن بين الله عز وجل في الآيات السابقة استغفار الملائكة للمسلمين أظهر التمايز بين الفريقين لأن الملائكة التي تستغفر للمؤمنين هم الملائكة المقربون ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ ﴾

بين الله سبحانه في هذه الآيات مقته للكافرين الذين أصروا على كفرهم حتى بعد بيان الحق والعدل والصواب وبين الله لهم أنه اكثر بغضاً لهم من بغضهم لأنفسهم يوم القيامة حينما يرون العذاب ويندمون على فعلهم في الدنيا واتباع شهواتهم.

التفسير الاجمالي

ثم حينما رأوا أنفسهم في النار ندموا أشد الندم وحقدوا على أنفسهم وحنقوا عليها لأنها سلكت كل السبل حتى تدفع الحق الذي جاء به الرسل، فيقال لهم يوم القيامة أن الله حنق عليكم وأبغضكم أكثر من بغضكم أنفسكم فإنه حينما أرسل رسله بالحق وتشهد لهم كل السنن الكونية والقوانين الإلهية وفطرة الإنسان ونزعاته الأصيلة ومع هذا كفرتم مع أنه هيأ لكم جميع السبل ورغبكم أشد الترغيب بالإيمان فكفرتم فكان بغضه لكم ومقته أكبر من مقتكم أنفسكم الآن حينما رأيتم العذاب. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ

أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

فأخذوا يتوسلون بالله وقدرته فقالوا: ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ فلا تقصر قدرتك على أن تعيدنا إلى الحياة فنؤمن لك ونصدق رسلك، والله تعالى حينما أرسل الرسل بالمناهج الحق والقوانين التي ترفع الإنسان وتعليه أن يعبد شيئاً هو صنعه، وتتحرى كرامته أراد من الإنسان أن ينظر بعقله إلى هذه الدعوة ويفتح قلبه لها فيعرضها على المنطق الحق ويقبل منها ما يصح في عقله ولا يقف منها موقف المعاند المغالط تعمي بصيرته شهواته وتحجر مكانته الاجتماعية وأحواله على عقله فلا يسمع إلا نداء المركز والنفوذ ودوافع الشهوة والملذات الجسدية، فجعله في امتحان وبين له مصيره في الحالتين في حالة الإيمان وحالة الكفر. فيقولون أحييتنا من عدم وأمتنا وبعثتنا.

فلما كفر بكل القواعد الأخلاقية وخالف جميع حيثيات المنطق التي تكلمت عن غيبيات فكذبها فلما رآها فلا فضل له في الإيمان بعد المشاهدة. ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ﴾.

لأن الإيمان بوجود الله فطري فمشكلة الإنسان، في إشراك الماديات المحسوسة مع الله في الفعل في الكون. فإن شذوذ عقائد البشر أن يجعلوا فاعلاً في الكون مع الله شيئاً آخر.

وفي هذا اليوم في عالم المشاهدة علمتم أن الله هو الحاكم الوحيد في الكون وهو (العلي الكبير) وهو الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب ودعى إلى الطريق المستقيم والشريعة السمحة التي فيها حياة النفوس وسعادة القلوب.

فلماذا أصررتم وعاندتم ولم تسمعوا للحق الذي حاوركم به المؤمنون الذين يريدون لكم الخير والفلاح.

علاقة الآيات بالمحور

إن الله غضب على هؤلاء الذين يسلكون كل السبل ويوردون جميع الحجج في الصد عن سبيل الله وعن شريعته فيجادلون بالباطل ويفرحون بالشرك وينضمون إلى المشركين أياً كان نوع شركهم وتبدوا حجتهم واهية لأن آيات الله واضحة لاينكرها الا مغالط.

ومن الهداية في الآيات:

* أن الله يحب الإيمان لعباده ويكره لهم الكفر وهو أشد فرحاً بإيمان العبد من العبد نفسه وفي الحديث: (لله أفرح بتوبة عبده من احدكم كان على راحلته وكان عليها طعامه وشرابه فضلت منه في الصحراء فبحث عنها حتى أيس فنام فاستيقظ فإذا هي عند رأسه فقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» أخطأ من شدة الفرح)[١].
* وكما يكون هذا فرح الرب سبحانه وتعالى بتوبة العبد وإيمانه. يمقت العبد الذي يدعى للإيمان فيكفر ومقته أشد من مقت العبد نفسه.
* وهذا مما يستدعي المبادرة إلى التوبة قبل أن يأتي يوم لا تنفع فيه التوبة.
* وأن الله يقبل توبة المرء ما لم يغرغر لأن إيمانه عندئذ يكون إيمان مشاهدة، وليس إيمان غيب، فليبادر قبل أن يقول: أرجعوني أعمل صالحاً فيما تركت.

(١) رواه مسلم، السراج الوهاج من مطالب صحيح مسلم ابن الحجاج _ الحسيني القنوجي البخاري.. ج ١١، ص: ٩.

من صفات الله تعالى التي تقتضي أن يفرد بالعبادة

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾.

علاقة المقطع بما قبله

بعد أن بين الله في الآيات السابقة مقته وغضبه على الذين أصروا على الكفر بعد دعوة الرسل لهم إلى الايمان، بين في هذه الآيات أنه أوضح جميع الدلائل على وحدانيته وفاعليته في الكون وأنه سبب الرزق وهو الذي يختار الرسل الذين يبلغون دين الله لعباده ولم يعذب احداً إلا بعد أن يبين له الحق فيخالفه ويصر على الكفر فأنه تعالى لايظلم نفساً ولا يجازيها إلا بما قدمت.

التفسير الاجمالي

فالله عز وجل وضع في الكون كل ما يدل على وحدانيته من سنن وما به حياة الناس وما لا يمكن أن ينصرف إلا بقدرة واحد أحد، فرد صمد، فهو الذي يبعث لكم من السماء ما فيه صلاح الأرض وحياتها ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ ﴾.. فهذا الماء الذي فيه حياة الأحياء ولو أنفق أهل الأرض كل ما لديهم من مال وقوة لا يستطيعون أن يوصلوا الماء إلى ما يصل إليه المطر الذي ينزل من السماء فيصل إلى الجبال وإلى الصحارى. ألم تكن هذه آية تدفع العقلاء إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى وتفرده في الكون بالفعل والتصرف؟ وغير المطر كثير الذي ينزل من السماء كما ثبت أن الحديد يتكون في السماء وينزل إلى الأرض، والأشعة الضوئية التي يكون النبات بها غذائه.

فهذه كلها آيات تدل على وحدانية الله سبحانه وتعالى للعقلاء الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وهم الذين لا يجحدون الحق ولا يغالطون في سبيل المنافع المادية وهؤلاء هم الذين يعودون إلى الله في كل شؤونهم ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾.

وعلى هذا يكون التوجه إلى الله وحده ولو أن هذا سيغيظ الكافرين الذين يرون الإنسان فاعلاً في الكون بفعله دون إرادة الله أو يتوجهون إلى غير الله في الفعل الكوني كالطبيعة وغيرها.

فلا يضيركم أيها المؤمنون أن تغيظوا المشركين في توجهكم فمهما أعطيتم لهم من أنفسكم فلن يحيدوا عن شركهم أو ما اكتسبوه من متاع الدنيا ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.. مجردين دعوتكم من أي شرك حتى للهوى والرغبة والسمعة هو الله الذي يحتل الرفعة والمكانة التي لا تنال ولا يتوصل إليها ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾.. وهذه المكانة هي التي يتفضل بها على عباده فيوحي إلى من يختاره منهم ليهدي النفوس الضالة ويرشد القلوب الحائرة ويبعث الروح في الكون المظلم فينيره ويوضح السبيل الصحيح والمنهج القويم الذي يرفع الإنسان ويعلي مكانته عن سائر المخلوقات ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهذا الوحي الذي هو روح النفوس وحياة القلوب فيه أيضاً الإنذار والتخويف من العذاب يوم القيامة ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾.

فهو عز وجل صاحب العرش الذي يحكم به الكون وهو الذي يوحي إلى الرسل وسمى الله الوحي (الروح) لأن فيه روح الوجود وبه حياته وعنه تصدر آلاءه وكل ما يدل على الحياة.

يوحي إلى أنبيائه لينذر يوم التلاق يوم الحساب يوم إحصاء الأعمال حينما تلتقي الخلائق وتعرض عليهم أعمالهم فالمظلوم يعلم من ظلمه والظالم يعلم بم ظلم وتلتقي الملائكة والبشر والجن يعرضون جميعاً على الله عز وجل.

فهم ظاهرون عند الله وعند أنفسهم لا يخفى على الله منهم شيء، لا نية ولا عمل وكيف يخفى عليه وهو الذي خلقهم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤]. فقد خلق قلوبهم ويعلم لأي شيء تتسع وخلق جوارحهم ويعلم صلاحياتها وما تقدر عمله.

وجميع الخلائق وكل الوجود ينطق أن الحكم لله والملك لله والأمر والنهي لله والكون كله لله سبحانه، هو المتفرد فيما يفعل ويقدر هو ﴿ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾.. فهي صيغة مبالغة من الغلبة والإذلال فله يذل كل شيء.

وقال المفسرون يسأل نفسه ويجيب والأولى أن يصدر السؤال منه والجواب هو حال جميع الخلائق والوجود برمته فكلها يقول لسان حالها لله الواحد القهار. والقهار من أسماء الله الحسنى، بذاته وبدلالته.

فتجتمع الخلائق ويجتمع المكلفون وغيرهم فيحاسبهم على ما أرسل رسله لهم به ويحجهم أنه وضع لهم منهجاً واضحاً وشريعة سمحة وأمرهم ونهاهم وأشار إلى سننه التي تدل على صدق الرسل بما جاؤوا به عنه.

ويتكلم من كان أعجم وينطق من لم يكن قد وضع للنطق أصلاً فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم والأرض التي ساروا عليها والماء الذي سقوا به زرعهم وأنفسهم وموطن سجودهم.

ويوضع الميزان ويستعد المحاسبون أو مسجلوا الأعمال وكل تعرض عليه صحيفة أعماله ويقرأها ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل:١١١]. ولكن ما هي حجتها وعن أي شيء تجادل وتحاجج وشهود كل نفس أدوات العمل التي حملته فخاصم بلسانه وسار برجله وبطش بيده.. وهكذا وكل هذه شهود فما هي حجته.. ؟.

ويتضائل المتكبرون وتذل الجبابرة ويتبرأ القادة من جنودهم وخدمهم الذين كانوا يطيعونهم في معاصيهم. ويعصون الله لأجلهم.

فتجزى كل نفس بما كسبت فالفعل هو الذي يؤدي بصاحبه إلى رضاء الله ورضوانه، أو

غضبه، وكل مكلف يحاسب عما كلفه الله به وكل مؤتمن يحاسب عن أمانته كيف أداها فإن الله لا يجزي بالحسنة إلا الحسنة وأن الله يرحم المذنبين التائبين بعد أن يريهم أعمالهم ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة:٧-٨]. وبعد أن يراه بعينه ويعلم أن الله سجله عليه يغفر الله للمؤمنين التائبين ويغدق لهم العطاء أكثر مما يتوقعون.

أما الذين عاندوا وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق وفتشوا عن الحجج التي يردون بها الأنبياء وفتشوا عن المبررات في كفرهم ونفاقهم، يعرض عليهم ربهم ما تكن صدورهم وما استحفظوا من نيات وأهواء ثم يعلمون أن الله لا يظلم أحداً بل يعفو عن كثير.

﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.. فالأدلة واضحة والجنايات مسجلة والأعمال محصاة فما الذي يؤخر الحساب!!!؟. ولأي جانب من المتجادلين يكون الحق.

علاقة الآيات بالمحور

تشير الآيات في المقطع إلى أن الله بين جميع البراهين التي يحتاجها المؤمنون في الدفاع عن عقيدتهم وإفحام المشركين المخاصمين ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومن الهداية في الآيات:

* أن الله مصدر الرزق وهو مقدر الآجال وهذه لا تحكمها قيم الدنيا ولا يحددها الإيمان والشرك أو الطاعة والمعصية، فلا تنقصها المعصية كما لا تزيدها الطاعة.
* وإذا كان ذلك، كذلك فلا يخشى أحد على رزقه أو على حياته في قول الحق والجهاد في سبيل الله والسير على نهجه رضي من رضي وسخط من سخط.
* لا يملك أحد من البشر له شيء.. فإن جاهد في الله لإعلاء كلمته فإنه سيعيش سعيداً ويموت كريماً وهي أفضل له من حياة الخنوع والخضوع وموت الجبناء.

تقرير يوم للفصل بين العباد وأحوال الناس فيه

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

علاقة المقطع بما سبقه

في المقطع السابق بين سبحانه وتعالى أنه لم يكن أخذه بالعقاب أو جزاؤه للمخلصين جزافا أو تخمينا فإنه أرسل رسلاً يعلمون الناس ماذا يريد الله منهم ووضحوا لهم الطريق المستقيم والشريعة الحق والعقيدة السليمة.

وأنقذ بهم عباده من التخبط وظلم الطغاة وأنه الحاكم الأوحد في الكون وأن الكون ملكه وفي هذه الآيات ذكر الله عز وجل ان الله اعد لهم يوما يحاسبهم فيه وأن هذا اليوم قريب وأنه تعالى قد أحاط بأعمالهم وخلجات نفوسهم ويعلم مايسرون وما يعلنون فسيجمعهم في هذا اليوم ويحاسبهم عن فعلهم.

التفسير الإجمالي

وتعود المحاجة والجدل ويصدره بالإنذار والتهويل والترهيب وتحذيرهم اليوم القريب وهو﴿ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾فإنه يوم القيامة وسماه يوم الأزفة لقربه فمعنى أزف أي قرب فهو قريب جداً.

ثم يذكر صورة من صوره حيث الناس تحبس أنفاسها من هول ما يرون ينتظرون الأمر الإلهي ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾ من الخوف والشدة كأن القلوب تترك مكانها لتصل إلى

الحنجرة وهو تعبير عن شدة الخوف انتظار المجهول المخيف وقد جاء ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب: ١٠].

﴿ كَٰظِمِينَ ﴾ مملوءين غماً وكرباً ويحبسونه ويمسكونه مع عدم قدرتهم إخراجه لأن هذا اليوم لم يكن كأيام الدنيا الذي يحبس الإنسان غيظه وهو قادر على إخراجه، فعلى من كظم غيظه ومن أجل من هنالك ليس له أحد شافع أو منقذ مما هو فيه ولا متحمل جزء مما يجد ولا يمكن لأحد أن يشاركه كربه فإنه ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: ٣٧]. فلا صاحب ولا حبيب ولا نصير ولا شفيع يشفع لهم فيسمع صوته وتجاب شفاعته. ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾.

عن أي شيء تجادل وبم تحاجج فإن محاسبك ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ فليس لك مهرب وليست لك حجة من التي كنت تتوسل بها في الدنيا فقد غابت عنك حججك وانعقد لسانك.

ومع هذه القدرة العظيمة والمعرفة الدقيقة فإنه لا يظلمك ولا يمنعك حقك بل سيقضي لك بالعدل والصواب ويقرر لك ما تستحق من الثواب أو العقاب. فحكمه العدل.

أما الآخرين الذين كانت هذه الجموع تتبعهم فإنهم لا يستطيعون تقرير شيء ولا حتى ما يخصهم شخصياً فإن الله تعالى وحده ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

كانت عقولهم معطلة ومنطقهم أفلج تدفعه الشهوات من ملذات الدنيا كالجاه والنفوذ والسيطرة على الأتباع فلم يعتبروا بمن سبقهم من الأمم التي خالفت أنبياء الله لهم ورسله إليهم وقد كانوا أشد قوة وأكثر إتباعا - كأن الخطاب لأهل مكة - فإنهم يعلمون أن هناك إمبراطوريات ودول أشد منهم قوة وأكثر إتباعاً وأقرب ما يكون لديهم من الأمثلة التي شهدها بعضهم هي قصة الفيل والملك الذي جاء بجيش جرار بكل عدته وعتاده ومعهم الفيلة لهدم البيت ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل:٥]. ألا يعتبرون بهؤلاء؟

ألم يعتبروا بالأمم التي خالفت الرسل وقد قضت سنة الله فيهم فمن سننه إهلاك الظلمة

أمماً وأفراداً وفي رحلاتهم إلى اليمن وإلى الشام في تجارتهم يمرون بمكان أهل الحجر ومدائن صالح وغيرهم ويرون آثارهم وكيف كانت قوتهم فأهلكهم الله تعالى بظلمهم ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ولم تكن تنفعهم قوتهم ولم تكن واقية لهم من عذاب الله وإهلاكه ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾.. واتقاء عذاب الله بطاعة رسله وإتباع دينه والائتمار بأمره وتجنب محارمه ونواهيه وقد كانت لهم الفرصة لتجنب عذاب الله بإتباع رسله.

فإن الله تعالى أرسل الرسل وأيدهم بالدلائل القاطعة التي لا ينكرها عاقل ولا يجنبها سوي.

ومع كل هذه البراهين والأدلة على صدق الرسل وصلاحية التشريع لحياتهم وسعادتهم ولم يكن في دين الله الذي أرسل به الرسل ما يتحرى مصلحة أحد بعينه ولا حتى الرسل أنفسهم.

فإن شريعة الله ودينه للإنسانية جميعاً بلا تفريق وكل ما فيها تدل على أنها تريد سعادة الإنسان وكرامته وفضيلته والمحافظة على الصورة الكريمة التي خلقه الله بها ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين: ٤]. ومن نظر إليها نظرة فاحصة بعقل نير وفكر مستقيم فلابد من أن يهتدي ويعتقد أنها تتحرى سعادته في الدارين.

ولكنهم كفروا بكل هذه البراهين وهذه الأدلة فحق لهم عقاب الله وعذابه ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

وعلى هذا يظهر السلوك الحق والمنهج الصدق وهو الذي يتلاءم مع كرامة الانسان وجمال صورته التي أكرمه الله بها.

علاقة المقطع بالمحور

بين تعالى في هذه الآيات أن دفاع المشركين عن أنفسهم غير مجد فإن الحاكم يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور وأنه أنذرهم وحذرهم فلو أنهم حكموا عقولهم واستقبلوا حجج

المؤمنين بصدر رحب لأنقذوا أنفسهم مما هم في ﴿يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ لأن حجج المؤمنين تعتمد على كلام الله وسنة رسوله ﷺ

ومن الهداية في الآيات:

* أن الإنسان يجب أن يستحي من الله أكثر من الناس ويحسب حسابهم لأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهذا لا يتهيأ لأحد فليعلم أن الله يرى فعله الخير ويرى فعله الشر فليحسب حسابه في كل شيء.
* وعلى الأمم والطغاة أن يعتبروا بمن سبقهم مهما كانت قوة الأمة وجبروت الأفراد فلا يفلتون من عقاب الله.

صور من مسيرة الدعاة وموقفهم وموقف أقوامهم منهم

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة دعاهم لتدبرماحصل لمن سبقهم من الأمم وفي هذه الآيات أورد نموذجاً من هذه الأمم فقال لقد جاء موسى بالبراهين والأدلة على العقيدة الصحيحة ولا ينكرها إلا متكبر لا يريد أن يسمع الحق، فأعلن المؤمن ان العقل السليم والمنطق المستقيم ان نؤمن بما جاء به موسى والحذر كل الحذر من تكذيبه.

ولما كفروا بكل هذه الأدلة والبراهين أورد لهم نموذجاً وصورة لأمة كفرت بالرسول الذي أرسله الله إليهم وحينما أعجزهم البرهان وسقطت حجتهم لجؤوا إلى المغالطة التي ليس لها دليل. واعتمدوا على القوة والنفوذ فقرروا قتل الدعاة ونبيهم.

التفسير الاجمالي

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ونعلم أن السحر تأثير خفي في النفوس فلا يستطيع مدعيه أن يبرهن على حقيقته ولا يستطيع نافيه أن يبرهن على عدمه، فلما جاء موسى بالبراهين والأدلة القاطعة قالوا إنك تؤثر بالنفوس بعوامل غيبية خارقة للعادة فتخدع الناس بها.

فتأثيرك خداع وإدعاؤك النبوة كذب وافتراء.

والنماذج التي أوردها القرآن الكريم تشمل جميع أصناف الناس ذوي القوة والتأثير فمؤثر وقوته بطغيانه ومؤثر بقوته وقوة أسياده ومؤثر بقوة ماله، فهارون الطاغية المتجبر وهامان منفذ الطغيان ومزاول الظلم وقارون مسخر الناس بماله.

هؤلاء هم أصحاب القوة وأمثالهم في جميع المجتمعات وفي جميع العصور فلما أعياهم بحجته وسطوع برهانه وقوة حقه ﴿ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾.

ولم تكن لهم وسيلة إلا ﴿ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وهذه هي طريقة الطغاة في كل عصر وفي كل مكان، فلم تكن هنا طريقة لإيقاف سريان الحق والهدى بين الناس إلا قتل حملته إذ لم ينفع الجدل والمحاججة.

والابتلاء الآخر مع قتل الأبناء ﴿ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾ كما قال الله ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة: ٤٩].

ولكن الله سبحانه وتعالى أقوى منهم وأعلم بمكرهم وإبطاله ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ

إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ في ضياع وتخبط وهوان وتيه.

ثم هناك وسيلة أخرى وهي قتل صاحب الفكرة والداعية الأول ورأس الأمر، فإن قتل خمدت الدعوة وانفض الناس وعادوا إلى ما كانوا عليه من العبادة والسلوك. ولكن الله تعالى ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]. ويرد كيد الكافرين في نحورهم.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾.. وقال المفسرون أن قوله ﴿ ذَرُونِىٓ ﴾ دليل ضعفه واعتقاده أن النصر لموسى وللمؤمنين فلا يقول القوي الطاغية (اسمحوا لي أقتل المخالفين لي الواقفين ضدي)، لأن الطاغية يفعل هذه الأفعال حتى لو خالفه اتباعه وحاشيته، وضعفه جاء من أنه رأى كثير من أتباعه وأهمهم السحرة آمنوا بموسى وهو وأتباعه لم تكن لهم حجة إلا المكابرة والمغالطة ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] وهذه أهم عوامل ضعفه ومنعه من الإيمان تكبره وطغيانه ومنع أتباعه بطشه ومصالحهم الشخصية المبنية على وجوده على هذه الحالة.

﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ أما إيمانه بأن رب موسى هو القوي ولكنه جاء بهذه الصيغة وهي التحدي والاستهزاء بقوة الخصم.

وهنا التعليل الأبدي للطغاة وذوي النفوذ ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ فخوف فرعون أن يغير موسى دين القوم ومنهجهم في الحياة وطريقتهم التي يتناولون فيها أمورهم، وبقول فرعون هذا يظهر الفساد والخلل في حياتهم الرتيبة أو السائرة على منهج معين.

يرى فرعون وجميع الطغاة والمنافقون أنهم على حق وأن منهجهم هو الأصلح للأمة وأن القوانين التي يضعونها للبلاد والعباد أحسن من شريعة الله وأن المصلحة والنجاح بطريقتهم وأن الذين يجاهدون في إصلاح المجتمع ويقدمون أرواحهم وما يملكون مقابل نشر الدعوة الحق (دعوة الله) ليسوا عقلاء ولا يعرفون مصالحهم ولا يدركون سعادتهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾.. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ [البقرة: ١٣].

وما محاربة الدعاة في عصرنا إلا صورة من تلك التي استخدمها فرعون وجميع الطغاة، فالدعاة (رجعيون، ظلاميون، متخلفون. يريدون تدمير المجتمع)، يدخلون الدين في السياسة والسياسة في الدين. ولا يستحون حينما يعوقهم أمر من الشريعة أو يريدون تبرير موقف ما أو تصحيح مسار جاءوا برجل دين ممن يصنعونهم وأفتى لهم، فلم يبعد (هؤلاء) عن فرعون لأنهم كثيراً ما يصفون المجاهدين بأنهم ضد الإسلام، وهذا رأي جميع طغاة الأمة.

يريد الطغاة أن يقولوا للناس أن الدين هو ما نعتقده والشريعة هي ما نقره وندخل الدين في السياسة بالطريقة التي نريد وليس لكم يا دعاة يا مجاهدين حقاً في الدفاع عن الدين وعن الشريعة.

ففرعون يخاف من موسى ﴿ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾.. وفي بعض القراءات ﴿ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ وبهذه القراءة يراد حصول الاثنين (تبديل الدين وظهور الفساد)، والحقيقة كأنها علة ومعلول فتبديل الدين يؤدي إلى ظهور الفساد والفساد في رأي الطغاة هو ضرب مصالحهم في سبيل مصالح المجموع.

وأمام هذه المغالطات والهروب من الاعتراف بالصواب والحقيقة لا يسع الداعية إلا أن يركن إلى ربه ويستجير به مما يحاك ضده ومما يحاط به من عوامل النكوص والفشل ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾.. فليس للدعاة إلا الله يلجؤون إليه يقيهم شر هؤلاء وقوتهم وبطشهم ونفوذهم وتقلبهم في البلاد.

ومن الملاحظ أن أهم عوامل الكفر ومجابهة الدعوة والإصلاح هو التكبر فإن ذا النفوذ يحز في نفسه أن يتبع رجل ليس له شأن وليس لديه ما يؤهله للقيادة خاصة وأن قيم القيادة لدى هؤلاء هو المال والنفوذ والسلطة.

فحينما أرسل الله تعالى، طالوت ملكاً ليقاتل بنو إسرائيل تحت رايته تلبية لطلبهم ﴿ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ فلما بعث طالوت ملكاً قالوا ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

واعتراض أهل مكة على الرسول ﷺ أنه لم يكن صاحب نفوذ ولا صاحب مال فقالوا: ﴿ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾.. وهذان الرجلان من القريتين (مكة والطائف) ذوي مال وجاه ونفوذ.

وإبليس حينما أمر بأن يسجد لآدم قال الله تعالى: ﴿ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴾.. وأكثر المتكبرين لا يؤمنون أو لا يتيقنون أن وراءهم يوم يحاسبون فيه على ما فعلوا.

وصورة اخرى من صراع الحق والباطل والجدل حولهما ونقاش موسى لفرعون وعجز فرعون رد حجة موسى ومؤمن قومه فركن إلى أسلوب آخر غير الجدل وهو القتل لصاحب الدعوة.

علاقة المقطع بالمحور

في هذا المقطع تتضح جلياً صورة من صور الصراع الفكري ويظهر موقف المؤمنين وحججهم وموقف المشركين وحججهم فيدعي فرعون أنه يدعوهم إلى الحق وأن موسى يريد أن يبدل دينهم ويفسد عليهم حياتهم .

ويرد المؤمنون ان الواقع الذي يعيشه الناس في ظل فرعون وجنوده هو الفساد وأن موسى والمؤمنين يريدون رفع هذا الفساد عنهم.

ومن الهداية في الآيات:

* أن جميع الطغاة يعتقدون أن الله لم يخلق أذكى منهم وأن كل ما يفعلونه صلاح وأن كل من عارضهم يريد للأمة الفساد وأنه موتور وأنه مفسد.
* فجميع الطغاة فرعون إذ يقول: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ

ٱلْفَسَادَ ﴾.. مع أنه لا فساد بعد الطغيان ولا سوء بعد كَم أفواه الناس ومنعهم من قول الحقيقة التي تزعج الطاغية.

* ولذا فقد قال ﷺ: (سيد الشهداء الحمزة ورجل قام إلى ظالم فأمره ونهاه فقتله)[١]..

وعند ذلك يجب أن يلجأ الداعية إلى الله ويستعيذ به من الطغاة بعد أن يؤدي واجبه تجاههم

حجج من الوقائع والسنن تدعوا إلى الإيمان

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة يبين قرار فرعون بقتل موسى وهنا يتبين إذا كان فرعون قد أعلن كفره وأمر اتباعه بالاعتقاد بصحة رأيه فما كان من المؤمن إلا أن يذكرهم بما حل بالأمم التي كذبت الرسل.

ولقد اقتنع بعض أتباع فرعون وأهله بصدق دعوة موسى عليه السلام وألزم نفسه بالحجج التي جاء بها موسى عليه السلام، فلما عزم فرعون قتل موسى ودرء ما أسماه فتنة بإزالة رأسها وهو النبي الكريم موسى عليه السلام، أخذت هذا المؤمن نخوته وغيرته على

---

(١) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ابن حجر، كتاب المغازي.

دينه وعقيدته، ولكنه أراد إبعاد الخطر عن موسى عليه السلام بلطف ومن غير إظهار الانفعال والغضب فيكون هذا الأسلوب أقرب للإقناع.

التفسير الاجمالي

فقال مؤمن آل فرعون: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ دعوة لا تستوجب القتل بأي حال من الأحوال، كما أنه قدم الأدلة على عقيدته وعلى توحيده ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾.. فإن كنتم ترونه مخطئاً فردوا أدلته وفندوا حججه وردوا دعواه بحجج أقوى تقنع الآخرين.

ويذكر جميع المفسرين قصة أبي بكر الصديق ﷺ، ومقارنته بمؤمن آل فرعون لحصول موقف للرسول ﷺ وأبي بكر الصديق ﷺ قريب الشبه من موقف مؤمن آل فرعون.

ولابد من الإشارة إلى أن أول رجل أسلم على يد رسول الله ﷺ وشهد الوحدانية لله هو أبو بكر الصديق، وإيمان أبي بكر ليس كأي إيمان، لأن أبا بكر الصديق ﷺ، كان من الرجال المهمين في المجتمع المكي فهو ممن انتهى إليه الشرف في الجاهلية كما تشير المصادر فقد كانت له الاشناق في الجاهلية (يقدر ديات القتلى من كل قبيلة) كما أنه نسّابة قريش ومن فرط ذكائه كان يعبر الرؤيا. فسخر هذه جميعاً لخدمة الإسلام وخدمة رسول الله ﷺ، فكان جهده ومكانته وماله (وكان ثرياً) في خدمة الدعوة من أول يوم أسلم وهو أول من أسلم من الرجال ذوي الشأن. فتخلى عن جميع هذه الحيثيات في سبيل الله.

فقد أخرج البخاري وغيره من طريق عروة قال: قيل لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرنا بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: «بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر الصديق ﷺ، فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم».

وأخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة عن علي بن أبي طالب ﷺ، أنه قال: أيها الناس أخبروني من أشجع الناس؟ قالوا: أنت، قال: أما أني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ولكن أخبروني بأشجع الناس قالوا لا نعلم فمن؟ قال أبو بكر، رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش فهذا يجنبه وهذا يتلتله، وهم يقولون أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا وينحي هذا ويتلتل هذا وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم رفع (علي ﷺ) بردة كانت عليه، فبكى حتى أخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم فقال: ألا تجيبون؟ فو الله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه.

إذن.. لقد جاءكم بالبينات من ربكم فما هي حجتكم التي تردون على هذه الدلائل؟ ثم عقب على هذا الانهزام أمام الحجج، ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ حذفت نون يكن للتخفيف كما يقول اللغويون، فإن كان كاذباً فلن يضركم كذبه أما إن يجلب عليه عار وسقوط في الدنيا أو عذاب الآخرة كما يعتقد هو ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ولكن صدقه سيؤدي إلى أخطار عليكم تجنبها ثم أن سلوكه وشخصيته واستقامته أقرب إلى الصدق منه إلى الكذب فإن ﴿ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وأن اللـه ﴿لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١].. فكيف وسلوكه وشخصيته وجميع تصرفاته تدل على الصدق وعلى انتهاج السلوك الصحيح وهذا كله من هداية الله وتوفيقه له.

فإذن لو أمنتم له أو تركتموه يؤدي دعوته مع قومه – بني إسرائيل – خير لكم وأفضل من محاربته.

لأن صدقه يعني تحقيق وعيده لكم فإذن بعض الذي يعدكم الهلاك والدمار فالأولى لكم ألا تتعرضوا له بسوء، قال المفسرون: بعض هنا تعني الكل ورجح آخرون منهم أن معنى بعض على حقيقتها وهي الجزء ولا حاجة إلى صرفها إلى المعنى المجاز أو المحتمل.

وأن جزءً من وعيده هو الهلاك فلا أقل من تركه وما هو عليه فإن لم تصدقوه فاعتزلوه

﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الدخان: ٢١]. وفي الأثر أن رسول الله ﷺ قال: (ويح قريش أكلتهم الحرب فلو تركوني والناس، فإن ظفرت فعزي عزهم وإن كانت الأخرى فهي ما يريدون). وحينما حاججه عتبة بن ربيعة حينما قرأ عليه الرسول ﷺ القرآن قال والله ما الذي سمعته شعر ولا سحر ولا كهانة فلو أنكم تركتموه والناس فإن أصاب عزاً فلكم وإن كانت الأخرى فهو ما تريدون فقالوا له سحرك محمد.

ثم استمر مؤمن آل فرعون يحاجج قومه فقال: لكم الملك اليوم ولكم الغلبة فهل أنتم على يقين من بقاء هذا العز وإذا كان بيده هلاك فأين تذهبون من حساب الله وعذابه، وبأس الله: عذابه.

وما حل بالأمم نعرفه فإن جاءتنا داهية مما أصابتهم فما أنتم فاعلين فأجاب فرعون جواب جميع الطغاة والمنافقون ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾..

فأجابهم أنه لا يرى لهم الا ما يراه لنفسه من العقيدة والمنهج والسلوك وأن عقيدته التي يراها لهم هي الطريق الصحيح والمنهج السليم والنظام الأمثل وأن موسى يريد أن يغير نظام حياتكم ويوردكم التعاسة والعذاب في الدنيا.

وفرعون في هذه المقولة كاذب أولاً لأنه كما مر بنا اعتقد بصحة دين موسى ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾.. ولكن كبر في نفسه أن يطيع موسى وهو الوليد الذي تربى في بيوتهم وأنفقوا عليه حتى كبر وبعث، كما أنه كيف يكون سبيل الرشاد هو العبودية لفرعون يقتلهم كما يريد ومتى يريد ويسخرهم في أهوائه ومشاريعه من غير اعتبار لكرامتهم وإنسانيتهم. وحينما قيل للمنافقين ﴿ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١١]. وهناك دليل على صدق موسى وهو ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ أي أن الله تعالى لا يجعل عمل وسلوك المسرفين وهم متجاوزي الحد في الآثام والمعاصي فلا يجعل سلوكهم منظم مقبول كموسى عليه السلام.

علاقة المقطع بالمحور:

وهذه الصورة الصادقة لقولة الحق وحجة المؤمنين تتمثل في جدل مؤمن آل فرعون مع قومه. ومن خلال قصة مؤمن آل فرعون يعلمنا الله عز وجل أدب الحوار والأسلوب المقنع الذي يقتضي اتباعه من قبل الدعاة ليكون سبيلاً لنصرة الدعوة وجذب اهتمام الناس وشحذ عقولهم وايقاظ قلوبهم لتتقبل الحق الذي عرضه الداعية.

ومن الهداية في الآيات:

* أن الداعية لا يتقاعس عن قول الحقيقة والنصح للحكام والدعوة إلى الله تعالى بالأسلوب الذي يقبله الناس ويجدي في جلبهم إلى الحق أو جلب أكثرهم وأن الداعية عليه أن يعرض الدعوة بأسلوب غير متشنج ولا نزق وإنما ينتقي الألفاظ والحجج التي يرضاها الحاضرون ويقتنع بها أغلب السامعين.

  فإن مؤمن آل فرعون قال: إنه لا يستوجب قتل من يخالفكم في العقيدة كما أن العقل والمنطق يقتضي رد حجته ومقابلة بيناته ببراهين تبطلها وإلا فالإيمان بها وترك العناد والتعالي.

* والاستدلال بالسنن الكونية وبتاريخ الدعوة ومصير الظلمة وعاقبة المغالطين، وعاقبة الدعاة إلى الله وسعادتهم بدعوتهم وسعادتهم بمصريهم.

* وترشدنا الآيات أن أسلوب الدعوة الترغيب الترهيب بأسلوب يبدو فيه الداعية أنه حريص على من يدعوهم وحريص على هدايتهم ونجاتهم من سوء العاقبة وهذه حقيقة الداعية فعلاً.

نماذج تطبيقية

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

علاقة المقطع بالآيات السابقة

في الآيات السابقة ظهر المؤمن وظهرت حجته في نهيه عن قتل موسى وفي هذه الآيات تهديد مؤمن آل فرعون قومه من عاقبة قتل موسى وعدم الإيمان بما جاء به وضرب لهم المثل بالأقوام السابقة التي كذبت الرسل.

وذكرهم المؤمن بدعوة يوسف عليه السلام وكأنهم ندموا على تكذيبه ولكنهم قالوا أن الله لن يبعث بعده رسولا فما هو الدليل على ذلك... !!؟

فليس للمشركين حجة في التكذيب بالرسول الحالي الذي هوموسى عليه السلام.

التفسير الاجمالي

نقل مؤمن آل فرعون الحوار إلى ما يشبه التهديد أو هو تهديد مزين بالحرص على قومه وعلى عقيدته في آن واحد فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾.. وهم جميع الذين خالفوا رسل الله إليهم وحاربوهم، ثم أخذ يبين لهم بعض الأمثلة من هؤلاء المعاندين والكفار الذين يعلمون أخبارهم وما حل بهم ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وقد علمتم شأنهم وما حل بهم من الهلاك وهكذا شأن أمثالهم، والله عز وجل لا يجازي أحداً إلا بما عمل والجزاء من جنس العمل فلا يظلم الله أحداً.

فإن سننتم سنتهم فسيصيبكم ما أصابهم فيقول لهم أنه حريص على أن لا يصل حالهم إلى

حال هؤلاء.

﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾.. وفسر أهل القرآن التناد بتفسيرين، الأول: التناد من النداء: وفي هذا اليوم (يوم القيامة)، ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ﴿ فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ ﴾.. وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ﴿ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾، أو ينادى عليهم وعلى جميع المكلفين فأهل السعادة ﴿ وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]. وأما أهل الشقاء ﴿ وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾ [الزمر: ٧٢][(١)].

والمعنى الآخر قال المفسرون التنادّ بتشديد الدال فيكون يوم الفرار والتنافر حيث ينفر كل من صاحبه أو ينفر كل من مصيره فيرد إليه مرغماً وينفر الأتباع من أسيادهم والأسياد من أتباعهم ويتبرأ كل منهم من صاحبه أو أصحابه.

يؤيد هذا التفسير (يوم تولون مدبرين) إذ ليس لكم ما يمنعكم أو من يمنع عنكم العذاب الذي تجزون به في ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ ﴾ ولا عن عذابه من مهرب وهكذا أدى بكم ضلالكم وتخبطكم إلى هذا المصير فليس لكم من يعيدكم إلى الصراط المستقيم بعد أن أوغلتم في الضلال والتخبط.

ويستمر مؤمن آل فرعون في الدعوة والتذكير ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾.. فعاندتموه وكفرتم بما جاء وأعرضتم عن الهدى الذي أبانه لكم وبكل البراهين والأدلة حتى إذا هلك علمتم أنه على حق وربما تكونوا ندمتم على محاربته ولكنكم لم تعتبروا إنما أخذتكم نفوسكم المريضة إلى أهوائها وعادت بكم إلى مخالفة رسل الله.

فقلتم لن يبعث الله رسولاً بعد يوسف حتى نكفِّر معه عن سيآتنا فلما بعث الله موسى عليه السلام أنكرتم عليه وخالفتموه مع أن الدلائل التي جاء بها تساوي البراهين التي جاء بها

---

(١) تفسير الطبري ج ٣٤/ ص٤٠ (بتصرف)

يوسف والنبيون.

وهكذا تجاوزتم حدود المعقول في التكذيب والريبة فأولاكم الله ما توليتم من الضلال والكفر فوصلتم إلى مصيركم المحتوم لأن الله تعالى لن يرغمكم على الهدى والمنهج القويم إن أحبت نفوسكم الضلال.

ولكن الله يبين طريق الصلاح والإصلاح ويميز طريق الضلال والفساد فيختار العبد ما يريد مع أن الله زين طريق الهداية وبنى العقول على قبوله والمنطق على جدواه.

ولذا فإن الله تعالى قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾.. ولا يضل غيره فإن الذي يتجاوز الحدود المعقولة في عصيانه ويتردد في قبول الحق فهو الذي يضله الله.

وقد ذكر ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، لم يؤمن من آل فرعون إلا هذا الرجل وامرأة فرعون والذي قال: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾[القصص: ٢٠]. والذي أراه غير ذلك إلا أن يكون مرفوعاً إلى الرسول ﷺ فهذا لا كلام فيه، أما نقل الطبري فربما يكون ضعيفاً. فإن كان الكلام عن عائلة فرعون فربما يكون الكلام صحيحاً، أما إذا كان من أتباع فرعون فلا يمكن أن يكون صحيحاً لأن أول من اسلم بعد المناظرة بين موسى وفرعون ودعوة السحرة، هم السحرة أتباع فرعون.

والسحرة كانت لهم مكانة عالية في اتباع فرعون وفي دولته كما تشهد جميع النصوص التي تحكي عن هذا العصر. وهذا هو ظاهر النصوص ولكن كيف نستطيع أن نجزم أنه لا يوجد مسلم سوى هؤلاء مع أن الذي نتكلم عنه كان يكتم إيمانه، ألا يحتمل أن يكون في آل فرعون من يكتم إيمانه غير هذا أو هؤلاء؟

غير أن هذا لم يحتمل التآمر على قتل موسى أو تقرير ذلك وقد كانت كلمة الحق أثنت فرعون عن قراره بقتل موسى فسلك مسلكاً آخر كما سنرى بفضل كلمة هذا المؤمن ولذا لا يستصغر أحد عملاً في سبيل الله مهما كان صغيراً قد تكون له نتائج طيبة كبيرة.

يتبع مؤمن آل فرعون جميع الاساليب ويدلي بجميع الحجج التي يحاول فيها اقناع قومه بالإيمان والدين الصحيح ونبذ ماهم عليه من العقائد الفاسدة.

علاقة المقطع بمحور السورة

لم تفارق السورة محورها في أي من أجزائها فإن مؤمن آل فرعون يأتي بجميع الحجج التي تدل على صحة دعوة موسى وصدقه ويبين لهم ذلك من الواقع الذي عاشته الأمم.

ومن الهداية في الآيات:

* أن الداعية يجب أن يتحلى بالخوف على مجتمعه وأمنه وأن يكون منشغلاً بإصلاحهم وإنقاذهم من المصير الأسود الذي ينتظرهم إن بقوا على ضلالهم وكفرهم.

  فإن مؤمن آل فرعون في جميع مراحل حديثه مع فرعون ومع أتباع فرعون الذين هم قومه يرى فيها جميعاً حرصه على إنقاذهم مما هم فيه من الفساد الذي يؤدي إلى تعاستهم في الدنيا والآخرة.

* كما أن الداعية يجب أن يختار الكلمات التي تخاطب عقول الناس وعواطفهم ويتجنب اللف والدوران حتى يتيه معه السامع. فنجد عبارة المؤمن صريحة في خوفه عليهم وفي الأخطار التي تهددهم وفي المصير الذي يسيرون نحوه.

حجج المشركين الداحضة

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧ ﴾.

علاقة المقطع بما سبقه

بعدما بين مؤمن آل فرعون حجته في الآيات السابقة لم يبق للمشركين الا المغالطات

فتبين هذه الآيات أن جدل هؤلاء عبارة عن مغالطات لأنهم لايملكون دليلا على صدق دعواهم في تذكيب الرسل وموسى عليه السلام بصورة خاصة.

ولكن طغيان فرعون وتكبره أوحيا له أنه على الصواب وزينا له رأيه وعقيدته الضّالة فما كان من المؤمن إلا أن يحذرهم سوء العاقبة وأن الحياة الدنيا رحلة قصيرة فلا يبدل العاقل الخلود بالحياة المؤقتة.

التفسير الاجمالي

وحينما يكون العقل والمنطق الإنساني مع قضية واضحة وحكمها ظاهر وحقيقتها لاتخفى على عاقل يكون الجدل حولها نوع من المغالطة والهروب من الإذعان للحق، فالذين جادلوا بقضية الإيمان وصلوا إلى القناعة التامة بصدق موسى عليه السلام ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ﴾ فأخذت المحاججة منحى لا يستمر به إلا المغالطون﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ ﴾.. فليس لهم دليل ولا حجة فإنهم بذلك يستحقون غضب الله ومقته ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ ﴾.. لأن المؤمن الذي يملك الحجج الواضحة والدلائل القوية على ما يقول حينما يأتي جاهل فيجادله بنكران كل الدلائل الواضحة لا يسعه إلا أن ينصرف عن الجدال محملاً بأشد الكراهية والحنق على هؤلاء الذين يعتمدون قوتهم ونفوذهم ومكانتهم

عند السلطان في التغلب على الحق الواضح.

وبعنادهم وتنكبهم الطريق فإن الله تعالى طبع على قلوبهم حيث أنها لا تسمع الحق ولا تقبله، وأهم الموانع في قبول الحق هو التكبر الذي يدفع صاحبه إلى المغالطة وحقيقته دفاع عن مكانته الاجتماعية أو نفوذه السياسي.

هذه المكانة التي صنعت منه جباراً وكما قال ﷺ: (لا زال الرجل يأخذ في نفسه حتى يكتب مع الجبارين الطغاة) أو كما قال ﷺ[1].

قلنا أن فرعون عدل عن قراره في قتل موسى بناءً على كلام المؤمن أو من أثره في نفسه فسلك مسلكاً جديداً في محاججة موسى عليه السلام، فقال لأعوانه ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا ﴾ بناءً عالياً شديداً قد أصل به إلى ما يدل على صدق موسى ولكنه قرر إبتداءً ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ ﴾ فهو لا يريد أن يصل إلى الحقيقة بأي شكل من أشكال البرهان حتى الذي اعتمده هو.

﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾.. فقد زينت له نفسه أعماله السيئة وحسن له منطقه الأفلج وقراره الأهوج وزين له اتباعه والشيطان ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ ﴾ [الزخرف: ٥٤]. كل أعماله الحقيرة وتصرفاته الهوجاء التي تؤدي به إلى الهلاك وكيده السيء الذي سيحيق به لأن جميع تبريراته ستؤول بالفشل إذ ليس لها قاعدة صحيحة ولا دليل صحيح. ﴿ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴾ خسران.

جادل المشركون بكل ما أتاهم دينهم من حجج حتى بدوا عاجزين عن إقناع الآخرين ولا حتى إقناع أنفسهم فبدا لجاجهم وتلكؤهم وعدم استقرارهم على سبيل واضح ومغالطتهم في رفض الحق الواضح.

---

(١) الاساس في التفسير لسعيد حوى ج٩/ ص٤٩٦٢، رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

علاقة المقطع بالمحور:

تتضح جلياً علاقة هذه الأيات بالمحور الذي هو الصراع العقلي بين الحق والباطل وأن الذين يجادلون في أيات الله ليردّوها حجتهم داحضة ففي هذه الآيات تظهر صورة من صور الجدل العقيم الذي يتّبعه المشركون في دحض حجج المؤمنين

من الهداية في الآيات:

* أن المغالطين يكونون ممقوتين من الله ومن الناس لأن الناس تريد أن تستفيد من الموقف حتى لو لم يؤمنوا به فحينما يتكلم هؤلاء الذين ليس لهم حجة وليس عندهم ما يدفعون به الحق يشعر جميع السامعين بالامتعاض والمقت.

* كما أن الآيات تشير إلى إفلاس فرعون وجميع الطغاة أمام الحقائق الواضحة وأمام الدين الحق. فيقوم بالتوسل بأشياء خارج المنطق والعقل وقبول الناس.

حجج أخرى للمؤمنين تستوجب التوبة والإيمان

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

علاقة الآيات بما قبلها:

وأمام اصرار الطغاة وأتباعهم ونكوصهم عن الحق ومغالطتهم في الأدلة العقلية والوقائع في الآيات السابقة ما كان من الداعية المؤمن إلا أن يفوض أمره إلى الله ويعتذر أنه قدم مايستطيع من النصح والتحذير وعلى ذلك وقاه الله شرهم ومكرهم. وفي هذه الآيات أخذت حجج المؤمن منحى جديداً فيها بعض التذكير وبعض التهديد فهو يرد على فرعون الذي قال: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.. بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، فليس لفرعون سبيل رشاد حتى يهديكم إليه، وإنما هو سبيل الغي والفساد لأنه يدعوكم إلى عبادة نفسه وإذلالكم وتسخيركم لغاياته وشهواته وإنما سبيل الهدى والإستقامة أن تعلموا ان هذه الدنيا متاع زائل انتبهوا إلى أن هذه الدنيا ليست ملكاً وليس لأحد أن يخلد فيها وليس فنائها مسبب فقد يموت الشخص وليس فيه علة وقد يعيش طويلاً وهو يحمل كماً هائلاً من العلل ولكنه يموت أيضاً فاعملوا لحياة لا فناء فيها وتهيؤوا لعيش دائم تصنعوه بأيديكم، فإما أن تصنعوا حياة شقية شقاءً أبدياً أو سعيدة سعادة أبدية

التفسير الاجمالي:

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾..

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الفراعنة كانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت ولكنهم لم يتصوروها على حقيقتها، فقد يكونوا ورثوا هذا الاعتقاد من دين ولكنهم شوهوا صورته الحقيقية بأهوائهم.

فآثار الفراعنة تدل على أنهم يؤمنون بالحياة بعد الموت فأخذ المؤمن يرسم لهم الصورة الصحيحة للحياة الآخرة وطريق الوصول إلى السعادة فيها مخالفاً الصورة التي في أذهانهم، ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

إذاً هذا هو الطريق القويم.. السليم إلى السعادة الحقيقية سعادة الدار الآخرة، السعادة الخالدة الأبدية وليس طريق الجبروت وتسخير الخلق للنزعات الشخصية والمآرب العاجلة، وهنا يتجلى الكرم الإلهي والعفو الرباني فمن عمل سيئة فلا يجزى إلا واحدة تناسبها ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [النبأ: ٢٦]. لا تزيد ولا تنقص وهناك ميزان لا يخطئ ومن عمل حسنة خيراً مع أن الله أعانه عليها وحببها إليه وجعله منسجماً مع السنن الكونية مع هذا كله ومع أن الله خلق الأدوات التي يعمل بها الإنسان الخير والشر فإنه تعالى يجزي بالحسنة عشر أمثالها أو بغير حساب ولذا قيل (شقي من غلبت اعشاره). فهي الجنة التي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم ذكر فساد رأيهم وسفاهة مسلكهم ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾.. شتان بين الدعوتين والاتجاهين ونوعي المشاعر المؤمن يريد لقومه وللإنسانية الخير والصلاح وتجنب الأخطار، فيدعوهم إلى النجاة من نهاية هذا الطريق النجاة من أخطار هذا المسلك وأنتم تدعونني إلى النار إلى ما يوصل إلى النار ثم يبين ما الذي يوصل إلى النجاة وما الذي يؤدي إلى النار ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ ﴾.. وهذا هو المسلك الذي يوصل إلى النار.

فالكفر والجحود بالله والشرك به هو الطريق الموصل إلى النار، ثم أن هذا الكفر والشرك ليس لكم حجة تثبتون بها سلامة عقيدتكم ولا دليل يقنعكم أنتم فضلاً عن الآخرين بأن هذا الذي تشركونه مع الله في تدبير الكون أو في الضرر والنفع ثم يقول لهم إنني لا أجد ما يدفعني أو يقنعني بصواب شرككم ومن هذا الذي له صفات تؤهله ليتساوى مع الله.

فالله سبحانه وتعالى عزيز لا يدرك ولا يتوصل إليه أحد ولا يستطيعه أحد مع قوته وعزته وإقناعه على المخلوقات غفار لذنوب عباده التائبين الذين يراجعون أنفسهم ويتحرون الصواب في عقيدتهم وفعلهم.

حقاً إن الذي تدعون إليه أن كان فرعون أو أي أحد أو أي شيء لا يستطيع إجابة دعوتكم

ولا رفع الضر عنكم ولا جلب الخير لكم ثم هل يستطيع دفع الضر عن نفسه أو يستطيع أن يخلد في هذه الدنيا فهو ميت فهل لميت استجابة دعاء من يدعوه.. ؟.

فهو عاجز أن ينقذ نفسه في الدنيا والآخرة أو يجلب لنفسه الخير أو يدفع عن نفسه العذاب في الآخرة ولا في الدنيا.

ثم أنكم تعلمون أننا جميعاً سنعود إلى الله جل وعلا ويحاسبنا عما اجترحنا وأن المتجاوزين الحدود المعقولة والمقبولة في تصرفاتهم وفي تصوراتهم هؤلاء هم أصحاب النار، والتعبير (بأصحاب النار) ورد في القرآن الكريم كثيراً وهو يدل على أن النار كأنها خلقت لهم فهم يملكونها وتملكهم ولا يستطيعون عنها فكاكاً ولا منها هروباً. ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾..

فإذا كان مصيرنا إلى الله فليس لنا إلا أن نرضيه ونتبع رسله ونسير على النهج القويم الذي أراده لنا.

ثم جزم لهم أنهم سيتقابلون وأنهم سيجتمعون يوماً ويذكر بعضهم بعضاً ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾..

﴿ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ ﴾ [الأعراف: ٤٤].

كما أن الآيات تشير إلى إفلاس فرعون وجميع الطغاة أمام الحقائق الواضحة وأمام الدين الحق. فيقوم بالتوسل بأشياء خارج المنطق والعقل وقبول الناس.

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ ﴾ وإن دعوتي وجهدي وحججكم وخصومتكم كلها أردها إلى الله تعالى وهو يعلم حقيقة أمري وعنادكم فإنه ﴿ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.

وقد أدى واجبه بالدعوة إلى الله وإلى دينه وشريعته ولا يحاسب عن النتائج ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف/ ١٦٤].

وحينما أدى واجبه بالدعوة إلى دين الله وتفنيد حجج المشركين والانتصار لله ورسوله

حينما فعل ما أراد الله وما كلفه به ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾.. فإن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا ويقيهم كل تدابير الأعداء التي تخفى عليهم ولا يخفى على الله منهم شيء.

ثم أن الله تعالى أنزل بآل فرعون سوء العذاب في الدنيا حيث عذبهم بالجراد والقمل والدم وعذبهم بالغرق وهذا كله في الدنيا وفي الآخرة عذاب الله أشد وأنكى.

وهذه صورة من صور دفاع الله عن آله ودعاته، ومن أساليب القرآن الكريم في البرهان رسم الصور الصادقة المشاهدة الملموسة عن الحقائق التي يذكرها الله سبحانه وتعالى في محاججة المشركين والطغاة.

ولا تبعد السورة عن محورها فإن الذي آمن يمثل جانب المؤمنين في المحاججة فتراه يتخلق بكل الأخلاق التي فرضها الله للمسلمين إن كان في الإدلاء بالحجة أو في حرصه على هداية قومه.

ففي إعادة الخلق يذكر الخلق الأول الذي هو إنشاء من العدم، وفي نصر المؤمنين بذكر أضعف الجنود من الناحية المادية كيف تنتصر على أعتى الجيوش وأشدها تمكيناً ومن المفارقات أن جميع حروب المسلمين التي فتحوا بها الأرض وقوضوا الدول وأزالوا الطغاة وممالك الشرك، كان الجيش الإسلامي أقل من جيوش المشركين واليهود والنصارى وأحياناً يكون جيش المشركين أكثر من عشرة أضعاف جيش المسلمين.

وهذا حينما كان المسلمون يدافعون عن دين الله وشريعته وكلمته، أما حينما حاربوا من أجل مصالحهم الشخصية ومناصبهم وأموالهم ونسوا الله، فأنساهم أنفسهم.. فإن أقل الجيوش وأصغر الأمم غلبتهم، فحينما احتل اليهود فلسطين سنة ١٩٤٨ كانوا أقل من عشر المسلمين وأقل من عشر العرب الذين خاضوا الحرب، والصورة نفسها في ١٩٦٧.

علاقة الآيات بالمحور:

لم تفارق الآيات المحور في أيٍّ من حيثياتها فإنها أيضا تذكر إحتجاج مؤمن آل فرعون وطرح الدلائل على صحة رأيه ويذكر طرفاً من توجه المشركين وتفنيد حجتهم في هذا التوجه

الهداية في الآيات:

* لا تزال الآيات تعلمنا أدب الحوار وأسلوب الداعية الذي يجب أن يستخدمه الدعاة إلى الله تعالى، فهو يقتضي أن يذكرهم بالموت هذه الحقيقة التي لا ينكرها أحد كافراً كان أو مسلم.
* ثم ينبههم إلى أن من المنطق والمعقول أن تكون هناك حياة بعد الموت وأن الحياة الدنيا ليست آخر المطاف.
* وأنه يجب عليهم أن يعرضوا رأي المؤمن على العقل والمنطق وعندئذ سيعلمون أنه يدعوهم إلى النجاة وأن المشركين لا تنفعهم أصنامهم ولا من يعبدون من حجر أو بشر لأنهم مثلهم قابلين للفناء ولا يمكن أن يحكموا ما لم يستطيعون تحقيقه لأنفسهم وهو النجاة أو الخلود.
* وأن الحاكم الوحيد والفاعل في الحياة الدنيا وفي الآخرة هو الله وحده لا شريك له.

ندم المشركين على كفرهم حينما رأوا ما حذرهم منه الرسل

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه:

في الآيات السابقة بين الله عز وجل كلام المؤمن ونصحه لقومه وحذرهم من العاقبة وأكد لهم أنهم سيعلمون صدق دعواه حينما يحشرون ثم فوض أمره إلى الله

وفي هذه الآيات بين تعالى إستجابة دعوة المؤمن ووقاه شر مكرهم وأن آل فرعون وأتباعه سينالهم العذاب؛وهذا العذاب في الدنيا وفي القبر وبعد الحساب يوم القيامة.

التفسير الإجمالي

ويوم الحساب يتبين كل فريق حقيقة عقيدته وصواب مسلكه فيتبرأ الفرقاء من أتباعهم والأتباع من قادتهم

فما كان إلا أن يذكر الله بالقاعدة التي لا مناص منها وهي أن الله ينصر رسله وأتباعهم.

ونجى الله مؤمن آل فرعون مما دبروا له لقتله وأنزل الله العذاب بآل فرعون، به وبأتباعه وهذا العذاب في ثلاث مراحل وثلاثة أساليب، ففي الدنيا عذبه بالجراد والقمل والدم والغرق وغيرها وفي القبر يعرضون على النار صباحاً مساءً ثم يعذبهم يوم القيامة إذ يخلدهم في النار وفي النار يتجادلون ويتخاصمون فيقول الضعفاء الأتباع الرعاع للذين كانوا يقودونهم ويأمرونهم بكل القباحات، فهؤلاء الضعفاء كانوا في الدنيا أدوات الطغاة ينفذون طغيانهم مغمضة أعينهم عن الحق لا يرون الحق إلا الذي يأمر به الطغاة ولا ينتبهوا إلا في الآخرة حيث ترفع عن أعينهم الغشاوة وعن قلوبهم الأغطية فيقولون لرؤسائهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، ننفذ أوامركم فهل تفون بوعودكم حيث منيتمونا بالمصير السعيد، والآن لا نريد منكم إلا أن تتحملوا عنا جزءً من العذاب الذي نعاني منه في النار

فيجيب الطغاة ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.. فلا أتباع ولا متبوعين وهذه الحالة جزء من العذاب وهو الندم واللوم والسخط على النفس كيف أطاعت هؤلاء؟ كيف باعوا آخرتهم بدنيا هؤلاء؟ ألم يكونوا حمقى بهذه الصفقة التي ليس لهم فيها إلا الخسران في الدنيا والآخرة.

ثم يتجه أهل النار جميعاً أتباعاً ومتبعون إلى حراس جهنم وحفاظها وهم جند الله في تنفيذ أمره ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ وهل لخزنة جهنم إرادة أو حول أمام حول

الله وإرادته وقوته؟ ثم إنهم يستحون من الله أن يطلبوا لهؤلاء الذين عصوا الله وحاربوا أولياؤه تخفيف العذاب.

فيقولون لهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾، ألم يرسل الله لكم من يعلمكم صواب السلوك وصحة العقيدة؟ ويأتوا لكم بكل الدلائل والبراهين التي يقبلها العقلاء ويسترشد بها الأسوياء؟ ولكن خالفتم فطرتكم والمنطق السليم واتبعتم أهواءكم وغرتكم زينة حياتكم الدنيا وظهوركم فيها وتقلبكم فيها فاعترفوا بكل هذا ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾.. فإذن سوف لن نطلب لكم أي تخفيف وإنما اطلبوه أنتم بأنفسكم وإن كنا نعلم أن طلبكم لن ينفذ ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾..

وهنا تجدر الإشارة إلى أن جميع العلماء يستدلون على عذاب القبر بهذه الآيات.

وهناك أحاديث كثيرة على عذاب القبر قال ابن كثير: وهذه الآية ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور[1].

وقد أورد إشكال وهو أن هذه الآية مكية بلا خلاف وأحاديث عذاب القبر كلها عن حوادث في المدينة.

وفي تقديري لا يوجد أشكال حيث أن هذه الآية مكية فعلاً والاستدلال فيها لا غبار عليه، وكون الأحاديث التي رويت عن عائشة رضي الله عنها في المدينة لا تعارض بينها فربما لم يحتج الرسول ﷺ البرهان على عذاب القبر في مكة فلم يفسرها أو لم يذكر عذاب القبر هناك أو ربما ذكره ولكن لم يصل إلينا حديث يتكلم عن الاستدلال في مكة مع وجوده ونحن نعلم أن كثير من الأحاديث في مكة لم تصل الينا إلا في العهد المدني ذلك لأن المسلمين لم يكونوا في مكة لتسمح لهم ظروفهم بتناقل الحديث.

---

(١) فتح الجواد الكريم ج٤ / ص٨٨



علاقة المقطع بالمحور:

ويستمر اسلوب النقاش والمحاججة وهنا يتولى الله عز وجل الدفاع عن أوليائه فيبين أنه عزوجل وقى المؤمن ما يدبر له من الأذى وأهلك خصومه وعذبهم في الدنيا والاخرة وفي القبر. ثم يستمر النقاش بين المشركين أنفسهم ويبقى الطابع الغالب في السورة هو الصراع الفكري بين الحق والباطل.

الهداية في الآيات:

* إن الله ينجي الدعاة ويعصمهم من الزلل وأن من أنواع العذاب هو الندم على ما كان منهم في الدنيا حيث أنهم أطاعوا كبراءهم فتخلوا عنهم.

* وعلى المؤمن أن ينظر إلى الأمور نظرة فاحصة فلا يهار في الدين ولا في الشريعة ولا يطيع أحداً إلا إذا كان ذلك الأحد ملتزماً بحيثيات الشريعة وأن طاعته لأي إنسان يجب أن تقترن بها وافقه ما أمر القرآن الكريم والسنة والشريعة الإسلامية.

* ولا يدفع الإنسان الرضا أو الغضب على طاعة أحد أو سخطه وإنما يدور مع الحق حيث دار وهناك قول: اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال.

عهد من الله على نصر المؤمنين

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾

علاقة آيات المقطع بما قبلها:

بعد أن بيّن الله في الآيات السابقة نقاش المشركين فيما بينهم يطمئن الله أولياءه ورسله ويقرر حقيقة أن الدافع وراء كفر هؤلاء إن هو إلا كبر في صدورهم والحقيقة أنهم ينسون أو يتناسون حقيقتهم وأن هذا التكبر لايليق بمن هومحاط بعدمين ولا يملك الوجود الاول كما لايملك الفناء ووقته وسببه فإذن علام التكبر.

ولذلك بعد أن وقى الله مؤمن آل فرعون مما دبر له المشركون يقرر حقيقةً طالما يؤكدها القرآن الكريم وهي أن الله ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

التفسير الإجمالي:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾.. وقد قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]. وفي آيات كثيرة يعد الله المؤمنين بالنصر.

ثم أنها الحقيقة التي لا جدال فيها أن الله ينصر أولياءه وينصر دعاته في الحياة الدنيا وهناك مسألة وهي أن الملاحظ والشاخص الآن غير ذلك فما هي الصورة التي تربط النصر بالمؤمن.

وما هو الإيمان وكيف يقاتل المؤمنون وعن أي شيء يدافعون أو يقاتلون حتى ينصرهم الله.

أولاً: الحقيقة أن المؤمنين الآن إما أن يكونوا مغلوبين على أمرهم فلا يقاتلون إلا في صف غير المؤمنين حيث أن المؤمنين الآن لا صف لهم ولا جيش لهم.

ثانياً: أن تحقق الإيمان في الجيش المقاتل لم يكن على الصورة التي يريدها الله لنصر المؤمنين.

فيجب أن يكون دافعهم للقتال الإيمان وهدفهم تحقيق الإيمان أو تسهيل وصول الإيمان للآخرين ورفع راية الإيمان (وتكون كلمة الله هي العليا). فقد قال تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[الأنفال: ٣٩].

والفتنة هي غلبة القيم والتقاليد الجاهلية على القيم الإيمانية أو الإسلامية حتى ليرى أن الكفر أولى من الإيمان أو الفعل الذي ينسب للكفر أولى بالإتباع من الفعل الذي ينسب للمؤمنين وللإيمان {أن تروا المعروف منكراً والمنكر معروفاً}.

فمنذ أفول الدولة الإسلامية (الخلافة) إلى اليوم لم يكن للمؤمنين جيش يقاتلون به المشركين كما لم تكن القيم الإيمانية هي الدافع ولا تحقيق الإيمان هو الهدف، فأغلب الجيوش في دول المسلمين تحكم بقيم وقواعد علمانية ويقاتلون عن تلك القيم المنحرفة.

وأوضح شيء الآن هو القتال من أجل تحقيق الديمقراطية فهل الديمقراطية بالشكل السائد في دولها تطابق الإسلام وهل الديمقراطية في أصل نشأتها هي إسلام أو يمكن أن تسمى نظام إسلامي.. ؟

فنجد أن مفهوم الديمقراطية حتى عند المسلمين مشوه وهي في دولها ليست إسلامية بل هي حرب على الإسلام في جميع أحوالها وقيمها.

فالنصر متحقق ونصر الله للمؤمنين وللرسل وفق المنطق السليم والعقل المستقيم إضافة إلى أن الله جلت قدرته هو الذي خلق هذا المنطق وسير هذا العقل.

فمن الطبيعي أن من يرسل رسولاً بمهمة يخلق له الظروف التي تسهل مهمته أو تنجح مسعاه، والمؤمنون هم الذين تحملوا مهمة الرسل ودعوتهم وقاموا بعبئها.

فما داموا يؤدون المهمة كما أراد من يكلفهم بها فهم برعايته ونصره فإذا انحرفوا عن

الطريق المرسوم أو تصوروا غير العقيدة الصحيحة أو استهوتهم الرغبات والظواهر فقاتلوا من أجلها فليس لهم من الله نصر ولا عون.

فينصر الله الرسل والمؤمنين في الحياة الدنيا ويحفظ كرامتهم وعزتهم وكذا يوم يقوم الأشهاد وهو يوم القيامة يوم تجتمع الأمم وتحضر الملائكة والنبيون فيشهدون الموقف وتشهد الملائكة على الأمم التي كذبت وتشهد الرسل الذين بلغوا ما أمرهم الله به.

والانتصار للأنبياء والمؤمنين إما أن يأخذ حقهم ممن ظلمهم أو ينصرهم في حياتهم وكما قلت إذا تحقق فيهم الإيمان وكان هدفهم من المقابلة إعلاء كلمة الله.

يوم القيامة ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ وهو قولهم ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾.. والظلم هو ترك الأولى والتخبط بالعقيدة والسلوك، فهؤلاء الذين تركوا الحق الأبلج وتخبطوا في ظلمات الكفر والجهل مبعدون من رحمة الله ومخلدون في النار التي هي أسوأ دار وأقبح مستقر.

ويعود الكلام عن بني إسرائيل وعن موسى، فإن الله تعالى آتى موسى الهدى وهو المنهج الصحيح الواضح الرشيد وهذا المنهج الذي أرسل الله به موسى إلى بني إسرائيل جعله في كتاب وهو التوراة ولم يجعله كلاماً مجرداً من عوامل الثبوت والإتباع ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ ﴾.. وورث بنو إسرائيل الكتاب من بعد موسى ولكنهم لم يؤدوا حق هذا الموروث مع أنه ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾.. العقل السوي والمنطق السليم.

ثم يكون النداء للرسول ولأمته ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ فإنه تعالى منجز ما وعدك فهو الثابت الواجب الصحيح ونصره قريب فكما نصر موسى على طاغيته ونصر غيره من الرسل فإنه ناصرك وما عليك إلا الصبر والثبات.

وفي تمام الآية يربط الله عز وجل النصر والسعادة والظهور على الأعداء بما كلف به عباده

من الواجبات ربطاً قد لا ينضبط بالمنطق المادي الإنساني فإن الله سبحانه جعل التسبيح وهو تنزيه الله عن كل ما يشعر بالنقص. والاستغفار من الذنوب وتنقية النفس من جميع عوامل الشرك وجميع دواعيه وصوره هو العامل الأول للنصر والسعادة والرفاه، فقد قال عز وجل: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

وبهذا نعود إلى القاعدة الأولى وهي﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.. فإن نصر المؤمنين يتحقق بتحقق الإيمان الحق في النفس والهدف والوسيلة والإخلاص لله تعالى والعمل بسنته.

فإذن.. ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾.. وهو أن ترتبط بالله في جميع وقتك وتحسب حسابه في جميع تصرفاتك ولا تركن إلى شيء سواه. فالعشي والإبكار هي أطراف اليوم.

وأمر الله رسوله بالاستغفار قيل أمر لأمته وقيل أن الله كلما قرب الرسول درجة أمره بأن يكون أهلاً لها، وكان رسول الله ﷺ يستغفر ربه كثيراً وذلك كلما ارتفع درجة في القرب زاد شعوره بتقصيره والرسول ﷺ غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فيكون استغفاره ﷺ لتتأسى به أمته ويعلم كل مسلم أنه أقل قرباً من الرسول ﷺ فيكون استغفاره أوجب وأكثر وهو مقدمة لكل دعاء.

وهناك مسألة توحيها الآية ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ﴾.. وهي وجوب الاستغفار عند طلب أي نعمة لأنها السبيل إلى جلب النعم وهي الطريق الوحيد للنصر ولإجابة الدعاء، ففيها براءة الإنسان من كل مايغضب الله وهي (الذنوب).

علاقة المقطع بالمحور:

وفي نهاية المحاججة العقلية التي يبذل المؤمنون فيها مايعرفون من حجج وما يستطيعون من وسائل يقرر الله عز وجل نصر المؤمنين على مجادليهم وأن لهم السعادة في الدنيا والآخرة فلا تغيضهم مغالطة المجادلين وعنادهم

الهداية في الآيات:

جمعت هذه الآيات جوانب كثيرة من الهداية:

* أن النصر أكيد للدعاة وللمؤمنين المجاهدين لإعلاء كلمة الله وتطبيق شريعته.
* وحدة الدين وأن الله أرسل جميع الرسل لتوحيده فلا تناقض بين الكتب التي نزلت على الرسل جميعاً ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٣]. وهذا الخطاب لبني إسرائيل ليؤمنوا بشريعة محمد ﷺ ورسالته.
* يجب على الداعية أن يتحلى بالصبر ولا يضجر ولا يسأم من الدعوة إذا أصابه أذىً في سبيل الله حين يدعو إلى شريعته فإن الظفر مع الصبر.

أسباب تمسك المشركين بشركهم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

علاقة المقطع بالآيات قبله:

في الآيات السابقة بيّن الله أن النصر حليف المؤمنين فما عليهم إلا الأخذ بالأسباب والصبر في الجهاد والدعوة والإستغفار، وفي هذه الآيات يبيّن الله عز وجل أن المجادلين من المشركين لايدفعهم فكر ولا عقيدة سليمة وإنما الدافع الوحيد للجدل بهذه الصورة هو التكبّر.

ثم يبين الله عزّ وجلّ سفاهة المتكبرين وخفة عقولهم فإنَّ خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الإنسان وهي في وظيفتها وفي المساحة التي تحتلها في الكون لم يكن الإنسان إلا جزءاً يسيراً جدا من هذا الكون، فعلامَ التكبر إذن؟!!

التفسير الاجمالي:

واذا كان الموت حتماً وأن الساعة لا ريب فيها فما من عاقل إلا ويعمل لذلك اليوم ويتوجه إلى الله تعالى في غفران ذنوبه وقبول توبته

وإن الذين يتكبرون سيحشرون أذلاء ويدخلون جهنم صاغرين فالجزاء من جنس العمل.

وتبقى السورة مرتبطة بموضوعها ومحورها وهو الصراع العقلي بين الحق والباطل بين الإيمان والكفر.

تصدر السورة الحديث عن الجدل وفي وسط السورة والآن في قسمها الأخير.

ففي أول السورة بين لنا عز من قائل أن الذين يجادلون في آيات الله هم الكفار لأنهم يجادلون من أجل الجدل وليس من أجل الوصول إلى الحقيقة، فإن آيات الله واضحة ودلائله بينة فهم يجادلون متذرعين بمراكزهم الاجتماعية وطبقاتهم الاقتصادية والنفوذ السياسي ويجبرون الناس على تصديق كذبهم وتصويب باطلهم وتزيين خطئهم.

ثم يذكر الجدل الآخر دليله التردد والارتياب والطغيان وهو أيضاً دليل النفوس غير المستقرة والعقول غير المنضبطة وذكر الله تعالى هذا النوع من الجدل بأنه مصدر غضب وكراهية واشمئزاز من الله تعالى ومن المؤمنين لأن المغالطة تزعج كل ذي لب وتدعو لغضب كل من يحترم عقله.

فالله يغضب لأنه بنى المنطق السليم على أسس لم يستخدمها هؤلاء المجادلون والمؤمنون يغضبون ويمقتون هذا النوع من الجدل لأنه دليل عدم الوصول إلى الحقيقة ولا إرادة الصواب فلا طائل تحته.

ثم يعرج هنا على الجدل ثالثة ذاكراً سبب هذا الجدل فليس غايته الوصول إلى الحقيقة ولا معرفة الصواب وإنما سببه التكبر والنظرة الفوقية للناس فقالوا لنوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون وفرعون قال أن له ملك مصر فكيف يؤمن لرجل رباه في قصره وقومه عبيد له.

وأهل مكة قالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، إذن لم ينظروا إلى كونه صواب أو خطأ ولا حق أو باطل وإنما قالوا أن حامله ليس بالمستوى الذي ننقاد له أو بالمكانة التي نؤمن بقيادتها وتصدرها. كما أنّهم قالوا كيف نجلس مع هؤلاء العبيد والضعفاء.

فالذين ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾.. فادعاء العظمة والتعالي من قبل الإنسان محض هراء، لأن كل ما في الكون وما في نفسه لا يدفع على التكبر، فالتكبر نقص في العقل وخطأ في التصور والاعتقاد وما تكبرهم هذا إلا خيال يتصورون أنهم يصلون إلى مراتب يسيطرون بها على خلق الله ويتحكمون بمصائرهم ولن يبلغوا هذه المراتب أبداً.

هذا التكبر يقتضي أن يستجير المؤمن بالله من مصدره ويلجأ إلى الله في دفع أذاه لأنه من أدوات الشيطان الذي يدفع أولياءه إلى العناد والابتعاد عن طريق الحق وطريق الصواب ويزين لهم أعمالهم القبيحة، فالله تعالى عالم به ويسمع ما يجادلون به والله عاصم أوليائه من أمثال هؤلاء.

أيها المجادلون ألا تعلمون أن الله خلق السماوات والأرض وما فيها، فليس مع قدرته قدرة ولا مع مشيئته مشيئة، فإعادة الخلق أهون من اختراعه وإبداعه.

هذا النظام الكوني الذي تسير عليه السماوات والأرض بما فيها من شموس ومجرات والتي لا يقدر قدرها وهي تسير وفق نظام دقيق لو خرجت عليه قيد أنملة لاحترق، فمن أنت أيها المتكبر ومن أنت ايها الناكر لقدرة الله على إعادة الخلق يوم القيامة ومحاسبتهم لما اجترحوا.

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ وخلق الناس ابتداءاً أكبر من إعادتهم بعد الموت. كما أن في السماوات والأرض أشياء وأحياء أكثر تعقيداً في خلقهم وفي وظائفهم من الإنسان. فالسماوات والأرض ككيان وما فيهن من سنن والأرض وما فيها من حيوان أو نبات، خلقهم أكبر من خلق الإنسان. وعند الحساب لن يستوي الأعمى والبصير الذي عرف الحق وسار عليه وآمن بخالق الكون وانسجم مع حركة الكون ونظامه بنظر ثاقب وعقل سليم ونفس واعية مطمئنة، فإن الله خلق له أدوات المعرفة ﴿ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ ﴾ حتى يعلم الحق من الباطل فلا يستوي هو ومن عطل هذه الأدوات أو استخدمها على غير ما وضعت له وخلقت من أجله.

فالبصير أداه بصره إلى الإيمان والأعمى أداه عماه إلى السوء فلا يستوون ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ فنظر بسيط يعرف الإنسان أن هذه المساوات غير كائنة ولا واجبة قطعاً.

فحكم عقلك تنجو من العقاب لأن ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ فلا تكن مع أكثر الذين لا يؤمنون مع أن الواقع وسير الحياة ونظام الكون كله يدل على ذلك فلو لم تكن هناك محاسبة وإحصاء للأعمال وعرضها في يوم القيامة لو لم تكن هذه لكان هناك ظلم في أصل

الخلقة وما شاء الله أن يفعل إلا الحق فلا يمكن أن يتساوى في المصير، فرعون وموسى ولا محمد ﷺ، وأمية بن خلف وأبو جهل، محمد وموسى واتباعهم أرادوا الخير للناس وضحوا من أجله براحتهم وسعادتهم الدنيوية.

وفرعون وأمية بن خلف وأبو جهل سخروا الخلق لشهواتهم وأطماعهم الشخصية فهل يكون مصيرهم بعد الموت واحد؟ لا يقول بهذا عاقل.

علاقة الآيات بالمحور:

لم تفارق السورة في أيّ من مقاطعها المحور لافي الإسلوب ولا في العرض ولا في الحقائق المعروضة وفي هذه الآيات أسلوب المحاججة واضح جدا ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾.

الهداية في الآيات:

* أن الصراع بين الحق والباطل يستغرق عمر الإنسانية جمعاء. كما أنه يستخدم جميع الوسائل العقلية والحسية ويصل أحياناً إلى المواجهة العسكرية.. وهنا تتكلم الآيات أن الجدل الذي أشارت إليه السورة في ابتدائها سببه الكبر والعناد وليس المحاججة الحقيقية والتسليم العقلي.
* ومن حيثيات النقاش الاعتراض على إعادة خلق الإنسان، أو بعثه بعد الموت والآية تشير إلى أن الله خلق أشياء كثيرة أعقد من الإنسان وأكبر منه، فليس من الصعب أن يخلق الله الإنسان ثم يفنيه ويبعثه مرة أخرى..

توجيه للمؤمنين لتوثيق رأيهم بالسنن الكونية

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

علاقة آيات المقطع بما سبقها:

ذكر الله في الآيات السابقة الدافع للجدل عند المشركين وأنه التكبر الذي ليسو أهلا له وفي هذه الآيات يوجه الله المؤمنين إلى الدعاء وأن هؤلاء الذين يتكبرون عن دعاء الله؛ وقرن الدعاء بالعبادة أو سماه العبادة، هؤلاء المتكبرون سيدخلهم الله في جهنم أذلاء حقراء

ثم بيّن تعالى صفات الله وكيف نظم الكون هذا التنظيم الدقيق الذي يعجز عنه غيره ويعجز البشر عن إدراك الحكمة فيه أحياناً؛ وهذه كلها حجج للمؤمنين في دحض حجج المجادلين من الكفار.

التفسير الإجمالي

هذه الدلائل تؤكد الحقيقة الثابتة والتي يعتقدها كل عاقل سويٍّ منصف، ولذا فاني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله وعلى ذلك يبدو الذين يجادلون في آيات الله مغالطون بعيدون عن أي حقيقة علمية أو عقلية.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾.. وقد وردت الأحاديث الكثيرة التي تبين

مكان الدعاء من العبادة وقد ورد في الأثر (الدعاء مخ العبادة). وكذا قوله ﷺ: (الدعاء هو العبادة)[١]، وإذا نظرنا إلى تعريف العبادة: بأنها الطاعة بذل علمنا أن العبادة تتجلى في الدعاء في أجلى صورها.

فالدعاء طلب الأدنى من الأعلى، وأن تطلب حاجتك ممن تعلم أنه يقضيها هو منتهى الذل، فكيف إذا كان هذا الذي يقضيها لا يستطيعها أحد بدون إذنه وتوفيقه كما يعتقد الذي يدعو؟

فالطاعة بذل أو من غير مراجعة الأمر ولا التفكير في معارضته أو منطقية سؤاله وطلبه فهي هذا الدعاء.

ومن فضله عز وجل وكرمه قوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.. حتى أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ قال: أنا لا أحمل هم الإجابة أكثر من هم الدعاء، فإذا وفقت للدعاء فالإجابة مقرونة به[٢].

ويروى عنه أنه كان يقول أدعو الله كثيراً وأتمنى أن لا تجاب دعوتي في الدنيا لأن الله يدخرها لي أجراً في الآخرة. وهذا هو قلب العارف بالله المستيقن به.

وقد ذكر العلماء أن للدعاء آداب يجب مراعاتها، منها الصدق وإخلاص القلب لله والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها أو تخصيص وقت للإجابة فإن هذا الاقتراح ليس من أدب الدعاء.

وكما ذكرنا أن الدعاء طلب الأدنى من الأعلى فكيف بهذا الأدنى أن يقترح على من هو أعلى منه صورة إجابة الدعاء؟

والدعاء دليل ارتباط القلب بالله والخضوع له وإفراده بالعبادة والتوجه والتعالي عن كل ما عدى الله أن يكون موطناً للطلب أو مصدراً لتلبية الدعوة فالله وحده موطن الدعاء ومصدر الإجابة.

---

(١) سنن أبي داود (١٤٨١)، سنن الترمذي (٢٩٦٩)، السنن الكبرى للنسائي (١١٤٦٤) وأما لفظ «الدعاء مخ العبادة» فقد أخرجه الترمذي (٣٣٧١) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٢) في ظلال القرآن ج ٥/ ص ٦٥٤.



وقد قرن الله قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾.. بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾.. فجعل الدعاء عبادة وعدم التوجه إلى الله دليل الكبر، والتكبر أولى درجات الكفر والعصيان وفي الحديث القدسي: (الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته ولا أبالي) وقد جعل الله التكبر جريمة يعاقب عليها يوم القيامة والعقوبة من جنس العمل، فالتكبر جزاؤه الذل والصغار ﴿ سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أذلاء وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البروج: ١٠].

لأن أصحاب الأخدود فتنوا المؤمنين والمؤمنات بالحريق فإذن الذين يتكبرون عن عبادتي ودعائي سينالهم ذل واحتقار يوم القيامة والله تعالى هو رب السماوات والأرض ورب الجنة والنار فهو المستحق الوحيد للعبادة والتوجه في الدعاء وقد ينالهم الذل في الحياة الدنيا.

ثم يوجه الأنظار إلى سبب التوجه إلى الله في الدعاء والعبادة فيقول سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ ﴾.. فهو الحقيق بالعبادة والتوجه في الدعاء لأنه الوحيد المتصرف بالكون وواضع نظام الليل والنهار والشمس والقمر والمتحكم بتسييرهما.

وهو عز وجل جعل هذا النظام الكوني في حركة الشمس والأرض وتكوين الليل والنهار، جعله ملائماً لحياة الإنسان وكأنه مكيف له ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص:٧٢- ٧٣]. إذن.. طبيعة الليل والنهار لاستمرار حياة الإنسان وبقاء نوعه على الأرض إلى يوم القيامة.

فالليل للسكون (إذا سجى)، وللراحة والنهار لطلب العيش والنشاط الذي اكتسبه من سكونه في الليل فيرى ما يريد العمل به واستثماره وتحصيل مادة الحياة منه. ولا يوجد أفضل من هذا ولا يستطيع غير الله أن يهيئ هذا النظام للحياة، فمن حقيق بالشكر؟ ومن أحق بالعبادة

وأجدى بالطلب منه (الدعاء)؟

إضافة إلى ذلك فهو خالق كل شيء وموجده من عدم وواضعه في الصورة التي تصلح له ويصلح بها ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه: ٥٠].

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾، فالحاكم الوحيد في الكون هو الله الذي لا إله إلا هو فإلى أي جهة تتجهون بعبادتكم وما هو الدافع لكم يصرفكم عن عبادة الله وكيف ستواجهونه يوم القيامة؟

ولا ينصرف عن عبادة الله وتوحيده إلا المعاندون الجاحدون المتنكرون لطبيعتهم وفطرتهم وإلا فكيف ينكر وجود الله أو وحدانيته أو إلوهيته؟ وجميع الدلائل العقلية والطبيعية والحسية تؤيد أنه لا إله إلا هو.

ثم تساق حجة أخرى على أنه لا إله إلا هو وهي: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾.. هذا النظام الكوني الجميل الذي جعله الله بأبهى صورة ليلائم أجمل صورة خلق فيها الإنسان سيد هذه الأرض وخليفة الله فيها، فالأرض مستقراً ومقاماً ومعاشاً نشاطاً، بدورانها حول نفسها ودورانها حول الشمس مما يسهل العيش فيها ويجعل الماء (البحار) في مكانه واليابسة في مكانها ولو تغير أي من هذه الأنظمة لاستحالت الحياة على الأرض!.

كما يقول العلماء (وقد نقل صاحب الظلال رحمه الله) تفاصيل هذه الكيفية والذي أحب الإشارة له هو ذكر جمال صورة الإنسان من بين المخلوقات مع جعل الأرض مستقراً والسماء بناءً شديداً غليظاً ومن عليها من الملائكة جعلهم الله أدوات لتحريك أجزاء هذا الكون الملامس للسماء أو القريب منها. ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ﴾.. فأحسن صورة الإنسان وأجمل نظام للأرض والسماء وأطيب رزق. ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ ﴾.

وهذا الرزق الذي يعيش عليه الإنسان جزء منه يخرج من باطن الأرض وجزء منه ينزل

من السماء وجزء ثالث يتكون من اتحاد أجزاء من الأرض بأجزاء من السماء ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.. فسبحان خالق الكون العجيب وسبحان خالق الإنسان الأعجب وسبحان مربي هذا الكون وراعيه لم يخلقه عبثاً ولم يتركه بعد أن خلقه من غير رعاية.

فنظام الليل والنهار والأرض والسماء والرزق وتحسين صورة الإنسان آية من آيات صنع الله، وكلها مباركة من الله، فعظمت بركته وتعالى جده وما أجمل هذا التلاؤم في اللفظ والرصف في الكلمات، فهي جميلة في لفظها وجميلة في معناها وجميلة في ترتيبها.

فختم آية الفضائل التي تفضل الله بها على عباده بكلمة تبارك ما يدل على النماء والبركة إتماماً لجمالية الآيات وملائمة ما فيها من معان وألفاظ.

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.. وكل شيء محاط بعدمين خلق من عدم ويعود إلى عدم في هذا الكون الدنيوي فلا يكون خالقها ومنظمها إلا واجب الوجود، فمن السفاهة والتخبط أن يتوجه أحد إلى غيره في الدعاء والركون والاستغاثة، فمن الحكمة أن يركن الإنسان إلى الله وينقي قلبه من أي نوع من أنواع الشرك ويتجه بكليته إليه ﴿ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

فهو عز وجل الذي له الحمد في رعايته للكون وتربيته للإنسان ورعايته له. فأمرنا أن نحمد الله على أن أعاننا على حمل دعوته فتكون الدعوة بقلب مخلص حامد لله على هذه النعمة.

والله عز وجل لم يترك الإنسان يتخبط فكما جعل للكون نظاماً لا يمكنه الخروج عليه ولا ينبغي له ذلك فان هذا الكون محكوم بهذه السنن. والجزء الوحيد في هذا الكون الذي أعطاه جزء من الحرية في الاختيار هو الإنسان. ثم جعل له نظاماً لحياته منسجماً مع نظام الكون فإن خرج على ما وضعه الله له أغرق نفسه في ظلمات من الحيرة والريبة والتخبط ولا يمكن أن يحصل سعادته بما يصنع لنفسه من النظم المخالفة للنظام الإلهي الذي وضعه الله له.

والذي يحصل في هذا الكون في حياتنا الخاصة والعامة شاهد على حيرة الإنسان وتخبطه

وفقدانه أي نوع من أنواع السعادة إن كانت نفسية أو اجتماعية أو طبيعية ان لم يرتبط بالله.

فتماديه في مخالفة الله أدى به إلى مخالفة فطرته وطبيعته وأهدافه وسر وجوده. مما جعل حياته كحياة الحيوان في غابة، بل أن بعض تصرفاته يستنكف عنها الحيوان وكما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهل بعد هذه البراهين والحجج والأدلة لأحد أن يعبد غير الله ولذا فإن الله أمر نبيه أن يقول لهم أنه يستحيل أن يعبد هذه الأحجار والجمادات، لأن الله هداه إلى العبادة الحق وأمكنه بالدليل بترك كل ما يعبد أهل الجاهلية.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قالا: يا محمد ارجع عما تقول وعليك بدين آبائك وأجدادك[1].

ومن المعروف أن الرسول ﷺ لم يتوجه لغير الله بالعبادة قبل البعثة فمن الطبيعي أن يكون كذلك بعد البعثة. وحينما دعوه ليعبد آلهتهم ويعبدون إلهه ما هي إلا دعوى ليعالجوا بها كبرياءهم، لأنهم فقدوا ثقتهم بالأصنام وبكل ما يعبدون من دون الله بأول نداء لتركها.

وجميع النصوص تشير إلى أنهم لم تعد ثقتهم بالأصنام والمعبودات كما هي وغالب حجتهم {كيف نترك ما كان يعبد آباؤنا}.. ولم يقولوا كيف نترك عبادة من اقتنعنا بعبادته.

حتى حينما أراد أبو طالب أن يسلم قال له أخوه أبو لهب وتترك دين عبد المطلب فأثار فيه الحمية والاعتزاز بدين الآباء لأنه ليس لديه دليل على صحة عقيدته إلا أنها عقيدة آبائه فلا يسعه تركها.

فهذه الأدلة ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ تدفعه لأن يدعوهم لترك معبوداتهم وليس أن يتركها هو وحده، فلا يرضى لقومه السفاهة، وليس هذا فقط وإنما ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ

(١) المحرر الوجيز -تفسير ابن عطية -مجلد ٧ ج ٢٤ / ص ٤٥٥



ﱡﭐٱلۡعَٰلَمِينَ ﱠ.. فإنه ﷺ أخبرهم أنه يوحد الله في عقيدته ويضبط سلوكه بما رسم له الله عز وجل منقاداً طائعاً عارفاً أن هذا هو الأسلم والأجدى والأكرم للإنسان السوي.

علاقة آيات الموضوع بالمحور:

وفي الآيات السابقة أورد الأدلة على وحدانية الله وتفرده بالإلوهية، ومن تمام حكمته أنه أورد صفات الله لا يشترك فيها المخلوق لا في الظاهر ولا في صورة من الصور كالنفع والضر والملك والكرم والحلم.

وإنما أورد هذه الأدلة وذكر السنن التي ينفرد بها الله عز وجل مثل خلق الأرض والسماء والليل والنهار وخلق الإنسان من عدم وجعل نظام للكون يصلح لحياة الإنسان وهكذا فكان أن قال ﷺ: (إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني من البينات من ربي)، هذه البينات التي ليس لكم طاقة في ردها ولا تكذيبها.

وهذا يشبه ما قاله إبراهيم للنمرود ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ ﴾[البقرة:٢٥٨]. لم يكذبه إبراهيم في دعواه وحسب تصوره للموت والحياة وإنما جاء له بأمر لا يستطيع أن يدعي مثله. وهذه من أدب الحوار وقواعد المحاجة.

الهداية في الآيات:

* تشير الآيات إلى أن الدعاء هو العبادة والدعاء هو طلب الحاجة من الله تعالى وهو دليل التذلل والخضوع لله تعالى وأن الدعاء يجعل المسلم مرتبط بالله في كل وقته لأنه محتاج إلى الله حتى أداء الفرائض يدعو الإنسان ربه أن يعينه عليها وأن يهديه لأقومها ولأحسنها قبولاً أن في هيئتها أو في نوعها.

* كما أن الآيات تشير إلى أن الله تفضل على الإنسان بأن جعل السنن الكونية على هذا النحو من النهار وما يعمل به والليل وما يستفاد منه فهي جميعاً فضل من الله تعالى، حتى خلق

الجبال والأنهار والشمس والقمر وغيرها.

* لقد ربط الله تعالى الرزق بالسنن الكونية من ناحية التفضل فإنه تعالى بعد أن ذكر الليل والنهار والأرض والسماء وتفضله جل وعلا على الإنسان بأن جعلها على هذه الكيفية ذكر أنه رزق الإنسان الطيبات.

وهذه جميعاً تحتم على المسلم والإنسان ألا يعبد سوى الله وأن يوحده في ذاته وصفاته وأفعاله وأفضاله.

اعتزاز الرسول ﷺ بإيمانه وهو قدوة للمؤمنين

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

علاقة الآيات بما سبقها:

في الآيات السابقة بيّن السنن الكونية التي لا يمكن أن يدّعيها أحد من الطغاة أو المعبودين من قبل المشركين وعلى هذا فتكون هذه الآيات تبيّن إفراد الله عز وجل بالعبادة ونفي الشركاء فهو خالق الكون ومدبره وهو خالق الانسان من التراب وجعل له سنة للتناسل والتكاثر.

فلايستحق العبادة غيره ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

التفسير الاجمالي

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾..

فالله عز وجل هو الذي أوجد الإنسان من عدم وقد خلقه من تراب، والتراب كما يقول العلماء أصل الأحياء جميعاً من نبات وحيوان.

فالنبات يصنع غذائه من التراب والماء والضوء فتتكون جميع أنواع الأغذية التي يقوم بها جسم الحيوان والإنسان. وكلما تقدم الأحياء في سلم التقويم كلما خف تعقيد صنع الغذاء.

فالنبات يصنع الغذاء الذي يتناوله الحيوان من التربة والماء والضوء فيتكون كربوهيدرات وأملاح وبروتين والإنسان يأخذ غذائه من الحيوان والنبات جاهزاً، فيأخذ لحم الحيوان وفاكهة النبات الذي تكون فيها مكونات الغذاء جاهزة وكاملة، فأما أن يكون المقصود خلق آدم من التراب ثم قامت عملية التناسل أو أن المقصود حتى هذه النطف تكونت من الدم والعظام وتكونت الأخيرة من التراب الذي تكلمنا عن المراحل التي مر بها الغذاء.

والأرجح هو خلق آدم من التراب ثم خلق من آدم حواء التي هي زوجه ثم بدأ التناسل.

فتكون الجنين من الحيوان المنوي الذكري بعد إتحاده مع البويضة الأنثوية ثم يتطور الجنين في رحم أمه تطوراً يختصر الأحياء جميعاً من أحادي الخلية إلى الخلق الكامل وهذه المراحل التي تكلم عنها القرآن الكريم لم تعرف إلا بعد القرآن بقرون.

ثم يكون طفلاً كاملاً فيخرج من رحم أمه ضعيفاً يعتمد على أمه في كل شيء ثم ينمو ويشتد حتى يكون في أقوى مرحلة تقريباً بين الثلاثين والأربعين ثم يعود إلى الضعف.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الموت يكتنف جميع المراحل فقد يصيب الجنين فيسقط وقد يكتمل خلقه فيموت عند الولادة وقد يموت طفلاً أو شاباً أو شيخاً ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾.

وأي عاقل ينظر إلى هذا التطور الحياتي ولا يرى له سبب إلا مشيئة الله وقدرته فلا الحياة لها علة واضحة ولا الموت له سبب منضبط فأي عاقل يلاحظ هذه الحقائق التي تجري ونحن

محكومون بها إلا ويذعن إلى الحقيقة العظمى وهي أن هذا الكون بمجموعه وبأجزائه أفراداً محكوم بإله قادر قاهر لا يعترض عليه غيره ولا يدرك أحد حقيقة ما يجري إلا من أطلعه الله عليه، فالعاقل يقر بوجود هذه القوة ويقر بوحدانية الله سبحانه، وبإلوهيته إضافة إلى ربوبيته.

فالحاكم في الكون والمدبر له والمسير له والذي وضع قوانينه وسن سننه هو الله سبحانه، وهو الذي يحيي من عدم ويعدم الحياة ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾.. ولا يكلفه شيء في إيجاده ولا إعدامه حيث أن كلمته للشيء كن فيكون أي شيء أراد، صغيراً أو كبيراً عظيماً أو حقيراً.

فهو المتفرد بالكون الفاعل الوحيد فيه ولا فعل لغيره إلا بإذنه وتوفيقه.

وهذه الحقائق يجب ان تكون نصب عين المتحاورين.

علاقة المقطع بمحور السورة:

يقول الله سبحانه ﴿ ۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦ ﴾

ألم يكن هذا تلقينا من الله عز وجل للرسول ﷺ جوابا للمجادلين أو حجة على مناقشين؟! فالآيات تشير إشارة واضحة إلى أن الرسول يناقش قوما يطلبون منه الإنصراف عما يعبد، فالصراع بين الصواب والخطأ والحق والباطل ظاهر جدا في هذا المقطع.

الهداية في الآيات:

توجيه الرسول ﷺ ليعلم الناس أن هذه السنن ومنها خلق الإنسان ومراحل تكوينه في رحم أمه والموت والحياة وعدم وجود ضابط لهما معروف وإنما هي جميعاً بأمر الله.

إن هذه جميعاً تدعو للإيمان واليقين أن الله هو الفاعل الوحيد بالكون وإنه لا إله إلا هو.

وعيد للمشركين بمصيرهم في الآخرة

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

علاقة ايات المقطع بما قبلها

بعد أن بين الله عزوجل هذه الحقائق وكيف خلق الله الانسان وتطوره في رحم امه ولم يؤمن هؤلاء ولم يذعنوا للحق الواضح وبقوا في جدلهم العقيم جاءت هذه الآيات تبين لهم مصيرهم وما أدى اليه نكرانهم للحق﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ ﴾

التفسير الإجمالي

وبعد أن رأيت الذين يغالطون ولاينصاعون إلى برهان عقلي أو علمي فما عليك إلا أن تصبر كما صبر الرسل قبلك وكما هو شأن جميع المصلحين.

وتبقى السورة بمحورها وحوله ويبقى الفرقاء كل يرد حجة الآخر كما تحكي السورة فالمشركون يجادلون في آيات الله ويحتجون على الدلائل الواضحة والبينات الملزمة، ولكنهم مصروفون عن الحق الأبلج ومن العجيب أنهم لا يذعنون بالحق المبين ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.. فيذهبون كل مذهب ليبتعدوا عن الحق، فهم مغالطون فقد كذبوا رسل الله وكذبوا كتبه، فالكتاب هنا إما أن يكون جنس الكتاب فيعني الكتب المنزلة من الله جميعاً أو كتاب الله القرآن الذي جمع كل ما جاءت به الكتب السابقة من

الهدى أو أنهم كذبوا حكم الله الذي قررته الكتب وكذا كذبوا ما جاءت به السنة النبوية.

وفي الآية تهديد لهم بقول الله عز وجل ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾.. فإن الله تعالى سيجمعهم يوم القيامة وسيحاسبهم عن هذا الكفر وهذا العناد والمغالطة، وقد ذكر الله عقوبتهم كأنها واقعة فعلاً ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.. والغل هو الحلقة التي تجمع أيدي الأسير إلى عنقه وفيها سلسلة من حديد تسحبهم الملائكة على وجوههم في النار أو أنهم يسحبون هذه السلاسل المحمرة من نار جهنم لتعذيبهم فيها وقيل أنها تثقلهم في جهنم فكلما طفا بهم اللهيب أعادتهم السلاسل إلى القعر:

وعلى المعنى الأول تسحبهم الملائكة على وجوههم في الحميم وهو صديد أهل النار أو الماء الذي بلغ غايته من الحرارة.

ثم تسخن بهم نار جهنم فهم وقودها كما قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤]. وتملأ فيهم من سجرت التنور ملأتها حطباً ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق: ٣٠] ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ وهذا هو نتيجة قوله تعالى: ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾، فيخاطبهم خزنة جهنم أين ما كنتم تشركون مع الله أين أصنامكم أين آلهتكم التي تشركونها مع الله في التوجه وطلب الحاجات. هل تستطيع أن تخرجكم من العذاب ؟!

وهي صورة من التبكيت والاستهزاء فكأنهم ما كانوا يشركون مع الله، إذ يرون عظمة الله وعظمة ما يفعل فيتضاءلون إلى أدنى دركات الانحطاط والهوان.

ويكون جوابهم للملائكة يدل على التخبط والتردد إذ يقولون ضلوا عنا واختفوا ولا ندري مصيرهم، ثم يستثنون: ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾، وهذا الجواب يكون بإنكارهم الشرك أصلاً أو وصفهم لمعبوداتهم أنهم ليسوا بشيء يعتد به أو يركن إليه قالوا ﴿ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾، وبهذا يظهر ضلالهم الذي اكتسبوه بعنادهم وكفرهم ومغالطتهم وصدودهم عن الحق المبين وأثبته الله لهم ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾..

وهي من قبيل ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

ثم جاء تعليل القرآن الكريم لهذا الضلال ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ ﴾.. بعصيانكم وتتبجحون بمخالفتكم شريعة الله ودينه وهكذا شأن الكافرين والعصاة، فحتى لو كان داخلهم يحترق وتتميز من الغيظ والحنق على نفوسهم وعلى معاصيهم فإنهم يظهروا للناس أنهم سعداء فرحين. وهذا من قبيل تماديهم بالمعاصي والجحود ويدل عليه (بغير حق) ففرحكم لم يكن في مكانه ولا مناسب لأوضاعكم بمخالفتكم للحق والعقل والقيم الثابتة التي جاء بها رسل الله والدعاة.

ففرحكم هذا أو إظهار هذا الفرح والتبجح والتكبر على خلق الله والأشر والبطر على عباد الله أودى بكم إلى هذا المصير. وهو التبري من الآلهة واحتقارها واحتقار أنفسكم بإتباعها الغي، وعبادتها لما لا يستحق هذه العبادة ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾..

فنتيجة هذا العناد والكفر والإصرار عليه في الدنيا وعدم التفكير بالتوبة والرجوع إلى الحق وسلوك طريق المؤمنين ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾.. فأي عاقل يستبدل باقية بفانية؟ وحياة قصيرة الأمد يفضلها على حياة خالدة باقية ليس لها انقطاع ولا لنعيمها زوال ولا لعذابها توقف.

ولكن أكثر الناس للحق كارهون وتدفعهم شهواتهم إلى مخالفة أحسن القيم وأوضح البراهين وأبين الدلائل.

﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.. وبئس كلمة ذم، وهل يلحق الذم شيئاً أولى من جهنم وهذا هو مقام الذين كبر على نفوسهم إتباع الرسول ﷺ والاصطفاف مع المؤمنين، لأن في المؤمنين فقراء وناس غمر ليس لهم في المجتمع الجاهلي أثر وخطر، فنتيجة هذا التكبر هو الاستقرار في ألأم دار في جهنم وبئس المصير وتعس سكانه وخاب أولياؤه.

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۚ ﴾.. لقد وصى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بالصبر مرتين في هذه السورة، مرة حينما ضرب له مثلاً في انتصار موسى على فرعون بعد وعده له ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.. فأنجز وعده ونصر موسى وقومه الضعفاء الغمر على فرعون أعتى الطغاة وجنوده الكثر الأشداء. فهي صورة من الصور التي تحكي علاقة الدعاة بأقوامهم ومصير الدعوة الحق.

فقال الله عز وجل لرسوله ﷺ: اصبر إن مصيرك كمصير موسى، إذ نصره الله ومصير من كذبك وكفر بدعوتك مصير فرعون وملأه، إذ أنهم ليسوا أقوى من فرعون ولست أضعف من موسى وقومه.

وفي هذا المقام أمر الله رسوله ﷺ بالصبر ثم فصل له عاقبة هذا النصر ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۚ ﴾.. فهو الثابت الواجب الصحيح فلا يخلف الله وعده، فإن نالك يا أيها الداعية تعب أو نصب أو مشقة أو أي امتحان فإن العاقبة للدين الحق وللشريعة التي تكفل لأتباعها السعادة في الحياة الدنيا وفي الآخرة النعيم المقيم الذي لا يقدر قدره.

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ ﴾.. من سوء العاقبة والقتل والذل كما كان يوم بدر وفتح مكة ونفوذك في جميع جزيرة العرب وظهور جنودك خارج الجزيرة في مؤتة وتبوك. وقد لاحظ هذا الرسول الكريم ﷺ وانتصر بنفسه في هذه المعارك التي قادها وأذل الشرك والمشركين ولم ينفعهم جدلهم ولا تكبرهم، وأن هذه السورة مكية وهذه الوعود إذ كان المسلمون أشد ضعفاً وإما أن ينصر الله دعوتك بعد وفاتك كما هيأ الله لأبي بكر ﷺ خليفتك وصاحبك وأحب الناس إليك حيث أعاد الجزيرة العربية إلى الإسلام بعد أن حاول الأعراب نكث العهد والارتداد عن دين الله ثم خرج بدعوة الله إلى العراق والشام ولم يقض ﷺ حتى وصل جنوده عاصمة الدولة البيزنطية بالشرق (سوريا) وحتى سيطر جنود أبي بكر ﷺ دعاة الإسلام إلى حدود عاصمة الفرس وأخذ بعض أطراف دولتهم ﴿ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾.. وقد أكد القرآن الكريم هذه الدعوة وهذا النصر في هذه الكلمات التي تحكي النصر في حياة الرسول ﷺ

وبعد موته بالنون في الجزأين من الآية.

فاطمئن أيها الرسول الحبيب فإما أن تنتصر وإما أن ينتصر جنودك حاملي دعوتك والله يرعاهم وإليه يرجعون في الحالتين فالنصر حليفهم ما داموا متمسكين بشريعة الله مقاتلين لإعلاء كلمة الله. وسيعود المشركون إلى جهنم وينصرك عليهم في الدنيا والآخرة.

وينهي المقطع النقاش في هذه الحقيقة التي أشير إليها باساليب مختلفة.

علاقة الآيات بالمحور

وتبقى السورة مع محورها ويبين الله عزوجل عقم جدل المشركين فإنهم لاينصاعون للحق ويبقى جدلهم لاقيمة له فيؤدي بهم إلى المصير المهين الذي يستحقونه لعدم انصياعهم للحق الأبلج.

فان الحجج التي يدلي بها المؤمنون مستقاة من القرآن الكريم والسنن الكونية وسيرة المصطفى ﷺ فلابد أن تفحم المشركين لأن حججهم منبعثة من اهوائهم وشهواتهم.

الهداية في الآيات:

* إن نهاية المجادلين عناداً ومغالطة وتكبراً مصيرهم إلى النار ثم أن الله تعالى سيحاججهم بواسطة ملائكته وأن المشركين يوم القيامة يتبرؤون من شركهم ومن الذين أشركوا.
* وبراءتهم تدل على أنهم حينما عاينوا الحقيقة وعرفوا أن الله هو الواحد الفاعل في الكون نسوا جميع عقائدهم حتى خيل لهم أنهم لم يكونوا يشركون أصلاً، فكيف يشركون وهذه الحقيقة العظمى أمامهم.
* ما أتفه ما أشركوا وكيف لعاقل أن يتصور أن هذه الأشياء أو هؤلاء الأشخاص لهم قيمة أمام هذه الحقيقة الكبرى العظيمة.

تطمين الرسول ﷺ ووعده بالانتصار له ولدعوته

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

علاقة المقطع بالآيات قبله

بعد أن بين الله مصير المشركين طمأن الله نبيه بأن النصر حليف دعوته وما عليه إلا الصبر.

ثم جاءت هذه الآيات تقول إنك لست وحدك وإنما هي كوكبة من رسل الله جاءت بما جئت به وأهلك الله الظلمة الذين لم يؤمنوا بالرسل وانتصر لرسله وللمؤمنين.

التفسير الاجمالي

وهؤلاء الذين يكذبون رسل الله ويديرون ظهورهم للحق ولايحبون أن يهتدوا إلى الصواب ألم يروا كيف فعل الله بالأمم الضالة المكذبة فهل مصيرهم بإصرارهم على الكفر إلا كمصير أولئك الذين سبقوهم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ ﴾.. فبعد أن أمر الله تعالى رسوله بالصبر على ما ناله من أذى أخبره أنه لم يكن الوحيد الذي ناله ما ناله، فقد أرسل الله قبلك رسلاً نالهم ما نالك من الأذى وهذه سنة الله في الرسل ودعاة الإصلاح.

فإن فساد المجتمعات يستفيد منه ذوي النفوذ والسطوة وقد يكونوا هم أنفسهم سبب الفساد بسلوكهم وتعاملهم مع الآخرين، فلذا يواجه المصلحون أشد أنواع الأذى والعذاب

من هؤلاء.

وأشار عز وجل أن بعض الرسل لم يذكرهم في القرآن الكريم ولم يخبر عنهم رسوله الكريم ﷺ.

ويبدو والله أعلم ان الله اختار مجموعة من الرسل وقص خبرهم على الرسول ﷺ وترك الآخرين لحكمة. فإن قصص الرسل مع مجتمعاتهم فيها عبرة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١]. ولا تكون القصة عبرة إلا إذا كانت وصفاً لحالة إنسانية قابلة للتكرار.

فاختار الله تعالى هذه القصص التي تحكي صور مجتمعات إنسانية منحرفة أرسل لها الله الرسل لإصلاحها. وهذه المجتمعات التي قص الله أخبارها للرسول ﷺ تمثل جميع أنواع الانحرافات التي قد تقع في المجتمع الإنساني وهي أيضاً نموذجاً لكل ما يلاقي الرسول والدعاة من الفتنة والعنت والتكذيب ويحكي القرآن الكريم علاج الرسل لها وردود الفعل الذي تحدثه الدعوة فيها وانتصار الحق في آخر المطاف. على أن القاسم المشترك فيها جميعاً هو فساد العقيدة.

فنظرة فاحصة لهذه القصص نجدها تمثل جميع أنواع الانحرافات في المجتمع الإنساني الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكل ما يندرج تحتها وبسببها من أحوال وصور.

فالقرآن الكريم قص لنا هذه الانحرافات وعلاج الرسل لها ومجابهتهم من قبل المستفيدين من هذه الانحرافات.

فمثلاً قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ومجتمعه الذي يعبد النجوم. وصالح عليه السلام وتنفذ مراكز القوى والعصابات. وشعيب عليه السلام، والغش في التعامل المالي. وقارون وتمركز المال عنده وإفقار المجتمع. وموسى عليه السلام، والطغيان السياسي وتأليه الحكام لأنفسهم. وقصة لوط، والانحراف الجنسي وهكذا في جميع قصص القرآن الكريم.

ولذا فإن الله عز وجل ذكر ما فيه الكفاية لرسم صورة صادقة للمجتمع الإنساني وعلاج الخلل فيه مما يتكرر حدوثه في المجتمع عبر الزمن ومما يستفيد منه الدعاة إلى يوم القيامة وهذه السورة تحكي لنا حالة من المغالطات والنكوص والعناد غير المبرر للحق والخير والهدى.

وقد مرت بنا صور لهذا الجدل وهذه المغالطات وفي هذه الآيات صورة من صور المغالطات، فإن المعاندين حينما لا يجدون حجة على الرسول ولا يستطيعون رد بينات الله التي أعطاه اياها أو رافقه بها يلجؤون إلى طلب معجزات ليس لها مبرر ولا سبب.

كما طلبوا من نبينا ﷺ أن يكون له بيت من زخرف وأن يأتي ملك معه يصدقه وأن ينزل لهم كتاب في (قرطاس) وهم جميعاً يعلمون أنها لمجرد المغالطة.

فيجيب الله عز وجل عن نبيه ﷺ ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾.. فلم يكن النبي هو الذي يختار المعجزة وإنما هي من الله أصلاً والله يعلم ماذا يريد المجتمع وماذا ينفع الدعاة وقد لا يعلم النبي حقيقة المعجزة كما خاف موسى من معجزته ولذا فإن معجزة الرسول محمد ﷺ القرآن الكريم وفيها قال ﷺ: (أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً)[1]. ولو نظرنا إلى المجتمعات الإنسانية نجد المسلمين أضعاف أضعاف كل دين من الأديان الراهنة.

فإننا نجد في عصرنا دولاً ومجتمعات تسمى نصرانية ولكن كم منهم يتدين بالنصرانية حتى المنحرفة فنجد نسبة الذين يتدينون بالنصرانية فيمن يسمون نصارى نسبة ضئيلة جداً لا تكاد تكون ١٠٠٪ واحد من كل ألف منهم ويسمون نصارى تجوزاً والانتساب كأنه قومي أو عرقي[2].

(بينما نجد نسبة المتدينين من المسلمين في المسلمين أكثر من ٨٠٪ ثمانين في المائة ولا نجد مسلماً إلا وعنده مصحف في بيته ويعلم شيئاً عن الدين وما يحتاج له في حياته. وهذا مصداقاً

---

(١) متفق عليه. صحيح البخاري (٤٩٨١)، صحيح مسلم (٢٣٩).

(٢) في استبيان عمله أحد الطلاب في جامعة قطر والمجتمع القطري فكانت النسبة أكثر من ٩٠٪ لكني اعتبرت قطر أكثر البلدان الاسلامية في نسبة التدين.



لقوله ﷺ أو إجابة دعوته (أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً)[١].

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾.. فأنزل هذه المعجزات لتقيم الحجة على الناس ويصدق رسوله.

فإن المعجزات تكون مخالفة للنواميس الكونية التي يسير الله بها أجزاء الكون فإذا خرقت على يد مدعي النبوة فإنها شهادة له بصدقه لأن هذه النواميس لا يستطيع البشر مخالفتها أو الخروج منها فيعلم الناس أن هذا الإنسان مرسل ممن خلق هذه السنن وإلا لما استطاع هو كبشر أن يخالفها.

فإذا أقيمت الحجة على البشر وبقي منهم معاندون فإن الله عز وجل يجمعهم يوم القيامة ويقضي بينهم بالحق ولا يجد المغالطون والمجادلون بالباطل حجة ويعلمون أنهم نالوا جزاءهم العادل ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾.. ويعلمون أن جدالهم وعنادهم لا ثبات له ولا بقاء أمام الحقائق التي أرسل الله بها الرسل.

والمراد بأمر الله: قضاؤه أو يوم القيامة، وأي من المعنيين يشير إلى إنجلاء الحق ووضوح الحجة الصحيحة وخسران المعاندين والمغالطين. الذين يحاولون دحض حجتك بجدال باطل وحجج كاذبة لا قيمة لها.

وقد عقب عز وجل ذكر فضله على الإنسان بتكييف السنن الكونية بما يلائم حياته أعقبها بذكر منته تبارك وتعالى بخلق ما يعينه على الحياة في الأرض من مأكل وملبس وانتقال فقال عز من قائل: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.. والانعام هي المواشي وهي الإبل والبقر والغنم فمنها ما يؤكل ولا يركب ومنها ما يركب ولا يؤكل كالحمير والبغال ومنها ما يؤكل ويركب هي الإبل ويقول أهل اللغة لا يقال أنعام إلا إذا كان

(١) قال أحد المستشرقين إن من يحفظون القرآن في مصر أكثر ممن يحفظون الانجيل في جميع العالم وهذا في الأربعينات حينما كان حفاظ القرآن في مصر يعدون.



فيها إبل وأحياناً تطلق النعم على الإبل خاصة والإبل هذه المخلوقات العجيبة في شكلها وفي تحملها وفي سلوكها، فهي الوحيدة من الحيوانات التي تحمل وهي باركة وتقوم بحملها ولها قابلية العيش بدون ماء أكثر من أسبوع لأنها تختزن الماء في جسمها.

ومن عجيب خلقها أنها لا تتسافد أمام الناس فلا يأتي الذكر أنثاه أمام الناس، فهي تستحي أكثر من كثير من البشر. ولبنها غذاء كامل. ولا يسعفنا الوقت ولا المقام في الحديث عن الإبل أكثر من هذه الكلمات.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.. وقد ذكر الله عز وجل جانبين من الانتفاع ثم عقب بالتعميم فقال ولكم فيها منافع ومن المعلوم أن هذه الأنعام ينتفع بلحمها وجلدها وشعرها وجميع هذه المنافع لا يستغني عنها الإنسان، والإبل خاصة كانت واسطة التنقل بين البلدان فالمسافات الطويلة لا تدركها إلا الإبل، ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم أي في نفوسكم وقرنت بالفلك فإن في الفلك سراً أودعه الله بها من عجيب خلقه، فإن السفينة لو جمعت أجزائها على شكل كروي أو أي شكل آخر غير مجوف والقيت في البحر لرسبت في قاعه ولكن الله جعل قانون الأجسام الطافية وهو أن كل جسم يوضع في سائل يفقد من وزنه بقدر وزن حجمه من ذلك السائل، فألهم الله سبحانه الإنسان أن يبسط مادة السفينة إن كانت من معدن أو من خشب حتى يكون حجمها من الماء يزن أكثر من وزنها ووزن ما فيها من بضائع وملاحين ومن فيها فتطفو على ظهر الماء هذه الخاصية التي هدى الله الإنسان إليها فأصبحت جزء من حياته ربما لا ينتبه إلى هذا التعقيد في قوانين الطبيعة التي خلقها الله فيها.

وقد قرن الله الإبل بالسفن حتى إن العرب تسمي الإبل سفن الصحراء لأنها تتشابه في أنها التي تقطع المسافات البعيدة في البر كما السفن في البحر.

وأمام هذه الآيات وهذه الدلائل والبراهين هل ينكر وحدانية الله وتصرفه في الكون إلا جاهل مغالط. فعلام الجدل اذن وما الذي يبطل هذه الحجج وهذه البراهين.

فلو كان فيها أكثر من إله لما استقام أمرها وانسجم وأدت وظائفها كما ينبغي وكما هو حاصل.. فتبارك الله رب العالمين أحسن الخالقين.

علاقة المقطع بالمحور

بين الله في هذه الآيات ما أنعمه على الانسان من تسخير الأنعام له في استخدامها لراحته وأخذ غذائه منها وهي حقائق ثابتة لاينكرها إلا جاهل ولذا قال تعالى في آخر الآيات ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ فهو رداً لحجج المشركين وإعجازهم.

الهداية في الآيات:

* إن الرسل تصدق عليهم كلمة الرسل بكل أبعادها فإنهم مبلغون عن الله ليس لهم أن يبلغوا أكثر ولا أقل مما أرسلوا به، حتى معجزاتهم ليس لهم دخل فيها وفي أغلب الأحيان لا يعرفون حقيقتها فإن موسى عليه السلام خاف من عصاه التي جعلها الله حية تسعى.
* وأن الرسول ﷺ لم يستطع أن يخبر عن القرآن أو شيئاً منه إلا بأمر من الله وتقدير في الوقت والموضوع والكمية التي تنزل من القرآن الكريم فلا يتحكم الرسول في موضوع النازل من القرآن ولا كميته ولا وقته.
* وهذا يدفعنا إلى أن نؤمن بأن لا إله إلا الله وأن محمد ﷺ رسول الله وكذا جميع الرسل الذين أخبر عنهم القرآن الكريم، وأن نؤمن أن هناك رسلاً لم يخبر عنهم الباري جل جلاله الرسول ﷺ بهم ولم يذكرهم في القرآن الكريم.

تأكيد على انتصار الدعوة وضرب الأمثال من الواقع والتاريخ

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾.

علاقة المقطع بما قبله

ففي آخر آيات المقطع السابق قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾ وفي هذه الآيات يقول عز وجل إن هذه الدلائل وهذه الحقائق مثبوتة في الكون فلو أنكم نظرتم لما حولكم نظرة عاقل لتيقنتم ان الله عز وجل هو المعبود الحق وهو القادر والفاعل الوحيد في الكون.

التفسير الاجمالي

يعود القرآن للتذكير والتهديد فإن من كانوا قبل العرب أصحاب حضارة وقوة وكثرة

فلما جاءتهم الرسل كذبوهم فجاءهم بأس الله وعذابه وشدة عذابه وأن هذه الآثار تدعو العاقل للإيمان والتصديق بالرسل فإن الفراعنة كانت لهم قوة وسيطرة ونفوذ وآثارهم باقية إلى يومنا هذا ومدائن صالح ومدائن هود شاخصة، ألم تكن هذه كافية ليعتبر العاقل بما جاءت به الرسل.

والخطاب هنا للعرب حينما جاءهم الرسول ﷺ يلفت القرآن الكريم أنظارهم إلى هذه الآثار وهم يعرفونها بأسفارهم إلى الشام والأحاديث التي تأتيهم من مصر.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.. والسؤال استنكاري لأن جوابه معلوم لديهم ولكنهم لا يعتبرون. فإن هذه المدن تدل على قوة ساكنيها

لأن بعضها محفور في الصخر ومنشأ في الجبال وبنظام هندسي عجيب حتى في وصول الماء إليها.

لكنهم حينما كذبوا الرسل لم تمنعهم قوتهم ولا حصونهم من بأس الله فقد كانت عاقبتهم الهلاك والدمار وأصبحت بيوتهم خاوية لم تسكن بعدهم. ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾.. فقد كان العرب أقل الناس حضارة وآثاراً في الأرض وهذه آثارهم قبل الإسلام لم تكن ذات قيمة وخاصة في نجد والحجاز. ﴿ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ فلم تنفعهم تجارتهم ولا كثرتهم ولا حصونهم وبيوتهم التي بنوها في داخل الجبال أو داخل الحصون.

والآية تكررت في السورة مرتين المرة الأولى بعد التهديد والتذكير بأن الله تعالى مهلكهم وأنه سوف يجمعهم يوم القيامة وفيها وصف ليوم القيامة في بعض أحواله وصفاته.

وهنا ذكرها الله بعد تعداد نعمه وآلائه وما سخره للإنسان من سنن كونية وأنعام لتسهيل حياته والعيش على الأرض وقد ذكر الله من السنن والأنعام ما لا يستطيعون جلبها أو تهيئتها كما لا يمكن أن يخلقوا شيئاً ولا أن يخرقوا قانوناً من القوانين التي سخر الله بها الكون.

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم ﴾.. فقد رأوا أن ماجاءت به الرسل أقل مما عندهم من العلم وهكذا فعلماء الدنيا يخيل لهم أنهم يعرفون كل شيء من حيث أنهم لا يعرفون شيئاً ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [الروم: ٧]. وأن الله أودع كونه أسراراً لا يعلمها إلا من أطلعه الله عليها ولكن تكبرهم وإشرهم يخيل لهم أن علوم الرسل ليست بمستوى علومهم فأخذهم الغرور وترفعوا على ما جاءت به الرسل فاستهزؤوا بالرسل وبما جاءوا به ولكن كيدهم كان في نحورهم وأحاط بهم ما كانوا به يستهزءون فكان وبالاً عليهم ولعنة، فلما أخذهم الله بذنوبهم ونالهم العذاب علموا أن الله حق وأن لا إله سواه ولكن هذا الإيمان أما أن يكون إيمان اضطرارا أوإيمان مشاهدة وبناء على ذلك لم ينفعهم إيمانهم لأن الله عز وجل وصف المتقين ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [البقرة: ٣].

وهذه سنة من سنن الله الذي حكم بها الكون إذ أن الإيمان الحق هو الإيمان الذي يختاره صاحبه وهو قادر على مخالفته فيكون فضله في تفضيل الإيمان على الكفر.

ولذلك وفي الآخرة أو عندما يشاهد الانسان الحقائق لا ينفعه إيمانه لأنه كما قلنا إيمان اضطرار. وعليه فقد خسر الكافرون أنفسهم وخسروا عقيدتهم وخسروا مكانتهم التي كانوا يعتزون بها. وهكذا ينتهي الحوار في السورة ويظهر مصير الفرقاء.

علاقة المقطع بالمحور

وبعد ان انتهى الجدال والمحاججة وآمن من فتح الله قلبه لقول الحق وأصر من غلبته شقوته على الباطل الذي هو فيه وحافظ على مركزه الاجتماعي وتكبر على السير في صف المؤمنين بعد بيان هذا جميعا وبعد الصراع المرير وإدلاء كل بحجته يبين الله عز وجل أن المشركين حينما يحشرون سيؤمنون بما جاءت به الرسل ولكن لاينفعهم حينئذٍ إيمانهم.

الهداية في الآيات:

* إن الله جعل طريق الإيمان الصحيح هو التفكر في الكون وتدبر آيات القرآن الكريم.
* فمن صفات العقيدة الإسلامية أن الإنسان كلما تدبر في الآيات وتفكر في الكون زاد إيمانه وقرب يقينه وهذا من فضل الله على المسلمين
* فإن الديانات بعد تحريفها والتي يعتقد بها أصحابها الآن حينما تفكر في حيثياتها تجدها لا يؤمن بها عاقل.

الفهرس

السورة	الصفحة
الروم	١
لقمان	٢٥
السجدة	٤٧
الأحزاب	٦٣
سبأ	١٦٥
فاطر	٢٣٣
يس	٢٩٣
الصافات	٣٣٩
ص	٤٣٧
الزمر	٤٧٣
غافر	٥٢٥



Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com


جامعة الشارقة
UNIVERSITY OF SHARJAH
1997